

المنهج القرآني في مجادلة أهل الكتاب

بحث مقدم لنيل درجة
الدكتوراه في القرآن وعلومه

الشيخ الدكتور / سيد أحمد جمعة سلام

٢٠٠٧/١٤٢٨

مكتبة الإيمان - المنصورة

ت : ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

إهداء

إلى روح والدي رحمه الله

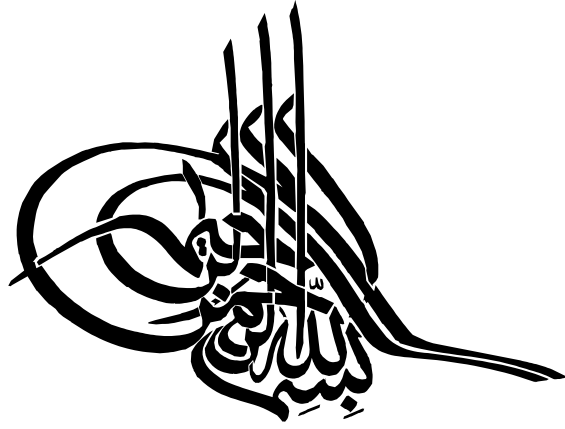
وإلى والدي الكريمة أُمِّهِمُ اللهُ إِلَيْهَا وَحَفَظَهَا
وَرَحَاهَا

وإلى زوجتي وبناتي "فاطمة، أسماء، إيمان، ندى"

أهدي هذا الكتاب

دكتور

سيد أحمد جمعة سلام



{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا
بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلْ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا
وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

المقدمة:

و تشتمل على:

- ١ - أهمية الموضوع
- ٢ - قيمته العلمية
- ٣ - سبب اختياره
- ٤ - منهج إعداد البحث
- ٥ - أهم الصعوبات
- ٦ - شكر وتقدير

* * * * *

١ - أهمية الموضوع:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأشهد أن لا إله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (١)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (٢)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} (٣)

إن الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (٤)

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (٥)

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار الذي يتم من خلاله توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يقود أطرافه إلى فريضة التعارف، ويجنبهم مخاطر جريمة الشقاق والتفرق

وإنما يعالج الحوار قضية الاختلاف من خلال كشفه عن مواطن الاتفاق ومشار

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء/ ١.

(٣) الأحزاب/ ٧٠.

(٤) المائدة/ ٤٨.

(٥) النحل: ٩٢، ٩٣.

الاختلاف؛ لتكون محل النقاش والجدل والتي هي أحسن لمعرفة ما هو أقوم للجميع؛ ولا بد ليؤدي الحوار وظيفته كما يجب من أن ينضبط بمنهج يضمن عدم تحوله إلى مثار جديد للاختلاف

وإذ أرشدنا القرآن إلى أن الاختلاف حقيقة وواقع، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار، فما هو المنهج الذي رسمه القرآن لذلك؟ لقد اعتبر الإسلام الحوار قاعدته الأساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته، وكذا في كل قضايا الخلاف بينه وبين أعدائه، وكما أنه لا مقدسات في التفكير، كذلك لا مقدسات في الحوار، إذ لا يمكن أن يُغلق باب من أبواب المعرفة أمام الإنسان؛ لأنَّ الله جعل ذلك وحده هو الحجة على الإنسان في الطريق الواسع الممتد أمامه في كل المجالات المتصلة بالله والحياة والإنسان

ولقد أصبحت الكرة الأرضية في العصر الحديث أشبه بالقرية، واختصرت فيها المسافات والأوقات، وكثر التواصل بين أهلها بما لم يسبق له نظير، وتوسعت أنواع الحوار عن بعد، الثورة المعلوماتية الهائلة على مستوى وسائل الإعلام والتواصل عن بعد تنافى التلاقح الحضارى بين الشعوب، وحرص كل حضارة على التغلب والاستفادة من أوضاع العالم اليوم علميا وبشريا، يمثل الحوار الدينى مقاما كبيرا فى صراع الحضارات، فهو موجود على صفحات الإنترنت ومؤسسات الأديان، والجامعات وبين الدول، إلى المراكز الإسلامية ودور العبادة وذلك يستدعى معرفة الهدى الإلهى فى مجال الحوار الدينى، وبخاصة مع أهل الكتاب، حتى نقف على المنهج الصحيح الذى ارتضاه الله مسلکاً فى محاورتهم، وأهل ذلك وأساسه هو القرآن الكريم، ومن هنا تأتى أهمية هذا الموضوع

* * * * *

٢ - قيمته العلمية

يقرر بعض المفكرين أن القرآن الكريم ما ادعى دعوى إلا كان له من نفسه عليها دليلاً أي أن القرآن مستغن بذاته عن خارجه وأنه لا شيء في القرآن كدعوى أو منهج أو شعار إلا ومادة القرآن تقدم عليه أمثلة وتطبيقات ونماذج إن القرآن الكريم يدعو إلى الحوار ومن مستلزمات الحوار: الاعتراف بالطرف الآخر وبحقه في التعبير عن رأيه وبحقه في الاختلاف مع الآخر الذي هو الحق الذي هو القرآن

القرآن الكريم يؤسس لهذا ودليلي من اللغة هو فعل قال أو مادة القول باعتبارها مؤشراً لغوياً حاسماً وصارماً على حوارية أي نص وبقدر حضور هذه المادة وبقدر توزعها وتنوعها وبقدر وجود تصريفاتها بقدر ما يكون حظ هذا النص من الحوارية

مادة - ق ول - تتكرر في القرآن ١٧٢٢ مرة هذا رقم كبير ينبغي الوقوف عنده ساعات إن لم أقل دهرًا من الزمان وأكثر من ذلك الحضور الكمي، والحضور الكيفي إذ تنصرف على تسعة وأربعين تصريفاً واشتقاقاً لأنه لو كانت (قال) متصرفة تصريفاً واحداً - قال أو يقول منسوبة إلى الذات الإلهية، قلت أو قلنا أو ما شاء من التصرفات الدالة على جهة المتكلم المتعالي - لما كان هناك أي معنى لاستعمال مادة القول كمؤشر على الحوار فهذا يكون مؤشراً على التلقين وعلى التعالي وعلى الصوت الواحد وعلى الرأي الواحد والفكر الواحد ولكن نجدها متوزعة على تسعة وأربعين اشتقاقاً تتوزع على كل أطراف المقام الحوارية من متكلم ومخاطب ومستمع ومحاور ومقاطع وغائب وحاضر ومذكر ومؤنث ومثنى وجمع

نجد "قال" ٥٢٩ مرة، و"يقولون" ٩٢ مرة، و"قل" ٣٣٢ مرة، و"قولوا" ١٣ مرة، و"قيل" ٤٩ مرة، و"القول" ٥٢ مرة، و"قولهم" ١٢ مرة وأنا أذكر الأرقام كمؤشر على الحوارية عالي الترداد داخل النص القرآني بشكل لافت للنظر

وإذا كان كلام العقلاء منزهاً عن العبث فماذا نقول عن كلام الله؟ إنه الحق المطلق والصواب المطلق ورغم ذلك يكرر حقيقة ١٧٢٢ مرة في حين عندما يكون المنتج للكلام في المقام ذا وزن ثقيل إذا قال الأمر مرة واحدة يأخذ هذا الأمر ثقله ووزنه وهيئته من المقام، من طبيعة المتكلم، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١) ومعنى هذا عندما يستعمل الله تعالى التكرار فالأمر له خطورة والأمر له وزن

(١) سورة الحشر: ٢١.

فالعنصر الأول الذي نريد أن نقف عنده في هذا المؤشر هو هذا الاستحضار الثقيل للرأي الآخر الذي يستغرق تقريباً خمسين بالمائة، أي أن هذا المؤشر الحواري نصفه من كلام الله والصالحين والأنبياء والملائكة والمؤمنين، والنصف الثاني هو للكفار والمشركين والملاحدة والزنادقة والبخلاء والمنهزمين والمعرضين فالقرآن يقاسم الآخر بصدر رحب خمسين بالمائة^(١)

إن القرآن يستعرض الرأي الآخر رغم أنه باطل رغم أنه ضلال رغم أنه خطأ، رغم أنه لا يملك أي حظ من الصوابية مقابل ذلك، في دائرة الحق والباطل يتحرك البشر والمسلمون منهم في دائرة الصواب والخطأ

هل نقرأ القرآن متلقين؟ أم نقرأ القرآن لنخاطب به الآخرين وبالتالي يختلط علينا الأمر أحياناً، ونتخذ في خندق الحق ونجعل الآخر في جانب الباطل، رغم أن الله عز وجل عندما يتكلم يستحضر الآخر وبكل هذا الثقل

فتجد في القرآن كلام الملحد الذين ينكرون وجود الله أصلاً {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّمْرُ} ^(٢)، وكلام اليهود {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} ^(٣)، وكلام النصارى {إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} ^(٤)، وكلام المنافقين المعرضين الذين يفلسفون كل ردائهم وأقل ردائهم رذيلة البخل، يفلسفون بشكل خطير يمكن أن تتطلي شبهتها على الضعاف

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ} ^(٥) شبهة خطيرة يمكن أن تعلق بوردها القرآن دون أن يستحضر أنها يجب أن تباد وتمحى وتقصى؛ لأنها قد تفسد على المسلمين خلق الكرم والاستجابة لأمر الله بالإنفاق وإعطاء الزكاة بناء على حيثية تحايلية تأويلية فاسدة لأن الله هو الذي يغني ويفقر ويرفع ويضع ويوسر ويعسر كما أننا نجد كل الطوائف الفاسدة والآراء الأخرى موجودة داخل النص القرآني وبهذا الحضور

يستحضر القرآن الكريم (الآخر) رغم فساده، فالآخر ليس ضعيفاً وليس مهمشاً ليس كما هي عادة وسائل الإعلام في إدارة الحوار حيث يحكم على طرف سلفاً أن يكون ضعيفاً

(١) لغة الحوار في القرآن الكريم / مقال شبكة فلسطين للحوار (الإنترنت) د. أبو زيد الإدريسي /بتصرف.

(٢) سورة الجاثية: ٢٤.

(٣) المائدة: ٦٤.

(٤) المائدة: ٧٣.

(٥) يس: ٤٧.

للتظاهر بالانفتاح والإنصاف والحوار لتخدير وغسل دماغ المشاهدين بآليات وتمثيلية مزيفة لإظهار أن هناك تعدد في الأصوات فليس في القرآن هذا الأسلوب المتحاييل، بل العكس هناك استحضار للآخر بقوة وبأخلاقياتٍ عاليةٍ جداً، يستحضره دون أن يبتزّه؛ فهناك طريقة لإقصاء الآخر وهي طريقة بليدة ممجوجة هو أن تكتب وتقصي الرأي الآخر وتتكبر أنه موجود، بل وتشوش على دينه وعقيدته، فهذا الإقصاء والحوار من جانب واحد لا يصح

وهناك أسلوب أمكر وأذكى في الإقصاء هو: أن تستحضر الآخر وتبتر كلامه وتشوّهه وتقطعه فالقرآن الكريم يستحضر الآخر استحضاراً كاملاً يعطيه الفرصة الكاملة لكي يتم جملة مفيدة، لكي يتم نصاً كاملاً ليتم فكرة واضحة بكل قوتها

القرآن يسبغ جمالية أدائه البياني وبراعة أسلوبه على الآخر فعندما نقرأ في القرآن وينتقل الكلام من كلام الله بأسلوبه العالي الرفيع لا يحكي عن الآخر بلغة ركيكة وأداء رديء وبيان ضعيف، بل بالعكس إن القرآن الكريم يخلع أداء الجمال البياني على الجميع فتجد تعبير القرآن الكريم عن الآخر أجمل من تعبيره هو، الدهريون يقولون: "إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع" والقرآن يحكي عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، فالتعبير القرآني أبلغ وأجمل لأنه يمنح الآخر فرصة الحضور في التاريخ ويمنحه فرصة الحضور في الجمال، الحضور المعنوي

القرآن يخلد الرأي الآخر لأن القرآن كلام الله، والله وعد بخلوده ولم يستحفظنا إياه كما استحفظ أهل الكتاب وقامت على خدمة النص القرآني جيوش مجيشة من العلماء، من أشرف شيء فيه وهو معانيه إلى الشيء المادي فيه وهو الخط هذا الجيش من العلماء الذي ينقسم على أكثر من ثلاثين تخصص من أجل حماية هذا النص وخدمته يحمي داخل هذا النص الرأي الآخر ويخلده

إن كان من درس نقف عليه بعد هذا الإحصاء لمؤشر الحوار فهو أن القرآن الكريم يريد أن يعطينا درساً في الانفتاح على الرأي الآخر، درساً في قبول حق الرأي الآخر في الوجود وليس صوابيته فالصوابية مجال تدافع فكري ومعرفي قائم على النزاهة أي على طلب الحق وأول شروط النزاهة: أن تترك الآخر لكي يقع تدافع موضوعي بين رأيك ورأيه وإن كان من درس نأخذه من هذا المؤشر الأول فهو أن الإسلام هو عين الإيمان بحرية الفكر، وحرية الرأي الآخر، والإيمان بإفساح المجال للرأي الآخر واحترام الرأي الآخر

فالإسلام يؤمن بقوته الذاتية ويؤمن بأن الحق بذاته يزهق الباطل ﴿لِ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾^(١)

إن للإسلام قوة ذاتية هي قوة الذاتية الكامنة في الحق كما أن الضعف الذاتي كامن في الباطل، ولهذا يستمد الباطل قوته من أشياء خارجة عنه ويستمد الحق قوته من داخله ومن ذاته فقط فالإسلام قوي بما يأتي به من أدلة وما يطرحه من أفكار وقوي بتهافت الرأي الآخر

بل أكثر من ذلك فالإسلام يطرح قوته في سياق التحدي المفتوح القرآن يفتح التحدي في سياق الزمن إلى يوم القيامة ويفتحة على حضارات وعلوم ومعارف واستدلالات قد يتلبسها باطل لا حدود لها كمأ وكيفاً وزماناً ومكاناً إلى يوم القيامة، أي أنه تحدي للتخليد فالرأي الآخر لعله باطل في زمن الصحابة لقوة إيمانهم وانطلاقهم من الحق وردهم للباطل بطريقة إيمانية ففعل قوما آخرين سيجمعون حضارات وعلوم أقوى يستطيعون الاستدلال بها فالقرآن الكريم يقر بهذا الاحتمال ويفتح هذا الحوار إلى ما لا نهاية مع كل من يريد أن يكرر المواجهة من أطراف أخرى وزوايا أخرى لم تكن منظورة ولا موجودة أكثر من ذلك إن ذلك التحدي يصل إلى مقام الإيمان نفسه إن هذا الكلام يتعبد به فتصير من عبادتنا أن نفسح المجال للرأي الآخر وأن نعطيهِ فرصة لأن يبقى حاضراً حضوراً تاريخياً ومعرفياً في الزمان والمكان إلى قيام الساعة

وأريد أن أنتقل من النسق النظري في القرآن الكريم إلى التطبيق التاريخي لأن البعد التطبيقي يعطي للجانب النظري معناه ويرسخه أكثر في النفس

الرسول ﷺ أعطى دروساً لمن بعده من جيل الصحابة وأنا أسجل لقطة واحدة أسميها مدرسة (أو قد فرغت يا أبا الوليد) فالنبي ﷺ أرسل إليه المشركون الوليد بن المغيرة لكي يزوده عن اختياره بتبليغ الرسالة ويصرفه إلى قناعة أخرى وحلول وسطية علها تحل الإشكال داخل البيت المكي دون تفجير من الداخل جاء الرجل يتكلم بلغة مؤدبة عالية ويعرض بطريقة سلمية عروض سخية، يا محمد إني وافد قريش إليك إن كنت مريضاً طلبنا لك دواء، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من حر مالنا حتى ترضى، وإن كنت تريد النساء زوجناك حسان بناتنا وهذا الكلام يبدو في ظاهره مؤدباً ويبدو عرضاً لخيارات واحتمالات فيها شيء من النسبية والإيمان

بوجود احتمالات أمام هذه الحالة، ولكنه في العمق هو عين الإقصاء ليس فيه فتح لمجال الحوار الحقيقي وليس فيه أدب وهو في العمق عين استهزاء

كما لو أنه يقول للرسول بالعبارة الصريحة: إما أنك وصولي أو انتهازني أو مجنون أو شهواني، يضعه أمامه أربعة احتمالات لا أخلاقية ولم يذكر له احتمالاً خامساً، وإن كنت نبياً فأعطنا دليلك أو نتحاور أو فالتنوع الذي طرحه كان تنوعاً مغلوطاً أو تنوعاً شكلياً مثل تنوع الغربيين اليوم وحوارهم معنا، هو تنوع على إيقاع واحد واحتمال واحد وهو أنك باطل وهو إقصاء في الحقيقة لأنه اتهام بأحط ما يمكن أن يركب الإنسان من أجله الأخطار، وفيه إقصاء حقيقي لمصادقية الرسول ﷺ فرأسماله الحقيقي هو صدقه مع نفسه وهو استفزاز حقيقي، ولو أن واحداً منا تعرض له فقد لا يملك إلا أن يكوّم يده ثم تطير أضراس المخاطب

فليست العظمة في أن النبي ﷺ تحمل هذا الكلام وليست العظمة فقط في أنه تركه ينتهي، فأقصى ما يمكن للواحد منا إن كان متحلياً بروح حضارية أن يترك الآخر حتى يكمل فنحن نقاطع بعضنا بعضاً ولكن النبي ﷺ وصل إلى ذروة ما يحلم به المحاور الحضاري وهو أن يكمل الآخر رأيته دون أن يقاطعه، دون أن يستفزّه، ولكن يزيد شيئاً ملائكياً غير موجود عند البشر بل هو موجود عند الأنبياء فيقول له (أو قد فرغت يا أبي الوليد) يعني هل عندك شيئاً آخر تضيفه؟ هل تريد فرصة أخرى في الحوار؟ قال: نعم قال: فاسمع، ثم تلا عليه سورة من القرآن

فمدرسة (أو قد فرغت يا أبي الوليد) مدرسة تبين لنا أن الفهم السطحي الذي عندنا من حمل الحق والحماس له غير صحيح

و نحن من فرط إيماننا بالحق نتعصب له وننفعل ونقاطع ونلقن ونرفع الصوت ونتعالى ونتهجم على الآخر وإن أقررنا أنها عيوب بررناها أنها من طبيعة الإنسان المؤمن الحق، فإن وجدنا شخصاً ليناً هادئاً ساكناً مفسحاً المجال للآخر، اعتقدناه ضعفاً في يقينه أو ضعفاً في صحة موقفه وموقف النبي ﷺ يبين شيئاً عظيماً جداً أن الحماس الذي يخرج عن آداب الحوار الفكرية والأخلاقية ليس قريناً لليقين الكامل في الحق، فالذي قال: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أدع هذا الأمر أو أهلك دونه» هو نفسه ترك الرجل حتى أكمل، وما انفعَل ثم أعطاه فرصة جديدة، ثم أجابه بهدوء^(١)

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق/٢٤.

أن الله سبحانه وتعالى عندما أمر إبليس بالسجود، فأبى إبليس واستكبر إلى نهاية القصة، حتما إنكم عندما تقرأون آيات الخطاب مع إبليس تقرأون قصة حوار، حوار الخالق الله سبحانه مع مخلوقه وهو إبليس عليه اللعنة انظرو وبقوة، ماذا تستنتجون؟

- ١ - لم يدخل الله سبحانه وتعالى إبليس إلى النار إلا بعد إتمام هذا الحوار
 - ٢ - الله سبحانه وتعالى قد تحاور مع أحد مخلوقاته، وهذا أعجب ما فى الأمر
 - ٣ - يفهم من الحوار أن الله سبحانه قد أطلق العنان إلى إبليس بل قال له ما يفهم منه أنه سيبعث الأنبياء والصديقين إلى الناس لهدايتهم مقابل بعث إبليس شياطينه وأعوانه إلى البشر لغوايتهم
 - ٤ - إن مبدأ الإقصاء قد تلاشى فى هذا الحوار وحل محله الحوار مع الرأي الآخر
- لقد كنت من المتابعين مؤخرا لبعض الحوارات وخصوصا مع بعض أهل الكتاب وهي تتسم بالعدوانية والاستعلاء على الآخرين بل وإقصاء آرائهم، دخل الحس الطائفي فيها، بل العصبية القبلية وبدواة العقل فأصبحنا ننطلق من كهفا لا من حضارة دون ان نعي ذلك، يجب وأكرر يجب أن نفهم حقيقة واحدة وهي: أن هناك فى هذا الكون أناس مختلفين فى آرائهم معنا فيجب علينا احترامهم وتقديرهم مادام الأمر فى حدود الأدب والأخلاق الإسلامية، لا أعرف ماذا سيفعل البعض عندما يحاور أناس غربيون لا يؤمنون بالخالق بل بالعقل فقط، هل سنكفرهم ونلعنهم ونكيل لهم الشتائم والسباب بل ونستدرجهم إلى الهاوية للقضاء عليهم أم أننا سنفتح معهم بابا للحوار فى وحدانية الله سبحانه، إن كنا مسلمين لا نتقن أسس الحوار مع من هم من أبناء جلدتنا فكيف سنتقن الحوار مع من يعد من أعدائنا (وهم ليسوا بأعدائنا)، ما ستسمعه من المفكرين الغربيين يعد كفرا وزندقة عند البعض بل ويجب قتلهم حالا لآرائهم المنحرفة ولكن القرآن يأمركم بالحوار معهم أين شعار الحوار، لماذا حل محله الصراع والقتل والدمار؟

وتعود قيمة الموضوع العلمية من حيث المضمون إلى أنه ينهل من الوحي المعصوم مباشرة، ويستند إلى المصدر الأول للتشريع والتقرير والتقيد على مستوى العقيدة وأحكام العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها

فلا أقرر شيئا إلا بدليله من كتاب الله تعالى أو سنة صحيحة للنبي ﷺ مما يضى

على البحث التأصيل الشرعى المطلوب فى هذا الموضوع الحيوى الحساس

أما قيمة الموضوع من حيث الهدف فتعود إلى أمور أهمها:

- ١ - إظهار سماحة الإسلام
- ٢ - تعريف إخواننا المسلمين كيفية معاملة أهل الكتاب
- ٣ - إظهار أن الإسلام لم يفرض بالقوة على أهل الكتاب، وأن الرسول ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً بما فيهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى)
- ٤ - إن الرسول ﷺ دعا أهل الكتاب دعوة عامة مع جميع الناس ثم دعاهم بعد ذلك دعوة خاصة بجميع أساليب الدعوة لدخولهم الإسلام
- ٥ - تنوع أساليبه ﷺ مع أهل الكتاب لدخولهم الإسلام يدل على حرصه وصدق النية وصدق العزم معهم
- ٦ - إظهار أن الرسول ﷺ لم يدخل الناس في الإسلام عن طريق القوة
- ٧ - مساعدة أهل الكتاب على فهم مراد الله تعالى فيهم
- ٨ - إبطال الشبهات التى يبيتها بعض الناس حول علاقة الإسلام والمسلمين بأهل الكتاب عبر التاريخ، تلك العلاقة التى تمتاز بالعدل والإحسان والتكريم
- ٩ - إقامة الحجة: الغاية من الحوار إقامة الحجة ودفع الشبهة والفساد من القول والرأي والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق
- ١٠ - الدعوة: الحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)
- ١١ - تقريب وجهات النظر: من ثمرات الحوار تضيق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف في زمن كثر فيه التباغض والتناحر
- ١٢ - كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢)

* * * * *

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الأنعام: ٥٥.

٣ - سبب اختياره

هل الحوار يهدف إلى استدراج المسلمين ليتنازلوا عن بعض قواعد دينهم أو تحويلها أو زعزعة إيمانهم بأن الإسلام كما أنزل على محمد ﷺ هو الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره؟!!

هذا الحوار أرفضه ويرفضه الإسلام!

فإذن لماذا الحوار؟! وهل هناك حوار يقبله الإسلام؟!!

نعم! هنالك حوار جادّ واجب على المسلم أن ينهض إليه لأنه تكليف من عند الله إنه حوار لتبليغ رسالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ دون تحريف ولا تبديل ولا تنازل إلى الناس كافة، وقد حفظ الله هذا الدين الحق وتعهّد بحفظه وحفظ نصوصه حتى يُغلق باب التحريف الذي حصل عند اليهود والنصارى، كما نصّ على ذلك القرآن

نحن أمة نحمل أمانة نوفي بها عبادةً خلّفتنا لها، ونوفي خلافةً جُعِلت لنا، وبهذه الأمانة والعبادة والخلافة أمرنا بعمارة الأرض بحضارة الإيمان والتوحيد بدلاً من الحضارة المادية، حضارة الإيمان والتوحيد التي توفّر كل معاني النمو والقوة في عبادة صادقة لله

وأصبحت هذه المهمة مسؤولية الأمة المسلمة التي أخرجها الله لتكون خير أمةٍ أخرجت للناس لتحمل خير رسالة للبشريّة كلها وعندما يتخلّى الإنسان عن هذه الأمانة يصبح ظلوماً جهولاً ويصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً

إن الوفاء بهذه المهمة والأمانة هي القاعدة التي تحدّد علاقة المسلمين بغيرهم

ولا نجد في القرآن والسنة والسيرة إلا حواراً حول الدعوة والبلاغ والبيان وللإيجاز أشير إلى بعض الآيات الحاسمة في ذلك: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (١)

وقوله تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ

حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١)

وقوله تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ^(٢)

وقوله تعالى: {وَلَا تُحَادِّثُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُضْطَلُّونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(٣)

وآيات وأحاديث كثيرة تبين هذه الحقيقة فنجد الحوار واضحاً حاسماً، حتى إذا انتهى

(١) آل عمران: ٥٨ - ٧١.

(٢) المائدة: ٦٧ - ٧٧.

(٣) العنكبوت: ٤٦ - ٥٢.

يأتي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أو قوله سبحانه وتعالى: " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ " ! ففي ميزان الإسلام لا يوجد عند الله إلا دين واحد، مهما ادعى الناس من ديانات فالأنبياء والمرسلون كلهم ومن آمن بهم وتبعهم كانوا مسلمين مؤمنين بهذا الدين الحق الواحد، وجاءت الآيات الكريمة تنصّ على ذلك، وتنصّ على أن الدين عند الله الإسلام، وأن الله لا يقبل من أحد إلا الإسلام فهذا هو دين نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وسائر الأنبياء

نعم للحوار الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم!

نعم للحوار الذي يسعى بأن تكون كلمة الله هي العليا!

نعم للحوار الذي يبلغ الحق من عند الله ولا يتنازل عن شيء منه ولا يقترب من الباطل ولنذكر بعض الآيات الكريمة لتذكرنا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(١) ﴿وَلَا تَزُكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾^(٢)

ومن معالم المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة إلى الله: الجدل بالتي هي أحسن ومن الملاحظ على التعبير القرآني المعجز في الآية أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون (حسنة)، ولكنه لم يكتف في الجدل إلا أن يكون بالتي هي (أحسن)؛ لأن الموعظة تكون مع الموافقين،

أما الجدل فيكون مع المخالفين، لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن، على معنى أنه لو كانت هناك للجدل والحوار طريقتان: طريقة حسنة وجيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، كان المسلم الداعية مأموراً أن يحاور مخالفه بالطريقة التي هي أحسن وأجود

ولقد كان وجودى فى أمريكا لعدة سنوات إماماً لمجموعة من المراكز الإسلامية سببا جعلنى أعيش كثيراً من مناسبات الحوار والتواصل بين المسلمين وأهل الكتاب، وقد ازداد ذلك بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وهالنى ما لاحظته من القصور والتقصير لدى الطرفين، فأهل الكتاب يجهلون مكانة التكريم التى جعلهم فيها الإسلام، ولا يريدون بذل الجهد لفهمها، ويقتصرون على ترديد جملة من الشبهات والأباطيل التى لا أساس لها من

(١) هود: ١١٢.

(٢) هود: ١١٣.

الصحة، ويغلب على كثير منهم طريقة الهجوم التي لاطائل من ورائها
أما المسلمون في الغرب فغالبيتهم العظمى، يفتقدون إلى العلم الشرعى الكافى لإقامة
الحجة، ولا يملكون المؤهلات الكافية لدخول هذا الحوار بنجاح لجهلهم بأسسه العلمية
وأصوله الشرعية وحيثياته التاريخية

ولهذا فما أن إقترح على فضيلة رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور الحسين بن محمد
شواط هذا الموضوع الحيوى المهم حتى سارعت بقبوله، وشمرت عن جانب الجد فى
إنجازه، سائلا المولى الكريم كمال العون وتمام التوفيق، وأن ينفعنى به والمسلمين، وأن
يجعله سببا فى إزالة كثير من التوتر فى علاقتهم مع أهل الكتاب، وأن يساعد أهل
الكتاب كذلك فى رؤية الحق وإنصاف المسلمين

* * * * *

٤ - منهج إعداد البحث

وتحقيقاً لما تقدم من أهداف وغايات، فقد جعلت هذا البحث المبارك مكوناً من مقدمة وثلاثة أبواب:

المقدمة وتشمل:

- ١- أهمية الموضوع
 - ٢- قيمته العلمية ٣- سبب اختياره
 - ٤- منهج إعداد البحث
 - ٥- أهم الصعوبات
 - ٦- شكر وتقدير
- (تمهيد): ثم مهدت للبحث بتمهيد بسيط ومنه انتقلت إلى موضوع البحث كالآتي:

الباب الأول : ويحتوي على فصلين كالآتي:

الفصل الأول : أسس مشروعية الحوار وأحكامه في القرآن ويحتوي على عدة مباحث

ومطالب، وهي كالآتي:

- ١ - الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح
- ٢ - هدف الحوار
- ٣ - صدام الحوارات
- ٤ - قضايا لا يجوز الحوار فيها
- ٥ - مؤهلات المحاور المسلم
- ٦ - آداب الحوار وقواعد الاختلاف
- ٧ - الأصول والقواعد الرئيسية التي تضبط مسار الحوار
- ٨ - آداب الحوار النفسية
- ٩ - آداب الحوار العلمية
- ١٠ - آداب الحوار
- ١١ - بعض عوائق الحوار
- ١٢ - وسطية الإسلام ودعوته للحوار
- ١٣ - مجالات الحوار
- ١٤ - دعوة القرآن والسنة إلى الحوار
- ١٥ - نماذج من الحوار من القرآن والسنة وسير الصحابة رضي الله عنهم

الفصل الثاني: يحتوي على عدة مباحث ومطالب، وهي كالآتي:

- ١ - أنواع الجدل الممدوح والجدل المذموم
- ٢ - أنواع الاختلاف وأسبابه

- ٣ - الحكمة في الدعوة والجدال بالتى هى أحسن من معالم الحكمة ، الدعوة ومعالم الحكمة فى أساليب الدعوة
- ٤ - أخلاق الدعوة
- ٥ - فضائل لا بد للداعية التحلي بها
- ٦ - أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب
- ٧ - دعاة التقريب بين الأديان
- ٨ - دعاة العصرية (العولمة العصرية للدعوة)
- ٩ - المتصدون للواقع من الدعوة والمفكرين
- ١٠ - أنواع المجادلين والمحاوئين من أهل الكتاب
- ١١ - مشروعية مجادلة أهل الكتاب بالقرآن والسنة وأدلتها
- أ - غشيانهم في محافلهم ومجتمعاتهم لدعوتهم إلى الإسلام
- ب - الكتابة لملوكهم ورؤسائهم واستقبال وفودهم ثم التعريف بالإسلام لدى مؤسساته

الباب الثاني : تفاصيل المنهج القرآني فى حوار ومجادلة أهل الكتاب ويحتوى

على خمسة فصول:

ويتضمن الدروس والعبر وشرح تحليلي للآيات ذات العلاقة بالموضوع

الفصل الأول : فى مجال العقيدة المبحث الأول :

- ١ - مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن
- ٢ - مواقف اليهود من الكتب والرسل والأنبياء
- ٣ - عبادة العجل عند اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل
- ٤ - كفر اليهود بالقرآن ونقضهم العهد واشتغالهم بالسحر
- ٥ - تذكير اليهود بنعم الله عليهم لعلهم يخافوا الآخرة
- ٦ - اتباع ملة إبراهيم عليه السلام
- ٧ - صبغة الله شريعته وسنته وفطرته
- ٨ - حكمة تحويل القبلة

المبحث الثانى:

- ١ - صفات الله وإنزال الكتب الإلهية
- ٢ - الشهادة بوجود الله ووحدانيته وأحقية دينه
- ٣ - جزاء قتل الأنبياء
- ٤ - قصة عيسى عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته
- ٥ - عيسى عليه السلام مع قومه
- ٦ - دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم
- ٧ - إحقاق الحق وإبطال الشرك
- ٨ - الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف
- ٩ - أصناف الكفار

المبحث الثالث:

- ١ - تحريف الكتب الإلهية وإهمال الهداية
- ٢ - أوصاف المسيح عليه السلام في القرآن
- ٣ - مقاصد القرآن والرسالة النبوية
- ٤ - التذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السلام
- ٥ - مائدة عيسى عليه السلام
- ٦ - الألوهية والربوبية لله تعالى
- ٧ - خصائص القرآن والتوراة
- ٨ - اتباع ملة إبراهيم عليه السلام
- ٩ - تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام
- ١٠ - ألوان التهديد والعقاب لبني إسرائيل

المبحث الرابع:

- ١ - عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام
- ٢ - مقاصد القرآن وشرائعه
- ٣ - الإسلام دين الحق
- ٤ - موقف أهل الكتاب والمشركين من نبوة محمد ﷺ
- ٥ - النهي عن تعدد الآلهة
- ٦ - وعيد المكذبين للرسول
- ٧ - اتباع ملة إبراهيم
- ٨ - حقيقة عيسى عليه السلام
- ٩ - نسبة الولد إلى الله تعالى
- ١٠ - عبادة اليهود العجل

المبحث الخامس

ويتضمن هذه المطالب:

- ١ - جزاء المعرضين عن القرآن
- ٢ - مساوئ القول بتعدد الآلهة
- ٣ - عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات
- ٤ - أدلة توحيد الله تعالى
- ٥ - وحدة الأديان السماوية
- ٦ - نفي اتخاذ الله ولدا (سبحانه وتعالى)
- ٧ - القرآن والنبوة
- ٨ - المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب
- ٩ - الإسلام دين الفطرة والتوحيد
- ١٠ - أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها
- ١١ - وحدة أصول الشرائع
- ١٢ - بشارة عيسى بالرسول ﷺ
- ١٣ - التوحيد والتنزيه لله تعالى

الفصل الثاني في مجال العبادات، ويتضمن عدة مباحث ومطالب:

المبحث الأول:

- ١ - الأمر بذبح البقرة
- ٢ - التلاعب بالدين
- ٣ - ادعاء النجاة في الآخرة
- ٤ - مولاة غير المؤمنين

المبحث الثاني:

١ - المقارنة بين المحرمات في شريعتنا وشريعة اليهود

الفصل الثالث في مجال المعاملات ويتضمن الآتي:

المبحث الأول:

- ١ - تناقضات اليهود وأكاذيبهم
- ٢ - مخالفات اليهود ومتناقضاتهم
- ٣ - موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا
- ٤ - تخريب المساجد وهدمها وآداب الخطاب
- ٥ - جزاء كتمان آيات الله عز وجل
- ٦ - موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من طاعتهم
- ٧ - المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتائيات
- ٨ - نقض أهل الكتاب الموثيق والعهود الدينية
- ٩ - العلاقة مع غير المؤمنين

الفصل الرابع في مجال الأخلاق والآداب ويتضمن عدة مباحث ومطالب:

المبحث الأول:

- ١ - بعض قبائح اليهود وجزأؤهم
- ٢ - مؤمنو أهل الكتاب
- ٣ - تعنت اليهود
- ٤ - بعض أوصاف اليهود
- ٥ - علاقة أهل الكتاب برسلمهم
- ٦ - علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين
- ٧ - إفساد الإسرائيليين وتشريدتهم في الأرض مرتين

المبحث الثانى ويتضمن الآتى:

- ١ - الأسلوب الأفضل فى الجدل
- ٢ - صفات المجادلين بالباطل
- ٣ - مجادلة أهل الكتاب
- ٤ - النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق مع أهل الكتاب وغيرهم
- ٥ - الفصل فى شأن المشركين وأهل الكتاب

الفصل الخامس : ويتضمن الآتى:

- ١ - منهج القرآن فى مجادلة أهل الكتاب
 - ٢ - أسلوب القرآن فى مجادلة أهل الكتاب
- الباب الثالث** : الحوار مع أهل الكتاب فى العصر الحديث ويتضمن فصلين:
- الفصل الأول** : الحوار وسماحة الإسلام فى التعامل مع غير المسلمين
- المبحث الأول** يشمل على:

- ١ - شروط الحوار والجدال مع أهل الكتاب
- ٢ - استقامة المسلم وتخلقه بأخلاق الإسلام
- ٣ - شروط المحاور الكتابي

المبحث الثانى يشمل على:

- ١ - موضوعات الحوار أو الجدل مع أهل الكتاب
- ٢ - محاوراة أهل الكتاب بين مجاف ومغال
- ٣ - سماحة الإسلام فى التعامل مع غير المسلمين

المبحث الثالث ويشمل على:

- ١ - سماحة النبي ﷺ في معاملة غير المسلمين
- ٢ - صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين
- ٣ - سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين
- ٤ - مشاركة أهل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية
- ٥ - صوراً من الواقع في هذا العصر بين المسلمين وأهل الكتاب

الفصل الثاني: الإرهاب وأثر الإيمان بشريعة الإسلام في علاج هذه الظاهرة الغريبة

على المسلمين:

المبحث الأول:

- ١ - معنى الإرهاب

المبحث الثاني:

- ١ - أثر الإيمان بالله وشريعته في علاج الإرهاب

ثم بعد هذا العرض المبارك بإذن الله تعالى لمنهج إعداد وتقديم هذا البحث بهذه الصورة وما تضمن من أبواب وفصول متضمنة عدة مباحث ومطالب، تكلمت عن أهم نتائج البحث، وخاتمة الكتاب، ومحتوياته وما تضمنت من فهرس آيات القرآن، وفهرس الأحاديث النبوية، ثم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إعداد هذا البحث المتواضع، ثم فهرس الموضوعات

والذي أسأل الله عز وجل أن يتقبله مني وينفع به المسلمين وأن يثقل به موازيننا
أجمعين اللهم آمين

* * * * *

٥ - أهم الصعوبات :

أما عن أهم الصعوبات، دائما وأبداً ليس كل ما يطلب ينال، ولكن الجد والاجتهاد والصبر والمصابرة من أهم مطالب النجاح، وخصوصاً في طلب العلم الذي يبتغى به وجه الله تعالى، ولأن المراد الجنة، وهي المقصد؛ فلا بد أن نعمل لها ونشمر، وكما قلت في قصيدتي الموسومة بعنوان (أما والله):

أما والله لو علم الأنام :: لما خلّقوا ما هجعوا وما ناموا

فهل بعد الممات ثم القبر :: نعمل لدنيا عبيد فيها قد تفانوا

أما والله لو علم الأنام بأن :: الدنيا دنيا لصلوا ثم صلوا ثم صاموا

وكما قال ﷺ : «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»، في سبيل هذا المقصد، نسأله عز وجل أن يجعلنا من أهل الجنان، وأن يذلل لنا الصعاب لنيل رضاه، والفوز بالفردوس الأعلى، آمين

* * * * *

٦ - شكر وتقدير

أخص بالشكر أستاذي الدكتور الحسين شواط لما أمدني به من نصائح وإرشادات خلال إعدادي لهذا الموضوع ونسأل الله أن ينفع به وبعلمه، وكذلك الهيئة الإدارية وشؤون الطلاب بالجامعة الأمريكية العالمية ببارك الله فيهم وأحسن إليهم

و كما أخص بالشكر زوجتي الكريمة التي أسأل الله أن يجزيها عني وعن أبنائي خير الجزاء آمين يا رب العالمين

* * * * *

تمهيد

إن الرسول ﷺ، يختار في تعليمه من الأساليب أحسنها وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطب وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدها تثبيتاً للعلم في ذهن المخاطب، وكان النبي ﷺ، يلوّن الحديث لأصحابه ألواناً كثيرة، فتارة يكون سائلاً وتارة يكون مجيباً، وتارة يجيب السائل بقدر سؤاله، ويزيد على ما سأل، وتارة يضرب المثل لمن يريد تعليمه، وتارة يصحب كلامه القسم بالله تعالى ليؤكد ما يقوله، وتارة يلفت السائل عن سؤاله لحكمة بالغة منه، وتارة يعلم بطريق الكتابة، وتارة بطريق الرسم، وتارة بطريق التشبيه أو التصريح

و كان رسول الله ﷺ يورد الشبهة ليذكر جوابها، وتارة يسلك سبيل المداعبة والمحاكاة فيما يعلمه، وتارة يمهد لما يشاء تعليمه وبيانه تمهيداً لطيفاً لما يريد بيانه، وتارة يسلك سبيل المقايضة بين الأشياء، وتارة يشير إلى عللها لذكر جوابها، وتارة يسأل أصحابه وهو يعلم ليمتحنهم بذلك، وتارة يسألهم ليرشدتهم إلى موضع الجواب، وتارة يلقي إليهم العلم قبل السؤال

إن دعوة غير المسلمين وخاصة أهل الكتاب يجب أن تكون مؤثرة وبأساليب متعددة، لأن بعض الناس قد لا يستجيب للدعوة إلا أن يرى شيئاً عظيماً يجعله يقف مبهوراً معجباً، شيئاً يشده إلى الإسلام شداً ويجعله يعيد حساباته

إن ملكة سبأ كانت تعبد الشمس هي وقومها عندما دعاها سليمان عليه السلام إلى الإسلام، ولكنها أبّت إلا أن تنقاد مع اعترافها بضعفها أمام قوة سليمان وجنوده، ولكن عندما دخلت الصرح وحسبته لجة: {قَالَتْ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١)

لقد عرضت عليها مظاهر القوة الخارقة لتؤثر على قلبها وتقودها إلى الإيمان و لكن في الإسلام ليس الأصل هو المعجزات المادية، وإن جاءت عفواً وإكراماً فلا بأس وكان ﷺ لا يعتمد في دعوته إلى الله على المعجزات المادية، بل على معجزة القرآن فقط

إن الرسول ﷺ اتخذ أساليباً متعددة مع أهل الكتاب في دعوتهم للدخول في الإسلام، وقد شملت دعوته، الدعوة باللسان حيث أقام الأدلة القاطعة على إرساله لهم، وأقام عليهم الحجة حين حاولوا غير مرة تعجيزه بأسئلة يوجهونها إليه ويجيبهم فيها وفق أسئلتهم وكان ﷺ تارة يرغبهم في الإسلام ويبين لهم محاسنه، وتارة يرهبهم ويحذرهم

وكان من جملة أساليبه ﷺ في دعوته أهل الكتاب أنه ﷺ دعاهم دعوة خاصة، وكان يظهر لهم حلمه وصفحه ويظهر لهم المعجزة، ويعرفهم موافقة القرآن لما في التوراة، وموافقة أهل الكتاب فيما ليس فيه نص، وإباحته ذبائح أهل الكتاب ونسائهم، وقبول الهدية من أهل الكتاب، ووصيته ﷺ على أهل الذمة، وإخبار اليهود بما ينتظرهم من عذاب

لا تعطِ أحداً فرصة للحديث، تكلم دون انقطاع، إذا حضرت لك فكرة وخصمك يتحدث فلا تنتظر حتى يُتم حديثه فهو ليس ذكياً مثلك، اقتحم عليه الحديث واطرح ما لديك

كلمة أطلقها كارنيجي في كتابه (كيف تؤثر في الناس وتكسب الأصدقاء)

إفحام الخصم، الجدل من أجل الجدل، ومصادرة رأي الخصم وإحراجه والسخرية منه، والانتصار عليه، هذه هي أهداف الجدل والمناظرة في نظر كارنيجي ومنهج في الحوار والجدل

المقارنة هنا تتلشى بل لا مجال للمقارنة مع ما يقرره القرآن الكريم من منهج متكامل للحوار والجدل، فلماذا يخصص القرآن الكريم الحوار والجدل بمساحة كبرى من آياته، أليس في ذلك صورة من صور المواجهة الحية للعقبات والمعوقات التي تحول دون بناء الغاية العقيدية لهذه النفس البشرية؟ ألا ترى في حوارات القرآن الكريم أصالة لرؤية إسلامية تجعل الجدل والحوار منهجاً من مناهج المعرفة وطريقاً لإدراك الحق؟

إن الحوار والجدل والمناظرة تأتي كل منها لتعبر عن معنى مختلف عن معنى غيرها، فالحوار معناه مراجعة الكلام وتبادلته بين المتحاورين وصولاً إلى غاية، وهو غالباً يجري بين اثنين ليس بينهما صراع ابتداءً، وقد وردت كلمة حوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع اثنان في سورة الكهف في معرض الحديث عن قصة صاحب

الجنيتين وحواره مع صاحبه الذي لا يملك الكثير من المال:

{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}^(١)

أما الآية الثالثة التي وردت فيها هذه الكلمة ففي سورة المجادلة في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله:

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}^(٢)

والحوار في الآيات السابقة ينحو نحواً إيجابياً لإحقاق الحق وإبطال الباطل، والآيات تقرر أن الطرفين المتحاورين ليسا عدوين ابتداءً (قال لصاحبه)، وصيغة (يحاوره) و(تحاوركما) تقتضي المشاركة من الطرفين في هذا النقاش والحوار وأن كلا منهما يسمع للآخر دون مصادرة أو قصدٍ لمجرد الإفحام والملاحظ أن الطرف المؤمن في هذا الحوار على درجة من الوعي الديني واليقين والثبات والعلم:

{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}^(٣)

وهكذا ينبغي أن يكون المحاور المسلم اليوم، على درجة عالية من اليقين والعلم حتى لا يُخدَل الحق على يديه، في عالمٍ متخفٍ بالنظريات والفلسفات والعقائد الفاسدة التي جُدد لها المئات من المفكرين والدعاة المدججين بأقوى أسلحة الدعوة التي تجعل الباطل في أعين الناس حقاً

وأما الجدل والجدال فقد ذكرت مادة (الجدل) في القرآن الكريم في عدة مقامات وبصيغ مختلفة متنوعة وبمضامين متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً تضمنتها سبع وعشرون آية في ست عشرة سورة، وإذا نظرنا إلى هذه المواضع في القرآن لرأينا أن العهد المكي خُصَّ بسبع عشرة آية تعرضت لذكر الجدل، ولعلَّ طبيعة المرحلة، وما تميزت به من مقاصد أساسية تستلزم ذلك فضلاً عن عوائق معنوية تقتضي عقد المناظرات

(١) الكهف: ٣٧.

(٢) المجادلة: ٢.

(٣) الكهف: ٣٧.

والمناقشات والمحاورات لإقامة الحجّة ونصب الدليل

ولهذا، كان هذا الجدل الإسلامي في بداية الدعوة قائماً على الحوار المباشر الذي ينطلق من طرح الفكرة في ميدان الصراع، وقد طرح القرآن الكريم جدال الإنسان وحواره الذاتي مع نفسه إلى جانب جداله مع مجتمعه، ومع الفئات التي كانت القوة المعارضة آنذاك، وقد خلد القرآن كل ما أثير من مفردات الجدل حول العقيدة من أجل استمرار الإحياء بضرورة استعمال الأسلوب ذاته في حركة العقيدة والحياة

وأكثر ما جاء لفظ الجدل في القرآن للجدل المذموم كقوله تعالى:

{وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} ^(١)

وهذا الجدل مجرد قدرة كلامية وبراعة في اللجاجة ولا طائل من ورائه، وأما الجدل المحمود فقد ورد في ثلاثة مواضع من القرآن وهي:

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (٢)

وقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (٣)

وقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} (٤)

والجدال بالتّي هي أحسن هو مرادف للحوار الإيجابي البناء، وهو حوار يؤتي أكله في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وترسيخ الغاية العقيدية ضمن أصول ينطلق منها المتحاورون ومرجعية تكون الفيصل في الرجوع عند الخلاف

ولذلك أمر النبي ﷺ في آية سورة النحل بالمجادلة بالتي هي أحسن أي بالحوار الإيجابي، على أن يبدأ بالدعوة عن طريق الحكمة، ومن الحكمة الدعوة بالعلم والبدء بالأهم فالأهم، فإذا لم يخضع المحاور للحق، فينقل إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه الحق فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أدعى للاستجابة عقلاً ونقلًا، ويكون

(۱) غافر: ۵.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) النحل: ١٢٥.

(٤) المجادلة: ١.

المقصود من هذا الحوار هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها

منهج له غايته ومقاصده:

ألحَّ القرآن الكريم على الجدال بالتي هي أحسن ليكون ذلك منهجاً يؤصل عليه إيمان و يقين ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ والقرآن الكريم يدعو العصبية المؤمنة إلى أن تكون قوية في حوارها وفي مجادلة الآخر، قوية أمام ما يثار من شبهة ﴿لَيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، فالمنهج الإسلامي في الحوار والجدال يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بلا حجة ولا مسؤولية إلا بعد إقامتها وفي الوقت ذاته فإن القرآن ومن خلال آيات الجدال يقرر أن الجدل منزعٌ جبليٌّ وأنه من خصائص الإنسان ومميزاته، فالقرآن يصرح بذلك، وأن الإنسان أكثر الأشياء جدلاً

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١)

فالإنسان بما له من استعدادات ذهنية وملكات إدراكية وبما له من نوازع ذاتية، وميول نفعية كان أكثر الكائنات جدلاً، وإذا كانت مدارك الناس متفاوتة متفاضلة كان الجدال بالتي هي أحسن ضرورياً فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية، ومنهم من يصدق بالحكمة، ومنهم من يصدق بالموعة الحسنة وغير ذلك، وإذا كان الجدال عرفاً قائماً على المشادة الكلامية والفكرية وتحقيق الغلبة، فإن القرآن يرسم منهجاً هادئاً في الجدل غايته هداية الخلق وليس الانتصار والمغالبة ونحوها

وإذا تتبعنا مواضع الحوار النبوي في مسيرة الدعوة الإسلامية لرأيناه حواراً يسير وفق هذا المنهج القرآني الأصيل، فهو حوار وجدال إيجابي ملؤه الحرص من النبي ﷺ على بناء أصول الدين وترسيخها في النفوس من عبادات ومعاملات وأحكام، وهي حوارات لا تصادر الآخر، بل نجد النبي ﷺ يستمع لكثير من صناديد الكفر، ويعرض نفسه على القبائل بأسلوب حوار حكي، فيه بُعد نظر و يقين وإدراك للواقع حوار محفوف بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه واتخذ ذلك شكل المواجهة الحية لمشركي العرب من جهة ولأهل الكتاب من جهة أخرى



الباب الأول

أسس مشروعية الحوار

وأحكامه في القرآن الكريم



الفصل الأول: الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح

المبحث الأول: مشروعية الحوار

المطلب الأول:

أولاً: الحوار والجدل في اللغة

الحوار في اللغة: "تراجع الكلام" ^(١) وفي "لسان العرب": "وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة" ^(٢)

أما الجدل: فقال ابن فارس: "الجيم والبدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام" ^(٣)

ثانياً: الحوار والجدل في الاصطلاح:

الحوار في الاصطلاح: هو بنفس المعنى اللغوي السابق فهو إذا: مراجعة للكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة ^(٤) أما الجدل: فكما يعرفه الجويني هو: "إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهم على التدافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامهما من الإشارة والدلالة" ^(٥) أهـ

وتوجد ألفاظ قريبة من الحوار والجدل منها: المحاجة والمناظرة والمناقشة والمباحثة

وبحثنا سيدور حول الجدل مع أهل الكتاب لا مع عموم الكفار والمشركين

* * * * *

(١) انظر: تاج العروس (٣ / ١٦٢)، ومعجم مقاييس اللغة (٢ / ١١٧).

(٢) لسان العرب (٤ / ٢١٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة: (١ / ٤٣٣)، وصحَّح ابن فارس في «حلية الفقهاء» أنه مأخوذ من «جدلت الحبل». (ص ١٢).

(٤) أصول الحوار، نشر الندوة العالمية (ص ٩).

(٥) الكافية في الجدل للجويني (ص ٢١)، ولهم فيه تعاريف كثيرة، أدقها وأصبطها كما يقول الدكتور عثمان بن علي حسن تعريف الجويني. انظر: «منهج الجدل والمناظرة» (١ / ٢٧).

المطلب الثاني:

هدف الحوار

إن المقصود من الحوار ليس المجابهة والإفحام إذ إن ذلك هو من باب المناظرة ومحاولة الظهور على الخصم وتعجيزه عن الرد وإنما المقصود أن يحصل كل ما يأتي أو بعضه:

١ - معرفة أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار

٢ - تعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا التي هي موضوع الحوار

٣ - العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه كلياً أو جزئياً في القضايا التي هي موضوع الحوار ليتقبلها ويعمل على تبنيها بعد اقتناعه بها سواء بعد الحوار مباشرة أو تدريجياً على المدى الطويل

٤ - العمل على استكشاف ما لدى الطرف الآخر من حقائق وإيجابيات والاعتراف بها وقبولها والاستفادة منها طالما (أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها)

٥ - العمل على استكشاف ما عند المحاور من معلومات غير صحيحة أو دقيقة ومما في وجهات نظره أو مواقفه من ثغرات وأخطاء والعمل على تداركها وإصلاحها

٦ - تشييد جسر للتواصل السلمي البناء وسد الطريق أمام المواجهات والمصادمات مما يبدد الجهود

٧ - أن الحوار يساعد على التوقد الذهني وهي صفة ملازمة لأجواء التحدي الفكري والحوار المتبادل

٨ - قد يؤدي الحوار إلى إيضاح الحقيقة بالإضافة إليها، فيعطي كل فرد ما يعرف من أجزاء الحقيقة حتى يمكن تركيبها كاملة وحتى صاحب الحق فإن أجزاء من الحق تبرز له بصورة أوضح أثناء توقده الذهني في لحظات الحوار

٩ - لحباط حجج المتطرفين والمتعدين فكثير من حوارات كبار علماء الإسلام مع الفرق الضالة كشفت زيف أفكارهم وذلك ما سجلته كتب تراثية خالدة كالملل والنحل للشهرستاني والفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن رشد والرد على الجهمية لابن تيمية والصواعق المرسلة لابن القيم والمسألة القاديانية للمودودي وغيرها

* * * * *

المطلب الثالث:

صدام الحضارات

عقد بعض المناظرين الغربيين نظريات حول عقم حوار الحضارات والثقافات وانتهوا إلى أن الحوار الإيجابي بين الحضارات قد انتهى بتطورها إلى شكل الحضارة الغربية الليبرالية الحاضرة ولم يبق أي أمل أو فائدة لحوار، وهذا ما أورده (فرانسييس فوكو ياما) صاحب نظرية (نهاية التاريخ) في صورتها الحالية وإذا كان (فوكو ياما) قد انتهى إلى أن التطور في خط التاريخ البشري قد تكمل بانتصار الليبرالية واندحار الاشتراكية، فإن (صموئيل هنتجتون) صاحب نظرية (صراع الحضارات) يزعم أن أعنف معارك التاريخ هي التي لم تقع بعد وأنها لن تكون على صعيد الدول القومية ولا على صعيد المحاور الفكرية، وإنما ستتطور إلى مستوى أعلى هو مستوى الحضارات البشرية التي هي أوسع كيان ثقافي ينتمي إليه الإنسان

إن وحدة التحليل عنده هي الحضارة ومع أنه يعترف بأن العامل الحضاري عامل شديد التعقيد، إلا أنه يزعم مع ذلك أنه قد سيطر عليه - ولكن مجرد الاطلاع العابر على تعريفه للحضارة يؤكد أنه لم يصل إلى تعريف دقيق الحد لذلك المفهوم

الحضارة عند هنتجتون " هوية ثقافية " هذا هو تعريفه لها، وعندما يدرك أنه تعريف هلامي، وبعيد جداً عن أن يكون تعريفاً جامعاً مانعاً - كما يقول " المنطقة " فإنه ينعطف نحو مزيد من الشرح والإيضاح فيحدثنا عن أن الهوية الثقافية تترادف وتندرج في الانتماءات الأكبر: " إن ثقافة قرية من قرى الجنوب الإيطالي، قد تختلف عن ثقافة قرية في الشمال الإيطالي، ولكن كلتا القرينتين تشتركان لا محالة في خصائص الثقافة القومية الإيطالية الجامعة، وهذه الثقافة الجامعة هي التي تميز كل القرى الإيطالية عن القرى الألمانية مثلاً ولكن ذلك لا يمنع أن كل القرى الأوروبية تجتمع تحت ظل ثقافة أوسع هي ما يسمى بالثقافة الأوروبية وهي الثقافة التي تميز كل القرى الأوروبية عن القرى العربية أو الآسيوية" هذا المستوى الثقافي الأخير هو ما يعنيه هنتجتون بالحضارة، وهو تعريف غير محكم، لأن صاحبه سرعان ما يدخل في التخبط وينقض ما سبق أن أبرمه

إن (هنتجتون) ليس مؤرخاً راسخاً (كتويني) مثلاً، ولا عالم اجتماع ضليع كماكس فيبر، ولذلك فهو ينزلق في الأخطاء المتوالية إنه يقول مثلاً في تأكيده لتعريفه ذاك للحضارة: " إن العرب والصينيين والغربيين ليسوا جزءاً من أي كيان حضاري أوسع " وهذا خطأ محض، لأن العرب جزء من الحضارة الإسلامية التي هي الوحدة الكبرى، ولا يوجد شيء يسمى بالحضارة العربية بمعزل عن الحضارة الإسلامية، ولا شيء يسمى بالحضارة الإسلامية بمعزل عن الثقافة العربية إن خطأ هنتجتون هنا هو في مرادفته ما بين العرب والإسلام، وعدم إدراكه أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس مسلمي العالم الذين تمتد رقعتهم الجغرافية حتى أوروبا والصين، وهو الأمر الذي يلغي مقولة هنتجتون الثانية بأن الغربيين أو الصينيين لا يمكن أن يكونوا جزءاً من أي كيان حضاري أوسع

ويرى هنتجتون أن عالمنا المعاصر يتشكل من سبع حضارات أو ثمان هي: الحضارة الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية، ويمكن إضافة الحضارة الإفريقية إذا ما تساهلنا في التصنيف هذه الحضارات بالتعريف السابق لها هي أشد تجذراً في الأرض وفي الحياة الإنسانية من المعتقدات الطارئة التي تظهر وتعمر حيناً من الدهر ثم تختفي أما هذه الحضارات المذكورة فهي ذات ثوابت عميقة، عمادها اللغة والثقافة والتراث والدين، وتمتلك نظريات متباينة نحو علاقات البشر بالله وعلاقات البشر ببعضهم الآخر وعلاقات الحاكم بالمحكوم وعلاقات الأسرة فيما بين أفرادها إلى آخر هذه العلاقات

وبناءً على مفهوم هنتجتون فإن هذا التباين في الأفكار والآراء ليس مآله إلى الاضمحلال أو الزوال بحال مهما تكثفت وسائل الالتقاء والاتصال بين البشر، فهذه اللقاءات والاتصالات ستؤدي إلى عكس ذلك تماماً، إذ إنها ستؤدي إلى تنامي إحساس كل حضارة بصفاتها المتميزة التي تمنع ذوبان أهلها في الحضارات الأخرى وأبلغ مثال على ذلك هو ما تثيره هجرة الجزائريين المسلمين إلى فرنسا من تيقظ للحس الحضاري الفرنسي واشتعال عدائه للمسلمين إن مثلاً كهذا - وهو ليس مثلاً فريداً في باب - يحدونا لأن نقرر " أن التواصل والتفاعل بين الشعوب ذات الحضارات المتباينة يؤدي إلى اشتعال الوعي الحضاري لدى شعب ما ويزيد حدة الخلافات والعداوات الممتدة في عمق

التاريخ " وهكذا يستخدم هنتجتون الحجة التي كان يخشى أن تستخدم ضد نظريته، يستخدمها لصالح نظريته المزعومة، فهو لا يوافق على أن التواصل والتحاور الحضاري سيكون إيجابياً العائد، وإنما سيؤدي إلى التناحر والتناوش والتصارع وحسب وإضافة إلى التواصل والتفاعل يأتي عامل التحديث الاقتصادي الذي يعتقد هنتجتون بأنه سيزيد من حدة التمايز الحضاري بين الشعوب إن التحديث في نظر هنتجتون سيدمر المجالات الثقافية الأصغر، كالثقافة المحلية، والقومية، ويحرر الشعوب من أسرها، وحينها لن تجد تلك الشعوب سوى البوتقة الحضارية الأكبر التي تعد الدين أعظم عناصرها التكوينية ولعل هذا هو سر انتشار الأديان الآن، وسر تصاعد الحركات الدينية الأصولية التي " يمكن العثور عليها في النصرانية واليهودية والبوذية بقدر ما يمكن العثور عليها في الإسلام " وفي معظم هذه الحركات لا يخفى أن أكثر المنجذبين إليها هم الشباب بسبب عمليات التحديث ومن خريجي الجامعات، وبالذات في مساقات العلوم البحتة والتقنية وهؤلاء هم الذين غدوا يكافحون مظاهر العلمانية في مجتمعاتهم، وقد صدق عليهم قول جورج ويجل: "إن نزع العلمانية عن العالم يمثل إحدى الحقائق الاجتماعية المسيطرة على الهزيع الأخير من القرن العشرين "!

إن النخب المتعلمة تعليماً جيداً في العالم غير الغربي غدت أكثر انخلاعاً عن الثقافة الغربية من سائر تلك الشعوب التي أنجبته: " ففيما مضى كانت نخب المجتمعات غير الغربية - تلك النخب التي تخرجت في أكسفورد والسوربون وسانت هيرست (ببريطانيا) - تنجح نحو صياغة مجتمعاتها وفق المعطيات والمعايير الفكرية والثقافية الغربية، وكانت تلك النخب تتمتع بالسلطة الكاملة في مجتمعاتها، وتمتلك القوة والموارد التي تساعد في تحقيق رغباتها في تغريب مجتمعاتها في وقت كانت غالبية السكان في تلك المجتمعات غارقة في ثقافتها التقليدية المحلية الآن انعكس الوضع، فإن النخب أصبحت أكثر إحساساً بالهوية الثقافية لمجتمعاتها، بينما أصبح المواطنون العاديون في تلك المجتمعات أكثر تعلقاً بالقيم وأنماط السلوك الغربية "، ولا شك أن دور النخب في صياغة المجتمعات أكبر من دور العامة في هذا العصر، وبالتالي فستؤكد الهوية الحضارية للمجتمعات غير الغربية بصورة أكبر، وسيزداد تمايزها، بل صراعها مع الحضارة الغربية إن صراع الحضارات هو ضربة لازب في تقدير هنتجتون لهذا

الشان الخطير إنه يضع الأمر بهذه السهولة المثيرة

" أما بالنسبة لصراع الحضارات فإن السؤال هو: من أنت؟ وهذا سؤال لا بد من أن تجيب عليه وكما تدرك بدهة فإن إعطائك إجابة خاطئة عن هذا السؤال في البوسنة أو القوقاز أو السودان يعني أن يسدد الرصاص إلى رأسك فوراً وهكذا تصاغ النظرية بلغة الروايات وواضح ما في اللغة التي صيغت بها هذه الأمثلة من التحيز والكرهية العارمة للعالم الإسلامي والمعنى السالف واضح جداً، فإن اعتراف الإنسان الغربي بأصول هويته في أي أرض إسلامية قد يقود إلى ممارسة العنف ضده، والغريب أن هنتجتون لا يختار الأمثلة إلا من هذه الأوطان الإسلامية التي تضطهد أغليبتها بواسطة الأقليات المدعومة من الحضارة الغربية إن هنتجتون يسير في ذلك مع تحريض وسائل الإعلام الغربية العشوائي للإنسان الغربي غير المثقف ضد ما يسمى بالخطر الإسلامي، وهو مجرد " وهم " تريد هذه الوسائل بإلحاحها عليه أن تلصقه في ذاكرة الإنسان الغربي الذي يمكن أن يبقى مفزوعاً بذلك الخطر " الوهمي "

إن هذا الصدام التلقائي " الحتمي " بين السائل والمجيب، يتطور على مستويين آخرين " فعلى المستوى الأول: ستتصادم مصالح المجموعات التي تحتشد على خطوط التوتر الفاصلة بين الحضارات من أجل الاستحواذ على الأرض وإخضاع المنافسين، وعلى المستوى الثاني: ستتصادم الدول ذات الحضارات المختلفة من أجل تحقيق سيطرتها الاقتصادية والعسكرية، والتحكم في المؤسسات الدولية ونشر قيمها السياسية والدينية على مستوى النظام العالمي "

وهنا تنال مسألة الحدود الفاصلة بين الحضارات جل عناية هنتجتون، وهو يسميها: "حدود التوتر " حيث يبرز معالم الحدود الفاصلة في أوروبا بين النصرانية الغربية من جهة والنصرانية الأرثوذكسية من جهة أخرى، ثم يعود ليركز على التهاب حدود التوتر بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ويستعرض تاريخ الحروب الصليبية بحملاتها المتتالية وفصول الصراع الأوربي مع الدولة العثمانية وموجة الاستعمار الغربي التي توجهت إلى العالم الإسلامي، ثم الحروب العربية الإسرائيلية " حدثت لأن إسرائيل ممثلة لروح ومضامين الحضارة الغربية كما يقول "، ثم قيام من سماهم بـ " الإرهابيين العرب والمسلمين " باستخدام سلاح الضعفاء حينما قاموا بقصف الطائرات والمنشآت الغربية وخطف الرهائن وهنا نسي هنتجتون أن يقول ولو كلمة عابرة عن الاحتلال والإرهاب الإسرائيلي الذي ما زال ينصب على الفلسطينيين منذ أكثر من نصف قرن!

لقد ساق هنتجتون نظريته في صراع الحضارات على أنه صراع يحدث بين كل الحضارات، ولكن طاب له فقط أن يركز على صراع الحضارتين الإسلامية والغربية، وبالطبع فإنه لم ينس أن يضع المسلمين في مقام المعتدي المبادر بالصدام، بل لم ينس أن يتوسل لتأكيد ذلك بشهادة مزورة من أحد الكتاب المسلمين، وهو الكاتب الهندي م ج أكبر حيث يقول: " إن الحرب ستبدأ من جانب العالم الإسلامي، لأنه سيفارح من أجل تشييد نظام عالمي جديد، وإن كل دول العالم الإسلامي من المغرب إلى باكستان، ستشارك في ذلك الصراع "، ثم أردف ذلك بشهادة أخرى من أستاذه القديم في هارفارد المؤرخ اليهودي البروفيسور برنارد لويس: " الذي جعل همه قبل أوانه أن يثبت أن هنالك تزويراً طراً على المصاحف القرآنية التي يعتمد عليها المسلمون الآن، وأن هناك مخطوطات مصاحف تثبت وجود هذا التزوير! "

وقد استشهد بكلام لويس في شهاداته عن صراع الحضارات بقوله: " إن العالم سيشهد مزاجاً فائراً سيزيد هيجان الحكومات ويؤدي إلى تضارب خططها وسياساتها، وسيؤدي ذلك كله إلى نتيجة واحدة مؤكدة، هي صراع الحضارات ليس غير وسيقوم المسلمون وهم خصومنا القدامى برد فعل غير عقلاني ضد تراثنا اليهودي - النصراني المشترك وثقافتنا العلمانية، وعلى انتشار تراثنا وثقافتنا عبر العالم "

هذه الآراء العدوانية الشائخة الرافضة لحوار الحضارات حري بها أن تجد الدراسة والعناية من قبل المفكرين والدعاة المسلمين، فالحوار حتى مع عدم تحقق جميع شروطه وآدابه من قبل الطرف الآخر أفضل من الانقطاع عنه والانصراف إلى موقف الصدام، وكما يقول خالد بن عبد الله القاسم في كتابه " الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة: " أما الامتناع عن الحوار مع الظالمين واتخاذ منهجاً مطرداً فهذا يخالف منهج النبي ﷺ، فقد حاور عليه الصلاة والسلام اليهود في المدينة وكانوا يكتمون ما أنزل الله، ويلبسون الحق بالباطل كما حاور نصارى نجران ودعاهم إلى المجادلة فرفضوا " وهكذا يتضح حرص الإسلام على الحوار لكونه أداة من أدوات بيان الحق، وواجب المسلمين هو أن يأخذوا به سبيلاً للبيان، وأن يعملوا على تفعيل تلك الأداة إبلاغاً للدين وتخفيفاً لحدة الصراع بين البشر ما دام هناك سبيل لإبلاغ الدعوة وإيصالها بطريق الحوار وتبادل الأفكار والآراء

المطلب الرابع:

قضايا لا يجوز الحوار فيها

إذا اقتنعنا بمشروعية الحوار وفائدته الظاهرة، فينبغي أن ننظر إلى أنه مشروع بحدوده وجدواه، فالحوار ليس مشروعاً مشروعاً مطلقاً لكي يتناول كل شأن، فهو ليس من قبيل الترف الفكري ولا الفضول وحب الاستطلاع وتشقيق الجدل في المسائل هنالك قضايا محددة ليس من الجائز الخوض فيها بحوار أو جدال إما بسبب محدودية العقل البشري إزاءها أو بسبب عدم ترتب أي ثمرة علمية أو عملية من ورائها، أو لأنها محسومة أساساً بنص شرعي أو إجماع إن الخوض في البحث في ذات الله تعالى مثلاً منهي عنه شرعاً، فهذا ليس مجال بحث ولا جدال ولا حوار، لأن القول في ذلك الشأن الجليل هو من قبيل الخوض بلا علم، ذلك أن العلم شرط أولي لخوض الحوار وهو شرط معدوم في هذه الحالة وهو هنا من جملة ما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^(١) وهنالك مسائل كثيرة لا يترتب حكم عملي عليها مثل أكثر المسائل التي خاض فيها من يسمون بفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن رشد وابن سينا وكثير من الصوفية كابن عربي وابن سبعين والسهروردي وغيرهم ومن المسائل التي ينهى عن الجدل فيها كل ما حكم الله ورسوله فيه بنص محكم جلي أو ما جاء فيه إجماع لعلماء الإسلام

إن كل ما يحرم الحديث فيه شرعاً لا يجوز الحوار فيه مطلقاً كما لا يجوز الجدل في أمره، وهكذا فالأحكام القطعية في الدين ليست منوطاً للحوار أو الجدل من أجل إعادة النظر فيها أو تقويمها أو تغييرها

وهنالك قضايا كثيرة لا ينبغي فيها الحوار لأنها تقود إلى مزيد من الشقاق والفتنة، كالجدال في شأن الصحابة رضي الله عنهم أو تفضيل مواقف بعضهم على بعض في أيام الفتن، أو الجدل على أسس سياسية أو قومية متعصبة أو ما نحا ذلك النحو من أنواع الخلاف الذي يثير القلق والبلبلة في المجتمع

* * * * *

(١) الإسراء: ٣٦.

المطلب الخامس:

مؤهلات المحاور المسلم

إن المحاور المسلم يمكن أن يخوض حواراً مع جبهات شتى، سواء مع مسلمين من أمثاله، أو مع مسلمين مبتدعين، أو مغالين، أو مفرطين، أو منهزمين فكرياً أمام الأطروحات الغربية ومائلين إلى تفسير الدين بما يساير تلك الأطروحات، أو قد يحاور المسلم بعضاً من أهل الكتاب أو من لا دين لهم

وتتباين دوافع من يقابلهم المسلم في الحوار، فمنهم من يستصحب نية حسنة في طلب الحق والاستعداد لقبوله متى ما اتضح، ومنهم من يتخذ الحوار سبيلاً لعرض آرائه ونشرها مع الإصرار على عدم قبول الحق إذا جاء من طرف آخر حتى ولو اتضح جلياً وعلى المحاور المسلم أن يتعرف على خلفيات من يحاورهم جيداً حتى يتمكن من تسخير معارفه ومواهبه على النحو الكفيل بالتعامل مع كل طائفة من هؤلاء بما يليق وفيما يأتي عرض لبعض المؤهلات الضرورية للمحاور المسلم:

١ - العلم بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة: فعلى من يجادل عن دين الله تعالى أن يلم بأدلته الشرعية من الكتاب والسنة وفهمهما كما ورد عن السلف رضوان الله عليهم، وهذا يقتضي العلم بالتفسير بأنواعه، والدراسة بالحديث النبوي الشريف وعلوم الشريعة الأساس وإذا كانت الإحاطة التامة بكل ذلك متعذرة، فالواجب ألا يحاور المرء ولا يجادل إلا فيما يعرف معرفة أكيدة من أمور الشرع وعلوم الدين إن من تمام فقه الفقيه وعلم العالم: أن يعرف قدر نفسه، فلا يتعداه، وأن يحقق مجاله العلمي فلا يخرج عنه، ولا يتصدى لما ليس له بأهل

٢ - العلم بالقواعد الأصولية ومقاصد الشريعة: وهذا جانب مهم من العلم لأن معرفة الأدلة تحتاج إلى المعرفة بتلك القواعد حتى يتم تخريج الأحكام على أساس أصولي صحيح، وإلا اختل الميزان وجرى التلاعب بالأحكام ومقاصد الشريعة عليها أيضاً التعويل في استخراج كثير من الأحكام لقد كان علماء السلف أشد الناس تحريماً لمقاصد الشرع يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور: "وفي هذا العمل تفاوت مراتب الفقهاء، وترى جميعهم لم يستغنوا عن استقصاء تصرفات

الرسول ﷺ ولا عن استنباط العلل، وكانوا في عصر التابعين وتابعيهم يشدون الرحال إلى المدينة ليتبصروا من آثار الرسول ﷺ وأعماله وعمل الصحابة ومن صحبه من التابعين، هنالك يتبين لهم ما يدفع عنهم احتمالات كثيرة في دلالات الألفاظ، ويتضح لهم ما يستنبط من العلل تبعاً لمعرفة الحكم والمقاصد "

٣ - العلم بموضوع الحوار: فعلى من يتصدى للحوار في موضوع معين أن يكون على علم شامل أو على الأقل كاف بأساسيات الموضوع وتفاصيله وذلك حتى لا يجادل عن موقف لا يدرك خلفياته جيداً فينهزم في الحوار وعليه كذلك أن يحيط علماً بوجهة نظر الطرف الآخر حتى لا يسدد سهام حوار بهيداً عن مدارات الموضوع فتسجل عليه الهزيمة كذلك وقد اشترط القرآن الكريم العلم فيمن يحاور عن دين الله القويم وعاب على قوم أنهم يجادلون بغير علم، يقول تعالى: {وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ} (١) وأمر المسلم أن يحاور بعلم وهدى وبصيرة فقال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} (٢)

٤ - الجهر بالحق: إن الحوار ينبغي ألا يؤدي إلى المداينة والدبلوماسية التي تغطي على الحقائق وعلى الخلافات وتعمل على ترميمها ظاهرياً وتلفيق موقف اتفاق زائف وقد ذم الله تعالى من يعمل على كتمان حقائق الدين قائلاً: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} (٣) وذم من أهل الكتاب أولئك الذين يزورون حقائق الأمور فقال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (٤) إن في تزوير الحقائق إجهاضاً لجميع مقاصد الحوار والتبادل الثقافي، فما قام الحوار أساساً إلا لتبادل المعلومات والآراء، فإن جاءت مغشوشة فلن يكون القصد من الحوار إلا الغش والتستر بمواقف هي غير المواقف الأصلية للحوار

(١) الحج: ٨.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) البقرة: ١٥٩.

(٤) آل عمران: ٧١.

٥ - التجرد لطلب الحق: فالحوار ليس معركة حربية غرضها الانتصار وكسر الخصم فعلى المحاور أن يفترض - ولو نظرياً - احتمال ثبوت الحق على لسان الخصم، وذلك أدب جم من آداب الحوار، قال تعالى إرشاداً لمسار الحوار: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} ^(١) وهذا هو مقام التنزل الذي يعطيه المحاور - افتراضاً - للآخرين حتى يجلبهم إلى مائدة الحوار

٦ - الحوار بالحسنى: فلا مجال للعنف والغلظة في أي حوار بناء ولا يلجأ للقسوة على الخصم إلا عند ظلمه وتجاوزه، فيردع بالقوة إيقافاً له عند ظلمه، وهذا هو الاستثناء لا الأصل في الحوار إن الحوار بالحسنى يتضمن استخدام أطراف الحوار لبعضها بعضاً، والرغبة المخلصة في تحقيق النفع المشترك، وبغض النظر عن يكسب جولات الحوار وفي تحديد الإطار المذهب للحوار جاء قول الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} ^(٢) وذكر بعض المفسرين أن المقصود بالذين ظلموا أولئك الذين نصبوا القتال للمسلمين بدل الجدل وجاء قول الله تعالى مؤكداً استخدام القول اللين في مخاطبة الآخرين في وصية موسى وهارون عليهما السلام: {قُولَا لَهُ قَوْلًا لِّيَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} ^(٣) وأوصى رسول الله ﷺ دوماً بالرفق في القول مع الآخرين والصبر على تطاولهم وإيذائهم

٧ - التثبت واتقاء الزلل: وعلى من يحاور أن يجهد نفسه لضبط أعصابه ليثبت الأمور ولا يجازف بالقول ولا يتملح الحجاج ولا يتسرع فيزل ويجنح إلى خطأ لمجرد أنه يريد أن ينافس محاوره وينتصر عليه وكثيراً ما يزل المتحاورون بسبب الانتصار لأنفسهم، وهذا ما يوحيه الشيطان ليغلب حق النفس على الحق المحض وكما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم وقال تميم الداري - رضي الله عنه -: "اتقوا زلة

(١) سبأ: ٢٤.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) طه: ٤٤.

العالم"، فسأله عمر: "ما زلة العالم؟" قال: "يزل بالناس فيؤخذ به، فعسى أن يتوب العالم، والناس يأخذون بقوله" (١)

٨ - منهجة الأفكار: إن التعلم يحتاج إلى الذكاء والمثابرة والدأب والبصيرة، أما منهجة الأفكار فتحتاج إلى مهارة خاصة تُصقل بالمران والدرية إن كثيراً من العلماء مهما زاد محصولهم من العلم المستند إلى الأدلة، فإنهم قد لا يحسنون ترتيب مسائله ترتيباً منطقياً، فتبدو معارفهم مشتتة ومختلطاً بعضها ببعض، وكلما زادت حصيلتهم من العلم ازدادت أذهانهم اختلاطاً وتشوشاً ونقلوا ذلك الاختلاط والتشوش إلى السامع، وهذا آخر ما يحتاج إليه السامع وأول ما يفسد على العالم رسالته ويسبب فشله في الحوار إن المحاور الناجح هو ذلك الذي يدرب نفسه على منهجة الأفكار وترتيب النصوص والأدلة، واستخراج مقدمات تخضع للتحليل بغرض استخراج النتائج منها فإعطاء النتائج بدون ذلك الترتيب المنطقي قد لا يكون محل اقتناع أو تسليم من الطرف الآخر في الحوار ولا من جمهور السامعين وعلى المحاور أن يتعهد موضوعه بالذاكرة الوافية والترتيب المنطقي وأن يعد نفسه للحوار إعداداً جيداً، فحتى العالم فإنه معرض للنسيان ولأن تخذله ذاكرته ويتشتت ذهنه وتنفرد براهينه إن لم يقدّر ببذل الجهد الكافي لواجب الحوار وهنا قد ينتصر صاحب الرأي الخاطئ والحجة الباطلة فقط لأنه كان مرتب الذهن ولأنه استخدم المنطق جيداً ولأنه واجه محاوراً صاحب حق ولكنه ممثل سيئ لحقه بسبب ما هو عليه من بلبلة وتضعضع وتعثر في المنطق

٩ - منطق البداهة: إن الإيغال في تركيب البراهين قد يغري المحاور بأن يبتعد كثيراً عن منطق البداهة، وعن استخدام المسلمات الأولى التي يتفق عليها الناس جميعاً، ويعمل بالتالي على الإغراب في توليد الصيغ وسلاسل الاعتماد وذلك مهما بدا مهماً مما يكل الأذهان ويبعد عن التباس حرارة الحق الشاخص المحاور الناجح هو من يتمكن من التقاط المشاهدات والمسلمات والبداهيات العالية في الحياة والبناء عليها، لأن البناء على أمثال هذه الفرضيات يكون بمثابة البناء على

(١) الحوار مع أصحاب الأديان: ٤٢ / الدكتور أحمد بن سيف الدين تركستاني.

مقدمات صلبة لا ينازع عليها الطرف الآخر، بل تثير إعجاب السامع وتدفع إلى اعترافه بالحق وإذعانه له

١٠ - تجويد لغة الحوار: لا بد للمحاور أن يسيطر على اللغة التي يحاور بها حتى يتمكن من الإفصاح عن جوهر ما يريد قوله وأن يختار الألفاظ والتعابير الأقوى في إيصال تلك المعاني أما إذا كانت لغة المحاور ضعيفة، فإن أفكاره مهما كانت صحيحة أو عميقة فإنها تبدو ضعيفة وسطحية وشديدة الاهتزاز، وكثيراً ما يحكم الناس على المتحدث بمستوى تمكنه من اللغة والإفصاح بها لا بمستوى تمكنه من العلم والتعمق والتحقيق فيه، وهكذا كثيراً ما انهزم محاورون كانوا على حق، ولكن خانتهم ملكاتهم اللغوية الخائرة

١١ - التسليم بالحق من أي مصدر جاء: فالوصول إلى الحق هو غاية الحوار وليس غايته إفحام الخصم وجرجرته إلى التسليم بالرأي الذي يطرحه من يحاوره وعلى كل من يحاور أن يعد نفسه لقبول نتيجة الحوار إن ظهر ضعف رأيه وحجته إزاء قوة رأي الخصم وحجته وكثير من العناد الذي يعقب الحوار يرجع أصله إلى عدم تحلي المحاور نفسه بالتواضع لإلزامها بقبول الحق فليس ثمة منهزم ولا منتصر، ولكن التزام بالحق وانصراف إليه إن على المحاور ألا يشعر خصمه بالدونية وبأنه على الخطأ الذي لا صواب معه ولا إمكان صدور أي صواب عنه فحتى الكفار يمكن أن يصدر عنهم بعض الرأي الصائب على ما هم فيه من ضلال ويمكن أن يستدرجوا لينطقوا بالصواب إن القاعدة العامة هي أن على المحاور أن يهيئ ذهنه لتلقي الصواب من أي جهة عملاً بقول الإمام الشافعي رحمه الله: "قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب"، وما روي عنه أنه ما حاور إنساناً قط إلا وتمنى أن يأتي الحق على لسانه

* * * * *

المبحث الثاني: آداب الحوار

المطلب الأول:

آداب الحوار وقواعد الاختلاف

ابتلى العالم الإسلامي بفتن كثيرة، وتعددت مسمياتها، وأطلقوا عليها الأسماء الآتية: (أصولية - تطرف - إرهاب وغيرها) إلا أنها كلها تعبر عن مفهوم واحد هو: الغلو والتفسير الناقص للنصوص، وإطلاق هذه التسميات على المؤمنين دون بصيرة وروية، فاستسهل أقوام قذف المسلمين بالبدعة والكفر والشرك والجهل في أمور خلافة ليست محلاً لأي من هذه الأوصاف، بل ليست محلاً للتخطئة والتجهيل، فكيف بالتبديع والتكفير؟! إذ إن الكثير من هذه الأمور الخلافية سبقهم إليها أئمة من ذوي الرواية والروية، ولا ينبغي أن يعيب مقلد على مقلد ولا مجتهد على مجتهد

ذلك أن سر خلود الإسلام هو الاختلاف المحمود الذي سيرد تفصيله وإن الداء الأكبر الذي استشرى في زماننا، وأدى إلى ظهور كل هذه التناقضات هو غياب سنة الحوار التي أرى أنها أولى الأولويات وأهم المهمات فقواعد الحوار والاختلاف وضوابطه هي العاصم للمتحاورين من الغلو وشتم الآخرين إن كان الحق هو الرائد والمطلوب أما إذا كان الخلاف انتصاراً لأهواء سياسية وتعصباً أعمى، فهذا أمر لا ينفع معه قواعد ولا ضوابط، إذ إن الهوى ليس له ضوابط ولا موازين، ولذلك حذرنا المولى - عز وجل - من اتباع الهوى فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾^(١) إن البناء الفقهي الإسلامي العظيم لم ينشأ من فراغ، وإنما نشأ عن مناهج وأسس وضوابط وموازن علمية دقيقة اتبعها أصحاب المذاهب في الاستنباط والاستخراج لذلك فإن غياب هذه الأسس والمناهج في الحوار والاختلاف أوقعنا فيما نحن فيه ولا أحسب أن هذه الموضوعات نالت حظاً وافراً من الاهتمام والتعليم سواء في المدارس أو الجامعات، مما جعل حوار المتعالمين كحوار الطرشان، ونشأ عن ذلك ما نراه اليوم من فتن وتيارات مختلفة متنافرة، فقد يختلفون حيث لا اختلاف، وقد ينزلون وهم يعتقدون أنهم مصلحون، وإنما هم في الواقع مفسدون، كما قال الله - تعالى - في أمثالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢)

* * * * *

(١) القصص: ٥٠.

(٢) البقرة: ١١/١٢.

المطلب الثاني :

الأصول والقواعد الرئيسة التي تضبط مسار الحوار

الأصل الأول: الوصول إلى الحق: فلا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، وإظهار الغلبة والمجادلة بالباطل

يقول الإمام الغزالي عند ذكره لعلامات طلب الحق: "أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيئاً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق" (١)

الأصل الثاني: تحديد الهدف والقضية التي يدور حولها الحوار، فإن كثيراً من الحوارات تتحول إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها

الأصل الثالث: الاتفاق على أصل يرجع إليه، والمرجعية العليا عند كل مسلم هي: الكتاب والسنة، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة وقد أمر الله بالرد إليهما فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٢) فالإتفاق على منهج النظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش علمي يضبط مسار الحوار ويوجهه نحو النجاح، إذ إن الاختلاف في المنهج سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة لا حصر لها ولا ضابط

الأصل الرابع: عدم مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها

* * * * *

(١) إحياء علوم الدين ٥٧/١.

(٢) النساء: ٥٩.

المطلب الثالث : آدابُ الحوار النفسية

هناك آداب تتعلق بنفسية المحاور وشخصه، وهناك ظروف نفسية قد تطرأ على الحوار فتؤثر فيه تأثيراً سلبياً، فينبغي مراعاة ذلك حتى يحقق الحوار غاياته ويؤتي ثمراته وأهم هذه الآداب النفسية:

أولاً: تهيئة الجو المناسب للحوار:

فلا بد من الابتعاد عن الأجواء الجماعية والغوغائية، لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء كما ينبغي اختيار المكان الهادئ وإتاحة الزمن الكافي للحوار كما ينبغي مراعاة الطرف النفسي والاجتماعي للطرف الآخر، فلا يصلح أبداً أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي أو النفسي، لأن هذه الأمور ستؤثر في الحوار

ومن الوسائل في تهيئة الجو المناسب للحوار:

- ١ - التعارف بين الطرفين
- ٢ - طرح أسئلة في غير موضوع الحوار لتهيئة نفسية الطرف الآخر
- ٣ - التقديم للحوار بكلمات مناسبة ومقدمات لطيفة تلفت انتباه الطرف الآخر

ثانياً: الإخلاص وصدق النية:

لا بد من توفر الإخلاص لله وحسن النية وسلامة القصد في الحوار والمناظرة، وأن يبتعد المناظر عن قصد الرياء والسمعة، والظهور على الخصم والتفوق على الآخرين، والانتصار للنفس، وانتزاع الإعجاب والثناء

ومن دلائل الإخلاص لله والتجرد لطلب الحق: أن يفرح المحاور إذا ظهر الصواب على لسان مخالفه، كما قال الشافعي: "ما ناظرت أحداً إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه"^(١) ويعينه على ذلك أن يستيقن أن الآراء والأفكار ومسالك الحق ليست ملكاً لواحد أو طائفة، والصواب ليس حكرًا على واحد بعينه

(١) انظر الحوار آدابه وضوابطه للزمزمي: ١٣٠/١١٧.

ثالثًا: الإنصاف والعدل:

من المبادئ الأساسية في الحوار: العدل والإنصاف، ومن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم، والتفريق بين الفكرة وقائلها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة، ومن نماذج الإنصاف ما ذكره الله - سبحانه - في وصف أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(١)

رابعًا: التواضع وحسن الخلق:

إن التزام الأدب وحسن الخلق عمومًا، والتواضع على وجه الخصوص له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب، فكل من يرى من محاوره توقيرًا وتواضعًا، ويلمس خلقًا كريمًا، ويسمع كلامًا طيبًا، فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره، ويفتح قلبه لاستماع رأيه

وفي الحديث الصحيح: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(٢) أي يرفع منزلته في الدنيا عند الناس، وكذلك يرفعه في الآخرة ويزيد من ثوابه فيها بتواضعه في الدنيا ومما ينافي التواضع: العجب والغرور والكبر

خامسًا: الحلم والصبر:

يجب على المحاور أن يكون حليمًا صبورًا، لا يغضب لأتفه سبب، ولا ينفّر لأدنى أمر، ولا يستفز بأصغر كلمة

فقد أمر - سبحانه - نبيه بأخذ العفو وإعذار الناس وترك الإغلاظ عليهم كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، والصفح والعفو أبلغ من كظم الغيظ ورد الغضب، لأن العفو ترك المؤاخذه، وطهارة القلب، والسماحة عن المسيء، ومغفرة خطيئته

وأعظم من ذلك وأكبر هو دفع السيئة بالحسنة، ومقابلة فحش الكلام بلينه، والشدة بالرفق، ورد الكلمة الجارحة بالكلمة الطيبة العذبة، والسخرية والاحتقار بالتوقير

(١) آل عمران: ١١٣.

(٢) رواه مسلم: ٢٠٠١/٤.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

والاحترام، وهذه منزلة لا يصل إليها إلا من صبر وكان ذا حظ عظيم: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (١)

سادساً: الرحمة والشفقة:

إن المحاور المسلم المخلص الصادق يحرص على ظهور الحق، ويشفق على خصمه الذي يناظره من الضلال، ويخاف عليه من الإعراض والمكابرة والتولي عن الحق فالرحمة والشفقة أدب مهم جداً في الحوار، لأن المحاور يسعى لهداية الآخرين واستنقاذهم فلذلك يبتعد عن كل معاني القسوة والغلظة والفظاظة والشدّة فلا يكون الحوار فرصة للكيد والانتقام، أو وسيلة لتنفيس الأحقاد، وطريقة لإظهار الغل والحسد، ونشر العداوة والبغضاء

والرحمة جسر بين المحاور والطرف الآخر، ومفتاح لقلبه وعقله، وكلما اتضحت معالم الرحمة على المحاور كلما انشرح صدر الخصم، واقترب من محاوره، وأذعن له واقتنع بكلامه يقول - سبحانه - مخاطباً نبيه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} (٢)

ولذلك كان الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم يصرحون بالخوف والحرص والشفقة عليهم ومن نماذج ذلك تصريح مؤمن آل فرعون لقومه بالرحمة والشفقة والخوف عليهم في أكثر من موضع قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَاْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} (٣)

سابعاً: العزة والشبّات على الحق:

إن المحاور المسلم يستمد قوته من قوة الدين، وعظمة الإيمان، فلا يجوز أن يؤدي الحوار بالمسلم إلى الذلة والمهانة والعزة الإيمانية ليست عناداً يستكبر على الحق،

(١) فصلت: ٣٥/٣٤.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) غافر: ٣٢/٣٠.

وليست طغياناً وبغياً، وإنما هي خضوع لله وخشوع، وخشية وتقوى، ومراقبة لله سبحانه
ثامناً: حسن الاستماع:

لا بد للمحاور الناجح أن يتقن فن الاستماع^(١)، فكما أن للكلام فناً وأدباً، فكذلك
للاستماع، وليس الحوار من حق طرف واحد يستأثر فيه بالكلام دون محاوره، ففرق
بين الحوار الذي فيه تبادل الآراء وبين الاستماع إلى خطبة أو محاضرة

ومما ينافي حسن الاستماع: مقاطعة كلام الطرف الآخر، فإنه طريق سريع لتفجير
الخصم إضافة إلى ما فيه من سوء أدب، كما أنه سبب في قطع الفكرة مما يؤثر في تسلسل
الأفكار وتربطها، ويؤدي إلى اضطرابها ونسيانها وقد ذكر العلماء في آداب المتناظرين:
"ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر حتى يفهم مراده من كلامه تماماً، وأن ينتظر كل واحد
منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه، ولا يقطع عليه كلامه من قبل أن يتمه "

والاستماع إلى الطرف الآخر وحسن الإنصات، تهئى الطرف الآخر لقبول الحق،
وتمهد نفسه للرجوع عن الخطأ

تاسعاً: الاحترام والمحبة على رغم الخلاف:

الخلاف أمرٌ واقع لا محالة، ولكن لا يجوز أن يؤدي الخلاف بين المتناظرين
الصادقين في طلب الحق إلى تباغض وتقاطع وتهاجر، أو تشاحن وتدابير

فأخوة الدين، وصفاء القلوب، وطهارة النفوس فوق الخلافات الجزئية، والمسائل
الفرعية، واختلاف وجهات النظر، لا ينبغي أن يقطع حبال المودة، ومهما طال المناظرة،
أو تكرر الحوار، فلا ينبغي أن تؤثر في القلوب، أو تكدر الخواطر، أو تثير الضغائن

لقد اختلف السلف فيما بينهم، وبقيت بينهم روابط الأخوة الدينية فهذان الخليفتان
الراشدان، أبو بكر وعمر، يختلفان في أمور كثيرة، وقضايا متعددة، مع بقاء الألفة والمحبة،
ودوام الأخوة والمودة ومع هذا الخلاف بينهما إلا أن كل واحد منهما كان يحمل الحب
والتقدير والاحترام للآخر، ويظهر ذلك من ثناء كل واحد منهما على صاحبه^(٢)

* * * * *

(١) الحوار أدابه وضوابطه للزمزمي: ٢٤٦/٢٣٦.

(٢) انظر الحوار: أدابه وضوابطه: ٢٤٧ / ٢٥٨.

المطلب الرابع: آداب الحوار العلمية

أولاً - العلم:

العلم شرط أساس لنجاح الحوار وتحقيق غايته، وبدونه لا ينجح حوار، ويهدر الوقت ويضيع الجهد

فيجب على المحاور ألا يناقش في موضوع لا يعرفه، ولا يدافع عن فكرة لم يقتنع بها، فإنه بذلك يسيء إلى الفكرة والقضية التي يدافع عنها، ويعرض نفسه للإحراج وعدم التقدير والاحترام

يقول الشيخ ابن تيمية في التأكيد على ضرورة العلم وأهميته لمن يتصدى للحوار: "وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة"^(١)

ثانياً - البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق:

بين كل متناظرين مختلفين حد مشترك من النقاط المتفق عليها بينهما والتي يسلم بها الطرفان، والمحاور الناجح هو الذي يظهر مواطن الاتفاق والبدء بالأمر المتفق عليها يساعد على تقليل الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويعيد الحوار هادئاً هادئاً

أما إذا كان البدء بذكر مواضع الخلاف وموارد النزاع فإن فرص التلاقي تقل، وفجوة الخلاف تتسع، كما أنه يغير القلوب، ويثير النفوس للغلبة دون النظر إلى صحة الفكرة فالبدء بالنقاط المشتركة يساعد على تحرير محل النزاع، وتحديد نقطة الخلاف، ويفيد في حسن ترتيب القضايا والتدرج في معالجتها

ثالثاً - التدرج والبدء بالأهم:

إن المحاور الناجح هو الذي يصل إلى هدفه بأقرب طريق، ولا يضيع وقته فيما لا فائدة منه، ولا علاقة له بأصل الموضوع، فمعرفة الأهم والبدء به يختصر الطريق وأوضح الأمثلة على ذلك بدء الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - بأهم قضية

(١) درء معارض النقل والعقل: ٧ / ١٧٣، ١٧٤.

وأكبر غاية، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) ومع التأكيد على هذا الأدب - البدء بالأهم - فقد يحتاج المحاور إلى أن يتدرج ويتنازل مع خصمه، ويسلم له ببعض الأمور تسليمًا مؤقتًا حتى يصل إلى القضية الأم والمسألة الأهم

ومن نماذج هذا الأسلوب ما اتبعه إبراهيم مع قومه ليصل بهم إلى التوحيد وإبطال الشرك، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾^(٢) وهذا على وجه التنزل مع الخصم، أي ربي - بزعمكم: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ﴾ فبطلت عبادة الكواكب، ثم فعل مثل ذلك لما رأى القمر ولما رأى الشمس حتى وصل بهم إلى حد إبطال ما هم عليه من الشرك^(٣)

رابعًا - الدليل:

إن أهم ما ينجح الحوار: الدليل، ولا بد من إثبات صحة الدليل، كما قيل: "إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل" ولا يحسن بالمحاور أن يستدل بأدلة ضعيفة أو حجج واهية فدليلان قويان لا يمكن الرد عليهما أفضل من سوقهما مع ثلاثة أدلة أخرى يمكن الأخذ والرد فيها، إذ ربما يستغلها الطرف الآخر، فيضعف الفكرة ويسيء إلى موقف صاحبها بسبب الأدلة الضعيفة ومتى وجد الدليل وثبتت صحته، فلا بد من صحة دلالاته على المطلوب، ولا بد من ترتيب الأدلة حسب قوتها وصراحتها في الدلالة على المقصود

خامسًا - ضرب الأمثلة:

إن المحاور الناجح هو الذي يحسن ضرب الأمثلة، ويتخذها وسيلة لإقناع محاوره، إذ إن الأمثلة الجيدة تزيد المعنى وضوحًا وبيانًا

ولما للأمثلة من دور كبير في تقريب المعاني والإقناع بها، فقد اعتنى القرآن بها كثيرًا، وأشار إلى أهميتها وبيان هدفها: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤) ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١)

(١) الأعراف: ٩٥، ٦٥، ٧٣، ٨٥ / قالها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.

(٢) الأنعام: ٧٦.

(٣) انظر: الحوار: آدابه وضوابطه ٢٩٦ - ٣٠٨.

(٤) الحشر: ٢١.

سادساً - العدول عن الإجابة:

إن الأصل في الحوار الناجح أن يبني على الإخلاص والتجرد للحق والصدق والوضوح، ولكن قد تتعذر هذه الصفات في الخصوم، فقد يكون الخصم يهوى الجدل والمراء، ويقصد إضاعة الوقت والتهرب من الحوار الجاد، وقد يلقي أسئلة لا قيمة لها ولا تفيد شيئاً بالحوار

ففي مثل هذه الأحوال يعدل المحاور الناجح عن الجواب المباشر للسؤال المطروح، إلى جواب مفيد مهم

سابعاً - الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ:

إن من أهم الآداب والصفات التي يتميز بها المحاور الصادق أن يكون الحق ضالته، فحيثما وجده أخذه، والعاقل هو الذي يسلم بخطئه، ويعود إلى الصواب إذا تبين له، ويفرح بظهوره، ويشكر لصاحبه إرشاده ودلالته إليه والتسليم بالخطأ صعب على النفس، خاصة إذا كان في مجمع من الناس، فهو يحتاج إلى تجرد لله وصدق وإخلاص، وقوة وشجاعة

ثامناً - التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم:

إن الهدف من الحوار: هو الوصول إلى الحق، فعلى المحاور أن يتجنب أسلوب الإفحام والإسكات، لأنه يترك في نفس المحاور حقداً وغيظاً وكرهية ولكن يلجأ المحاور إلى التحدي والإفحام مع من استطال وتجاوز حدود الأدب، وطغى وظلم وعادى الحق وكابر مكابرة بينة ولجأ إلى الاستهزاء والسخرية، ونحو ذلك وفي مثل هؤلاء جاءت الآية الكريمة: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(١) ولما أمر الله - سبحانه - بالتلطف في المناقشة - حتى مع الكفار - استثنى حالة إذا ما ظلموا وبغوا، فلا ينفع معهم الرفق واللين، بل يستعمل معهم الغلظة والشدة: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(٢)

* * * * *

(١) إبراهيم: ٢٥.

(٢) النساء: ١٤٨.

(٣) العنكبوت: ٤٦.

المطلب الخامس:

أدب الحوار

أولاً - الكلمة الطيبة والقول الحسن:

لقد أمر الله - عز وجل - بدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) ومن القول الحسن أيضاً: حسن المناداة للطرف الآخر، واختيار أحب الأسماء إليه، وقد تأدب الأنبياء بهذا الأدب في خطابهم لأقوامهم، فقد كان يقول الرسول لخصومه المعاندين: (يا قوم) في تودد وسماحة وتذكير بالروابط التي تجمعهم، ليستثير مشاعرهم، ويطمئنهم فيما يدعوههم إليه

ثانياً - التعريض والتلميح بدلاً عن التصريح:

إن لفت النظر إلى الأخطاء من طرف خفي، وتجنب اللوم المباشر، وعدم تخطئة الطرف الآخر بعبارة صريحة، كل ذلك له أثره في تسليم الخصم للحق والرجوع عن الخطأ، فالنفوس غالباً لا تتحمل أن تواجه بقوة وصرامة، وهناك من الألفاظ الموحية والكلمات اللطيفة والتي تؤدي الغرض نفسه، دون جرح لمشاعر الآخرين، أو إشعارهم بالذل والهزيمة

ثالثاً - ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق:

إن الكلام عن النفس ومدحها والثناء عليها مذموم غالباً، ولا يحب الناس أن يسمعوا ممن يملأ أذانهم بمناقبه وسيرته وأحواله وتقلباته، بل إن من يفعل ذلك ويفرح به ويكثر منه يعد ناقصاً في عقله، أو ربما فاسداً في نيته وقصده

وكما قال الإمام مالك: "إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه"^(٢)

وقد نهى الله - عز وجل - عن تزكية النفس والتمدح بطهارتها فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^(٣)، وعاب أناساً فعلوا ذلك فقال فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨ / ١٠٩.

(٣) النجم: ٣٢.

يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا^(١)

وفي المقابل فإن مدح الآخرين وإطراءهم والثناء عليهم بما ليس فيهم، وتجاوز الحد في ذلك، كل هذا مذموم ممقوت أيضاً

ولكن قد تكون هناك حالات يحتاج فيها المحاور إلى أن يثني على نفسه بالحق، لتحقيق غرض معين، كأن يشعر خصمه بمقدار علمه في موضوع الحوار أو في مسألة من مسائله، أو لينفي عن نفسه تهمة أو طعنًا في صدقه وأمانته أو نحو ذلك، فهنا قد يسوغ ذكر شيء من محاسن النفس بقدر وبحق

وكذا قد يحتاج المحاور إلى أن يثني على الطرف الآخر - بالحق - لتحقيق غرض معين، كأن يكون القصد إشعاره بالتقدير والاحترام، والاعتراف بفضله أو علمه

رابعاً - محذورات لفظية:

إن للسان سقطات، وللکلام زلات، والمسلم مأمور بحفظ لسانه، كما أنه مأمور بطيب الكلام، وأن يقول خيراً فيغنى، أو يسكت فيسلم، ويسلم الآخرون منه، وهناك أمور قد يقع فيها اللسان فتورد صاحبها الموارد، وقد تهوي بالحوار وتعطل سيره أو تحوله إلى جدل عقيم، أو تبادل سباب وشتائم، ولذلك ينبغي للمحاور أن يحذرهما، فمن هذه المحذورات:

- ١ - اختيار الألفاظ والمعاني التي تقود إلى الجدل، أو تستثير الفتن والمشكلات
- ٢ - إظهار التفاحش والتشدد في الكلام تيهًا على الآخرين واستعلاء
- ٣ - الغيبة: فإن المناظر لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، فيحكي عنه ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله، وهو الغيبة
- ٤ - الكذب: ربما لا يقدر المناظر على محاوره خصمه، فيلجأ إلى الكذب عليه، فينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم، تغطية لعجزه فيقع في الكذب
- ٥ - تركية النفس والثناء عليها بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران، كقوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور ونحو ذلك مما يتمدح به على سبيل الادعاء

(١) النساء: ٤٩.

- ٦ - الاستئثار بالكلام دون الطرف الآخر، والإطالة الزائدة عن حدها وعدم مراعاة الوقت في أثناء الكلام
- ٧ - اللوم المباشر عند وضوح خطأ الطرف الآخر، كقوله: "أخطأت"، "سأثبت لك أنك مخطئ جاهل" ونحو ذلك مما يجرح الطرف الآخر
- ٨ - رفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع، ففي ذلك رعونة وإيذاء
- ٩ - الهزاء والسخرية، وكل ما يشعر باحتقار الطرف الآخر
- ١٠ - استعمال الألفاظ الغريبة، والأساليب الغامضة، والعبارات المحتملة لتلبيسا على الطرف الآخر، تمويهها للحقيقة إلى غير ذلك من المحذورات التي يجب على المحاور أن يبتعد عنها

* * * * *

المبحث الثالث: مجالات الحوار وأصوله وبعض آدابه وعوائقه

المطلب الأول:

ومن آداب الحوار

متى ما كان المحاور المسلم مؤهلاً للانخراط في الحوار حتى يجني ثماره وينفع نفسه ودينه منه فإن عليه أن يأخذ بآداب الحوار ويلتزم بمعاييرها التي تتحقق بها أعلى فائدة منه، ومن أهم هذه الآداب:

- ١ - الالتزام بموضوع الحوار وعدم الخروج عليه وهذه مسألة منهجية وتنظيمية في غاية الأهمية، وعدم الالتزام بها يؤدي إلى خلط المسائل ببعضها الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى عدم إنضاج أي منها بالبحث والمساءلة والمقارنة والتقويم والاستنتاج ويمكن معالجة هذه الناحية بضبط أولويات الحوار جيداً، وإقامة هيئة تحكم لتضبط المتحاورين كلما جنحوا للخروج من إطار الموضوع
- ٢ - ضرورة تحديد المصطلحات المستخدمة في الحوار وشرح مدلولاتها جيداً، لأن المصطلح الواحد قد يعني شيئاً مختلفاً عند كلا الطرفين وهنا لا بد أن يعلن المتحدث عما يعني تحديداً بالمصطلح الرئيسي الذي يدور حوله حديثه خلال الحوار
- ٣ - مناقشة المسائل حسب أهميتها فليس من آداب الحوار تضخيم المسائل الفرعية على حساب المسائل الأصلية، فإن كثيراً من المسائل الفرعية تنحل آلياً بمجرد مناقشة أصولها الكبرى ومصدر الاختلاف حولها
- ٤ - تلطيف أجواء الحوار حيناً بعد حين، وذلك بإسداء بعض عبارات الاحترام والتقدير للطرف الآخر، فإن ذلك أدعى إلى كبح جماح الانفعال لدى الطرف الآخر وتهئية جموحه نحو التعدي وعدم الموضوعية
- ٥ - عدم التسرع في الإقناع؛ لأن ذلك مما يجرح مشاعر الطرف الآخر فالأفضل أن يظهر المحاور وجهة نظره بصورة واضحة، ويعطي الفرصة كاملة للطرف الآخر - حتى ولو كان خصماً - ليظهر وجهة نظره، ثم تعطى فرصة زمنية للاثنتين حتى يتأمل كل إنسان وجهة نظر صاحبه، فتنضج الرؤية مع هدوء

الخواطر وفتور الانفعال الوقتي الذي يصاحب لحظات الحوار

٦ - حسن الاستماع للطرف الآخر فالحوار مسألة تبادل للآراء وليس مجرد إرسال من طرف واحد واستقبال من الطرف الثاني ومن آداب الحوار أن يحسن كل طرف الاستماع إلى آراء الطرف الآخر، فلا يغفل عن الاستماع استهواناً أو تسفيهاً لآراء الآخرين ولا يتمادى في الحديث حتى يجور على الوقت المخصص للآخرين

ومن حسن آداب الأنبياء أنهم كانوا يصْغون جيداً لمحاوريهم بل كانوا يتفضلون فيمنحونهم الفرصة الأولى للإدلاء بآرائهم وحججهم فعندما قال السحرة لسيدنا موسى عليه السلام: {وَمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} {قَالَ بَلْ أَلْقُوا} ^(١) فأعطاهم الفرصة الأولى للإدلاء بالبيانات وروى ابن إسحاق في سيرته ﷺ أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قومه، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟! - وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرُونَ - فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، عبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها

قال: فقال رسول الله ﷺ: " قل يا أبا الوليد أسمع " قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منها، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاستمع مني»

قال: أفعل قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١) ومضى رسول الله ﷺ يقرأها إلى السجدة واستمع إليها عتبة حتى تغير وجهه وتأثر مما سمع وذهب إلى القوم وهو يمدح القرآن فقالوا له: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه»^(٢)

ومهما تكن نتيجة الحوار فالمسلم مكلف بالاستماع تطبيياً لخطر من يتكلم وذلك أدعى إلى جلبه إلى جانب الحق، وذلك ما فعله رسول الله ﷺ في هذا الموقف، وفي كل موقف حوار له مع الكفار والمخالفين وإذا كان حتى الكافر يمنح تلك الفرصة في الاستماع ليعرض أفكاره وآراءه، فإن ذلك الحق نفسه لا بد أن يعطى للمخالفين ضمن إطار التصور الإسلامي العام، أو للمخالفين من أصحاب الثقافات والحضارات والأديان الكتابية، على وجه الخصوص، فالحوار آلية مهمة لتحقيق أداء واجب الدعوة بالتبليغ لرسالة الدين الحنيف، ولذا أورد القرآن الكريم نماذج عديدة منه، ودعا إلى استخدامه مشروطاً بآداب الحوار

مما سبق يتضح جلياً أن الحوار يستمد مشروعيته من القرآن الكريم نفسه الذي حكى كثيراً من الحوارات على سبيل التعليم والموعظة ابتداءً بحوار الله تعالى نفسه مع الملائكة حول خلق آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ومروراً بحوارات الرسل مع أقوامهم، وانتهاءً بحوارات الرسول الخاتم ﷺ مع اليهود والنصارى وللمسلمين حوارات كثيرة مع غيرهم من أهل الكتاب، ومع الفرق المبتدعة سجلتها كتب الفرق وكتب الحوار والخلاف والجدل الكثيرة التي حفل بها التاريخ الفكري للحضارة الإسلامية، كما امتلأت كتب المذاهب الفقهية الإسلامية أيضاً بحواراتها مع بعضها الآخر حول الكثير من قضايا أصول الفقه وفروعه

ولأهمية الحوار ولكونه آلية مثلى لاستجلاء الحقائق حرص كثير من أئمة السلف على إنشاء كتب علمية قيمة حول موضوع الحوار مثل كتاب (الإنصاف في مسائل

(١) فصلت: ١ - ٣.

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ٢٤.

(٣) البقرة: ٣٠.

(الخلاف) لأبي سعيد النيسابوري، و(البرهان في الخلاف) لأبي المظفر المروزي و(تجريد المسائل اللطاف في الائتلاف والخلاف) لنور الدين الشافوري و(تهذيب الأخلاق بذكر مسائل الخلاف والوفاق) لمحمد الأسدي القدسي، وهناك ما لا يقل عن مائة وخمسين كتاباً من هذا النوع في التأسيس لآلية الحوار وترقيتها والنهوض بها ونماذج منها مما يدل على أهميتها الحيوية في بناء المعرفة الإسلامية

والآن في ظل صحوه المسلمين والتفاتهم إلى أمور دينهم وحقائق عصرهم المتفجر معرفياً وإعلامياً فإن آلية الحوار تكتسب مزيداً من الأهمية في الذهن الإسلامي وما إقامة الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات متعددة الأطراف إلا دليل على استشعار المسلمين المتزايد لتلك الأهمية لمبدأ الحوار بين المسلمين وأهل الديانات والثقافات الأخرى

إن الخلل الذي نعاني منه في مجتمعنا الإسلامي لا يصلحه إلا التفاعل من خلال الحوار بعيداً عن القهر وتآليب جانب على آخر، والسلطة السياسية يجب أن تمثل دور الوازع الذي يقف عند تهيئة جو الحوار الهادف، والذي يحترم حريات جميع الفئات، حتى وإن كانت متحفظة عليها، ولا يمكن أن نتخيل عدالة اجتماعية بدون استقلال فكري ومذهبي، نعم ولا بد من أدب في الحوار يحترم فيه صاحب السلطة

إن الأمم التي بنت حضارتها أوجدت أماكن مناسبة للمفكرين والمثقفين بالقرب من السلطة، واستفادت منهم في حركة النقد الهادف فأصبحوا عماداً لها، ولم يكونوا حرباً عليها فالكبت الفكري لا يضر المفكر والمثقف فقط، بل سيضر في عنق النظام بعد أن يستفحل خطره، فزبد النصائح التي تبذل للمجتمع والنظم إن لم تجد طريقها إلى النور، ستجد طريقها إلى من يحملها في قالب عنيف ومفاجئ، فالفكرة المكبوتة قبلية موقوتة

إن منهج الجدل والحوار الإسلامي قادر على احتواء جميع الصراعات والاختلافات، فقد احتوى هذا المنهج الصراعات مع الأديان الأخرى وانتصر، واتسع فكيف لا يتحمل الحوار بين المسلمين؟ إن الفكر الديني المستنير هو ضرورة مهمة لأي بناء حضاري، ولن يكون هنالك فكر ديني مستنير إلا في ظل الحوار الإسلامي^(١)

* * * * *

(١) للدكتور عمر عبد الله كامل.

المطلب الثانى :

بعض عوائق الحوار

قد عرفت عدة حوارات التوقف والفشل وعدم الاستمرارية نتيجة عدة أسباب، غير أن أغلب تجرد الحوارات وفشلها في بعض الأحيان، مرجعه في المقام الأول إلى عدم التقيد بأدب الحوار ومضامينه في المخاطبة والمجادلة أسلوباً وممارسة " في حين نجد عوائق أخرى تحول دون الحوار أو استمراره نحو:

* سوء الظن: وهو من العوائق التي تحول دون وقوع الحوار فإذا كان حسن الظن يسمح بتحقيق أرضية للحوار والمساواة بين المتحاورين فإن سوء الظن مرض ينتشر في النفوس الضعيفة نهى الإسلام عنه بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) لما يجلبه من ويلات وحروب

* الحسد: وهو من أقبح الخصال التي تصيب الإنسان وتتكبد له عيشته فإن الحسد الذي يتمنى الشقاء والتعس لغيره يشقى نفسه أيضاً بهذا الحسد إذ يمنع عن نفسه فوائد الحوار والتواصل مع الغير ويجلب له الإثم وسوء العاقبة

* الكبرياء: " رذيلة من الرذائل الاجتماعية تغرس الفرقة والعداوة بين الأفراد فتقضي على التعاون والمحبة بينهم " وبذلك يظهر الطرف المتحاور للطرف المتكبر أنه دون مستواه ولا يستحق أن ينزل إليه إذ يعتبر ذلك نقصاً وعبثاً لكن الحقيقة أن عدم التواصل هو النقص والعييب وأن صاحب الكبر مآله ما أخبر به الرسول فيما رواه عنه حارثة بن وهب الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر»^(٢)

* الغضب: وهو من العوائق التي تحول دون استمرار الحوار القائم، وهو كذلك محاولة إبطال دعوى الخصم قبل أن يقدم الدليل عليها وهو من الرذائل الخلقية التي إذا تحكمت في نفوس الناس وتمكنت من مجتمعاتهم كان لها أسوأ الأثر في حياتهم ونتائج بشعة في تمزيق روابط المودة بينهم

(١) سورة الحجرات ١٢/.

(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب (٦١٠).

* استفزاز الغير: واحتقاره بأسماء وألقاب تؤدي إلى انفعاله وذلك قصد وضعه في موقف حرج وإرباكه وتحويل انتباه الغير الملاحظ من تتبع الحوار إلى الشماتة وقد نهى الإسلام عن هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١)

* * * * *

المطلب الثالث:

وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار

١ - أصول الحوار وغايته:

تتعدد آراء الباحثين في أصول الحوار

فمنهم من يؤسس حديثه في هذا الموضوع على أطراف الحوار الأربعة وهي: موضوع الحوار، وأسلوبه، وطرفاه أعني المتحاورين ومنهم من يؤسسه على الصفات العلمية والخلقية والنفسية التي ينبغي أن يتحلى بها المتحاورون

ومنهم من يجعل القضايا المتحاور عليها هي الأساس الذي يبني عليه الحوار والأصوب أن يؤخذ كل ذلك في الحسبان، فأصول الحوار على الإجمال ثلاثة: العلم، والأهلية، والخلق الفاضل، ويندرج في كل أصل ما يتفرع عنه وتفصيله كالاتي:

* الأصل الأول: (العلم) ويتضمن:

أ - العلم بالدليل والبرهان وبوجه الاستدلال الصحيح، وفي التنزيل الحكيم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾^(٢) ﴿قُلْ فَاتَّوَا بِالْتَّوَارَةِ فَاتْلَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) فمن واجبات المتحاورين التزام الطرق الإقناعية الصحيحة؛ كتقديم الأدلة المثبتة للأمور، وإثبات صحة النقل لما نقل

(١) سورة الحجرات: ١١.

(٢) الأنبياء: ٢٤.

(٣) آل عمران: ٩٣.

ب - السلامة من التناقض: لأن التناقض ممجوج، ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض أهل التفسير من وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله: {سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} ^(١) وهو وصف قاله الكفار لكثير من الأنبياء بما فيهم كفار الجاهلية ولنبينا محمد ﷺ وهذان الوصفان السحر والجنون لا يجتمعان، لأن الشأن في الساحر العقل والفتنة والذكاء، أما المجنون فلا عقل معه ألبتة، وهذا منهم تهافت وتناقض بين ونعت كفار قريش لآيات محمد ﷺ بأنها سحر مستمر، كما في قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} ^(٢) وهو تناقض؛ فالسحر لا يكون مستمرًا، والمستمر لا يكون سحرًا

ج - ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلًا، ولكنه إعادة للدعوى بالألفاظ وصيغ أخرى وعند بعض المحاورين من البراعة في تزويق الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يُورد دليلًا وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مُغاير، وهذا تحايل لإطالة النقاش من غير فائدة

د - معرفة وجهة نظر المخالف وشبهاته ومسالك الرد عليها ومن ذلك عدم الطعن في أدلة الخصم إلا ضمن الأمور المبنية على المنطق السليم والقواعد المعترف بها لدى الفريقين

ه - معرفة مجالات الحوار، وهي كل ما يقع فيه الخلاف وليس من الثوابت والمسلمات، لأن المسلمات والثوابت لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين كحُسن الصدق، وقُبْح الكذب، وشُكْر المُحسن، ومعاقبة المُذنب فالتسليم ابتداءً بالقضايا التي تعد من المسلمات والمتفق على صحتها مما ينبغي أن يتوافر عليها المتحاورون

و - التخصص العلمي، فلا يصح أن يحاور في الأديان من يجهل أصولها وتاريخها والفرق التي تنتسب إلى كل ملة، وبالتخصص يتحقق التكافؤ العلمي وكثير من الحوار غير المنتج مردُّه إلى عدم التكافؤ بين المتحاورين، ولقد قال الشافعي رحمه الله: "ما جادلت عالمًا إلا وغلِبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني!" وهذا التهكم من

(١) الذاريات: ٣٩.

(٢) القمر: ٢.

الشافعي - رحمه الله - يشير إلى الجدل العقيم الذي يجري بين غير المتكافئين

* الأصل الثاني: (تحقق أهلية المحاور) ويقتضي ذلك:

ز - اعتناق الحق والإيمان به، إذ من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على الباطل، ومن لا يعرف الحق، ومن لا يجيد الدفاع عن الحق، ومن لا يجيد مسالك الباطل

ح - معرفة أصول الحوار ومسالكه وغاياته وجملته آدابه فمن ذلك: إقامة الحجة، ودفع الشبهة والفساد من القول والرأي فهو تعاون من المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق يقول الحافظ الذهبي: "إنما وضعت المناظرة لكشف الحق، وإفادة العالم الأذكي العلم لمن دونه، وتنبيه الأغفل الأضعف"

ط - التخصص العلمي: يقول شيخ الأزهر: علم الدين شيء، وسلوك المتدين شيء آخر فالمتدين أيا كان حر في أن يفهم أو يتصور ما يشاء ثم يرد إلى ربه، أما علوم الدين، فتلك علوم لها أصولها وقواعدها التي ارتضاها أهل الاختصاص وبها قامت الأمم وبالخروج على نسقها سقطت أجيال الأمة، وعلماء الدين لا يمثلون كهنوتاً ولا يدعونهم "إنما يحملون قواعد الدين ونظرياته ويصرون عليها إصرار الطبيب على قواعده، والمحاسب على مبادئ علم المحاسبة، والمهندس على نظريات الهندسة"^(١)

* الأصل الثالث: التحلي بأخلاق الحوار ومنها:

ي - الإخلاص لله تعالى، ويقتضي: قصد الحق، والبعد عن التعصب، ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة: (ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يؤقق ويُسَدَّ ويُعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه وما ناظرني فباليت! أظهرت الحجة على لسانه أو لساني؟)

ومن الإخلاص: قبول الحق، وإلا أصبح الحوار عبثاً، قال ابن عقيل: "وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق" قال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً فقبل مني الحجة إلا عظم في عيني، ولا ردّها إلا سقط في عيني"

(١) مجلة نور الإسلام، العدد الأول ربيع الأول ١٤١٨ هـ أغسطس ١٩٩٧ م.

ك - سماحة النفس: فلا ينبغي التدابر والتباغض إذا انتهى الحوار إلى إصرار كل على رأيه، ومقتضى الحكمة الأخذ بالقول الشهير (رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب)

ل - الحلم وسعة الصدر ويقتضي البعد عن السب أو الشتيم أو التجريح أو الحقد أو السخرية من وجهة نظر الطرف الآخر

م - كرم النفس: ويقتضي التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام: إن من أهم ما يتوجه إليه المُحاور في حوارهِ، التزام الحُسنى في القول والمجادلة، ففي محكم التنزيل: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ^(١)، {وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ^(٢)، {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} ^(٣) فحق العاقل اللبيب طالب الحق، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} ^(٤)

وقوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} ^(٥) مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة

ويلحق بهذا الأصل: تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث على أن هناك بعض الحالات الاستثنائية التي يسوغ فيها اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر؛ وذلك فيما إذا استطال وتجاوز الحد، وطغى وظلم وعادى الحق، وكابر مكابرة بيّنة، وفي مثل هذا جاءت الآية الكريمة: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} ^(٦) {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ} ^(٧) في حالات الظلم والبغي والتجاوز، قد يُسمح بالهجوم الحادّ المركز على الخصم وإخراجه، وتسفيه رأيه؛ لأنه

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) البقرة: ٨٣.

(٤) الحج: ٦٨، ٦٩.

(٥) سبأ: ٢٤.

(٦) العنكبوت: ٤٦.

(٧) النساء: ١٤٨.

يمثل الباطل، وحسن أن يرى الناس الباطل مهزوماً مدحوراً^(١)

ن - عدم الاعتداد بالنفس بل بالحق: قال الشيخ صالح بن حميد: (إن من الخطأ البين في هذا الباب أن تظن أن الحق لا يغار عليه إلا أنت، ولا يحبه إلا أنت، ولا يدافع عنه إلا أنت، ولا يتبناه إلا أنت، ولا يخلص له إلا أنت ومن الجميل، وغاية النبل، والصدق الصادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص؛ أن تُوقفَ الحوار إذا وجدت نفسك قد تغير مسارها ودخلت في مسارب اللجج والخصام، ومدخولات النوايا)

* * * * *

المطلب الرابع:

مجالات الحوار

يتفق العقلاء على أن ثوابت الدين، وأمّهات الفضائل، وأمّهات الرذائل، لا يتناولها الحوار ففي الإسلام الإيمان بربوبية الله وعبوديته، وأصافه بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، ونبوة محمد ﷺ، والقرآن الكريم كلام الله، والحكم بما أنزل الله، وحجاب المرأة، وتعدد الزوجات، وحرمة الربا، والخمر، والزنا؛ كل هذه قضايا مقطوع بها لدى المسلمين، وإثباتها شرعاً أمر مفروغ منه إذا كان الأمر كذلك فلا يجوز أن تكون هذه محل حوار أو نقاش مع مؤمن بالإسلام لأنها محسومة

وقد يسوغ النقاش في فرعيات من الحجاب؛ كمسألة كشف الوجه، فهي محل اجتهاد؛ أما أصل الحجاب فليس كذلك الربا محسوم؛ وقد يجري النقاش والحوار في بعض صورته وتفرعاته ومن هنا فلا يمكن لمسلم أن يقف على مائدة حوار مع شيوعي أو ملحد في مثل هذه القضايا؛ لأن النقاش معه لا يبتدئ من هنا، لأن هذه القضايا ليست عنده مُسلمة، ولكن يكون النقاش معه في أصل الديانة؛ في ربوبية الله، وعبودية ونبوة محمد ﷺ، وصدق القرآن الكريم وإعجازه^(٢)

* * * * *

(١) وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار / أ. د. عبد الرب نواب الدين آل نواب عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة وأصول الدين الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة/ صفحة ٣٠.

(٢) أصول الحوار/ صالح بن حميد/ ٤٥.

الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ^(١)

ونجد فعل الأمر: (قل) وردت (٣٤٣) مرة في القرآن الكريم من تأملها صنف مضامينها وتدبر مقول القول: وقف على منهاج متكامل في صيغ البيان وطرائق الأداء ومسالك إقامة الحجة في إحقاق الحق ودحض الباطل، وهذا لون رفيع من بلاغة القرآن يتضمن التوجيه إلى ما ينبغي أن يكون عليه الداعية من قوة العارضة والتمرس على صيغ الخطاب

وقد يأتي الأسلوب القرآني الجليل على شكل تعليم الحوار على غرار (إن قالوا كذا فقل كذا) وهي صورة من التدريب على القول ومثاله قوله تعالى: {وَقَالُوا أَبَدًا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا أَنَتَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا^(٢)

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَن حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لئنِ اتَّخَذَتِ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ^(٣)

صيغة يستفتونك ويأتي عقبها فعل الأمر (قل) وقد ورد مرتين مرة في قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا^(٤)

ومرة في قوله: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا

(١) سبأ: ٤٦ - ٥٠.

(٢) الإسراء: ٤٩ - ٥١.

(٣) الشعراء: ٢٣ - ٣٣.

(٤) النساء: ١٢٧.

وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١)

وأيضاً صيغة يسألونك ويأتي عقبها فعل الأمر (قُلْ) وقد وردت ١٥ مرة، منها:

قوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}^(٢)

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}^(٣)

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}^(٤)، {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}^(٥)

وهذا يتضمن فيما يتضمنه التوجيه بتعلم صيغ الجدل والحوار ومعرفة متى يتكلم الداعية وكيف وبماذا مما هو من مؤهلات الدعاة ومقوماتهم الخطابية^(٦)

* * * * *

المطلب السادس:

نماذج من الحوار من القرآن والسنة وسير الصحابة رضي الله عنهم

ومما ورد في القرآن الكريم من نماذج الحوار مما أمر به النبي ﷺ قول الله تعالى:

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

(١) النساء: ١٧٦.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) البقرة: ٢١٥.

(٤) البقرة: ٢١٧.

(٥) المائدة: ٤.

(٦) وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار / د. عبد الرب نواب الدين آل نواب/صفحة ٤١.

تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ^(١)

حوار موسى وفرعون:

{إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى^(٢)}

ومن السنة النبوية عشرات الأمثلة يتبين من خلالها أنه ﷺ كان يربي أصحابه على الحوار حتى في أحلك الظروف وفي المواقف التي تستدعي أناءً وتروياً، ومثاله ما كان يوم الحديبية لما كتب الصلح ورأى بعض المسلمين فيها إجحافاً، وقع حوار بين بعضهم وبين النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله ﷺ فقلت:

- ألسنت نبي الله حقاً؟

- قال: «بلى»

- قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟!

- قال: «بلى»

- قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟!

- قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»

- قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟!

- قال: «بلى فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟!»

- قال: قلت لا

- قال: «فإنك آتيه ومطوف به»

(١) آل عمران: ٦٤ - ٦٨.

(٢) طه: ٤٨ - ٥٢.

- قال: فأنتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟

- قال: بلى

- قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

- قال: بلى

- قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً؟

- قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك

بغرزه فوالله إنه على الحق

- قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

- قال: بلى فأخبرك أنك تأتيه العام؟

- قلت: لا

- قال: فإنك آتية ومطوف به

قال الزهري قال عمر فعملت لذلك أعمالاً (١)

١ - حوار بعض الصحابة حول جمع القرآن:

عن الزهري قال: أخبرني ابن السباق أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن يكتب الوحي قال: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإنني لأرى أن تجمع القرآن

- قال أبو بكر قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

- فقال عمر: هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري

ورأيت الذي رأى عمر

- قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل

ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفني نقل

(١) صحيح البخاري ٢ / ٩٧٨ (٢٥٨١).

جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن

- قلت: كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال أبو بكر: هو والله خير فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمّت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال (١)

٢- حوار ابن عباس للخوارج:

قال ابن عباس: لما اعتزلت الحرورية وكانوا على حدّتهم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أخر الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلهم قال: إني أتخوفهم عليك قلت كلا إن شاء الله فلبست أحسن ما قدرت عليه من هذه اليمانية ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة فدخلت على قوم لم أر قوما أشدّ اجتهاداً منهم أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجوههم معلنة من آثار السجود فدخلت فقالوا:

- مرحبا بك يا ابن عباس، لا تحدثوه

- قال بعضهم لنحدثنه قال:

- قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وخنته وأول من آمن به

وأصحاب رسول الله ﷺ معه

- قالوا: ننقم عليه ثلاثا

- قلت: ما هن؟

- قالوا: أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله تعالى: إن الحكم إلا لله

- قلت: وماذا قالوا قاتل ولم يسب ولم يغنم لأن كانوا كفارا لقد حلت أموالهم وإن

كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم

- قال: قلت: وماذا قالوا: ومحي نفسه من أمير المؤمنين

- قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثكم من سنة نبيكم ﷺ

ما لا تنكرون أترجعون؟

(١) صحيح البخاري ج ٤، ص ١٧٢٠ (٤٤٠٢).

- قالوا: نعم

- قال: قلت أما قولكم إنه حكم الرجال في دين الله فإنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدْقَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾، إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ أنشدكم الله أفحكم الرجال في دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات البين أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم

- قالوا: اللهم في حق دمائهم وصلاح ذات بينهم

- قال: أخرجت من هذه؟

- قالوا: نعم

- وأما قولكم: إنه قتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ إن قلت: نعم فقد كفرتم وإن زعمتم إنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وأنتم تترددون بين ضاللتين فاختراروا أيهما سنتم أخرجت من هذه؟

- قالوا: اللهم نعم

وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: «والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني اكتب يا علي محمد بن عبد الله» رسول الله ﷺ كان أفضل من علي أخرجت من هذه؟!

- قالوا: اللهم نعم

فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا^(١)

* * * * *

(١) رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالهما رجال الصحيح [مجمع الزوائد ٦ / ٢٣٩ - ٢٤١].

الفصل الثاني: أنواع الاختلاف والجدل

المبحث الأول: أنواع الجدل

المطلب الأول:

الجدل الممدوح

وهو الجدل الذي يقصد به تأييد الحق أو إبطال الباطل أو أفضى إلى ذلك بطريق صحيح ومن هذا الجدل ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض على الكفاية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهذا واجب على الكفاية منهم وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم" ^(١) وقال رحمه الله أيضا: " فأما المجادلة الشرعية كالتى ذكرها الله تعالى عن الأنبياء عليهم السلام وأمر بها في مثل قوله تعالى: {قَالُوا يَأْتِيهِمْ قَدْ جَاءَلْنَاهُ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} ^(٢)

وقوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} ^(٣) وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} ^(٤)

وقوله: {وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ^(٥) وأمثال ذلك فقد يكون واجبا أو مستحبا وما كان كذلك لم يكن مذموما في الشرع" ^(٦)

وذكر ابن القيم رحمه الله في "الهدى" ضمن فقه قصة وفد نجران: "ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم بل استحباب ذلك بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلته إلا عاجز عن إقامة الحجة" أهـ ^(٧) وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في فوائد قصة أهل نجران: "وفيهما جواز مجادلة أهل الكتاب وقد تجب إذا تعينت مصلحته" ^(٨)

* * * * *

(١) درء تعارض العقل والنقل (١ / ٥١، ٥٢).

(٢) هود: ٣٢.

(٣) الأنعام: ٨٣.

(٤) البقرة: ٢٥٨.

(٥) سورة النحل: ١٦، ١٢٥.

(٦) درء تعارض العقل والنقل (٧ / ١٥٦).

(٧) زاد المعاد (٣ / ٦٣٩).

(٨) فتح الباري (٨ / ٩٥): كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران.

المطلب الثاني :

الجدل المذموم

وهو الجدل الذي يقصد به الباطل أو تأييده أو يفضي إليه أو كان القصد منه مجرد التعالي على الخصم والغلبة عليه فهذا ممنوع شرعا ويتأكد تحريمه إذا قلب الحق باطلاً أو الباطل حقا قال ابن تيمية رحمه الله: "والمذموم شرعا ما ذمه الله ورسوله كالجدل بالباطل والجدل بغير علم والجدل في الحق بعدما تبين" ^(١) ويدخل في هذا النوع دعوات التقارب ونظريات الخلط بين الأديان فإنها من الباطل الصرف؛ كما يدخل فيه كثير من الحوارات الحضارية المعقودة مع أهل الكتاب لما تفضي إليه من الباطل

ومما يحسن مراعاته في هذا المقام: التفريق بين مقام الدعوة ومقام دفع الصائل وهل هما على حد سواء أم لا؟ من استبان عنده الفرق بين المقامين لمس من كلامه نصرة الإسلام وعزته ولهذا فإن الفرق جلي بين من يرد وينافح على سبيل الدعوة وبين من يرد على هيئة دفع الصائل!

إن الرد على جاحد الحق الذي يقيم الحجج والشبه على باطله لا ينبغي أن يكون من باب الدعوة بالحكمة أو الموعظة الحسنة بل يجب أن يكون من باب دفع ضرره عن المسلمين وصياله عليهم فإذا صال عسكر الكفر على المسلمين بالسلاح المادي وجب أن يرد ذلك بالسلاح المادي إن كان في المسلمين طاقة وقدرة والقدرة بالسيف ليست دائمة للمسلمين بخلاف ما إذا صال عسكر الكفر بالحجج الباطلة فإنه يجب على أهل العلم والإيمان الدفاع عن الإسلام بإقامة حججه الصحيحة ودلائله الصريحة وذلك أن الإسلام منصور أبداً في مقام الحجة والبرهان هذا هو الأصل

ولا يغيظ الكفار شيء كما يغيظهم إقامة حجة الإسلام وبيان براهينه والتدليل على أباطيل الكفر وأحاييله يقول أبو محمد ابن حزم - وهو كلام نفيس - : "وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطْغَوْنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصاعدة وقد تهزم العساكر الكبار والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي

(١) درء التعارض (٧ / ١٥٦).

والأعداد الجمة وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد المسلمين وأول ما أمر الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ أن يدعو له الناس بالحجة البالغة بلا قتال فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق الله تعالى عليهم السيف حينئذ؛ وقال تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} وقال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} ولا شك في أن هذا إنما هو بالحجة لأن السيف مرة لنا ومرة علينا وليس كذلك

البرهان بل هو لنا أبدا ودماغ لقول مخالفينا ومزهق له أبدا ورب قوة باليد قد دمغت بالباطل حقا كثيرا فازهقته منها يوم الحرة ويوم قتل عثمان رضي الله عنه ويوم قتل الحسين وابن الزبير رضي الله عنهم وقد قتل أنبياء كثير وما غلبت حجتهم قط" أهـ^(١)

وإذا تقرر ذلك فإنَّ المجادل عن الإسلام عليه أن يدرك أحوال من يجادل ويحاور في قبوله أو رده للحق فإنَّ أنزلهم منزلة واحدة فهناك يفقد الكلام معناه ويصبح الأمر مضطربا محيرا لمن قلَّتْ بصيرته في هذا الباب ويكون ذلك داعيا لفتنة بعض المسلمين ببعض قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "الإنسان له ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به وإما أن يعرفه ولا يعمل به وإما أن يجحده

فأفضلها: أن يعرف الحق ويعمل به

والثاني: أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به

والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه

فصاحب الحال الأول: هو الذي يدعى بالحكمة فإنَّ الحكمة هي العلم بالحق والعمل به فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيُدْعَوْنَ بالحكمة

والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة

فهاتان هما الطريقتان: الحكمة والموعظة وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا فإنَّ النفس لها هوى تدعوها إلى خلاف الحق وإنَّ عرفته؛ فالناسُ يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١ / ٢٨).

وأما الجدلُ فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل؛ فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن ولهذا قال: **{وَجَادِلْهُمْ}** فجعله فعلا مأمورا به مع قوله: ادْعُهُمْ فأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن وقال في الجدل: **{بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** ولم يقل بـ الحسنة كما قال في الموعظة؛ لأن الجدل فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل فما دام الرجل قابلا للحكمة أو الموعظة الحسنة أولهما جميعا لم يحتج إلى المجادلة فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن" انتهى (١)

* * * * *

المطلب الثالث:

أولا - أنواع الاختلاف وأسبابه

الاختلاف نوعان: اختلاف مذموم، واختلاف محمود:

١ - الاختلاف المذموم: وهو اختلاف تضاد، ويرجع إلى أسباب خلقية متعددة، ومن هذه الأسباب:

- أ - الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي
 - ب - سوء الظن والمسارة إلى اتهام الآخرين بغير بينة
 - ج - الحرص على الزعامة أو الصدارة أو المنصب
 - د - اتباع الهوى وحب الدنيا
 - هـ - التعصب لأقوال الأشخاص والمذاهب والطوائف
 - و - العصبية لبلد أو إقليم أو حزب أو جماعة أو قائد
 - ز - قلة العلم في صفوف كثير من المتصدرين
 - ح - عدم التثبت في نقل الأخبار وسماعها
- وهذه الأسباب وغيرها من الرذائل الأخلاقية والمهلكات هي التي ينشأ عنها اختلاف غير محمود وتفرق مذموم، وكل واحد من هذه الأسباب يطول شرحه، وسنأتي على ذكر

(١) الرد على المنطقيين (٤٦٧، ٤٦٨).

الكثير من هذه الأسباب عند الكلام عن القواعد العلمية والأخلاقية في أدب الخلاف

٢- الاختلاف المحمود: وهو اختلاف تنوع، وهو عبارة عن الآراء المتعددة التي تصب في مشرب واحد، ومن ذلك ما يعرف بالخلاف الصوري، والخلاف اللفظي، والخلاف الاعتباري وهذه الاختلافات مردها إلى أسباب فكرية، واختلاف وجهات النظر، في بعض القضايا العلمية، كالخلاف في فروع الشريعة، وبعض مسائل العقيدة التي لا تمس الأصول القطعية

وكذلك الاختلافات في بعض الأمور العملية، كالخلاف في بعض المواقف السياسية، ومناهج الإصلاح والتغيير، ويدخل في الخلافات الفكرية: اختلاف الرأي في تقويم بعض المعارف والعلوم مثل: علم الكلام والمنطق والفلسفة والتصوف والاختلاف في تقويم الأحداث التاريخية وبعض الشخصيات التاريخية والعلمية

وهذا الخلاف ليس فيه مذمة، وإنما الذم في عدم مراعاة آداب الخلاف العملية والأخلاقية التي سيأتي ذكرها في ثنايا هذا البحث

وجود الخلاف في خير قرون الأمة:

لقد كان الخلاف موجوداً في عصر الأئمة المتبوعين الكبار: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وغيرهم ولم يحاول أحد منهم أن يحمل الآخرين على رأيه أو يتهمهم في علمهم أو دينهم من أجل مخالفتهم

بل كان الخلاف موجوداً في عصر شيوخ الأئمة وشيوخ شيوخهم من التابعين الكبار والصغار، بل كان الخلاف موجوداً في عصر الصحابة نظراً لاختلاف أفهامهم وتفسيرهم للنصوص

بل إن الخلاف وجد في عهد النبي ﷺ، فأقره ولم ينكره، كما في قضية صلاة العصر في بني قريظة، وهي مشهورة، وفي غيرها من القضايا

فأما طبيعة الدين:

فقد أراد الله أن يكون في أحكامه المنصوص عليه والمسكوت عنه، وأن يكون في المنصوص عليه: المحكمات والمتشابهات، والقطعيات والظنيات، والصريح والمؤول، لتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط، فيما يقبل الاجتهاد

ولو شاء الله لأنزل كتابه كله نصوصاً محكمة قطعية الدلالة، لا تختلف فيها الأفهام، ولا تتعدد التفسيرات ولكنه لم يفعل ذلك، لتتنق طبيعة الدين مع طبيعة اللغة، وطبيعة الناس وضروريات الزمن

وأما طبيعة اللغة:

فإن نصوص القرآن والسنة، جاءت على وفق ما تقتضيه اللغة في المفردات والتركيب، ففيها اللفظ المشترك الذي يحتمل أكثر من معنى، وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز، والعام والخاص، والمطلق والمقيد

وأما طبيعة البشر:

فقد خلقهم الله مختلفين، فكل إنسان له شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وميوله الخاصة، ومن العبث صب الناس في قالب واحد، ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا أمر مخالف للفطرة التي فطر الله عليها الناس

وأما طبيعة الكون والحياة:

فالكون الذي نعيش في جزء صغير منه، خلقه الله - سبحانه - مختلف الأنواع والصور والألوان، وهذا الاختلاف ليس اختلاف تضارب وتناقض بل هو اختلاف تنوع وكذلك طبيعة الحياة، فهي أيضاً تختلف وتتغير بحسب مؤثرات متعددة، في المكان والزمان

فالاختلاف سنة كونية اقتضتها الحكمة الإلهية، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(١) وفي الأثر: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساوا هلكوا"^(٢)

* الاختلاف رحمة: الاختلاف مع كونه ضرورة، هو كذلك رحمة بالأمة وتوسعة عليها ولهذا اجتهد الصحابة واختلفوا في أمور جزئية كثيرة، ولم يضيقوا ذرعا بذلك بل نجد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول عن اختلاف الصحابة رضي الله عنهم: "ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة" فهم باختلافهم أتاحوا لنا فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم، كما أنهم سنوا لنا سنة الاختلاف في القضايا الاجتهادية، وظلوا معها إخوة متحابين

(١) هود: ١١٨.

(٢) فتح الباري ١٣ / ١٦.

* الاختلاف ثروة: اختلاف الآراء الاجتهادية يثري الفقه، وينمو ويتسع، لأن كل رأي يستند إلى أدلة واعتبارات شرعية

وبهذا التعدد والتنوع تتسع الثروة الفقهية التشريعية، وإن تعدد المذاهب الفقهية وكثرة الأقوال كنوز لا يقدر قدرها، وثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العلم والبحث، فقد يكون بعضها أكثر ملاءمة لزمان ومكان من غيره^(١)

* رد الاختلاف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ : مصداقاً لقوله تعالى: {إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} ^(٢)، شريطة أن نعود ونستنبط بالطرق التي استنبط بها علمائنا السابقون، وليس بالأهواء أو بالاعتساف أي أن يكون الأمر مجمعاً عليه فلا نعود لمذهب دون مذهب بل يعرض الأمر على ثلثة من العلماء حتى نحقق الأمور

* اتباع المنهج الوسط: فالله - سبحانه وتعالى - يقول: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} ^(٣)، ويقول: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} ^(٤)، ويقول سبحانه وتعالى: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} ^(٥)

فالتشدد منهج ينبذه الإسلام فلا بد إذاً من رخصة وتيسير على الناس ومراعاة ظروفهم * التفريق بين القطع والظن في الأدلة والتركيز على المحكمات لا المتشابهات: فمن المعلوم أن النصوص بعضها ظني الثبوت وظني الدلالة، وبعضها ظني الثبوت قطعي الدلالة، وبعضها قطعي الثبوت وظني الدلالة، وبعضها قطعي الثبوت قطعي الدلالة فقطعية الثبوت هي القرآن الكريم والسنة المتواترة، والأحاديث الأحاديث الصحيحة التي حفت بها قرائن وتلقاها الأمة بقبول حسن

* تجنب القطع في المسائل الاجتهادية: فالاجتهاد إذا كان وفقاً لأصول الاجتهاد ومناهج الاستنباط في علم أصول الفقه يجب عدم الإنكار عليه، ولا ينكر مجتهد على مجتهد آخر، ولا ينكر مقلد على مقلد آخر وإلا أدى ذلك إلى فتنة

* إن من أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: فلا بد له أن يطلع على خلافاً العلماء وأدلة كل منهم حتى لا ينكر على الناس أمراً هم متبعون فيه علماء أفاضل فالاختلاف

(١) الصحو الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، للقرضاوي / ٥٣.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) النساء: ٢٨.

(٥) المائدة: ٦.

من ضروريات الحياة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(١)، فالتعصب لمذهب واحد واعتقاد أن كل من خالفه مخطئ أمر يجرُّ إلى فتن عظيمة

* تحديد المفاهيم والمصطلحات التي يدور حولها النقاش: إذ يجب أن تكون واضحة جلية وهو ما يسميه العلماء تحرير موضع النزاع فكثير من النقاشات التي تقدم اليوم مردها إلى خلاف في اللفظ

النظرة الشمولية: فلا بد من الجمع بين كل ما ورد فيما يخص المسألة الواحدة لتحريرها تحريراً جلياً واضحاً وأرى ألا ننساق وراء شيخ واحد نقده أو عالم واحد نعظمه ولا نلتفت إلى سواه وإلا دخلنا في محذور قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢)

* النظر في المقاصد واعتبار المآلات: فمسألة المقاصد الإسلامية لها دور كبير في تيسير المعاملات وتسهيل العمل في هذا الزمن وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٣)

أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح: فالإخلاص مقدم على غيره

يقول الرسول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فكل الفضائل مردها إلى القلب

* الاهتمام بهوم المسلمين: فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم إن مشكلاتنا اليوم كثيرة ومتعددة احتوت الظلم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والتفسخ والانحلال وهناك أمراض جديدة لم نكن نألفها، فلماذا لا نتفق على ما اتفقنا عليه وندع الخلافات ونواجه الخطر الداهم اليوم خطر التمزق، وخطر التدهور

* التعاون في المتفق عليه: إن مشكلة الأمة الإسلامية اليوم ليست في ترجيح أحد الرأيين أو الآراء في القضايا المختلف فيها بناءً على اجتهاد أو تقليد فالواقع أن الخطأ في هذه القضايا يدور بين الأجر والأجرين

ولكن مشكلة الأمة حقا في تضييع الأمور المتفق عليها، مشكلة المسلمين ليست في

(١) هود: ١١٨.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري/١.

الذي يؤول آيات الصفات وأحاديثها - وإن كان مذهب السلف أسلم وأرجح - بل في الذي ينكر الذات والصفات جميعاً

مشكلة المسلمين ليست فيمن يقول: استوى على العرش بمعنى (استولى) أو كناية عن عظمة سلطانه تعالى، بل فيمن يجحد العرش ورب العرش معا
مشكلة المسلمين ليست فيمن يجهر بالبسملة أو يخفها أو لا يقرأها في الصلاة، ولا فيمن يرسل يديه في الصلاة أو يقبضهما، ومن يرفع يديه عند الركوع أو الرفع منه أو لا يرفعهما، إلى آخر هذه المسائل الخلافية الكثيرة المعروفة
إنما مشكلة المسلمين فيمن لا ينحني يوماً لله راکعاً، ولا يخفض جبهته لله ساجداً، ولا يعرف المسجد ولا يعرفه المسجد

مشكلة المسلمين ليست فيمن يأخذ بأحد المذاهب المعتبرة في إثبات هلال رمضان أو شوال، بل فيمن يمر عليه رمضان كما مر عليه شعبان وكما يمر عليه شوال، لا يعرف صياماً ولا قياماً، بل يفطر عمداً جهاراً ونهاراً، بلا خشية ولا حياء
مشكلة المسلمين ليست في عدم تغطية الوجه بالنقاب، واليدين بالقفازين، كما هو رأي بعض العلماء، بل في تعري الرؤوس والنحور، والظهور، وليس القصير الفاضح، والشفاف الوصاف، إلى آخر ما نعرف مما يندى له الجبين

إن المشكلة حقاً هي وهن العقيدة، وتعطيل الشريعة، وانهيار الأخلاق وإضاعة الصلوات، ومنع الزكوات، واتباع الشهوات، وشيوع الفاحشة وانتشار الرشوة وخراب الذمم، وسوء الإدارة، وترك الفرائض الأصلية وارتكاب المحرمات القطعية وموالاته أعداء الله ورسوله والمؤمنين

مشكلة الأمة المسلمة الحقيقية في إضاعة أركان الإسلام، ودعائم الإيمان، وقواعد

الإحسان

فالواجب على دعاة الإسلام أن ينبهوا على التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء، وأن يرفعوا شعار (التعاون فيما نتفق عليه) فإن هذا التعاون فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين وضرورة يحتمها الواقع

* * * * *

المطلب الرابع: الحكمة في الدعوة

الدعوة إلى الله هي طريق المرسلين وقد لاقى أنبياء الله في ذلك ما لاقوا من العنت والصدود والإباء والاستكبار من لدن فئات كثيرة، وطبقات كبيرة من الملأ الذين استكبروا **إِذْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**^(١)

وفي هذه الكلمات سوف ينحصر الكلام على الحكمة بيانا لمعناها وإيضاحا لمدلولاتها ذلك أن الحكمة إذا اقترنت بالدعوة فإنها تقوي الأمل واليقين، وترتفع بالمدعويين إلى مستوى الشعور بالمسؤولية والتكليف، وإذا ما تأكد فيها هذا الشعور فسوف تتغير طباعهم وتعتدل مسالكهم ويصح توجيههم فحق على الداعي إلى الله أن يعمل على إيقاظ هذا الشعور هذا وسوف أعرض إلى تعريف كل من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ثم العوامل التي تحقق مفهوم الحكمة: من ضرورة معرفة طبائع الناس، وطبقات المدعويين، والنظر في الظروف الزمانية والمكانية، والأساليب القولية والعملية

١- تعريف الحكمة:

الحكمة: مأخوذ من الحكمة - بفتح الكاف والميم - وهو ما يوضع للدابة كي يذللها راكبها فيمنع جماحها ومنه اشتقت الحكمة قالوا: لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل^(٢) والحكمة في حقيقتها: وضع الأشياء في مواضعها

وهذا تعريف عام يشمل الأقوال والأفعال وسائر التصرفات، ولعلك أخي الفاضل تدرك أن الحكمة التي نرمي إلى بيانها في هذه المقالة هي الحكمة التي ينبغي أن يتصف بها القائم بالدعوة إلى الله، ومن أجل هذا فهي غالبا ما تكون قولاً في علم وموعظة أو تصرفاً نحو الآخرين من أجل دفعهم إلى الخير أو صرفهم عن الشر

وفي هذا المفهوم يقول ابن زيد: (كل كلمة وعظمتك أو دعوتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة)

(١) يوسف: ١٥٨.

(٢) المصباح المنير ٥٦.

وأدق من هذا قول أبي جعفر محمد بن يعقوب: (كل صواب من القول ورث فعلا صحيحا فهو حكمة) وفي تعريفات الجرجاني: (كل كلام وافق الحق فهو حكمة) وفي قوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} (١) ربطت الآية الكريمة بين الحكمة والخير، ووجه هذا الارتباط أن الحكمة تشمل المعاني الصائبة من السداد في القول والفعل

وبمعنى آخر: فإن الحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، ومن شاء إيتاءه هذه الحكمة - أي خلقه مستعدا لذلك قابلا له، من سلامة التفكير واعتدال القوى والطباع - فيكون قابلا لفهم الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصدده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة ثم يبسر له أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من المعاندين العتاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيرا، ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير

وحينئذ يتحقق له الخير الكثير في قوله سبحانه: {فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} فالخير الكثير منجر إليه سداد الرأي والهدى الإلهي، ومن تفاريع هذا الخير ما يتولد من قواعد الحكمة التي تعصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار التوكل في فهمها واستحضار مهامها لأنك إذا تتبعت ما يحل بالناس من المصائب تجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة والرأي الآفن، وبعكس ذلك فإن ما يجتنيه الناس من المنافع والملائمات مجتلب من المعارف والعلم بالحقائق، ولو علم الناس الحق على وجهه لاجتنبوا مواقع البؤس والشقاء (٢)

يتبين من مجموع ما سبق: أن الحكمة كلمة عامة تشمل الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لأصول الآداب فهي معرفة خالصة من شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وتهذيبهم وتوجيههم إنها اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير (٣)

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) التنوير والتحرير ٣ / ٦٤.

(٣) التنوير والتحرير ٣ / ٦٠ - ٦٣، ٤١ / ٣٥.

٢- الموعظة الحسنة:

يلحظ في التعريف السابق للحكمة أن الموعظة الحسنة والجدال بالتّي هي أحسن داخلان في مفهوم الحكمة

ولكن يحسن تخصيصهما بمزيد تعريف وإيضاح لأن المقام مقام بسط لمفهوم الحكمة، وقد جاءا مخصوصين بالذكر في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)

وإذا كانا داخلين في معنى الحكمة بالمعنى السابق فيكون عطفهما في الآية الكريمة من عطف الخاص على العام والأصل في الموعظة: أنها القول الذي يلين نفس المخاطب ليستعد لفعل الخير والاستجابة له

والموعظة في معناها تدل على ما يجمع الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة ولهذا قال ابن عطية: (الموعظة الحسنة: التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تجله وتنشطه وتجعله بصورة من يقبل الفضائل)^(٢)

ويشير الزمخشري إلى معنى لطيف في هذا حين يقول: (إن الموعظة الحسنة هي التي لا تخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم) والخلاصة: أنها تذكير بالخير فيما يرق له القلب^(٣)

وهذه إشارة جميلة عرض لها أهل العلم في السر في وصف الموعظة بالحسنة ولم يرد ذلك في الحكمة فقد قالوا: قيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد الحكمة لأن الحكمة هي تعليم لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابه فلا تكون إلا في حالة حسنة فلا حاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة

أما الموعظة الحسنة فلما كان المقصود منها غالبا ردع نفس الموعظ عن أعمال سيئة أو عن توقع ذلك منه، كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ ومن الوعظ الحسن إلانة القول وترغيب الموعوظ في الخير: ﴿ادْهَبَا إِلَى

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٢) البحر المحيط ٥ / ٥٤٩.

(٣) التعريفات: ١٣٢.

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى^(١)

* * * * *

المطلب الخامس:

الجدال بالتالي هي أحسن

الجدل في أصله: الاحتجاج لتصويب رأي ورد ما يخالفه فهو حوار وتبادل في الأدلة ومناقشتها وهو حال أوسع من الخصام والمخاصمة على أن المخاصمة نوع جدل من حيث هي تراد في الكلام والحجج ومن أجل هذا قال الجرجاني في تعريفاته: "الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو بقصد تصحيح كلامه، قال: وهو الخصومة في الحقيقة"

غير أن الذي نعنيه هنا هو الجدل والمحااجة والحوار بما لا يرقى إلى الخصومة، إلا إذا اعتبرنا الجدل مع الظالمين خصومة؛ لأنه قد تجرد منه نعت الحسن، وإذا احتاج رجل الدعوة إلى الجدل فليكن بالتالي هي أحسن

وقريب من التوجيه المذكور في الموعظة الحسنة يقال هنا ويكون حسن الجدل في الالتزام بموضوعيته، وبعده عن الانفعال، والترفع عن المسائل الصغيرة في مقابل القضايا الكبرى، حفظا للوقت وعزة للنفس وكمالا للمروءة، مع الحرص على الرفق واللين، والبعد عن الفظاظة والتعنيف، ويدخل في الجدل الحسن

كما يقول الطاهر بن عاشور^(٢): رد تكذيب المعاندين بكلام غير صريح في إبطال قولهم من الكلام الموجه، مثل قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}^(٣)

وقوله: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}^(٤)

* * * * *

(١) طه: ٤٣، ٤٤.

(٢) التحرير ١٤ / ٣٢٥ - ٣٣٠.

(٣) سورة سبأ: ٢٤.

(٤) سورة الحج: ٦٨، ٦٩.

المبحث الثاني: معالم الحكمة في أساليب الدعوة وأخلاق الدعاة

المطلب الأول:

من معالم الحكمة في الدعوة

وبعد هذه المقدمة التي أظنكم استشعرتهم من خلالها بعض معالم تشير إلى مواطن الحكمة ومسالكها عن طريق معرفة حقيقة الحكمة وأبرز الصفات في رجل الدعوة أحب أن أبسط بعض البسط في معالم أراها حقيقة بذلك:

وسوف يكون هذا البسط من خلال التعرف على طبائع النفوس، وطبقات المدعوين، وتخير الأوقات، وانتهاز المناسبات ثم النظر في طرائق الدعوة وأساليبها من إحسان في القول، والحرص على التلميح إذا أمكن الاستغناء به عن التصريح، والقصد إلى الستر والنصيحة، والبعد قدر الإمكان عن التشهير الذي قد ينقلب إلى فضيحة مع سلوك الإدارة المشروعة، وإقالة العثرات ما أمكن، وإليك أخي الفاضل بسطا لبعض هذه المعالم:

* المعلم الأول: طبائع النفوس وطبقات المدعوين: الناس متباينون في طبائعهم، مختلفون في مدركاتهم، في العلم والذكاء، في الأمزجة والمشاعر، مختلفون في الميول والاتجاهات مما يدعو رجل العلم والدعوة إلى تخير المدخل بل المداخل المناسبة لتلك النفوس المختلفة والعقول المتباينة

نعم، إن فيهم الغضوب والهادئ، وفيهم المثقف والأمي، وفيهم الوجيه وغير الوجيه بل إن ثمة كلمة لعلني - رضي الله عنه - يصف فيها القلوب، كل القلوب بأنها وحشية فهو يقول: (القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه)

إنه يصورها رضي الله عنه وكأنها دواب متوحشة لا تعرف الألفة في طبعها ويبدو هذا والله أعلم في ميدان النصائح والتوجيهات فهل رأيت من يرضى أن تنسبه إلى جهل أو عدم معرفة أو سوء في التصرف إن الإنسان يعظم عليه أن ينسب إلى الجهل، ولذا تراه يغضب إذا نبه على الخطأ، ويجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة انكشاف جهله

إنها في هذا الباب تنفر إذا قرب منها، بل لعلها بدافع الدفاع عن النفس تهجم وتؤذي، ومن كان صاحب حكمة وفطنة في ترويض الوحوش فهو المفلح بتوفيق الله في هداية الناس

وصاحب الترويض الناجح هو الذي يحرص على تلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، وتقصد إلى شيء من العطف على أخطائهم وحمقاتهم شيء من العناية - غير المتصنعة - باهتماماتهم وهمومهم وسوف يصل إلى مصدر النبع الخير في نفوسهم، وحينئذ يمنحونه حبههم وثقتهم

إن شيئاً من سعة الصدر، والإحاطة بطبائع النفوس كفيل بتحقيق الخير في الناس بنتيجة لا يظنها الكثيرون، ينبني على ذلك ملاحظة استيعاب المدعو وسعة مداركه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فيوقعه إما في النفرة والشرود، وإما في التخبط الفكري والدخول في غياهب الفتن

وفي ذلك يقول ابن مسعود - رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) ويقول علي - رضي الله عنه -: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)

* المعلم الثاني: تخير الأوقات وانتهاز المناسبات:

هذا معلم كبير ومؤثر من معالم الحكمة وتلمسها، يبلور ذلك كلمة جامعة لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها) وقد كان - رضي الله عنه - يذكرهم كل خميس، فقال رجل: لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: (أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا مخافة السامة علينا) (١) ولأمر ما، كان نزول كتاب ربنا منجماً ومفرقاً على المناسبات والأحداث والأزمنة والأمكنة

وأنت خبير أن إقبال الناس في رمضان يختلف عنه غيره، وقل مثل ذلك في المناسبات المختلفة، والأحداث المتجددة من وقائع الأفراح أو حلول المصائب، فأخذ الناس بهذا ومراعاة تقلبات الدهر من حولهم يدرك به سراً عظيماً في التأثير والاستجابة وإن شئت مزيداً في هذا فانظر في الأوقات والأحوال التي يتأكد فيها استحباب الدعاء كأوقات السحر، ونزول الغيث، والتقاء الجيوش وإن رغبت في واقعة فانظر في حكمة يوسف عليه السلام حين استغل الفرصة مع الفتيين عند تعبير رؤياهما وظروف سجنهما فدعاهما إلى الله الواحد الأحد

(١) سنن الترمذي ما جاء في الفصاحة والبيان / ٢٧٨٢.

{يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (١)

يلتحق بذلك مراعاة الأعراف والتقاليد المرعية والطبائع في الحرف والصناعات وقد يكون فيما أشار إليه أهل العلم رحمهم الله من تنوع معجزات أنبياء الله ومناسباتها مع ما يسود البيئات من علوم ومعارف كعصا موسى عليه السلام في بيئات السحرة، وإبراء عيسى عليه السلام في بيئات الطب، وكتاب محمد ﷺ في بلاغة العرب ما يشير إلى ما قصدناه

* المعلم الثالث: مراعاة التدرج وترتيب الأولويات:

ما قيل في طبقات المدعويين، وطبائع النفوس، وملاحظة المناسبات يقابله نظر آخر في المدعو إليه فلا شك أن الحكمة تقتضي النظر في متدرجات أمور الدعوة، لأخذ الناس بالأول فالأول فقضايا العقيدة وأصول الملة والديانة تأتي في المقام الأول فهي إن لم تصح في العبد، فلن يجدي فيه الصنيع الحسن والعمل الطيب: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا} (٢)

ففي الدعوة كليات وجزئيات، وواجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات، وقضايا كبرى وصغرى كل يجب أن تعرف مواقعها وتوضع في مواضعها

وأظن الأمر أوضح من أن يبسط القول فيه، وخذوا دليلاً: منهاج مندوب الدعوة ومبعوثها إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقد رسم له الرسول ﷺ هذا المنهج حين قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَعْلَمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَأَعْلَمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فترد على فقرائهم» (٣)

* * * * *

(١) سورة يوسف: ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة الكهف: ١٠٣ - ١٠٥.

(٣) صحيح البخاري بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع/المغازي (٤٠٠٠).

المطلب الثاني :

معالم الحكمة في أساليب الدعوة

يقصد بالأساليب هنا: ما يتعاطاه رجل الدعوة من طرق وصيغ يتوصل من خلالها إلى إبلاغ الحق إلى الناس، وتبصيرهم بما ينفعهم ودفع ما يضرهم وهذه الأساليب في جملتها قولية كلامية، أو تعامل مباشر مع المدعويين في ترفق ولين، وغض عن الهفوات، وسلوك نهجي الترغيب والترهيب، والشدة واللين وهذا شيء من بسط لهذه الأساليب:

* المعلم الأول: القول الحسن:

إذا أحكم صاحب الدعوة قوله وسدد لفظه فقد أوتي من الحكمة باباً عظيماً يقول الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١)

ويقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ يقول عطاء: فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي!!

وأورد القرطبي في تفسيره على هذه الآية حديثاً عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عائشة لا تكوني فحاشة فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء»^(٢)

ويعلق القرطبي رحمه الله فيقول: وهذا حض على مكارم الأخلاق فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطة طلقاً مع البر والفاجر، والقريب والغريب من غير مداهنة ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه إلخ^(٣)

والقول يكون حسناً وحكمة بقدر ما يعتني بأصول الكلام، ويتعد عن فضوله يتحرك بنبضات القلب الحي، وهواجس النفس الصادقة

ويحسن الكلام حين يكون قصداً عدلاً ليس بالإيجاز المخل ولا الطويل الممل، وقد كانت خطبه عليه الصلاة والسلام قصداً كما في الحديث الصحيح عند مسلم من رواية

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) القرطبي ٢ / ١٦.

(٣) القرطبي ٢ / ١٦.

جابر بن سمرة رضي الله عنه وتأملوا في هذا الحوار الهادئ، والقول الحسن في الجدل الحسن: فهذا حصين الخزاعي والد عمران كانت قریش تعظمه وتجله فطلبت منه أن يكلم محمداً ﷺ في آلهتها فقد كان محمد يذكرها ويسبها

فجاء حصين ومعه قریش حتى جلسوا قريبا من باب النبي ﷺ ودخل حصين فلما رآه النبي ﷺ قال: «أوسعوا للشيخ»، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أنك تشتم آلهتنا فقال: «يا حصين كم تعبد من آلهة؟» قال سبعا في الأرض، وواحدا في السماء فقال: «فإذا أصابك الضر فمن تدعو؟» قال: الذي في السماء قال: «فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذي في السماء قال: «يستجيب لك وحده وتشرك معه؟ يا حصين أسلم تسلم»، فأسلم فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ﷺ: «شيعوه إلى منزله» (١)

عجبا! دخل كافرا ناقما منتقما فخرج مسلما صادقا ليت شعري كيف كان حال قریش مع صاحبها ووجيها!!

ويدخل في ذلك: القول اللين الذي يستثير النوازع البشرية ووشائج القربى، وعبارات الحنو والشفقة، إبراهيم عليه السلام ينادي أباه بكلمات شفوقة

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} (٢)

وكل نبي يقول لقومه: يا قوم تذكر يا أواصر القربى ومواطن الحب والشفقة ومحمد ﷺ يقول لقومه في كلمة رقيقة في دعوة رقيقة: «إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم» (٣)

* المعلم الثاني: التصريح والتعريض

(١) أهل العلم مختلفون في إسلام حصين، والأرجح القول بإسلامه كما ذكر الحافظ ابن حجر وغيره.

(٢) سورة مريم: ٤٣، ٤٧.

(٣) مسند أحمد/ ١٢٢٣٥.

ومن القول الحسن: الجنوح إلى التعريض والتلميح دون التصريح
فالتصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، والتبجح بالمخالفة،
ويهيئ على الإصرار والعناد

أما التعريض فيستميل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، والبصائر اللامعة
قيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء أو يبلغه عنه، أيقوله له؟ قال:
هذا تبكيت، ولكن تعرض

وكل ذلك من أجل رفع الحرج عن النفوس، واستثارة داعي الخير فيها كيف و
التعريض سنة محفوظة عن النبي ﷺ في مخاطبة أصحابه: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا»^(١)
* المعلم الثالث: النصيحة لا الفضيحة

أردت تخصيص النصيحة بالذكر هنا وإن كانت داخلة في كل ما سبق بل النصيحة
مقصود أعظم في الدعوة إن لم تكن هي الدعوة كلها

ولكن المراد هنا: الإشارة إلى آداب النصيحة كمظهر من مظاهر الحكمة في الدعوة،
وبخاصة إذا ما حاولنا البعد بالنصيحة عن أن تكون تشهيراً وفضيحة ويوضح ذلك الحافظ
ابن القيم - رحمه الله - حين يقول: (والنصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة
والشفقة عليه والغيرة له، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، مراد الناصح
بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه)

فهي دعوة إصلاح يجب أن يتمخض فيها الإخلاص لله، مع المحافظة على مشاعر المنصوح
على نحو ما سبق في المعالم السابقة لئلا ينقلب النصح مخاصمة وجدالاً وشرأ ونزاعاً

يؤكد جانب الدقة في هذا الأمر أن ذكر الإنسان بما يذكره هو على أصل التحريم وقد
قيل لبعض السلف: (أحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا)

ولا يكاد يفرق بين النصيحة والتعيير إلا النية والباعث والحرص على الستر، وقد
نهى النبي ﷺ السيد أن يثر بأمته - أي يلومها على ذنبها - فقال عليه الصلاة والسلام:
«إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يثر»^(٢)

(١) مسند أحمد/١٣٠٤٥.

(٢) صحيح البخاري/ ٦٣٣٤ كتاب الحدود.

يقول الفضيل: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير) وكانوا يقولون: (من أمر أخاه على رؤوس الملأ فقد عيره)

ذلك أن الناصح الصادق ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة، وإخراج أخيه من غوائلها

وشتان بين من قصده النصيحة، ومن قصده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى وكما قالت أم الدرداء: (من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه)^(١)

* المعلم الرابع: أدب التعامل

كان الكلام فيما سبق تنبيها على مواطن الحكمة في القول والمخاطبة وحسن المجادلة

وفي هذه الفقرات إشارات إلى بعض ما ينبغي من أدب التعامل مع المدعويين، وبخاصة حينما يرى عليهم ما يستحق التنبيه، ويستوجب الملاحظة والتغيير وسوف ينتظم هذا الحديث صورا من اللين في التعامل، ثم المداراة وإقالة العثرات، ومواطن الترغيب والترهيب

* صورة من اللين في التعامل:

النفوس مجبولة على حب من يحسن إليها ويتلقاها باللين ويبسط لها في المحيا والشدة قد تدفع إلى المكابرة والنفور والإصرار، فتأخذ النفس العزة بالإثم على نحو ما سبق بسطه، فالتعامل المؤثر ما كان دمثا يفتح القلوب ويشرح الصدور فمحمد ﷺ وأصحابه والمؤمنون رحماء بينهم

يروى معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - قال: صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أماء، ما شأنكم تنظرون؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يصمتونني فلما رأيتهم يسكتونني لكني سكت قال: فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي وأمي ما ضربني ولا سبني

وفي رواية: فما رأيت معلما قط أرفق من رسول الله ﷺ؛ قال: «إن هذه الصلاة لا

(١) مفهوم الحكمة في الدعوة/المكتبة الشاملة / ٣١.

يحل فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(١)

وفي مدلولها قصة الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد فقام الصحابة لينهروه فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما فرغ دعاه عليه الصلاة والسلام قائلاً له: «إن المساجد لا تصلح لهذا إنما هي لذكر الله والصلاة» فولى الأعرابي وهو يقول: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فقال له النبي ﷺ وهو يضحك: «لقد حجرت واسعا»^(٢)

قال الحافظ معلقاً على أمثال هذه الوقائع: والمراد من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبيب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالباً بالازدياد بخلاف ضده، والله أعلم

وفي هذا يقول الإمام أحمد: (كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلاً رحمكم الله)

ودعي الحسن البصري - رحمه الله - إلى عرس فجيء بجام من فضة (أي قدح أو إناء) عليه خبيص أو طعام (والخبيص طعام من التمر والسمن) فتناوله فقلبه على رغي فأصاب منه فقال رجل: هذا نهى في سكون

ويروى أن الخليفة المأمون وعظه واعظ فأغلظ له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٣)

* المعلم الخامس: المداراة

المداراة صورة من صور التعامل الدال على الحكمة، والموصل إلى المقصود مع حفظ ما للداعي والمدعو من كرامة ومروءة

وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه فقال: المداراة مع الناس، ثم أورد حديث عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «ائذنوا له

(١) مسند أحمد / ٢٢٦٤٤.

(٢) مسند أحمد / ٦٩٥٧.

(٣) سورة طه: ٤٣ / ٤٤.

فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألان له الكلام تقول عائشة: فقلت يا رسول الله: قلت ما قلت ثم أُلنت له القول؟ فقال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه» (١)

قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ، وذلك من أقوى أسباب الألفة قال: وظن بعضهم أن المداراة هي المداينة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداينة محرمة، والفرق: أن المداينة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستتر باطنه وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من كبر إنكار عليه

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك اهـ

إذا تقرر هذا المعنى فهو الذي قد عناه الحسن البصري - رحمه الله - بقوله: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي كل العقل

ومن الطريف قول أبي يوسف - رحمه الله - في تعداد من تجب مداراتهم فعد منهم: القاضي المتأول والمريض والمرأة والعالم ليقتبس من علمه وأكثر ما تجري المداراة في اتقاء الأشرار والمكاره

وقد جاء في حكم لقمان: يا بني كذب من قال: إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار

وسلوك المداراة مأذون فيه لأن الإنسان خلق للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا للانفرادية والإنسان تعرض له عوارض نفسية وطبيعية من الحب والبغض والرضى والغضب والاستحسان والاستهجان، فلو سار على أن يكشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال لاختل الاجتماع ولم يثبت التعارف ولانقبضت الأيدي عن التعاون، فكان من حكمة الله في خلقه أن هياً الإنسان لأدب يتحامى

(١) صحيح البخاري المداراة مع الناس / ٥٦٦٦.

به عما يحدث تقاطعا أو يدعو إلى تخاذل، وهذه هي المداراة التي نعني
 إذن فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام، وتجنب ما يشعر بيبغض أو غضب
 أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرا من الكتمان وأرجح وأصلح
 ومن لطيف المنقول في سير المتقدمين المتقدمى بهم ما جاء في وصية سحنون لابنه محمد:
 (وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس) ويقول محمد بن أبي الفضل
 الهاشمي قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبى ناراً وأقذح وداً
 فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف
 كجسد واحد وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة،
 ولا يقطع العضو المركب في الجسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الطب عن علاجه إلا بالبتير
 فالمداراة يقصد بها جمع الناس على الرضا والتآلف في حدود ما ينبغي أن يكون
 وهي لا تمنع قضاء بالعدل ولا تحجب نصيحة بالرفق، وينبغي أن يعلم أن لذكاء الرجل
 وحكمته مدخلا عريضا في فقه المداراة وحسن استخدامها وطريقة الإفادة منها
 وقد يكون للتنوع في طبقات الناس تنوع في مداراتهم، فمداراة المنحرف عن الحق
 لسوء فهم أو خطأ في ظن، أكبر من مداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك
 واقتضى الحال مداراته
 ومداراة من يرجى رشدَه وصلاحه أكبر من مداراة من شب متماديا في الانحراف
 ولؤم الطبع حتى يوشك أن ينقطع أملك في إصلاحه واستقامة أمره
 ومن كل ذلك تعرف أن المداراة مسلك كريم يتقنه الحكماء والأذكياء ولا يتعدى
 حدوده الفضلاء
 إذا رغبت في كلمة عن المداينة لتمييزها عن المداراة فلتعلم أن المداينة إظهار
 الرضا عن الغلط من الظلم والفسق ومن قول باطل أو عمل ممنوع
 والمداينة مسلك ذميم ينطوي تحت جناحيه الكذب، وخلف الوعد
 أما الكذب فلأن المداين يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب،
 سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة وأما إخلاف الوعد فلأن المداين يقصد إلى إرضاء
 صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه، ويعجلون إلى قول ما يشتهي إن يقولوه
قال الماوردي - رحمه الله: إن الإنسان وإن كان مأمورا بتألف الأعداء، ومندوبا إلى
مقاربتهم، فإنه لا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم
على تحرز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل، وجبلة لا تزول
وإنما يستكفى بالتألف إظهارها، ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفاد
به إنضاجها، وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره :: وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها :: تعطي النضاج وطبعها الإحراق

ومن كل ما تقدم يتبين واجب المصلحين من الدعاة والعلماء والمربين في هذا الباب
فواجب العناية بمحاربة المداهنة حتى تنفى من الأرض وتكون الأوطان ودور التربية
منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة، فيخاطبون الناس في رقة وأدب وشجاعة،
ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق الكاذب، ولا يكتهم الحقائق متى اتسع المقام
لحديث المصارحة^(١)

* المعلم السادس: إقالة العثرات والغض عن الأخطاء

وأسلوب المداراة المتقرر في الفقرة السابقة يقود إلى غض الطرف عن أخطاء
المقصرين ما دام طريقا لاستصلاحهم، وإقالة عثرات العاثرين إذا كانوا كراما ذوي
هيئات أو كان ذلك سبيلا إلى دفتها وتقليلها

وإن شئتم برهاننا قريبا فاستذكروا قصة حاطب بن أبي بلتعة تلك الواقعة الصحيحة
فهي صورة حية من صور الضعف البشري في لحظة من لحظات الزمن مع أنه
الصحابي البصري، وكبير الزلة قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه: دعني أضرب
عنق هذا المنافق، ولكن النبي ﷺ حين سأل حاطبا وأجابه فقال عليه الصلاة والسلام:
«لقد صدق ولا تقولوا إلا خيرا أما علمت يا عمر أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما
شئتم فقد غفرت لكم»^(٢)

(١) مفهوم الحكمة في الدعوة/المكتبة الشاملة/٤١.

(٢) مسند أحمد/ ١٤٢٤٧.

إن إقالة العثرة ليست إقرارا للباطل ولكنها إنفاذ للواقع فيه

حكى أن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أخرج ما كان إلي في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن أخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه
حق لمن غلط أو ذل أن يسمع كلمة حانية، وأن يستضيء بشمعة أمل من أجل أن يرجع إلى الجادة، ويسير مع الأخيار من الصحاب

يمر أبو الدرداء - رضي الله عنه - على رجل قد أصاب ذنبا، والناس يسبونونه، فأنكر عليهم صنيعهم فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى قال: فلا تسبوا أحاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي

* المعلم السابع: الترغيب والترهيب ومواقف الشدة

كل ما تقدم من التأكيد على مسالك اللين والرفق والمدارة، والغض عن الهفوات، وإقالة العثرات، ليس معارضا لما هو معروف ومتقرر في مسالك الشرع من ضرورة سير الدعاة والمربين بين حالي الرغبة والرغبة، والرخاء والشدة لكن المقدم في التعامل هو الترغيب والرفق كما قال الإمام أحمد: (والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى، فيجب نهيه لأنه يقال ليس لفساق حرمة، فالمعلن المصير لا حرمة له)

وطريق أنبياء الله - عليهم السلام - المذكورين في القرآن مسلك فيه النجدين: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١)

وقال عن محمد ﷺ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} ^(٢)

(١) سورة نوح: ١ - ٤.

(٢) سورة التغابن: ٨ - ١٠.

ترغيب فيما وعد الله من حسن الجزاء في الدنيا، وحسن العافية في الآخرة: {وَأُخْرَى تُجِئُونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (١)

وترهيب من وعيد الله وغيـرته على حرـماته، والخوف من أليم عقابه عاجلاً وآجلاً: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (٢)

وبعد: فلعله بملاحظة هذه المعالم وأمـثالها يتحقق الخير وترشد المسالك وتؤتي الحكمة خيرها والنفوس تملك قدراً كبيراً من التأهيل في قبول ما عند الدعاة، وهي تحب سماع كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وتستفيد من المواعظ، وهي قريبة من الخير مستعدة له فليفقه هذه السنن الدعاة إلى الله، وليحملوا الناس على توجيهات الشرع لا على جلبه الشارع وغوغاء العامة، وليتجنبوا المزالق والمنعطفات الخطيرة التي يتعمد أعداء الملة من الكفار والمنافقين وضعها في الطريق

* * * * *

(١) سورة الصف: ١٣.

(٢) سورة هود: ١٠٢.

المطلب الثالث:

أخلاق الدعاة

كان من صحيح دعائه ﷺ: «اللهم اهمني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»^(١)

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»^(٢)

«اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»^(٣)

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهزم والقسوة، والغفلة والعيلة، والدلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسق والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسيئ الأسقام»^(٤)

١- لأتمم مكارم الأخلاق: تتبوأ الأخلاق في الإسلام موقعا من أعظم المواقع، حتى لقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وفي لفظ: «مكارم الأخلاق»^(٥)

فكانه ﷺ حصر المهمة التي بعث لها في هذا الأمر ولا غرابة! فإن نحن فهمنا "الأخلاق" على أنها تعامل العبد مع الله ومع الناس، فالأمر واضح، وهذا هو الدين كله، كيف تتعامل مع الخالق؟ كيف تعبدته وتوحده وتتجنب ما يسخطه؟ وكيف تتعامل مع المخلوق؟ ويدخل في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأقربون ممن لهم حقوق الحب والود، كما يدخل فيه الصنف الآخر من الشياطين والكفار والفساق والمنافقين ممن يبغضهم الإنسان في ذات الله كالكفار، أو يبغضهم من جانب واحد كالفساق الذين يكون فيهم أصل الإيمان

(١) مسلم: ٥٣٥ / ١.

(٢) الترمذي: ٥٣٦ / ٥.

(٣) أحمد: ١ / ٤٠٣، ٦ / ٦٨، ١٥٥.

(٤) المستدرک: ١ / ٥٣٠، ٥٣١.

(٥) رواه أحمد: (٢ / ٣٨١)، ومالك بلاغا (٢ / ٩٠٤)، والبزار كما في المجمع (٩ / ١٥)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

بالله ورسله أما إن فهمنا " الأخلاق " بمعنى أخص، وأنها التعامل مع الناس فحسب، فالحديث إذن محمول على بيان عظم فضل الأخلاق، وعلو مكانتها في الدين، فهو كحديث: «الحج عرفة»^(١)، وحديث: «الدين النصيحة»^(٢)

إذ ليس المقصود حصر الحج في عرفة، ولا حصر الدين كله في النصيحة إنما المقصود أن الوقوف بعرفة أعظم أركان الحج، وأن للنصيحة مرتبة عالية في الدين فلا إشكال في الحديث على المعنيين، وكلاهما له دلالة قوية على عظم شأن الخلق في الإسلام ٢- مسلم وداعية: من هذا المنطلق وجب على المسلم التحلي والتجمل بالخلق الحسن، سواء كان داعية أم غير داعية، إذ الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية التي أكرم الله بها الإنسان في الأرض كلها، وخص المؤمنين بخصيصة منها ليست لسواهم، حيث هداهم بها إلى الصراط المستقيم، وزكى نفوسهم، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣)

والتزكية المذكورة في الآية الكريمة تشمل تزكية النفس وتربيتها على معالي الأخلاق، وتنقيتها من رديتها ففي الآية هذه كما في الحديث السابق تبدو الأخلاق مقصدا من مقاصد البعثة المحمدية، بل من أبرز مقاصدها وإذا كان التحلي بالخلق الفاضل واجبا على آحاد المسلمين فما بالك بالداعية الذي يحمل راية الدعوة وشعارها وينادي بها بين الناس؟ إن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله ولذلك فتخلقه بالخلق الكريم أوجب وألزم، قياما بحق ما جعل الله على كاهله من الأعباء الجسام كما قال الشاعر:

شكراً لفضلك إذ حملت كاهلنا :::: مما وثقت بنا ما كان من نوب!

وحماية للدعوة وأهلها من ألسنة المغرضين، وأقلام الخصوم الشائنين، وأوهام الغفل والمتعجلين!

* * * * *

(١) رواه الترمذي (٨٩٩)، وأبو داود (١٩٤٩)، والنسائي (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والدارمي وغيره.. جميعهم عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي.

(٢) رواه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧، ٤١٩٨) من حديث تميم.

(٣) سورة الجمعة: ٢.

المطلب الرابع:

فضائل لا بد للداعية التحلى بها

أ - الصدق في حمل الدين:

بأن يكون تدين المرء تدينا صحيحاً مبنياً على الصدق مع الله عز وجل، لا على النفاق والكذب والمجاملة، ولذلك يطلق الصدق في القرآن الكريم في مقابل النفاق: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} (١)

فلا بد من الإسلام الظاهر مع الإيمان الباطن، لا بد من حسن الاعتقاد بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین

فالهدي الظاهر لا بد أن يكون متوافقاً مع الهدي الباطن

وهنا كمين من كمائن الشيطان يوحى للداعية بترك بعض الأعمال الصالحة الظاهرة بحجة أن باطنه ليس كذلك فلا تفعل لئلا يندفع الناس بك!

وهذا خطأ كبير

بل العمل الصالح الذي تزاوله بجوارحك هو من أسباب صلاح قلبك وصدقه، ما دمت لم تعمله رياء ولا سمعة ولا على سبيل خداع المؤمنين

ب - الصدق في الأقوال:

والصدق في القول تعبير عن شخصية واضحة، ومروءة وشهامة وكرم، ولا يلجأ للكذب إلا لنعيم الطبع، خبيث النفس، ضعيف الشخصية، والفطرة السليمة تستعيب الكذب وتستقيحه، ولذلك أجمعت الديانات السماوية على تحريمه وتجريمه

فما بالك بالداعية أتراها يتصور صدور الكذب منه؟!

أعتقد - إن شاء الله - أن: لا ولكن:

من الدعاة من يتوسع في " التورية " بأن يقول كلاماً يفهمه الناس على خلاف ما يقصد، وقد يكتشفون بعد أن الواقع على خلاف ما فهموا منه فيتهمونه بالكذب ثم إن التوسع في التورية قد يؤدي إلى التسامح في بعض " الكذيبات " بحجة أنها للمصلحة!! فالحذر الحذر!

(١) سورة الأحزاب: ٢٤.

أيها الداعية: حين يلجؤك الموقف إلى الكذب فلا تقدم عليه، وتذكر كلمة "أبي سفيان" أمام هرقل حين سأله عن رسول الله ﷺ، فقال: «والله لولا أن يؤثروا عني كذبا لكذبت!»^(١)

لقد تجنب هذا الرجل - وكان جاهليًا - أن يكذب خشية أن ينقلوها عنه، أو يعيروه بها يوما من الدهر، مع شدة حاجته إليها

ونحن نعلم أن أعراض الدعاة اليوم أصبحت هدفا لسهام كثيرة، ولذا يتعين على الداعية أن يغلق الباب الذي تأتيه منه الريح، ليريح ويستريح!

ج - الصدق في الأعمال:

وهو يعني أن تكون أعمال الإنسان خالصة لوجه الله تعالى من الرياء والسمعة، {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ^(٢) وقال: {لِيَسْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ^(٣)

قال الفضيل بن عياض: أيكم أحسن عملا، أي: أخلصه وأصوبه

قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً!

ومن الصدق في الأعمال: الوضوح وتجنب الغموض والتلبيس

روى أبو داود والنسائي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بعبد الله بن سعد بن أبي السرح وقد أهدر رسول الله ﷺ دمه، حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله! بايع عبد الله

فرفع رسول الله ﷺ رأسه فنظر إليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأيته كففت يدي عن بيعته فيقتله؟!»

(١) صحيح البخارى باب الجهاد والسير / ٢٧٢٣.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

(٣) سورة الملك: ٢.

فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين!!»^(١)

إلى هذا الحد كان مدى "الصدق" في أعمال النبي ﷺ، لم يرض أن يقتل عدوه اللدود الذي كان أهدر دمه بطريقة غامضة عن طريق الإيذاء بطرف العين!! وكان هذا دأبه ودينه طيلة حياته ﷺ، ولذلك لم يستطع المشركون في بداية الدعوة أن يتهموه بالكذب، بل قالوا: شاعر ساحر مجنون ولم يصدقهم الناس، وعندما فقدوا صوابهم وأعيتهم الحيل صرخوا: كذاب ولكن هيهات أن يصدقهم الناس!

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجنّت في الناس لأنظر إليه، فلما استتبّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٢)

لقد سرى صدق رسول الله ﷺ، من القلب إلى اللسان إلى الجوارح وتجلّى على محيا وجهه الكريم فكل من نظر إلى طلعتة وإشراقها وصفائها قرأ فيها الصدق وعرف أن وجهه ليس بوجه كذاب!

نحن نحتاج إلى نمط من الدعاة أثروا الصدق في أقوالهم وأفعالهم حتى أصبح الصدق سجية تجري في عروقهم، وتطل من طلعات وجوههم، فإذا رآهم الناس قالوا: هذه ليست بوجوه كذابين!

كما نحن بحاجة إلى دعاة يتجملون بالخلق الكريم، ويتأبون على الإثارة الاستفزاز فيحتفظون بهدوئهم واعتدال منطقهم في سائر الأحوال حتى إذا أبصر الناس منهم هذا هتفوا: هذه أخلاق أنبياء!

إن صدقنا في حمل دعوتنا هو الذي يجعل الناس يتقبلون ديننا، وليس يليق بنا أن

(١) رواه أبو داود ٢٦٨٣، والنسائي ٤٠٦٧، والحاكم ٣ / ٤٥، وله شاهد عند أبي داود ٣٠٩٤ وأحمد (٣) / ١٥١ من حديث أنس ولفظه: «إنه ليس لنبي أن يومض». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٢٣.

(٢) أخرجه أحمد ٥ / ٤٥١، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (٣٢٥١).

نكون كالممثل على المسرح، يظهر للناس بهيئة خلاف حقيقته، فمثل هذا سرعان ما ينكشف أمره، ويعرض الناس عنه نقل عن بعض السلف أنه كان إذا وعظ أبكى الناس، حتى تختلط الأصوات ويعلو النحيب، وقد يتكلم في المجلس من هو أغزر منه علما، وأجود منه عبارة، فلا تتحرك القلوب ولا يبكي أحد!

فسأله ابنه يوما عن هذا، فقال: يا بني لا تستوي النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة! إذن فالوسيلة الأولى لنجاح الداعية هي: صدقه في حمل دعوته، وجديته في ذلك، وأن يكون الصدق في الأقوال والأعمال منهجه وشعاره ليس المهم هو الكلمات المنمقة المعسولة - وإن كانت مطلوبة - إنما الأهم من ذلك الصدق، وأن يكون منسجما مع نفسه، وأن يكون حديثه عن معاناة، وقديما قيل:

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان^(١)!!

ثانيا: الصبر:

الصبر قرين اليقين {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}^(٢)

ولذلك قال سفيان: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين

والذي لا يصبر فإنه من السهل أن ينخلع عن دينه لأي شيء يعترض طريقه، ومن السهل أن يتخلى عن منهجه وحكمته لأي استقزاز، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}^(٣)

وقال: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}^(٤)

كثيرا ما يقف الضالون في وجه الدعاة إلى الله عز وجل، يقولون لهم: إن ما تدعون إليه ضرب من الخيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع، أنتم تدعون إلى أمور عفا عليها الزمن، ونسيها الناس أو كادوا، فينبغي أن ترضوا بما دون ذلك، وأن تراجعوا آراءكم واجتهاداتكم!!

(١) سلمان بن فهد العودة/من أخلاق الداعية: ١٣.

(٢) سورة السجدة: ٢٤.

(٣) سورة الروم: ٦٠.

(٤) سورة المزمل: ١٠.

وأمام ضغوط الواقع القائم، وأمام العقبات الحقيقية والوهمية في وجه تحقيق الإسلام، وأمام طول الطريق قد يستجيب بعض الدعاة ويتأثر، ويبدأ في إعادة النظر في فهمه للإسلام، وفيما يقوله الخصوم!

ويا ليتَه إذ يفعل ذلك يفعلُه بروح الباحث المتجرد الشجاع المتطلع إلى الحق أين كان إذن لهان الخطب!

لكنه يفعلُه بروح " المنهزم " الذي يحس بأنه خرج من المعركة أسيراً أو كسيراً فهو يبحث في " عروض " القوم عن " حل " يجنبه المعركة مع الباطل مع الواقع المنحرف وهذا مثل: الربا الذي انتشر، وضرب أطنابه، ومد رواقه، وقامت عليه اقتصاديات العالم كله - بما فيه العالم الإسلامي - وكاد أن يدخل جيب كل أحد حتى تحققت فيه نبوءة النبي ﷺ، حين قال: «يأتي على الناس زمان من لم يأكل الربا أصابه من غباره» (١)

وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف، إلا أنه يشهد لصحة معناه قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أكل، أمن الحلال أم من الحرام» (٢)

هذا الحرام المستقر في نفوس الكثيرين وجيوبهم ومؤسساتهم وأموالهم، بدلاً من أن يسعى الداعية لنهي الناس عنه، والبحث عن البدائل الشرعية الصحيحة لتنمية أموال الناس واستثمارها، ولإقامة بناء الاقتصاد الإسلامي السليم يأتيه الذين لا يوقنون فيحاولون أن يستخفوه ليعيد النظر في صور من صور الربا الصريح وأن لها مخرجا فقهياً ولو ضعيفاً أو شاذاً! وهكذا يصبح " واقع الناس " في فترة من الزمان محدودة مرجعا لتعديل بعض الأحكام الشرعية المستقرة عبر القرون! إنه فقدان الصبر في نفوس بعض الدعاة، ومع فقدانه فقدان الأمل!

أعلل النفس بالآمال أرقبها :: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

ويا ليت الداعية ينصت لذلك الناصح الذي قال للخليل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه :: وجاوزه إلى ما تستطيع

أنت لست مطالباً بتحقيق نصر واقع للإسلام، فهذا أمره إلى الله متى شاء أن يحدث

(١) أخرجه أحمد ٢ / ٤٩٤، وأبو داود ٣٣٣١، والنسائي ٤٤٥٥، وابن ماجه ٢٢٧٨، وقد أعله المنذري في مختصر السنن ٥ / ٨ بالانقطاع بين الحسن وأبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ٢٠٥٩، والنسائي ٤٤٥٤.

حدث، لكنك مطالب ببذل جهدك في هذا السبيل فحسب! والرسول والأنبياء كانوا يخاطبون بذلك: {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} ^(١) وكانوا يقولون: {وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ^(٢)

وقد يأتي أحدهم إلى بعض الدعاة ويقول له: أنت تعمل أعمالاً جبارة، وتواصل كلال الليل بكلال النهار، لكن النتيجة في النهاية قليلة، فالناس ينفضون من حولك، وأنت ترى وسائل الهدم والتخريب قد استحوذت على الكثير منهم وأصبحت تفسد في ساعة ما يبينه الداعية في سنة!

متى يبلغ البنيان يوماً تاماًه :: إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟
وهذا المنطق قد يؤثر على كثير ممن لم يعتادوا على عقبات الطريق وهنا يأتي دور "الصبر " الصبر الجميل

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعونا؟ ألا تستنصر لنا؟

فقعده ﷺ، وهو محمر وجهه، وقال: «لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط من حديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون!» ^(٣)

فالعجلة في قطف ثمار الدعوة ونتائجها لا تتناسب مع الصبر الذي يجب أن يتحلى به الداعية

قد يكون الداعية في موقع من المواقع (بلد، مدرسة، مؤسسة،) يجاهد في رد المنكرات ونشر الدعوة، ويحدث على يديه خيرٌ كثيرٌ، لكنه لا يحس به لأنه يجيء بصورة تدريجية كما لا يحس الأب بنمو طفله الذي يراه صباح مساء! لأنه يكبر شيئاً فشيئاً!

وكم من داعية تخلص عن موقع من المواقع ظاناً أنه ليس له أثر، فلما تخلص بان فقدته وظهرت مكانته، فكان كما قيل:

(١) الشورى: ٤٨.

(٢) يس: ١٧.

(٣) رواه البخاري ٣٨٥٢، وأبو داود ٢٦٤٩، ورواه النسائي مختصراً ٥٣٢٠.

سيذكرني قومي إذا جد جدّهم :: وفي الليلة الظلماء يفقد البدر
وكان كالكسعي^(١)، الذي يصنع السهام ويرمي بها في الليل، ويظن أنها لم تصب ما
أراد فكسر القوس، فلما أصبح رأى أنها قد أصابت فندم على كسرها وصار يضرب به
المثل في الندم، حتى قال الفرزدق حين طلق زوجته:

ندمت ندامة الكسعي لما :: غدت مني مطلقة نوار^(٢)!

فعلى الداعية ألا يستعجل النتائج والثمرات، بل يسعى ويعتمد على الله تعالى،
ويدرك أنه بمنطق التجربة المقطوع بها من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية، إن
أي جهد صحيح يبذل في الأمة يكون له ثمرة، إذ لم يقع في هذه الأمة أن أحداً دعا فلم
يستجب له، أو نصح فلم ينتصح بأمره ونهيه أحد، أو عالماً جلس للتعليم فلم يقعد إليه
أحد، إلا أن يؤتى من قبل نفسه، بل كل داع يجد من يستجيب له، إذ لم تصل الأمور إلى
ما أخبر به النبي ﷺ، من الشح المطاع والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي
رأي برأيه، لم يحدث هذا على مستوى الأمة كلها قط، قد يقع في فرد أو أفراد أو جهة،
لكن الأمة فيها خير كثير، ولا يزال عند الناس استجابة وقبول للدعوة، وإصغاء لصوت
الناصح، إذا تكلم بعلم وحكمة

بل إننا نجد في الأمم الكافرة اليوم في أمريكا وأوروبا وغيرها أن من يحملون لواء
الدعوة إلى الله يجدون من يستجيب لهم من الكفار، وفي مراكز كثيرة كانوا يذكرون لنا
إحصائيات الذين يسلمون أسبوعياً فكانت بالعشرات من الرجال والنساء

وهذه الحقيقة التاريخية الواقعية، التي تثبت أن كل جهد له ثمرة هي أيضاً حقيقة
شرعية: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} (٣)
وقال: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} (٤)

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء» (٥)

(١) هو محارب بن حفصة بن قيس عيلان من عدنان جد جاهلي. انظر الأعلام للزركلي ٥ / ٢٨١.

(٢) انظر القصة في الفاخر ٩٠، ٩١، الزاهر ٢ / ١٩٥، ١٩٦، واللسان: مادة كسع.

(٣) الأنبياء: ٩٤.

(٤) الأحزاب: ٢٤.

(٥) رواه مسلم ٢٦٧٤، والترمذي ٢٦٧٦، وأبو داود ٤٦٠٩، جميعهم من حديث أبي هريرة.

«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة»^(١)

فكل عمل له جزاء، وكل داع له أتباع

ثالثاً: التواضع:

وهو معرفة المرء قدر نفسه، وتجنب الكبر الذي هو بطر الحقّ وغمط الناس كما قال ﷺ، فيما رواه مسلم وغيره^(٢)

والتواضع في الأصل إنما هو للكبير الذي يخشى عليه أن يكبر في عين نفسه، فيقال له:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر :::: على صفحات الماء وهو رفيع
أما الإنسان العادي فلا يقال له: تواضع، وإنما يقال له: اعرف قدر نفسك، ولا تضعها في غير موضعها!

روى الخطابي في العزلة أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك، قدم خراسان فقصده رجلاً مشهوراً بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه ولم يأبه به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك، فقال له بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا قال: هذا أمير المؤمنين في الحديث هذا هذا عبد الله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلى عبد الله بن المبارك مسرعاً يعتذر إليه ويتصل مما حدث وقال: يا أبا عبد الرحمن اعذرني وعظني!
قال ابن المبارك: نعم إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك!

وذلك أنه رآه معجباً بنفسه، ثم سأل عنه ابن المبارك فإذا هو حائك^(٣)!!
لقد لمح الإمام المربي أن في هذا المتزهد نوعاً من الكبرياء والغطرسة والاستعلاء على الناس وهو داء يسرع إلى المتزهدين أحياناً فزوده بهذه النصيحة التي تلائم حاله
وكم نجد من بعض الصالحين، وربما الدعاة أحياناً، بل ومن صغار الطلبة من يسيئون الأدب مع شيوخهم وعلمائهم وأسائدتهم وإنه لأمر يحز في النفس ويؤلمها!

(١) رواه مسلم ١٠١٧، والنسائي ٢٥٥٤، كلاهما من حديث جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) رواه مسلم ٩١، والترمذي ١٩٩٩، وأبو داود ٤٠٩٢.

(٣) العزلة / ٢٢٠.

لا حرج أن تختلف مع عالم أو داعية في رأي أو اجتهاد متى كنت أهلاً لذلك لكن الحرج كل الحرج أن يتحول هذا الاختلاف إلى معول هدم لمكانة هذا العالم، والخط من قدره، والإضرار عليه، وسوء الأدب معه

وإن جاز أن يقع هذا من الدهماء من العامة، أو من أهل البدعة والضلالة فإنه لا يجوز بحال أن يقع من أهل السنة ومن طلاب علم الشريعة:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له :: فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل

إن علماء أهل السنة والجماعة خاصة مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على عليّة القوم وإذا خذلهم أقرب الناس إليهم فلا ينتظر منهم ذلك، فواحدهم كفارس شجاع ما خلفه إلا نساء!

ولو أن قومي أنطقني رماحهم :: نطقت ولكن الرماح أجرت

ولو أن أهل السنة حموا أعراض علمائهم، وعرفوا لهم قدرهم، والتفوا حولهم لأمكن لهم أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الصحيح، لكن لما خذل العالم من وراءه لم يستطع أن يقول شيئاً

وكم هو مؤسف أن بعض أهل البدع على النقيض من ذلك، بل تصل الحال بهم إلى أن يمنحوا شيوخهم ومواليهم وسادتهم نوعاً من القداسة، ويسيروا خلفهم بشكل مرفوض هو في الحقيقة نوع من العبودية وذوبان التابع في المتبوع

وهذا ديدن الفرق الباطنية عبر العصور حيث تربي أفرادها على منح قدر من "العصمة" لزعمائها وأئمتها

وحتى المعتزلة الذين يتعاطون بضاعة "العقل"، ولا يكاد يوجد عندهم للعواطف مكان يقول أحد شعرائهم في شيخهم واصل بن عطاء^(١):

له خلف بحر الصين في كل بلدة :: إلى سوسة الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفل عزيمهم :: تهكم جبارولا كيد مآكر

إذا قال مروا في الشتاء تسارعوا :: وإن جاء حر لم يخف شهر ناجر

(١) قال الذهبي في الميزان (٤ / ٣٢٩) واصل بن عطاء البصري الغزالي المتكلم البليغ المتشدد الذي كان يلتفت في الرأى.. قلت - الذهبي - كان من أجداد المعتزلة وكان يتوقف في عدالة أهل الجمل ويقول إحدى الطائفتين فسقت لأبيعنها فلو شهد عندي عائشة وعلي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم.

هم أهل دين الله في كل بلدة :: وأرباب فتياها وعلم الشاجر
وأهل السنة أولى بأن يقدرُوا ويوقروا علماءهم ولا خير في أمة لا يوقر صغيرها
كبيرها، ولا يرحم كبيرها صغيرها

ومن التواضع، بل من معرفة قدر النفس: ألا ينظر الشاب المبتدئ إلى نفسه على
أنه ند لهذا العالم أو ذاك، ويقول: هم رجال ونحن رجال!!

والحال أن الرجولة تختلف فإن صفة الرجولة في القرآن الكريم سبقت مساق المدح
في مواضع عدة: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا} ^(١) {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ
يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} ^(٢) وقد يعبر بالرجولة عن الفحولة
والذكورية فحسب، في مواضع أخرى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ
الْجِنِّ} ^(٣) فالرجال ليسوا سواء، وأين الثرى من الثريا؟!

ولربما رأيت طويلب علم لا يحفظ من القرآن إلا اليسير، ولا يكاد يحفظ حديثاً من
البخاري أو مسلم بحروفه، فضلاً عن سنده ومعناه ومع هذا قد يقف أمام جهابذة العلماء
وكانه أبو حنيفة أو الشافعي! وهجيراه أن يقول: أرى، وأنا، وقلت، وعندي!

يقولون هذا عندنا غير جائز :: ومن أنتم حتى يكون لكم عند؟!
ومن التواضع: أن يتواضع المرء مع أقرانه، وكثيراً ما تنثور بين الأقران والأنداد
روح المنافسة والتحاسد، وربما استعلى الإنسان على قرينه، وربما فرح بالنيل منه،
والخط من قدره وشأنه، وعييه بما ليس فيه، أو تضخيم ما فيه، وقد يظهر ذلك بمظهر
النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات، ولو سمي الأمور بأسمائها الحقيقية لقال: الغيرة

والعجب أن يغار الداعية من اجتماع ألف أو ألفين في مجلس علم أو دعوة لكنه لا
ينفعل لو سمع أن حفلاً غنائياً أو مباراة رياضية حضرها عشرون أو ثلاثون ألفاً، وهذا
والله من البؤس، حتى لو كنت لا ترضى من أخيك بعض الأمر، يكفيك أنه يدعو إلى
الله، ويعلم الناس الدين، وهو على الجادة إجمالاً:

(١) التوبة: ١٠٨.

(٢) النور: ٣٦، ٣٧.

(٣) الجن: ٦.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ :: كفى المرء نبلا أن تعد معاييه
وقد يكون الحق معه في بعض ما انتقدته عليه

ومن التواضع: التواضع مع من هو دونك، فإذا وجدت أحدا أصغر منك سنا، أو أقل منك قدرا فلا تحقره، فقد يكون أسلم منك قلبا، أو أقل منك ذنبا، أو أعظم منك إلى الله قربا حتى لو رأيت إنسانا فاسقا وأنت يظهر عليك الصلاح فلا تستكبر عليه، واحمد الله على أن نجاك مما ابتلاه به، وتذكر أنه ربما يكون في عملك الصالح رياء أو عجب يحبطه، وقد يكون عند هذا المذنب من الندم والانكسار والخوف من خطيئته ما يكون سببا في غفران ذنبه

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث: «أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني غفرت لفلان وأحبطت عملك» (١)

فلا تستكبر على أحد، وحتى حين ترى الفاسق لا تستعل عليه، أو تعامله بأسلوب المتسلط المتكبر

ولو شعر الناصح الداعية أنه قد يكون لهذا الفاسق طاعات ليست عنده، وأن عنده هو عيوباً قد لا تكون عند صاحبه لعامله برفق، وتلطف معه في الدعوة بما يرجى أن يكون سببا في القبول والذكرى

ومن التواضع: ألا يعظم في عينك عملك، إن عملت خيراً، أو تقربت إلى الله تعالى بطاعة، فإن العمل قد لا يقبل، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢)، ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لتمنيت أن أموت الآن!

ومن ذلك التواضع عندما تسمع نصيحة، فإن الشيطان يدعوك إلى ردها، وسوء الظن بالناصح، لأن معنى النصيحة أن أخاك يقول لك: إن فيك من العيوب كيت وكيت: وكم مرة أتبعكم بنصيحتي :: وقد يستفيد البغضة المتصح! أما من عصمه الله تعالى فإنه إذا وجد من ينصحه ويدله على عيوبه قهر نفسه،

(١) رواه مسلم: ٢٦٢١.

(٢) سورة المائدة: ٢٧.

وقبل منه، ودعا له وشكره

ولهذا قال ﷺ، في تعريف الكبر: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١)

يعني رد الحق، وبخس الناس أشياءهم فالمستكبر صاحب نفسية متعاضمة لا يكاد يمدح أحداً أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه

أما إن سمع من يذكره ببعض عيوبه فهيهات هيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلا لمركب النقص في نفسه، ولهذا كان من كمال الإنسان أن يقبل النقد والملاحظة بدون حساسية أو انزعاج أو شعور بالخل والضعف، وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الراية، ويرفع الشعار: رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا^(٢)

العدل مع العدو والصديق:

فالكثير من الناس إذا ذكر له صديقه أثنى عليه ولو كان يعلم أنه لا يستحق ذلك الثناء، وإذا ذكر له خصمه ذمّه ولو كان يعلم أنه خلاف ما يقول

فهل يستطيع الداعية أن يذكر العيوب الموجودة في أقرب الناس إليه ممن يكون مثله في المنهج والطريقة؟! أو يكون شريكا له في عمل ما؟!!

وهل يستطيع أن يثني بصدق على إنسان يختلف معه في بعض الأمور؟

إن كان يستطيع ذلك فقد حقق العدل في هذا الجانب، ولكن أكثر الناس يجورون على خصومهم فيذمونهم بما ليس فيهم، ويجورون أيضا على أصدقائهم فيمدحونهم بما ليس فيهم وهذا وإن كان مظهره مظهر المحبة والثناء إلا أن حقيقته الجور والذم، فمن أثنى عليك بما ليس فيك فقد ذمك، لأن الناس يتطلبون هذه الخصلة فيك فلا يجدونها فيذمونك على فقدها، والله تعالى قد أمرنا بالعدل حتى مع الأعداء فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٣)

ومن المحزن أننا وإن سلّمنا بذلك نظريا، إلا أننا من الناحية العملية سرعان ما ننسى هذا الدرس، فحين نقف على ما نعدّه نحن خطأ من فلان نسقطه من الحساب، ولا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣١.

(٢) سلمان بن فهد العودة/من أخلاق الداعية: ٢٨.

(٣) المائدة: ٨.

نعباً به، ولا نلتفت إليه، وكثيراً ما تنسينا محاسن الشخص الكثيرة عيوبه القليلة، أو تنسينا عيوبه الكثيرة محاسنه القليلة

لا بل الأمر أدهى وأمر!

ولعل الحقيقة أنه كثيراً ما تنسينا العيوب القليلة المحاسن الكثيرة وننسى القاعدة الشرعية " إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث!! " (١)

ينبغي للداعية أن يكون قدوة لغيره بأن يتجنب المكروهات وفضول المباحات وما لا يحتاج إليه، ويرتفع عن الدنيا والتنافس فيها حتى يكسب ثقة الناس، والأمر كما قال الشافعي:

ومن يذوق الدنيا فإني طعمتها :: وسيق إلينا عذبا وعذابها
فما هي إلا ضيعة مستحيلة :: عليها كلاب هممن اجتذابها
فإن تجتنبها كت سلماً لأهلها :: وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فمن المهم للداعية أن يجعل الدنيا تحت قدميه يستخدمها ولا يخدمها حتى يعلم الناس أنه ليس صاحب دنيا ولا طالب مكانة

ومن مجالات القدوة: أن تجنب الداعية التناقض بين القول والعمل كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٢)

ولذلك كان علماء السوء يدعون الناس إلى الإسلام بأقوالهم ويحذرون منه بأعمالهم، فاحرص أخي الداعية أن تكون قدوة في قولك وعملك

وها هنا أمر ينبغي التنبيه له وهو: أن الكثير من الناس يظن أن الداعية لا يأمر إلا بالمعروف الذي يفعله ولا ينهى إلا عن المنكر الذي يجتنبه وهذا غلط بل الصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أن الإنسان يجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان مقصراً فيه وأن ينهى عن المنكر ولو كان واقفاً فيه حتى قال بعض حذاق أهل العلم: حق على من يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً

(١) نص حديث رواه أحمد وأهل السنن وصححه الطحاوي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي والنووي وابن حجر. انظر إرواء الغليل (١ / ٦٠).

(٢) هود: ٨٨.

فالوقوع في المنكر لا يبرر لي الوقوع في خطأ آخر وهو أن لا أنهى عن المنكر، والشرط الوحيد أن يكون أمري بالمعروف ونهبي عن المنكر بصدق وليس على سبيل الخداع والنفاق والتضليل وأن أظهر للناس أنني داعية، وأنا لست كذلك فلو كان الوالد مثلاً مبتلى بشرب الدخان ورأى ولده يدخن فهل يسكت عنه بحجة أنه واقع في المنكر؟ كلا بل عليه أن ينهاه ويقول: إني سلكت هذا الطريق ويصعب علي الإقلاع وأنت ما زلت في البداية وهكذا سائر المعاصي

وقل مثل ذلك في مسؤول يرى من تحته يقع في معصية هو واقع فيها ولو لم يعظ في الناس من هو مذنّب :::: فمن يعظ العاصين بعد محمد وتقتضي القدوة: ألا يقابل الداعية السيئة بالسيئة بل يعفو ويصفح ويقابل الإساءة بالإحسان كما كان ﷺ، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وهذه أخلاق الأنبياء

* * * * *

المطلب الخامس:

أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب

هناك إعراضاً من بعض المنتسبين للعلم عن دعوة ومواجهة أهل الكتاب

ودعا إلى ذلك جملة أسباب منها:

١ - الركون إلى انتشار الإسلام

٢ - أن الأصل في ذلك أنه من باب فروض الكفاية

٣ - الاشتغال بالفروع الفقهية والتعصبات المذهبية وحصر جانب الجدل في باب

المذاهب الفقهية الأربعة أو بين المعتزلة والأشاعرة أو أهل الكلام والفلاسفة

وقد مرت فترات بالأمة ظهر فيها اشتغال مجرد بالعلم من قبل الطلبة وأهل العلم

وهو اشتغال على مستوى الكتب والدراسة دون معرفة الواقع الذي يحتاج في كثير من

مسائله إلى تفصيل وقول بعلم وعدل

ولئن كانت تلك جملة من الأسباب التي منعت طوائف من أمة الإسلام عن الاشتغال

بالرد على أهل الكتاب أو الحوار معهم فإنَّ هناك طوائف رأت أنَّ الباب يجب أن يغلق

والنافذة يجب أن تسد فأنكرت الاشتغال بالرد عليهم من باب الشرع الذي دعاهم للقيام

بالجدال والدعوة للإسلام!

فما هي أهم شبه هؤلاء وما هي أهم مرتكزاتهم؟

الشبهة الأولى: منع الجدل مع أهل الكتاب بناءً على ظهور دلائل النبوة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناءً

على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول النظر على

نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك

والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون

جواباً في المسائل الظنية بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول

الدين»^(١)

(١) الجواب الصحيح (١ / ٢٤٣).

الشبهة الثانية: منع الجدل مع أهل الكتاب بناءً على نسخ آيات الجدل معهم بآيات السيف وفرضية الجهاد

ردَّ شيخ الإسلام على أصحاب هذا الاتجاه من تسعة أوجه حررها في كتابه العظيم "الجواب الصحيح" يقول رحمه الله تعالى: "فإنَّ من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف لا اعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط فإنَّ النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمنافضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام"

ثم قال رحمه الله تعالى: " وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ^(١) فهذا لا يناقض الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة فأما مع إمكان الجمع بين الجدل المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر وأن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق ومما يبين ذلك وجوه: ^(٢)

ثم عدَّد رحمه الله تعالى تسعة أوجه للقول بذلك وكلامه نفيس للغاية

* * * * *

(١) سورة العنكبوت: ٢٩، ٤٦.

(٢) الفتاوى/ج ١/ ٢١٨ - ٢١٩.

المبحث الثالث: العولمة العصرية للدعوة

المطلب الأول:

دعاة التقريب بين الأديان

التيار الأول: دعاة التقريب بين الأديان: كروجيه جارودي^(١) وأحمد كفتارو^(٢) وغيرهما ويستند هؤلاء في الغالب على عقائد الباطنية وكلام ابن عربي وغيره من ملاحدة الصوفية الذين ينادون بصحة كل الأديان يقول جارودي: "إنني عندما أعلنت إسلامي لم أكن أعتقد بأنني أتخلى عن مسيحياتي ولا عن ماركسيتي ولا أهتم بأن يبدو هذا متناقضاً أو مبتدعاً" ويقول: "هذا النضال هو نضال كل أصحاب العقيدة أو المؤمنين بعقيدة مهما يكن نوع إيمانهم ولا يهمني ما يقوله الإنسان عن عقيدته: أنا مسلم أو: أنا مسيحي أو: أنا يهودي أو: أنا هندوسي"^(٣)

ولما انتشرت بعض آراءه الكفرية الإلحادية قيل: "إنه ارتد عن الإسلام!" قال الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله تعالى: "لا يحكم عليه بأنه مرتد عن دين الإسلام كما توهمه بعضهم وإنما هو كافر أصلي لم يدخل في الإسلام"^(٤) ولهذا قال العلامة بكر أبوزيد فيه: (النصراني المتلصص إلى الإسلام)^(٥)

* * * * *

(١) هو روجيه جان شارل جارودي، ولد عام ١٩١٣ م، في مرسيليا، واعتنق البروتستانتية، ثم انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، وتحصل على عدة شهادات في الفلسفة، له مؤلفات كثيرة، أشيع نبا إسلامه عام ١٤٠٢، وهو من أكبر دعاة التقريب بين الأديان اليوم. انظر سيرته الذاتية مفصلة في: دعوة التقريب بين الأديان، للفاضي (٢ / ٨٤١ - ٨٥٧).

(٢) هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد أمين ابن الشيخ موسى الشهير بـ«كفتارو»، ولد سنة ١٩١٥ بدمشق، صوفي، نقشبدي، أصله من الأكراد، يعمل مفتياً لسوريا).

(٣) دعوة التقريب بين الأديان (٢ / ٩٣٥ - ٩٣٧)، والحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (ص ١٢٨ - ١٣٢).

(٤) انظر: مجلة الدعوة: عدد ١٥٨٣، عام ١٤١٦، الخميس ١ ذي الحجة، (ص ١٤، ١٥).

(٥) انظر: الإبطال لنظرية الخلط بين الإسلام وغيره من الأديان، لبكر أبو زيد (٣٢).

المطلب الثاني:

دعاة العصرية (العولمة العصرية للدعوة)

التيار الثاني: دعاة العصرية: يجمع هذا التيار في طياته: "الفقيه الذي أثقلت كاهله المتغيرات الحديثة والصحفي الذي يفتقر إلى علوم الشريعة والعقلاني المغرق في عقلانيته"^(١) والمثقف الباحث عن موقع ثقافته الحضارية والقومي الذي يتخبط في خبال الجاهلية وهم درجات بحسب ما يغلب عليهم من مواد ومن أبرزهم: الدكتور حسن الترابي والدكتور يوسف الحسن والدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري والدكتور محمد عمارة وعبد السلام وغيرهم ومن أهم الصيغ التي تحدد مبادئ "التعايش" و"الحوار" بين "المسلم" و"غير المسلم" عند هؤلاء ما يلي:

أولاً: الاتفاق على استبعاد كل كلمة تחדش عظمة الله

ثانياً: الاتفاق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة

ثالثاً: ما وجدناه متوافقاً في تراثنا نرد إليه ما اختلف فيه وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان^(٢)

ويقرر بعض هؤلاء أنهم لا يستطيعون التقريب بين الأديان أو تذويب أحدها في الآخر وأنَّ أيَّ محاولة لذلك إنما هي من قبيل الغش الثقافي والخداع الفكري وهي أشد خطراً من الغش الاقتصادي والتجاري

كما يدرك بعضهم أن النصارى لا يؤمنون بالتعايش ولا بالحوار ولا بالتعاون؛ وهم - أي النصارى - إذا نادوا بالتعايش أودعوا إلى الحوار قصدوا بذلك استغلالهما لفرض الهيمنة الدينية التي لا تكاد تختلف في شيء عن الهيمنة السياسية والاقتصادية^(٣) ويرون أن المسلمين لا يمنعهم مانع من أن يستجيبوا لدعوة "التعايش" مع غيرهم حتى وإن كان مفهوم "التعايش" عند غير المسلمين منافياً - جزئياً أو كلياً - للمفهوم الإنساني المتحضر

(١) انظر: دعوة التقريب (٢ / ٦٣٢ - ٦٣٤).

(٢) الحوار من أجل التعايش، لعبد العزيز بن عثمان التويجري (ص ٩١)، وفي البناء الحضاري للعالم الإسلامي (٣ / ٢٠٩، ٢١٠).

(٣) انظر: الحوار من أجل التعايش (ص ٩٠).

الذي يؤمن به المسلمون ^(١)

ويتذرع هذا التيار في دعوته لإقامة الحوار مع أهل الكتاب بشبهات شتى منها: "مواجهة الإلحاد المادي" و"التعاون والتسامح" و"التعارف" و"الدعوة إلى الله وإفهام الغرب تعاليم الإسلام" و"أنه ضرورة يفرضها النظام العالمي الجديد" و"أن الحوار وسيلة لتحاشي النزاعات والحروب وصدام الحضارات" وأن "الإسلام يدعو العالم لأن يكون منتدى حضارات" ^(٢) و"هو وسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية بين مختلف طوائف الأمة" و"أنه وسيلة للمحافظة على الأقليات المسلمة في الغرب"

ولا ريب أن هذه قضايا متفاوتة في نفسها ومتباينة في قائلها ولا يمكن رؤيتها من منظار واحد بل إن بعضها ربما دعا إليها تيار آخر كتيار دعاة التقريب بين الأديان وربما شاركهم فيها بعض الدعاة والمفكرين والقول في جميع تلك القضايا يحتاج إلى تفصيل في كل مسألة منها وليس هذا محل بسطها أو نقدها ^(٣)

* * * * *

المطلب الثالث:

التيار الثالث: المتصدون للواقع من الدعاة والمفكرين

ويمكن تصنيف هؤلاء على وجه الإجمال إلى فريقين:

الفريق الأول: من يلمس منه ضعف في التأصيل أو تذبذب في الموقف الشرعي وربما اقترب هؤلاء من دعاة العصرية في بعض المسائل والقضايا حتى لا يمكن التفريق بين أقوالهم

والفريق الثاني: من يلمس منه وضوح في التأصيل الشرعي ومن أبرز من تصدى لبيان بطلان أديان النصارى والرد عليهم في العصور المتأخرة: الشيخ رحمة الله الدهلوي الهندي ^(٤) والداعية أحمد ديدات

(١) انظر: الحوار من أجل التعايش (ص ٩٠).

(٢) في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، للتوجيهي (٣ / ٢٠١، ٢٠٢)، وهل الإسلام هو الحل، لعمارة (ص ١٨٩).

(٣) انظر في مناقشتها والرد عليها: دعوة التقريب بين الأديان (٤ / ١٥١٣ - ١٥٤٢).

(٤) هو رحمة الله بن خليل الرحمن الدهلوي، فقيه حنفي، عالم بمنظرة النصارى، جاور بمكة وتوفي بها

* * * * *

المطلب الرابع:

أنواع المجادلين والمحاورين من أهل الكتاب:

من استقرأ القرآن والسنة وكلام الأئمة يجد أنه لا يُستثنى أحد من أهل الكتاب من أصل الجدل فهناك الجدل مع كل من: أهل الذمة وأهل الهدنة والأمان وأهل الحرب لرد صيالهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة؛ والهدنة؛ والأمان؛ ومن لا يجوز قتاله بالسيف؛ وقد تكون في ابتداء الدعوة؛ كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن؛ وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان" (١)

* * * * *

سنة ١٣٠٦، وقيل: سنة ١٣٠٨، من أهم كتبه: «إظهار الحق»، طبع عدة طبعات، أفضلها بتحقيق د. أحمد محمد ملكاوي. انظر: الأعلام للزركلي (٣ / ١٨)، وهدية العارفين (١ / ٣٦٦).
(١) النبوات (٢ / ٦٢١، ٦٢٢).

المبحث الرابع: مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة المطلب الأول:

مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة

أدلة مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن: قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال ابن كثير في تفسيرها: "وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)

١ - أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب"^(٢) اهـ وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه الحق أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد أنها أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها"^(٣) اهـ

٢ - وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤)

٣ - قال الشوكاني رحمه الله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل والتنبيه لهم على حجه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم"^(٥) والمتأمل في القرآن يجد أن معظم القضايا التي جادل القرآن فيها أهل الكتاب تدور على

(١) سورة النحل: ١٦، ١٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٣٢).

(٣) تفسير ابن سعدي (٣ / ٩٣).

(٤) سورة العنكبوت: ٢٩، ٤٦.

(٥) فتح القدير: (٤ / ٢٠٥).

محورين:

أ. توحيد الله وعبادته

ب. إثبات نبوة محمد ﷺ والإيمان به ^(١)

والأمر بمجادلة أهل الكتاب في القرآن جاء مقرونا بالإحسان ومن الإحسان:

- اتباع طريقة القرآن في جداله لأهل الكتاب "والأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتّي هي أحسن هو آية آل عمران: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} ^(٢) ولهذا امتثلها النبي ﷺ فكتبها في رسالته إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام ونبذ الشرك وقد حرّف العصرانيون معنى "الكلمة السواء" إلى معان فاسدة ^(٣)
- عدم تكذيب ما عندهم تكديبا عاما لمجرد كونه من كتبهم بل ينبغي السكوت عن ذلك فلا يصدقون ولا يكذبون ^(٤)
- ومنه: عدم تفضيل نبينا محمد ﷺ على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام على وجه الحمية والعصبية لحديث أبي هريرة عند البخاري: قال ﷺ: «لا تخيروني على موسى» ^(٥) وفي رواية عند البخاري أيضا: «لا تفضلوا بين أولياء الله» ^(٦)
- ومنه: أن تكون المجادلة: "بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق" ^(٧)

(١) منهج الجدل والمناظرة (١ / ٤٨٦).

(٢) سورة آل عمران ٣ / ٦٤ دعوة التقريب بين الأديان (٢ / ٧٢٥)، وانظر: الإبطال لبكر أبو زيد (١٠١).

(٣) دعوة التقريب بين الأديان (٢ / ٧٢٥ - ٧٣٧).

(٤) منهج الجدل والمناظرة (١ / ٣٢٦، ٣٢٧).

(٥) رواه البخاري رقم ٣٤٠٨. الفتح (٦ / ٤٤١).

(٦) رقم ٣٤١٤. الفتح (٦ / ٤٥٠).

(٧) تفسير ابن سعدي (٤ / ٦٤).

● ومنه: أن ينزل خطاب كل طائفة منهم على ما يقتضيه فقه الواقع ومعرفة المجادل أو المحاور بأحوالهم إذ إنهم: {لَيْسُوا سَوَاءً} وقد قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (١) فيفوت من الإحسان في جدالهم على قدر تفريط المجادل في:

- العلم بالحق ومعرفة تفصيل الآيات
- ضعف استبانة سبيل المجرمين وما هم عليه من الضلال المبين

* * * * *

المطلب الثاني:

غشيانهم في محافلهم ومجتمعاتهم لدعوتهم إلى الإسلام

من هذا حديث أنس رضي الله عنه قال: "كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعودده فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»؛ فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» (٢)

* * * * *

المطلب الثالث:

الكتابة لملوكهم ورؤسائهم

روى ابن عباس - كما في حديث أبي سفيان الطويل مع هرقل - أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا

(١) سورة الأنعام: ٥٥.

(٢) رواه البخاري رقم (١٣٥٦) انظر: الفتح (٣ / ٢١٩). وفي معناه: حديث أبي هريرة في ذهاب النبي ﷺ إلى بيت المدراس، ودعوتهم للإسلام. صحيح البخاري: رقم (٣١٦٧).

يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(١)

* * * * *

المطلب الرابع:

التعريف بالاسلام لدى مؤسساتهم واستقبال وفودهم

دعوتهم إلى الإسلام وبيان أحكامه بعلم وحكمة وأسلوب حسن فمن خصائص هذا الدين أنه عالمي الرسالة، ليس مقصوراً على قوم أو بلد أو زمان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»^(٣) قال النووي: "فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ" ^(٤)

إن من سماحة هذا الدين أنه أذن لغير أهله من أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين أن يعيشوا في أرضه مع بقائهم على دينهم وعدم إكراههم على الإسلام، ولم يخل عصر من العصور من وجود غير المسلمين داخل المجتمع المسلم، يعيشون بين المسلمين، وينعمون بالأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يعني بقاؤهم داخل المجتمع المسلم بأي وجه من الوجوه الرضا بما هم عليه من الكفر بالله، فإن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر - وإنما أذن الشارع لهم بالبقاء لحكم عديدة منها:

أن يخالطوا المسلمين ويتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها، فيجدوها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعواهم ذلك إلى الإسلام، ويرغبهم فيه، فيدخلوا فيه، وهذا أحب إلى الله من قتلهم والمقصود من ذلك أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وعدم اختلاطهم بالمسلمين يفوت هذه المصلحة، وهي معرفتهم بالإسلام قال السبكي رحمه الله: "وعدم اختلاطهم ببعضهم عن معرفة محاسن الإسلام، ألا ترى من الهجرة إلى زمن الحديبية لم يدخل في الإسلام إلا قليل، ومن الحديبية إلى الفتح دخل فيه

(١) سورة آل عمران ٣ / ٦٤ / صحيح البخاري مع فتح الباري (١ / ٣١ - ٣٣) رقم: ٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ١٨٦ / ٢.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٨ / ٢.

نحو عشرة آلاف؛ لا ختلاطهم بهم، للهدنة التي حصلت بينهم فهذا هو السبب في مشروعية عقد الذمة " (١)

ومن ذلك استقبال وفد نجران النصارى قال حذيفة رضي الله عنه: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال:

لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: فم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» (٢)

* * * * *

(١) الفتاوى ٢ / ٤٠٤.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٨ / ٩٣، ٩٤) رقم ٤٣٨٠.



الباب الثاني

تفاصيل المنهج القرآني في

حوار ومجادلة أهل الكتاب

الدروس والعبر
شرح تحليلي للآيات ذات العلاقة بالموضوع



الفصل الأول: في مجال العقيدة

المبحث الأول: مواقف اليهود وعداوة الملائكة والرسل

المطلب الأول:

مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن

{وَأْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّائِعِينَ} (١)

القول في تأويل قوله تعالى: {وَأْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "آمنوا"، صدقوا، ويعني بقوله: "بما أنزلت"، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن ويعني بقوله: "مصدقًا لما معكم"، أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بمانزل على محمد تصديقهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبهم لما معهم من التوراة (٢)

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومها؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل؛ بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهدهم معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهد بها

(١) سورة البقرة: ٤١ - ٤٣.

(٢) تفسير الطبري صفحة ٧.

لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لما معهم ويندد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر! كما يندد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس - وعلى المسلمين خاصة - ويشيعوا الفتنة والبلبله في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد ويأمرهم أن يدخلوا في الصف فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين!

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى - عليه السلام - وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبله^(١)

* * * * *

المطلب الثاني:

مواقف اليهود من الرسل والكتب والأنبياء

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ * يُنْسِمُوا بِأَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}{^(٢)

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم فهنا يفضحهم

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ٧.

(٢) البقرة: ٨٧ - ٩١.

القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - وقد آتاه الله الكتاب ويزيد هنا أن رسلهم توالى تترى، يقفو بعضهم بعضاً؛ وكان آخرهم عيسى ابن مريم وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل - عليه السلام - فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت - غير المصدر الإنساني المتقلب - مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلمهم يهتدون

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يبينه ويقرره، ثم يجابهم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد، فإذا هم هم، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * نَسِمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمُنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ^(١)

إن الأسلوب هنا يعنف ويشدد، ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يستترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكرهاتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}

قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديدة! قالوها تينيساً لمحمد ﷺ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول ويقول الله رداً على قولتهم: **{بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}** أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى **{فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}** أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبه وشناعته ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصممهم بالكفر: **{فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ}**

ويوضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} (١)

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا لكان هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل

أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع وإن بدا تمثيلاً وتصويراً لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسيوه وأخذوه!

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً

وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكونون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويزيدون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدون بها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تتطفئ، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: {بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام كانوا يقولون: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا} ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم، {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ} وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياءهم به ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم:

{قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

لم تقتلوا أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى - نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر (١)

* * * * *

المطلب الثالث:

عبادة العجل عند اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِنَسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهمْ أَمْحَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} (٢)

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ١٧.

(٢) البقرة: ٩٨ / ٩٢.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ} لم يبين هنا ما هذه البينات وبينها في مواضع آخر كقوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مَّفَصَّلَاتٍ} ^(١)، وقوله: {فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ} ^(٢)، وقوله: {فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ} ^(٣) الآية إلى غير ذلك من الآيات قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا}

قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة، ومنه قولهم سمعاً وطاعة أي: إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} ^(٤)، وهذا قول الجمهور، وقيل: إن المراد بقوله: {وَاسْمَعُوا} أي: بأذانكم، ولا تمتنعوا من أصل الاستماع

ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} ^(٥) وقوله عن قوم نبينا ﷺ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} ^(٦)

وقوله: {وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا} ^(٧)، وقوله: {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالأذان دون السمع بمعنى الإجابة ^(٨)

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعائهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من

(١) الأعراف: ١٣٣.

(٢) الأعراف: ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) الشعراء: ٦٣.

(٤) النور: ٥١.

(٥) نوح: ٧.

(٦) فصلت: ٢٦.

(٧) الحج: ٧٢.

(٨) تفسير الشنقيطي صفحة/ ١٤.

دون الناس ويدل عليه وجوه

أحدها: أنه لا يجوز أن يقال على طريق الاستدلال على الخصم إن كان كذا وكذا فافعل كذا إلا والأول مذهبه ليصح الزام الثاني عليه

وثانيها: ما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(١) وفي قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(٢)

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾^(٣)

وثالثها: اعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون لأن النسخ غير جائز في شرعهم، وأن سائر الفرق مبطلون

ورابعها: اعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السلام أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد ﷺ، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعته معهم بالجدال والقتال، ومن كان في النعم القليلة المنغصة، ثم إن تيقن أنه بعد الموت لا بد وأن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة فإنه لا بد وأن يكون راغباً في الموت لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وما يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون مطلوباً فوجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت لهم خالصة لوجب أن يتمنوا الموت، ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا الموت بل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس^(٤)

(١) البقرة: ١١١.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) تفسير الرازي صفحة ١٤.

ويقول سيد قطب رحمه الله:

وتلك الصورة الساحرة الهائلة: صورة العجل يدخل في القلوب إدخالاً، ويحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكانهم أشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور، بالقياس إن التعبير الذهني المفسر إنه التصوير السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة إنهم شعب الله المختار إنهم وحدهم المهتدون إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد ﷺ لا نصيب لهم في الآخرة والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبعود رسولهم وعود القرآن لهم فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود إلى مباهلة أي بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة، ولن يطلبوا الموت لأنهم يعلمون أنهم كاذبون؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة وعندئذ يكون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه، وخسروا الآخرة بالعمل السيئ الذي قدموه ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي فهم أحرص الناس على حياة وهم والمشركون في هذا سواء:

{وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

لن يتمنوه لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطعمهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب إنه مدخر لهم هناك، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون

وليس هذا فحسب ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} (١)

أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة فإذا وجدت المطرقة

نكست الرؤوس، وعنت الجباه جنباً وحرصاً على الحياة أي حياة!
{وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة

وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقتها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة نعمة يفيضها الإيمان على القلب نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة

فالإيمان بالآخرة - فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى - هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعوداً إلى جوار الله

ويمضي السياق بتلقين جديد من الله لرسوله ﷺ يتحداهم به، ويعلم الحقيقة التي يتضمنها على رؤوس الأشهاد:

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود سمة عجيبة حقاً لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغیظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد ﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخرعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل ينتزل بالرشاء والمطر والخصب!

إنها حماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره!

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}

فما كان له من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية، في أن ينزله على قلبك، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك والقلب هو موضع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال

نزله على قلبك {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}

والقرآن يصدق في عمومته ما سبقه من الكتب السماوية، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الإلهية وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح له وتستجيب وهذه حقيقة ينبغي إبرازها إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإحياءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** **{هُدًى لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ}** **{هُدًى لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ}** **{شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!

وكانوا - كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل - قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله، لبيان وحدة الجميع، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً، وعادى الله سبحانه، فعاداه الله فهو من الكافرين

{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} ^(١)

* * * * *

المطلب الرابع :

كفر اليهود بالقرآن، ونقضهم العهد واشتغالهم بالسحر

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ يثبت على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه من الآيات البينات، مقررًا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهودهم مع رسول الله ﷺ كما يندد بنبذهم لكتاب الله الأخير الذي جاء مصداقاً لما معهم:

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله، إنه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات، وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم، فإذا كفر بها اليهود - أو غيرهم - فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة، ولكن لأنهم هم فاسدوا الفطرة فاسقون

ثم يلتفت إلى المسلمين - وإلى الناس عامة - مندداً بهؤلاء اليهود، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيئة إنهم جماعة مفككة الأهواء - رغم تعصبها الذميم - فهم لا يجتمعون على رأي، ولا يثبتون على عهد، ولا يستمسكون بعروة ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلا أنهم - مع هذا - لا يستمسكون بوحدة، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندمهم فرقة فتنتقض ما أبرموا، وتخرج على ما أجمعوا: {أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ﷺ أول مقدمه إلى المدينة؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عاب دينه، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعانها

رسول الله ﷺ في قوله: «المسلمون تكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم» يسعى بذمتهم أدناهم، فلا يخيس أحد بعهدده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، ولقد كتب أبو عبيدة - رضي الله عنه - وهو قائد لجيش عمر - رضي الله عنه - وهو الخليفة يقول: إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيته فكتب إليه عمر: إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا فوفوا لهم وانصرفوا عنهم وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم: أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموا فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً!

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة

{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (١)

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنه كان ساحراً، وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه

والقرآن ينفي عن سليمان - عليه السلام - أنه كان ساحراً، فيقول:

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}

فكانه يعد السحر واستخدامه ككفرًا ينفيه عن سليمان - عليه السلام - ويثبتته للشياطين:

{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} ثم ينفي أن السحر منزل من عند الله على الملكين: هاروت وماروت اللذين كان مقرهما بابل: **{وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}** ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما! فنفي القرآن هذه الفرية أيضاً فرية تنزيل السحر على الملكين

ثم يبين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما، طالباً منهما أن يعلماه السحر:

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر

السحر وتعلمه واستخدامه ككفرًا، ويذكر هذا على لسان الملكين: هاروت وماروت

وقد كان بعض الناس يصبر على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره وعندئذ تحقق الفتنة على بعض المفتونين: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}** وهو الأذى والشر الذي حذرهم منه الملكان

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامي الأساسية، وهي أنه لا يقع شيء

في هذا الوجود إلا بإذن الله: **{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}**

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله،

فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء
ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون، وما يفرقون به بين المرء وزوجه إنه شر عليهم
هم أنفسهم لا خير: **{وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ}**

ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضراً خالصاً لا نفع فيه!

{وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ}

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة، فهو حين يختاره ويشتريه
يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفة: **{وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا لِمُتُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل، وعلى الذين
يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله
وراءهم ظهرياً، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه، مما كان
أولئك اليهود يجرون خلفه، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم
عن كنهها بعد

لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها! هذا "التيليپاثي" -
التخاطر عن بعد - ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد
وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فيتلقى عنه، دون أن تقف
بينهما الفواصل والأبعاد؟

وهذا التنويم المغنطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة،
وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحى إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر،
كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه هذه الأحلام التنبئية - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل؛ ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه؛ أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه

السحر من قبيل هذه الأمور وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور وقد تكون صورة من صورهِ: القدرة على الإحياء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخيل لا حقيقة له: {يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} - ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه فالانفعالات تنشأ من التأثيرات وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفنا أما من هما الملكان: هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود (١)

* * * * *

المطلب الخامس :

تذكير اليهود بنعم الله عليهم لعلهم يخافوا الآخرة

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (١)

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضللين، ومحاولات الكائدين، وتليبس الملفقين وفي جرسها صرامة توحى بالجزم واليقين
{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وظيفتك البلاغ والأداء، تبشر الطائعين وتنذر العصاة، فينتهي دورك
{وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم، وتبعثهم على أنفسهم

وسيطل اليهود والنصارى يحاربونك، ويكيدون لك، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك، إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه منذ قليل:

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}

فتلك هي العلة الأصلية ليس الذي ينقصهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقيتها في كل زمان ومكان إنها هي العقيدة هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة

المسلمة إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة لم يعلنوها حرباً باسم العقيدة - على حقيقتها - خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية وما إليها وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية - بإضافة الشيوعية العالمية - جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً، فأدمتهم جميعاً!!!

إنها معركة العقيدة إنها ليست معركة الأرض ولا الغلة ولا المراكز العسكرية ولا هذه الرايات المزيفة كلها إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته، وهو - سبحانه - أصدق القائلين:

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود!

ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

{قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى}

على سبيل القصر والحصار هدى الله هو الهدى وما عداه ليس بهدى فلا براح منه،

ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق

{وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}

بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرهيب ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم!

إنها الأهواء إن أنت ملت عن الهدى هدى الله الذي لا هدى سواه وهي الأهواء التي تفقههم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون!

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل كأنما ليهتف بهم الهمسات الأخير، بعد هذه المجابهة وهذا الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة أمانة العقيدة التي نيّطت بهم من قديم وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة يا بني إسرائيل

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا

لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب، دائراً كله حول سيرة بني إسرائيل، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواعيقهم وعهودهم، ابتداء من عهد موسى - عليه السلام - إلى عهد محمد ﷺ أكثره عن اليهود، وأقله عن النصارى، مع إشارات إلى المشركين، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى يرجع إلى إبراهيم وقصة إبراهيم - على النحو الذي تساق به في موضعها هذا - تؤدي دورها في السياق، كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السلام - ويعتزون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون!

وإن قریشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السلام - وتعتز بنسبتها إليه؛ وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة: {وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى ليهتدوا {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها وقلنا هناك: إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصف الإسلامي بهذه المناسبة

فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم - وهي التوحيد الخالص - وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء؛ وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه - وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين ولتقرير وحدة دين الله، واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس وبيان أن العقيدة تراث

القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء وأن وراثته هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة
 فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب! فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر!!!^(١)

* * * * *

(١) الظلال /سيد قطب /١٨٠.

المطلب السادس :

اتباع ملة ابراهيم عليه السلام:

{وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (١)

قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}

لم يبين هنا ما ملة ابراهيم وبينها بقوله: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قَيْماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (٢)، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ

وكذا في قوله: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} (٣)

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ}

أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ}، وصرح بذلك (٤) في قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} (٥)،

وقوله: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (٦)

قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} معناه: لا أحد من الناس يكره ملة ابراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه ابراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن

(١) البقرة: ١٣٠-١٣٣.

(٢) الأنعام: ١٦١.

(٣) النحل: ١٢٣.

(٤) تفسير الشنقيطي صفحة ٢٠/.

(٥) آل عمران: ١٩.

(٦) آل عمران: ٨٥.

طريقته المثلى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد في سفهه وسوء رأيه

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعتَه إلى المنازل العليا فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَبِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وبعد أن بين الله - تعالى - إن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملاً في نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى فقال - سبحانه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

الضمير في " بها " يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال كل منهما لأبنائه: يا بني إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فاثبتوا على الإسلام واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

روى أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة

والمعنى - ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكي يسعدوا في

دنياههم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا تتليث فيها ولا تشبيهه بمخلوق، وإنما هي أفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لأبائهم كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى إبراهيم وبنيه، أي أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا ؟ وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذي هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام

وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام

وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم فنوح قال لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وموسى قال لقومه: ﴿بِاقُومِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرفت قلوبهم لدعوته وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ وإلى هنا

نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة، وهي: أن ما جاء به النبي ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين ووكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا منكم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة، وأملت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف

ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نفصاً لها، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر

مثل ذلك كمثّل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً، وطعاماً نشويماً خفيفاً، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوي كامل

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمناً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موقفاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها)

و (تشريعات موقوتة) بأجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة

فشريعة التوراة - مثلاً - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقبل) (لا تسرق) فطابعتها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك)

وأخيراً تجيء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدئين في نسق واحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنين وملأت ما بقي فيه من فراغ وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: «مثلني ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسن وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هي في الأصول والكليات، لا في الفروع والجزئيات

ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله - عز وجل: {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى

في اتباع ملتكم، بل الحق في أن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون في هداه

وقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} حكاية لما زعمه كل من فريق اليهود والنصارى من أن الهدى في اتباع ملتهم

و (أو) للتنويح، أي قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا وقال النصارى لغيرهم: كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانتهم باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ} ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

الملة: الدين، والحنيف في الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التي كانت موجودة في عهده إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة

قال الإمام الرازي: " لأهل اللغة في الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج: أحنف تفاؤلاً بالسلامة، كما قالوا للذئب: سليم وللمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي

الثاني: أن الحنيف: المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً} أي: مخالفاً لليهود والنصارى

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن نتبع ملتكم، بل الهدى في أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذي ما كان من المشركين بأي صورة من صور الشرك "

وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به

قال الإمام الرازي - ما ملخصه: في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد انفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

أي: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نصدق بالله، وبالتوراة الذي أنزله الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية

قال الإمام الرازي: " فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق

وقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا} خطاب للمؤمنين

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سمووا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليها السلام - وكانوا اثني عشر سبطاً كما قال

تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنِي عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط "بالتحريك" وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجرة: الواحد سبطه، وبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً"

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: وآمنا - أيضاً - بالتوراة التي أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبإنجيل الذي أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم في نبوتهم

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله حكاية عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ يَعْصَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال

وقوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا في حقيقته كفر بالأنبياء جميعاً لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء^(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة/ ٢٠.

المطلب السابع:

صبغة الله: شريعته وسنته وفطرته

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (١)

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الأفاق، لا تعصب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريري: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} أما باقيها فهو من كلام المؤمنين

يلحقه السياق - بلا فاصل - بكلام البارئ سبحانه في السياق وكله قرآن منزل ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله، والشطر الثاني حكاية عن قول المؤمنين وهو تشریف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم وأمثال هذا في القرآن كثير وهو ذو مغزى كبير ثم تمضي الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة:

{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته فهو ربنا وربكم، ونحن محاسبون بأعمالنا، وعليكم وزر أعمالكم ونحن متجددون له مخلصون لا نشرك به شيئاً، ولا نرجو معه أحداً وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم؛ وهو غير قابل للجدل والمحااجة واللجاج

ومن ثم يضرب السياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل يظهر أنه

هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى}

وهم كانوا أسبق من موسى، وأسبق من اليهودية والنصرانية والله يشهد بحقيقة دينهم - وهو الإسلام كما سبق البيان -: {قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ}

وهو سؤال لا جواب عليه! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه! ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله شيئاً ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سبيعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية، دين إبراهيم ولكنكم تكتمون هذه الشهادة: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها، وما تقومون به من الجدل فيها لتعميتها وتلبيسها: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام، وإلى هذا الفصل في القضية، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وفيها فصل الخطاب، ونهاية الجدل، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة^(١)

{صِبْغَةَ اللَّهِ} قال الضحاك، عن ابن عباس: دين الله وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك

وانتصاب {صِبْغَةَ اللَّهِ} إما على الإغراء كقوله: {فِطْرَتَ اللَّهِ}^(٢) أي: الزموا ذلك عليكم وقال بعضهم: بدل من قوله: {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن

(١) الظلال / سيد قطب / ٢١.

(٢) الروم: ٣٠.

قوله: {آمَنَّا بِاللَّهِ} كقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ} ^(١)

وعن ابن عباس أن نبي الله قال: "إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه ربه: يا موسى، سألوكم هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي" وأنزل الله على نبيه ﷺ: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} ^(٢)

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}

أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية -: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} أي: لا أحسن صبغة من صبغته

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، ففس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتحلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، ففسه بعبد كفر بربه، وشره عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله،

(١) النساء: ٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠/.

وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه

وفي قوله: **{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}** بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن "العبادة" اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول، يؤذن بالحصص

وقال: **{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}** فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار، ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً **{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}**

المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها، أن تكون بالتالي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممارسة، ومخاصمة لا خير فيها،

وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تقتقر إلى برهان ودليل فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر، دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص، هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ}

وهذه دعوى أخرى منهم، ومحااجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانيا

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودا ولا نصارى، فكنتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فهذا كان ظلمهم أعظم الظلم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكنتموها، وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعداها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار، مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من أثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررها، لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال^(١)

* * * * *

(١) تفسير السعدى المكتبة الشاملة الإلكترونية / ٢١.

المطلب الثامن : حكمة تحويل القبلة

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{^(١)

حدث تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته والأقاويل التي أطلقوها من حوله؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم على العموم

ولا توجد رواية قطعية في هذا الحادث، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان هذا في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآني ثم جاء الأمر القرآني الأخير: {قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} فنسخه

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

(١) البقرة: ١٤٤، ١٤٧.

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعون من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذهم حجة عليهم!

وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدباً مع الله، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتل في صدر الرسول ﷺ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

وتقول الروايات: إن هذا كان في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة، كان بعضهم في منتصف صلاة، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة

عندئذ انطلقت أبواق - يهود وقد عز عليهم أن يتحول محمد ﷺ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاضمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم - انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم

قالوا لهم: إن كان التوجه - فيما مضى - إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة؛ وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر - أو للآيات - لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!

وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع، منذ قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ - وقد استغرق درسين كاملين في الجزء الأول - ومن مراجعة هذا الدرس في هذا الجزء أيضاً ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلاً عند استعراض النص القرآني

أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها فقد كان هذا حادثاً عظيماً في تاريخ الجماعة المسلمة، وكانت له آثار

ضخمة في حياتها

لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ} فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونّه عنوان مجدهم القومي ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نكرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم فقد نزعه من نزاعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنكرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه هي حقيقة الإسلام حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته^(١)

ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه

(١) الظلال / سيد قطب / ٢٢.

الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبي ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى: {وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} أي: ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ فقال تعالى: {وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}

أي: لن اتبع - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمري

فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول ﷺ الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيداً للوعيد والتحذير، فكأنه يقول: "لو اتبع أهواءهم أفضل خليفة، وأعلامهم منزلة عندي، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين " قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟

قلت: كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانت بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة "

ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول ﷺ معرفة لا

يخالطها شك فقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}

أي: أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي ﷺ ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية في أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه

قال الإمام ابن كثير: " يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبي صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «أما إنه لا يخفي عليك ولا تخفى عليه» ويروى عن عمر أنه قال: لعبد الله بن سلام: " أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإنني لا أدري ما كان من أم ولدي، فقبل عمر - رضي الله عنه - رأسه "

أي: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك على حق في كل شؤونك ليطمادون في إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا شك فيه

أي: اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام هو الحق الذي جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به، أو في الحق الذي جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ ولذلك قال المفسرون: إن النهي موجه إلى الأمة في شخص نبيها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ

الإيمان في قلوبهم

وقد وضع ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: "أو كان النبي ﷺ شاكا في أن الحق من ربه أو في أن القبلية التي وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك في ذلك؟ فقيل له: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} ^(١) ثم قال: {وَاتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له والمراد به أصحابه المؤمنون به ^(٢)

* * * * *

(١) الأحزاب: ١.

(٢) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة / ٢٣.

المبحث الثاني: الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه المطلب الأول:

صفات الله وإنزال الكتب الالهية

{الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١)

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله تعالى: {الم}

أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك

ومما يشهد لصحة هذا الرأي: أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل، وعن كونه معجزة للرسول ﷺ في أغلب المواضع

وأيضاً فإن هذه السور التي افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذي جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه ﷺ ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء في هذا الموضوع

قال سيد طنطاوى في الوسيط:

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}

(١) آل عمران: ١ - ٦.

ولفظ الجلالة: {الله} يقول بعض العلماء: إن أصله إله، دخلت عليه أداة التعريف "ال" وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله

قال القرطبي: قوله: {الله} هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها حتى قال بعضهم: إنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه -

ولفظ " إله " قالوا: إنه من أله أى عبد، فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل: هو أله أى تحير وذلك لأن العبد إذا تفكر فى صفاته - تعالى - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله

و{الحَيُّ} أى: المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها

و{الْقَيُّومُ} الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، المعطى لهم ما به قوام حياتهم، وهو مبالغة فى القيام وأصله قيوم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره

والمعنى: الله - تعالى - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة وهو الدائم القيام بتدبير شؤون الخلق وحياتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم

قال الألوسى: ولفظ الجلالة: " الله " مبتدأ وما بعده خبر والجملة مستأنفة، أى: هو المستحق للعبودية لا غيره و{الحَيُّ الْقَيُّومُ} خبر بعد خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف أى: هو الحى القيوم وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى أمامة مرفوعاً أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور، فى سورة البقرة، وآل عمران، وطه

وقال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت فى البقرة: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ^(١) وفى آل عمران: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ^(٢) وفى طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} ^(٣) وبعد

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) آل عمران: ٢.

(٣) طه: ١١١.

أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال:

{نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} ^(١) والكتاب - كما يقول الراغب - في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتاباً والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه والكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفي التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط

والمراد بالكتاب المنزل: القرآن الكريم وفي التعبير عنه باسم الجنس إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة، فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمي التوراة والإنجيل

وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للإشارة إلى أن نزول القرآن على النبي ﷺ كان منجماً ولم يكن دفعة واحدة ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبي ﷺ على حسب الوقائع والحوادث وغيرها في مدة تزيد على عشرين سنة

وقد ذكر العلماء حكماً كثيرة لنزول القرآن منجماً منها: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه، ومنها: التدرج في تربية قوينة سليمة، ومنها: مسايرة الحوادث في تجددتها وتفرقها ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه، ومنها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها: الإجابة على أسئلة السائلين، وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وكشف حال الكافرين والمنافقين منها: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى -

{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} فأنت تقرأ ما نزل على الرسول ﷺ من قرآن في مكة وما نزل عليه في المدينة، فترى الجميع محكم السرد دقيق السبك، رصين الأسلوب، بليغ التراكيب، فصيح الألفاظ بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف في جودته من وقت إلى وقت " ومن موضوع إلى موضوع "

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترباً بأمرين متصلاً بهما:

أما أولهما: فهو قوله: {بِالْحَقِّ}

وأما ثانيهما: فهو قوله: **{مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}** أى: أن الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو، والذى هو الحى القيوم، هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ملتبسا بالحق، ومصاحبا له، ومقترنا به، ومشتملا عليه، فكل ما فيه من أوامر، ونواه، وقصص، وأحكام، وعقائد، وآداب، وشرائع وأخبار حق لا يحوم حوله باطل، وصدق لا يتطرق إليه كذب

وهو الذى جعل هذا الكتاب المنزل عليك موافقا ومؤيدا لما اشتملت عليه الكتب السابقة من الدعوة إلى وحدانية الله، وإلى مكارم الأخلاق، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد الناس فى كل زمان ومكان وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى جوهرها وأصولها قال - تعالى: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}** وقوله: **{بِالْحَقِّ}** متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب

وقوله: **{مُصَدِّقًا}** حال مؤكدة من الكتاب أى نزله فى حال تصديقه الكتب وفائدة تقييد التنزيل بهذه الحال: حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل، وتنبيههم على وجوبه؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما

قال الجمل: وقوله: **{مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}**، فيه نوع مجاز؛ لأن ما بين يديه هو ما أمامه فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره واللام فى **{لِّمَا}** لتقوية العامل نحو قوله - تعالى: **{فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة " ثم أخبر - سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التى أنزلها فقال: **{وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}**

والتوراة: اسم عبرانى للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون شريعة له ولقومه

قال القرطبي ما ملخصه: والتوراة معناها: الضياء والنور مشتقة من وَرَى الزند وورى لغتان إذا خرجت ناره وقيل: مأخوذة من التورية، وهى التعريض بالشىء والكتمان لغيره، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح والجمهور على القول الأول لقوله - تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً}**

وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} يعنى التوراة

والإنجيل: كلمة يونانية معناها: البشارة وهى اسم للكتاب الذى أنزله الله على عيسى قالوا: والإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل: يقال: رحم الله ناجليه أى والديه وقال قوم: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشئ إذا استخرجته وأظهرته، ويقال للماء الذى يخرج من البئر: نجل وقيل: هو من النجل الذى هو سعة فى العين ومنه طعنة نجلاء أى واسعة وسمى الإنجيل بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبنى إسرائيل على يد عيسى عليه السلام

وهذا الكلام الذى نقلناه عن القرطبي والفخر الرازى هو قول لبعض العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهم اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين

قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه للمذهب الذى يرى أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف: " فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان:

أحدهما بالعبرية، والآخر بالسريانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أن الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث " وقوله: {مِنْ قَبْلُ} متعلق " بأنزل " و" هدى " حال من التوراة والإنجيل، ولم يثن لأنه مصدر ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل

أى: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذى من جملته الإيمان بالنبي ﷺ واتباعه حين يبعث، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض على طاعته

قالوا: فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو إسرائيل ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم تكن متعبدين أى مكلفين وأمورين بشرع من قبلنا، والآن فيهما ما يفسد التوحيد وصفات البارى والبشارة بالنبي ﷺ

قال الألوسى: وعبر فى جانب التوراة والإنجيل بقوله: " أنزل " للإشارة إلى أنهما

لم يكن لهما سوى نزول واحد، بخلاف القرآن فإن له نزولين: نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة، ونزولا من ذلك إليه ﷺ منجما في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل "

هذا، وليست التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم هي التوراة التي أنزلها الله على موسى، فقد بين القرآن في أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا، ومن ذلك قوله - تعالى: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}** ^(١)

وقوله تعالى: **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}** ^(٢)

ومن الأدلة على أن التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم ليست هي التي أنزلها الله على موسى: انقطاع سندها، واشتمالها على كثير من القصص والعبارات والمتناقضات التي تنتزه الكتب السماوية عن ذكرها

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل؛ إذ ليست هذه الأناجيل التي يقرؤها النصارى اليوم هي الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى؛ وإنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه

أما الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى والذي وصفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل

و**{الْفُرْقَانِ}** كل ما فرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقانا

١ - والمراد به عند أكثر المفسرين: الكتب السماوية التي سبق ذكرها وهي التوراة والإنجيل والقرآن أي: أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال والخير والشر، وبذلك لا يكون لأحد عذر في جحودها والكفر بها وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ

(١) سورة المائدة/ ١٩.

(٢) سورة المائدة/ ١٣.

الإنزال، تنزيلاً للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى

٢ - وقال بعضهم: المراد بالفرقان هنا: القرآن وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، ورفعاً لمكانه، ومدحاً له بكونه فارقاً بين الحق والباطل، للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال الشرائع كلها

٣ - وقال بعضهم: المراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسله لهداية الناس وسعادتهم وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر

وقد ذكر صاحب الكشف هذه الأقوال وغيرها فقال: " فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقاً بين الحق والباطل "

أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه: " والمختار عندى أن المراد من هذا الفرقان: المعجزات التى قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله، افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب فالمعجزة هى: الفرقان فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها، ويفيد بينها وبين سائر الكتب المختلفة "

والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا: جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق، الكافرين بآيات الله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أى: إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسله فيما يبلغون عنه، لهم عذاب شديد

منه - سبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم {والله عَزِيزٌ} أى منيع الجانب، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

وفى قوله: {والله عَزِيزٌ} إشارة إلى القدرة التامة على العقاب، وفى قوله: {ذُو انتِقَامٍ} إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب، ينزله متى شاء، وكيف شاء، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته، والوصف الأول صفة للذات والثانى صفة للفعل

ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شئ فقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} أى أنه سبحانه - هو المطلع على كل صغير وكبير وجليل وحقير، فى هذا الكون، لأنه هو الخالق له، والمهيمن على شؤونه وصدق - سبحانه - حيث يقول: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} وذكر - سبحانه - السماء والأرض، للإشارة إلى أن علمه وسع كل شئ، وسع السموات والأرض، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الانسان وما يخفيه؟

وفى تكرير حرف النهى " لا " تأكيد لنفى خفاء أى شئ عليه - سبحانه - والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته، لأنه - سبحانه - وهو العليم بما يسرونه وما يعلنونه، سيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

وقوله: {يُصَوِّرُكُمْ} من التصوير وهو جعل الشئ على صورة لم يكن عليها وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله

والله - تعالى - القادر على كل شئ قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (١) والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله، حتى يبرزه إلى الوجود بشرا سويا

والمعنى: الله الذى لا إله إلا هو والذى هو الحى القيوم، هو الذى يصوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء، بأن جعل بعضكم طويلاً وبعضكم قصيراً، وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا ذكر وتلك أنثى، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة، ومن كان شأنه كذلك فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا إله إلا هو {الْعَزِيزُ} الذى يقهر كل شئ بقوته وقدرته {الْحَكِيمُ} فى كل شؤونه وتصرفاته

وهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للتى قبلها، لأن قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشراً سوياً، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام، بل إنه - سبحانه - ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، فهو - كما يقول القرطبي - العالم بما كان وما يكون ومالا يكون

ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدتهم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقاً من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً

وقوله - تعالى: {كَيْفَ يَشَاءُ} إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعاً لقانون الأسباب والمسببات، إذ هو الفعال لما يريد فمن شاء هدايته هداة، ومن شاء إضلاله أضله

و{كَيْفَ} فى موضع نصب على أنه حال، وناصبه الفعل الذى بعده وهو {يَشَاءُ} ومفعول المشيئة محذوف والتقدير: هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء تصويركم، من ذكر وأنثى، وجميل ودميم، وغير ذلك من مظاهر التفاوت والاختلاف فى الصور والأشكال والعقول والميول

وقوله - تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} تأكيد لما قبله، من انفراده بالألوهية، وحقيقة المعبودية، بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حياً قيوماً، منزلاً للكتب الهادية للناس إلى الحق عالماً بكل شئ، مصوراً لخلقهم وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص، ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب ونية صادقة (١)

* * * * *

(١) سيد طنطاوى فى الوسيط: ٥٠.

المطلب الثاني :

الشهادة بوجود الله ووحدانيته وأحقية دينه

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (١)

قال القرطبي: " لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالوا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك فقال لهما رسول الله ﷺ: «سالني» فقالا: أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى - على نبيه ﷺ {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} فأسلم الرجلان وصدقوا برسول الله ﷺ وقوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ} أى بين وأعلم كما يقول: شهد فلان عند القاضى إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو قال الزجاج: " الشاهد هو الذى يعلم الشيء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين "

والمعنى: أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه، وبالآيات الكونية التي لا يقدر على خلقها أحد سواه، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بوحدانيته، وأنه لا معبود بحق سواه، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وفقراء إليه وهو الغنى عن كل ما عداه وشهد بذلك " الملائكة " بأن أقرروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد فعبدوه حق العباد، وأطاعوه حق الطاعة، وشهد بذلك أيضاً " أولو العلم " بأن اعترفوا له - سبحانه - بالوحدانية، وصدقوا بما جاهم به الرسول ﷺ وبلغوا ذلك لغيرهم

قال الزمخشري: شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما، بشهادة الشاهد في البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه "

وقالوا: وفي هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء، لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم وقال ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» وقال: «العلماء أمناء الله على خلقه» وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم في الدين خطير (١)

والمراد بأولى العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة عقيدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصوا لله في عبادتهم، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم وقدم سبحانه - الملائكة على أولى العلم، لأن فيهم من هو واسطة لتوصيل العلم إلى ذويه، لأن علمهم كله ضروري بخلاف البشر فإن علمهم منه ما ضروري، ومنه ما هو اكتسابي

وقوله - تعالى: {قَائِمًا بِالْقِسْطِ} بيان لكماله - سبحانه - في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته والقسط: العدل يقال: قسط ويقسط قسطاً، وأقسط إقسطاً فهو مقسط إذا عدل ومنه: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ويطلق القسط على الجور، والفاعل قاسط، ومنه: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} أي: مقيماً للعدل في تدبير أمر خلقه، وفي أحكامه وفيما يقسم بينهم من الأرزاق والآجال، وفيما يأمر به وينهى عنه، وفي كل شأن من شؤونه

قال: الجمل: و{قَائِمًا} منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال أيضاً في حيز الشهادة، فيكون المشهود به أمرين: الوجدانية والقيام بالقسط وهذا أحسن من جعله حالاً من الاسم الجليل فاعل شهد، لأن عليه يكون المشهود به الوجدانية فقط والحال ليست في حيز الشهادة

وقوله: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} تكرير للمشهود به للتأكيد والتقرير، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل، والاعتناء به

يقتضى الاعتناء بأدلتهم {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل أى لا إله في هذا الوجود يستحق العبادة بحق إلا الله {الْعَزِيزُ} الذى لا يمتنع عليه شئ أراد، وينتصر من كل أحد عاقبه أو انتقم منه {الْحَكِيمُ} في تدبيره فلا يدخله خلل

قال ابن جرير: " وإنما عنى جل ثناؤه - بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجوا رسول الله ﷺ في عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك: من أن له شريكا، واتخاذهم دونه أربابا، فأخبرهم الله عن نفسه، أنه الخالق كل ما سواه، وأنه رب كل ما اتخذ كل كافر وكل مشرك ربا دونه، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه فبدأ - جل ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سن لعبادهم أن يبدؤوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدبا خلقه بذلك "

هذا، ومن الآثار التى وردت في فضل هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ} إلى آخر الآية فقال ﷺ: " وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب " وقال غالب القطن: أتيت الكوفة في تجارة لي فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه، فقام في ليلة متهجدا فمر بهذه الآية {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}، قالها مرارا فقلت: لقد سمع فيها شيئا فسألته في ذلك فقال: حدثني أبو وائل بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - تعالى: عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى العهد أدخلوا عبدى الجنة»

وقوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى وأصل الدين فى اللغة: الجزاء والحساب يقال دنته بما صنع أى جازيته على صنيعه، ومنه قولهم: كما تدين تدان أى، كما تفعل تجازى، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» والمراد به هنا: ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات، فيكون بمعنى الملة والشرع

أى: إن الشريعة المرضية عند الله - تعالى - هى الإسلام، والإسلام فى اللغة: هو الاستسلام والانقياد يقال: أسلم أى انقاد واستسلم وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا

- كما قال ابن جرير: " شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله الذي شرعه لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أوليائه، لا يقبل غيره ولا يجزى بالإحسان إلا به " وهو الدين الحنيف الذي جاء به محمد ﷺ

وقال ابن كثير: وقوله - تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} إخبار منه تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله تعالى - بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال - تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ} الآية وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ} وقوله: {عِنْدَ اللَّهِ} ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنه من معنى الفعل، أى الذى شرع عند الله الإسلام ويصح أن يكون صفى للدين فيكون متعلقاً بمحذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقوله {عِنْدَ اللَّهِ} وباعتبار الإسلام وحده، هو دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، إشعار بفضل الإسلام، لأن له ذلك الشرف الإضافى إلى خالق هذا الكون ومربيه، فهو دين الله الذى شرعه لخلقه

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب في شأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}

أى: وما كان خلاف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به الرسول ﷺ إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذي لا باطل معه، فخلافتهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم

وفي التعبير عنهم بأنهم {أَوْتُوا الْكِتَابَ} زيادة تقبيح لهم؛ فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلا لهدايتهم، وسعادتهم فإذا تركوا بشاراته وتوجيهاته واتبعوا أهواءهم كان فعلهم هذا أشد قبحاً وفحشاً

وقوله: {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} زيادة أخرى في تقبيح أفعالهم، فإن الاختلاف بعد

مجىء العلم أزيد في القبح والعناد والاستثناء من أعم الأحوال أو الأوقات، أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق، والعلم بالحق وحده لا يكفي في الإيمان به، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مخلص متفتح لطلبه، وكم من أناس يعرفون الحق معرفة تامة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم بأنه حق، لأن العلم كالمطر، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية، والأفئدة المستقيمة وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ مفعول لأجله، والعامل فيه اختلف أى وما اختلفوا إلا للبغي لا لغيره، قال القرطبي: " وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم "

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: ومن يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - فإن الله محص عليه أعماله في الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه في الآخرة

فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قائم مقام جواب الشرط وعلة له، أى: ومن يكفر بآيات الله فإنه - سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ ما يرد به على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من المشركين وليمضى فى طريقه الواضح المستقيم فقال - تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾

وقوله: ﴿حَاجُّوكَ﴾ من المحاجة وهى أن يتبادل المتجادلان الحجة، بأن يقدم كل واحد حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعم أنه الحق الذى لا شك فيه

والمعنى: فإن جادلَكَ - يا محمد - أهل الكتاب ومن لف لفهم بالأقويل المزورة والمغالطات الباطلة بعد أن قامت الحجج على صدقك فلا تسر معهم في لجاجتهم، ولا

تلتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم: {أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} أى أخلصت عبادتى لله وحده، وأطعته واناقدت له، وكذلك من اتبعنى وآمن بى قد أسلم وجهه له وأخلص له العبادة

والمراد بالوجه هنا: الذات، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأنه أشرف أعضاء الشخص، ولأنه هو الذي تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل

و{وَمَنِ} في قوله: {وَمَنِ اتَّبَعَنِ} في محل رفع عطفًا على الضمير المتصل في {أَسَلَّمْتُ} أى أسلمت أنا ومن اتبعنى، وجاء العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما

وقوله: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَ أَسَلَّمْتُمْ} عطف على الجملة الشرطية، والمراد بالأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب والاستفهام فى قوله: {أَسَلَّمْتُمْ} للحض على أن يسلموا وجوههم لله، ويتبعوا الرسول ﷺ كما اتبعه المسلمون

والمعنى: فإن جادلوك في الدين - يا محمد - بعد أن تبين لكل عاقل صدقك، فقل لهؤلاء المعاندين إنى أسلمت وجهى لله وكذلك أتباعى أسلموا وجوههم لله، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين أسلموا تسلموا فقد تبين لكن أنى على حق، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن يدخل فيه وأن يترك العناد والمكابرة

قال صاحب الكشف: وقوله: {أَسَلَّمْتُمْ} ؟ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لك أم لا؟ ومنه قوله - تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر وفي هذا الاستفهام استقصار - أى عد المخاطب قاصراً - وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلبت له الحجة لم يتوقف في إذعانه للحق

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج، وما يترتب على إعراضهم من شروء تعود عليهم فقال: {فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}

أى: فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ فقد اهتموا إلى طريق الحق، لأن هذا الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله للناس وإن أعرضوا عن هذا الطريق المستقيم، فإن إعراضهم لن يضرهم - أيها الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ الناس ما أمرك الله بتبليغه إياهم وهو - سبحانه - بصير بخلقه لا تخفى عليه خافية من أقوالهم أو أفعالهم، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه

وعبر بالماضى فى قوله: **{فَقَدْ اهْتَدَوْا}** مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم وقوله: **{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}** قائم مقام جواب الشرط أى وإن تولوا لا يضرهم شئنا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد أدبته على أكمل وجه وأبلغه

وقوله: **{وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ}** تذييل فيه عزاء للنبي ﷺ عن كفرهم، وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم، لأنه - سبحانه - عليم بنفوس الناس جميعا وسيجازى كل إنسان بما يستحقه، وفيه كذلك وعد للمؤمنين بحسن العاقبة، وجزيل الثواب

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله - تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** ^(١) وقال - تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** ^(٢) وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأمهم امتثالاً لأمر الله له بذلك، فعن أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهدى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار»**

وقال ﷺ: **«أَعْطَيْتُ خَمْسًا بَعَثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ طَهْرًا وَمَسْجِدًا وَأَحَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ شَهْرًا وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ وَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَةً وَإِنِّي أَخْبَأْتُ شَفَاعَتِي ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا»** ^(٣) وقال: " كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة " وعن أنس - رضى الله

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) مسند أحمد: ١٨٩٠٢.

عنه - أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ : «يا فلان قل لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ القول فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطلع أبا القاسم فقال الغلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار» (١)

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد بينت للناس في كل زمان ومكان أن دين الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده وشهد بذلك خالق هذا الكون - عز وجل - وكفى بشهادته شهادة كما شهد بذلك الملائكة المقربون والعلماء المخلصون كما بينت أن كثيراً من الذين أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتُمونها ظمناً وبغياً، كما بينت - أيضاً - أن الذين يدخلون في هذا الدين يكونون بدخولهم قد اهتمدوا إلى الطريق القويم، وأن الذين يعرضون عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن الحق المبين ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التي عرف بها اليهود وعرف بها أسلافهم، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم

* * * * *

المطلب الثالث :

جزاء قتل الأنبياء

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (٢)

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة فهو متوقع هنا وهناك وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور فالحبوط: هو انتفاخ الدابة

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٥٢٢٥.

(٢) آل عمران: ٢١ - ٢٥.

التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام!

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط ذكر هذه الصفات يوحى بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهرُوا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع وكثير ما هم في كل زمان

ويحسن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصف ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؟ فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية، وقصر العبودية عليها وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ولو قالها ألف مرة باللسان! وسنرى في الآيات التالية في السياق مصداق هذا الكلام

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب موقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى وكل منهما " نصيب " من الكتاب باعتبار أن كتاب الله هو كل ما أنزل على رسله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيباً منه، وأوتي النصارى نصيباً منه، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله، ومصداقاً لما بين يديه من الكتاب

سؤال التعجيب من هؤلاء {الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ} ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله؛ والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ}

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة فكيف بمن يقولون: إنهم مسلمون، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها ثم يظنون يزعمون أنهم مسلمون! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون " هم الذين يعرضون هذا الإعراض إنه العجب الذي لا ينقضي، والبلاء الذي لا يقدر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرده من رحمة الله! والعياذ بالله!

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة، وجدية القسط الإلهي الذي لا يحابي ولا يميل يتجلى هذا في قولهم: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات؟ لماذا وهم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعدل الله؟ بل إذا كانوا يحسون أصلاً بجدية لقاء الله؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء، ثم يغرهم هذا الافتراء: {وَعَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله

وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون وفيهم من يتبححون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل العائلية، ثم يظنون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصي، ثم يساقون إلى الجنة! أليسوا مسلمين؟ إنه نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له في الدين

وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين، وتملصهم من حقيقته التي يرضاها الله: الإسلام: الاستسلام والطاعة والاتباع والتلقي من الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} كيف؟ إنه التهديد الرهيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله، وجدية عدل الله؛ ولا يتمتع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة وهو بعد تهديد قائم للجميع مشركين وملحدين، وأهل كتاب ومدعي إسلام، فهم سواء في أنهم لا يحققون في حياتهم الإسلام!

{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} وجرى العدل الإلهي مجراه؟ {وُوفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} بلا ظلم ولا محاباة؟ {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} كما أنهم لا يحابون في حساب الله؟

سؤال يلقي ويترك بلا جواب وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب!

بعدئذ يلقي رسول الله - ﷺ - وكل مؤمن، أن يتجه إلى الله، مقررأ حقيقة الألوهية الواحدة، وحقيقة القوامة الواحدة، في حياة البشر، وفي تدبير الكون فهذه وتلك كلتاها مظهر للألوهية وللحاكمية التي لا شريك لله فيها ولا شبيهه^(١)

* * * * *

المطلب الرابع:

قصة عيسى عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَكَلَّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَتَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (١)

قوله: {يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} أى يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب، لأن غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل عن ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك، بل خلقه الله - تعالى - خلقاً آخر، خلقه {بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} وهى " كن " فكان كما أراده الله و " من " فى قوله: " منه " لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة: أى بكلمة كائنة منه فالمراد بقوله: " كلمة " أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح

عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين

ورجح ابن جرير أن معنى {بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} ببشرى منه - سبحانه - فقد قال: وقوله: " بكلمة منه " يعنى برسالة من الله وخير من عنده وهو من قول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبراً فرحت به فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم

وعلى كلا التأويلين ففي التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله تكريم له وتشريف، وقوله: **{اسْمُهُ الْمَسِيحُ}** مبتدأ وخبر، والجملة نعت والضمير في قوله: **{اسْمُهُ}** يعود إلى كلمة وجاء مذكراً رعاية للمعنى لأننا سبق بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد

والمسيح: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفسه: **{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}** وقيل: المسيح فعيل بمعنى فاعل، للمبالغة في مسحه الأرض بالسياحة للعبادة: أو مسحه ذا العاهة ليبراً أو بمعنى مفعول أي ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب

وعيسى: اسم لهذا الاسم الكريم، وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء قال الراغب: عيسى اسم علم، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم بعيراً عيسى وناقة عيساء وجمعها عيس وهى إبل بيض يعتري بياضها بعض الظلمة " أى فيها اغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاءً وجمالاً

وابن مريم: هو كنيته، وهى للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابناً لله - تعالى - كما قال الضالون

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الأباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين: فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة قلت: لأن المسمى بها مذكر فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكانه قيل: الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة "

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة: اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق في هذا النبي العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر، ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى: ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَبُكِّلَ الْمُتَّقِينَ فِي الْمَهْدِ وَكُهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

أما الصفة الأولى فهي قوله - تعالى: ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى إذا جاءه وشرف ومنزلة عالية يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره

وعيسى عليه السلام، شهد الله تعالى له، - وكفى بالله شهيداً - شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة في الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها

والصفة الثانية من صفاته أنه: ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى أنه من المقربين عند الله - تعالى: ﴿وَبُكِّلَ الْمُتَّقِينَ﴾ والناس في المهد وكهلاً وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَجِئَها﴾ وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما، والمهد اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهبط له وهو في الرضاعة والكهل: هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل أوان الكلام، كما يكلمهم في حال كهولته واكتمال شبابه، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن في سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا

بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا^(١) أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهي قوله - تعالى: {وَمِنَ الصَّالِحِينَ} أى عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه، قالوا: ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال والتروك مواظباً على المنهج الأصلى، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة: {رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}^(٢) فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أرفدها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات "

تلك هي البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم، وتلك هي بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها، وشدة تأثرها فقال - تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنى يَكُونُ لى وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِى بَشَرٌ}

أى: قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب: يا رب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر، أى لست بذات زوج، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد

والجملة الكريمة مستأنفة استئنفاً بيانياً كأنه قيل: فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب: {قَالَتْ رَبِّ أَنى يَكُونُ لى وَلَدٌ} إلخ

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكاراً لقدرة الله - تعالى - وجملة: {وَلَمْ يَمَسَّسْنِى بَشَرٌ} حالية محققة لما مر ومقوية له

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة والتي يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها

(١) سورة مريم: ٢٩ - ٣١.

(٢) النمل: ١٩.

لم يلمسها رجل، لأنها كانت معتكفة في بيت الله ومنصرفه لعبادته، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله: **{قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}**

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته: كهذا الخلق الذى تجدينه، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه

وبعضهم يجعل الوقوف على " كذلك " فتكون خبراً لمبتدأ محذوف أى قال - سبحانه - فى إجابته على مريم: الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات - الله - خالقه وخالق كل شىء، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء **{إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ}**

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بياناً حكيماً عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمها الله - تعالى - بها

وقوله - تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ}** معطوف على **{يُشْرِكُ}** أى: يا مريم إن الله ييشرك بكلمة منه وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - الكتاب، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة أى ويقول الله - تعالى - ونعلمه وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله: " وجيها " فكأنه قال: وجيهاً ومعلماً

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة المستأنفة سبقت تطيباً لقلب مريم، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسسها بشر ولقد حكى القرآن عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها

المخاض {باليثني مِتْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا} ^(١) والمراد بالكتاب: الكتابة والخط، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحي وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية

قال الفخر الرازى: " والأقرب عندى أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ثم المراد بالحكمة: تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة وإنما أخرج تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار عظيمة والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل وإنما أخرج ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته فى العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسرار ذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية "

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هى لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام - رسولاً إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ألا وهو محمد ﷺ

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان: لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم وانبعث منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله، بل لم

يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقاً منهم

وقوله: **{وَرَسُولًا}** منصوب بمضمر يعود إليه المعنى، معطوف على **{وَيُعَلِّمُهُ}** أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل

وقوله: **{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** معمول لقوله: **{رَسُولًا}** لما فيه من معنى النطق كأنه قيل: ورسولا ناطقا بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله: **{مِّن رَّبِّكُمْ}** متعلق بمحذوف صفة لآية والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمها الله بها

أى: أن الله - تعالى - قد علم عيسى - عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه السلام - أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله: **{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}** قال الألوسى: " وقوله: **{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ}** الخ بدل من قوله: **{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ}** أو من **{آيَةٍ}** أو منصوب على المفعولية لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جئتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف، والمراد بالخلق: التصوير والإبراز على مقدار معين لا الإيجاد من العدم "

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله - عنه أنه قال لبنى إسرائيل: لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته، ولأمركم بإخلاص العبادة له، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربي، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئا صورته مثل صورة الطير، فأنفخ فى ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال: ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه

أما الثالث: فهو من صنع الله تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها ولا حكى الله - تعالى - عنه أنه قال: **{يَاذَنْ الله}** أى أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره، واللام فى قوله: **{لَكُمْ}** للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى

والكاف فى قوله: **{كَهَيْئَةِ الطير}** بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئاً مثل هيئة الطير، والهيئة هى الصورة والكيفية والضمير فى قوله: **{فَأَنْفُخُ فِيهِ}** يعود إلى هذا المفعول المحذوف وقوله: **{يَاذَنْ الله}** متعلق بىكون، وجىء به لإظهار العبودية، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكاً لله فى خلق الكائنات

وأما النوع الثانى والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى: **{وَأُبرئ}** أى أشفى، يقال: برأ المريض ببراً أو يبرؤ برءاً وبروءاً إذا شفى من مرضه

والأكمة: هو الذى يولد أعمى يقال كمة: كَمَا إذا ولد أعمى، فهو أكمه وامرأة كمهاء والأبرص: هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه: والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص، وأعيد الحياة إلى من مات ولا أفعل كل ذلك بقدرتى وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وإرادته وأمره

وخص إبراء الأكمة والأبرص بالذكر؛ لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلاً على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقاً مختاراً لا يعجزه شىء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - وقوله: **{وَأُخِي الموتى بِإِذْنِ الله}** فيه تدرج من الصعب إلى الأصعب، لأن مما لا شك فيه أن إحياء الموتى خارق عظيم، يدل دلال قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى

المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله: للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق وإنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح

قال ابن كثير: بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وأما عيسى فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبداً، وماذاك إلى أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق "

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن في قوله - تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

وقوله - تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ﴾ من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن

وقوله ﴿تَدْخِرُونَ﴾ من الإدخار وهو إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه يقال: دخرته وإدخرت، إذ أعدته للعقبى وأصله "تدخرون" بالذال المعجمة - من ادتخر الشيء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء دالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتي التى تدل على صدقى فيما أبلغه عن ربي أنى أخبركم بالشيء الذى تأكلونه وبالشيء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه

قال القرطبي: وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما

نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد، فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قوله: **{وَأَنْبِئُكُمْ}**

و " ما " فى الوضعين موصولة، أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه

ولا شك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذى يدخرونه يدل على صدقه، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**

أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجزاها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بيّنة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويدعن لها

فاسم الإشارة " ذلك " يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير: إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى: **{وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}**

وقوله - تعالى: **{وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ}** عطف على المضممر الذى تعلق به قوله تعالى: **{بِآيَةٍ}** أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم، ومصدقا لما بين يدي وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه " قد جئتكم " أى جئتكم مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة والإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها

والمعنى: أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل: إن الله - تعالى - قد أرسلني إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التى تثبت صدقي وجئتكم مصدقا لما بين يدي من التوراة أي مقررًا لها ومؤمناً بها

ومعنى ما بين يدي: ما تقدم قبلي؛ لأن المتقدم السابق يمشي بين يدي الجائي فهو هنا تمثيل لحالة سبق، وإن كان عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمان طويل ويستعمل بين يدي كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ معمول لمقدر بعد الواو، أى: وجئكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله - تعالى: ﴿فَظَلَمَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين: ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية: ﴿وَلَا بُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ﴾ قالوا ومن الأطعمة التى أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى: لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور

وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه

قال الفخر الرازى: " وإنما أعاد قوله - تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعاً فى قلوبهم ومؤثراً فى طباعهم ثم خوفهم فقال: ﴿فاتقوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما أمركم عن ربى"

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبداً لله مخلوقاً له، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله

وحده ولا يشركوا به شيئاً فقال: {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} أى قال عيسى - عليه السلام - داعياً قومه إلى عبادة الله - تعالى: هو الذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى ورباكم، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هي الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكى لنا بعض التوجيهات القويمه، والإرشادات الحكيمه التى نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم

والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو: ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات؟

لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته^(١)

* * * * *

المطلب الخامس:

عيسى عليه السلام مع قومه

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهَوٌ الْقَصَصِ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}{^(٢)

(١) تفسير سيد طنطاوى: ٥٥.

(٢) آل عمران: ٥٢ - ٦٣.

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا: هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك **{قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله **{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}** وهم الأنصار: **{نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك

وقالوا: **{آمَنَّا بِاللَّهِ}** **{فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا: **{وَمَكْرُؤًا}** أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره **{وَمَكَّرَ اللَّهُ}** بهم جزاء لهم على مكرهم: **{وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله **{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}**

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته: أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: **{وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** ثم قال تعالى: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ **{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}** أي: مصير الخلائق كلها **{فَأَخْذُكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** كل يدعي أن

الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان
ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال: **{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي: بالله وآياته
ورسله **{فَأَعَذَّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من
القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة،
وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب
الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار **{وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ}** ينصرونهم من عذاب الله، لا من
زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم
وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر
الله بالإيمان به **{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها
المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين **{فَيُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ}** دل ذلك على أنه يحصل
لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية
الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل
عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** بل يبغضهم ويحل
عليهم سخطه وعذابه

{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} وهذه منة عظيمة على رسوله محمد ﷺ
وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام
والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات
والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام،
فيحصل فيها العلم والعبرة وتنشيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال
تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**

يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق،
بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو
شريكا لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات
الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته،

فهو على نقیض قولهم أدل، وعلى أن أحدا لا یستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم علیه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا یوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح إدعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح علیه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن یجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا یوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تتحل عن الإنسان إشكالات كثيرة یوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن یبين الحق بأدلته ويدعو إليه ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

أي: ﴿فَمَنْ﴾ جادلک ﴿حَاجَّكَ﴾ في عيسى علیه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلک ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباہلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلا ولا مالا وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا

بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأخبر تعالى: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١)

* * * * *

المطلب السادس:

دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تَوَدُّونَ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢)

(١) تفسير السعدي صفحة: ٥٦.

(٢) آل عمران: ٦٤ - ٧٤.

وساق الطبري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ؟**

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مع النبي ﷺ أو مع بعضهم البعض في حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك ثم - وهذا هو الأهم - تكذيب دعوى النبي ﷺ أنه على دين إبراهيم، وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد؛ ويكشف مرأهم الذي لا يستند إلى دليل فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً؟ إنها دعوى مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟

ثم يمضي في التنديد بهم؛ وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار:

هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ؟

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام؛ كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم تولوا وهم معرضون وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم، ووجود كتبهم ودياناتهم فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سنداً شكلياً فهو الجدل إذن لذات الجدل وهو المراء الذي لا يسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوى ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول بل غير جدير بالاستماع أصلاً لما يقول!

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه، ونزع الثقة منهم ومما يقولون، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله فهو - سبحانه - الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزل على عبده إبراهيم وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول؛ إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم - عليه السلام - ما كان يهودياً ولا نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ويقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلماً مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

يشير أولاً: إلى أن اليهود والنصارى - الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة - مشركون ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً! ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر فلا يلتقيان الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه وكل مقتضياته ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوى المشركين من قریش كذلك أنهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة فهو حنيف مسلم، وهم مشركون

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾!

وما دام أن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فليس لأي من اليهود أو النصارى - أو المشركين أيضاً - أن يدعي وراثته، ولا الولاية على دينه، وهم بعيدون عن عقيدته

والعقيدة هي الوشيعة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض، إذا أنبتت تلك الوشيعة التي يتجمع عليها أهل الإيمان فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه بالنفخة التي جعلت منه إنساناً ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج! والولاية بين فرد وفرد،

وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة، يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة، والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس؛ ويتجمعون أولياء - بالعقيدة وحدها - والله من ورائهم ولي الجميع:

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}

فالذين اتبعوا إبراهيم - في حياته - وساروا على منهجه، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه ثم هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين ثم الذين آمنوا بهذا النبي ﷺ فالتقوا مع إبراهيم - عليه السلام - في المنهج والطريق

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}

فهم حزبه الذين ينتمون إليه، ويستظلون برأيته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

وهذه الصورة هي أرقى صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني وتميزه من القطيع! كما أنها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود لأن القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هي الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هي القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هي اللون - ولا يملك ببسر أن يغير لغته إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك ببسر أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلاً إن كانت الطبقات وراثية كما في الهند مثلاً ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم

عناصره، المميّزة له من القطيع!

والبشرية إما أن تعيش - كما يريد لها الإسلام - أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمّة القلب وعلامة الشعور وإما أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون وكلها حدود مما يقام للمشاة في المرعى كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

ثم يكشف للجماعة المسلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مرأى ويواجه أهل الكتاب بالأعبيهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة أيضاً وهو يمزق عنهم الأردية التي يتخفون تحتها، فيقفهم أمام الجماعة المسلمة عراة مفضوحين^(١)

أنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات في هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يخلصوا لله العبادة فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

والسواء: العدل والنصفة، أى قل يا محمد لأهل الكتاب: هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم

أو السواء: مصدر مستوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق

ثم بين - سبحانه - هذه الكلمة العادلة المستقيمة التي هي محل اتفاق بين الأنبياء فقال: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان

﴿وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً﴾ أى ولا نشرك معه أحداً في العبادة والخضوع، بأن نقول: فلان إله، أو فلان ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة

﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى ولا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله قال الألوسي: ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال: ما كنا نعبدكم يا رسول الله فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون منكم ويحرمون

فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم فقال ﷺ: «هو ذاك» ^(١) قيل إلى هذا أشار - سبحانه - بقوله: {اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُؤُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعاً عن عبادة غير الله، وعن أن يشرك معه في الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك، وعن أن يتخذ أحد من البشر في مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعاً متفقة في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وقد حكى القرآن في كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قوله - تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} وقوله - تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون في طغيانهم فقال: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}

أى فإن أعرض هؤلاء الكفاء عن دعوة الحق، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوه ولا تحاجوهم، بل قولوا لهم: اشهدوا: بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل

قال صاحب الكشاف: وقوله: {فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أى لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم وذلك كما يقول الغالب للمغلوب في جدال وصراع أو غيرهما: اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعنا: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره ^(٢)

هذا وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقي رصين، ولذا كان النبى ﷺ يكتبها في بعض رسائله التى أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام

فقد جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل - ملك الروم:

" من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى

أما بعد:

(١) سنن الترمذى: ٣٠٢٠.

(٢) الكشاف: 1/50.

فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}

وأما النداء الثانى الذى اشتملت عليه هذه الآيات فقد تضمن نهى أهل الكتاب عن الجدل بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

وساق ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده، قالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله - تعالى - فيهم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ}

وقوله: {تُحَاجُّونَ} من المحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها (١)

والمعنى: لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية، فإن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان طويلة، فكيف يكون يهودياً يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده، أو كيف يكون نصرانياً يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده، بآلاف السنين؟ إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد

وقوله: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشئ لا يمكن أن يكون تابعا للشئ المتأخر عنه؟

فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهودياً أو نصرانياً

ثم بين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى: {هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ}

(١) ابن جرير الطبرى: 1/57.

حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}

والمعنى: أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة في أمر لكم به علم في الجملة، كجدالكم فيما وجدتموه في كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء في التوراة والإنجيل من أحكام، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا في أمر ليس لكم به علم أصلاً، وهو جدالكم في دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهي أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة

وإذن فجدالكم في شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة، والنفوس المستقيمة

وقوله - تعالى: {هَآأَنُتُمْ هَؤْلَآءُ حَآجَّجُتُمْ} ها حرف تنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف و{حَآجَّجُتُمْ} جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى والمعنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم " فيما لكم به علم " مما نطق به التوراة والإنجيل {فَلِمَ تَحَآجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم

وتكرير هاء التنبيه في قوله: {هَآأَنُتُمْ هَؤْلَآءُ} يشعر بغرابة ما هم عليه من جهل، ومجافاته لكل منطق سليم

قال الرازي: وقوله: {هَآأَنُتُمْ هَؤْلَآءُ حَآجَّجُتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} يحتمل أنه لم يفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون حاجته فيما تدعون عمله، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبته "

وقوله - تعالى: {وَاللّٰهُ يَعْزَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل، ونفى العلم عن أهل الكتاب في شأن إبراهيم

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعمل كل شىء في هذا الوجود، وأنتم لا تعلمون ذلك^(١)

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال -

(١) الرازي: 1/60.

تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وقوله: {حَنِيفًا} من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال: تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة أى: ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهودياً كما قال اليهود، ولا نصرانياً كما قال النصارى ولكنه كان حنيفاً أى مائلاً عن العقائد الزائفة متحريراً طريق الاستقامة وكان " مسلماً " أى مستسماً لله - تعالى - منقاداً له مخلصاً له العبادة {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك

وعن أنس رضى الله عنه قال: " جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام» (١)

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} وقوله - تعالى: {أَوْلَى} أفعل تفضيل من الولى وهو القرب والمعنى: إن أقرب الناس من إبراهيم، وأخصهم به، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة:

أولهم: بينه الله بقوله: {لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهودياً أو نصرانياً

وثانى: هذه الأصناف: بينه - سبحانه - بقوله: {وَهَذَا النَّبِيُّ} والمراد به محمد ﷺ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به وللإشعار بأنه ﷺ قد تلقى

(١) صحيح مسلم - الفضائل - من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ : ٤٣٦٧ .

الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام -

وثالث: هذه الأصناف: بينه الله - تعالى - بقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} أى: والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه

وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية، وتقرير بأن أتباع محمد ﷺ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياههم، وتركوا الحق جرياً وراء شهواتهم

وقوله: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} تذييل مقصود به تبير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم ومتولى أمورهم

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي يعنى محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاية من النبين، وإن وليي منهم أبى خليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} (١)

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدِبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ} والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا ثم وصفها بقوله: {سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها ثم فسر لها بقوله: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}

لا وتنا، ولا صنما، ولا صليباً ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً بل نُفِرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (٢)

(١) ابن كثير: ٥٨/١.

(٢) الأنبياء: ٢٥.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (١)

ثم قال: {وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} وقال ابن جرير: يعني: يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله وقال عكرمة: يعني: يسجد بعضنا لبعض

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم

وفي شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مشركاً لم يُسلم بعد، وكان ذلك بعد صلح الحُدَيْبِيَّةِ وقبل الفتح، كما هو مُصرَّح به في الحديث، ولأنه لما قال يغدر؟ قال: فقلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها قال: ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمُ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أي: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ولهذا قال: {أَفَلَا

(١) {تَعْقِلُونَ}

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} من اليهود والنصارى {لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ} أي في ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام وزعم كلٌ منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم {وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ} على موسى عليه الصلاة والسلام {وَالْإِنْجِيلَ} على عيسى عليه الصلاة والسلام {إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألف سنة فكيف يمكن أن يتفوّه به عاقلٌ {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أي ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلانَ مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} جملة من مبتدأ وخبر صُدّرت بحرف التنبيه ثم يُنبِت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتكم أي أنتم هؤلاء الأشخاصُ الحمق حيث {حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}

في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل، {فَلَمْ تُحَاجُّوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} أصلاً إذ لا ذِكرَ لدين إبراهيم في أحد الكتابين قطعاً وقيل: هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلته وقيل: ها أنتم أصله أنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزة هاء {وَاللَّهُ يَعْلَمُ} ما حاججتم فيه أو كلّ شيءٍ فيدخل فيه ذلك دخولاً أولياً {وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} أي محلّ النزاع أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها ذلك {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} تصريحٌ بما نطق به البرهانُ المقرر {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا} أي مائلاً عن العقائد الزائغة كلها {مُسْلِمًا} أي منقاداً لله تعالى، وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} تعريضٌ بأنهم مشركون بقولهم: عزيزُ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله وردُّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ} أي أقربهم إليه وأخصّهم به {لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} أي في زمانه {وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة، وقرئ النبي بالنصب عطفاً على الضمير في اتبعوه وبالجبر عطفاً على إبراهيم {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} ينصّرهم ويجازيهم الحسنَى بإيمانهم، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر ليثبت الحكمُ في النبي ﷺ بدلالة النصِّ

{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ} نزلت في اليهود حين دعوا خذيفة وعماراً

ومُعَاذًا إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَ{لَوْ} بِمَعْنَى أَنْ {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} جَمْلَةٌ حَالِيَّةٌ جِيءَ بِهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ رَسُوخِ الْمَخَاطِبِينَ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ أَيْ وَمَا يَتَخَطَّاهُمْ الْإِضْلَالُ وَلَا يَعُودُ وَبِأَلِّهِمْ لَمَّا أَنَّهُ يُضَاعَفُ بِهِ عَذَابُهُمْ وَقِيلَ: وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَمْثَالَهُمْ وَيَأْبَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا يَشْعُرُونَ * أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} أَيْ بِمَا نَطَقْتُ بِهِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلُ وَدَلَّتْ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ {وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} أَيْ وَالْحَالُ أَنْكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّهَا آيَاتُ اللَّهِ أَوْ بِالْقُرْآنِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ نَعْنَهُ فِي الْكِتَابِينَ أَوْ تَعْلَمُونَ بِالْمُعْجَزَاتِ أَنَّهُ حَقٌّ {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} بِتَحْرِيفِكُمْ وَإِبْرَارِ الْبَاطِلِ فِي صَوْرَتِهِ أَوْ بِالتَّقْصِيرِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا، وَقُرِئَ تَلْبَسُونَ بِالتَّشْدِيدِ وَتَلْبَسُونَ بِفَتْحِ الْبَاءِ أَيْ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ مَعَ الْبَاطِلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَلايسِ ثَوْبِي زُورٍ» {وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ} أَيْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْنَهُ {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أَيْ حَقِّيَّتَهُ

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ وَمُفْسِدُوهُمْ لِأَعْقَابِهِمْ {ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} أَيْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ الْمُنْزَلِ عَلَيْهِمْ {وَجَهَ النَّهَارِ} أَيْ أَوَّلِهِ {وَاكْفُرُوا} أَيْ أَظْهَرُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ {ءَاخِرَهُ} مُرَائِينَ لَهُمْ أَنْكُمْ آمَنْتُمْ بِهِ بِإِدْيِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَأْمَلٍ ثُمَّ تَأْمَلْتُمْ فِيهِ فَوْقْتُمْ عَلَى خَلَلِ رَأْيِكُمُ الْأَوَّلِ فَرَجَعْتُمْ عَنْهُ {لَعَلَّهُمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {يَرْجِعُونَ} عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ كَمَا رَجَعْتُمْ وَالْمَرَادُ بِالطَّائِفَةِ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ قَالَا لِأَصْحَابِهِمَا لَمَّا حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ: آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ وَصَلُّوا إِلَيْهَا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ صَلُّوا إِلَى الصَّخْرَةِ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَقُولُونَ: هُمْ أَعْلَمُ مِنَّا وَقَدْ رَجَعُوا فَيَرْجِعُونَ، وَقِيلَ: هُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَحْبَارِ خَيْبَرَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَيَقُولُوا آخِرَهُ: نَظَرْنَا فِي كِتَابِنَا وَشَاوَرْنَا عُلَمَاءَنَا فَلَمْ نَجِدْ مُحَمَّدًا بِالْنَعْتِ الَّذِي وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ، لَعَلَّ أَصْحَابَهُ يَشْكُونَ فِيهِ

{وَلَا تُؤْمِنُوا} أَيْ لَا تُقَرِّوْا بِتَصْدِيقِ قَلْبِي {إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ} أَيْ لِأَهْلِ دِينِكُمْ أَوْ لَا تُظْهَرُوا إِيْمَانَكُمْ وَجَهَ النَّهَارِ إِلَّا لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِكُمْ مِنْ قَبْلُ، فَإِنْ رَجَوْعَهُمْ أَرْجَى وَأَهْمُ {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ} يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ وَيُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ {أَنْ يُوْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ دَبَّرْتُمْ ذَلِكَ وَقَلْتُمْ لِأَنْ يُوْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، أَوْ بَلَا تَوْمَنُوا أَيْ وَلَا تَظْهَرُوا إِيْمَانَكُمْ بِأَنْ يُوْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ إِلَّا لِأَشْيَاعِكُمْ وَلَا تُفْسُوهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ لَنَلَّا يَزِيدَ ثَبَاتَهُمْ وَلَا إِلَى الْمُشْرِكِينَ لَنَلَّا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ مفيدٌ لكون كيدهم غيرَ مُجدٍ لطائل أو خبر إن على هدى الله بدل من الهدى، وقرئ أن يؤتى على الاستفهام التقريعي وهو مؤيدٌ للوجه الأول أي لأن يؤتى أحدٌ إلخ دبّرتم؟ وقرئ أن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة، أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقلوا لهم: ما يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ يُّؤْتَى﴾ على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فیدحضوا حُجَّتكم، والواو ضميرٌ ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه في معنى الجمع إذ المرادُ به غيرُ أتباعهم ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ردٌّ لهم وإبطالٌ لما زعموه بـ ﴿يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي يجعل رحمته مقصورةً على ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كلاهما تنذيلٌ لما قبله مقررٌ لمضمونه الحجة الباهرة اختصاص وبإله وضرره بهم^(١)

قال تعالى: ﴿يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده

وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صاحب النعم التي لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع

* * * * *

(١) تفسير أبو السعود صفحة / ٥٨.

المطلب الثامن :

إحقاق الحق وإبطال الشرك

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (١)

أي من اليهود طائفة تخيل للمسلمين أشياء أنها مما جاء في التوراة، وليست كذلك، إما في الاعتذار عن بعض أفعالهم الذميمة، كقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، وإما للتخليط على المسلمين حتى يشكوكهم فيما يخالف ذلك مما ذكره القرآن، أو لإدخال الشك عليهم في بعض ما نزل به القرآن، فاللّٰهُ مجمل، ولكنه مبين بقوله: {لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ} وقوله: {وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}

واللّٰهُ في الأصل: الإراغة أي إدارة الجسم غير المتصلب إلى غير الصوب الذي هو ممتد إليه: فمن ذلك ليّ الحبل، وليّ العنان للفرس لإدارته إلى جهة غير صوب سيره، ومنه ليّ العنق، وليّ الرأس بمعنى الالتفات والإعراض قال تعالى: {لَوَّؤَا رُءُوسَهُمْ} (٢)

واللي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم: {زَاعِنَا} وفي الحديث من قولهم في السلام على النبي ﷺ: "السَّامُ عليكم" أي الموت أو "السَّلَام بكسر السين عليك" وهذا الذي يشابه الإشمام والاختلاس ومنه إمالة الألف إلى الياء، وقد تتغير الكلمات بالترقيق والتفخيم وباختلاف صفات الحروف والظاهر أنّ الكتاب هو التوراة فلعلهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلماتها بينَ بينَ ليوهموا المسلمين

(١) آل عمران: ٧٨ / ٨٠.

(٢) المنافقون: ٥.

معنى غير المعنى المراد، وقد كانت لهم مقدرة ومراس في هذا وقريب من هذا ما ذكره المبرّد في الكامل أنّ بعض الأزارقة أعاد بيت عمر بن أبي ربيعة في مجلس ابن عباس:

رَأْتُ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصِرُ فَجَعَلَ يَضْحَى يَحْزَى وَجَعَلَ يَخْصِرُ يَخْسِرُ بِالسَّيْنِ لِيَشُوهُ الْمَعْنَى لِأَنَّهُ غَضِبَ مِنْ إِقْبَالِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى سَمَاعٍ شَعَرَهُ وَفِي الْأَحَاجِي وَالْأَلْغَازِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: إِنَّ لِلَّهِ إِلَهًا فَوْقَهُ فَيَقُولُهَا أَحَدٌ بِحُضْرَةِ نَاسٍ وَلَا يَشْبَعُ كَسْرَةُ اللَّهِ يَخَالُهَا السَّامِعُ اللَّهُ فَيُظَنُّهُ كَفَرٌ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَقْرَأُونَ مَا لَيْسَ مِنَ التَّوْرَةِ بِالْكَفِيَّاتِ أَوْ اللَّحُونِ الَّتِي كَانُوا يَقْرَأُونَ بِهَا التَّوْرَةَ لِيُخِيلُوا لِلْسَامِعِينَ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ

ويحتمل أن يكون اللّٰه هنا مجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم: لوى الحجة أي ألقي بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضعه: بالتأويلات الباطلة، والأقيسة الفاسدة، والموضوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله، وأياماً كان فهذا اللّٰه يُقصدون منه التّمويه على المسلمين لغرض، حكما فعل ابن سوريا في إخفاء حكم رجم الزاني في التّوراة وقوله: نَحَمَّ وجهه

والمخاطب يتحسبوه المسلمون دون النبي ﷺ أو هو والمسلمون في ظنّ اليهود وجيء بالمضارع في هاته الأفعال: يلوون، ويقولون، للدلالة على تجدد ذلك وأنه دأبهم وتكرير الكتاب في الآية مرتين، واسم الجلالة أيضاً مرتين، لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما، والمتعلقين به، قال المرزوقي في شرح الحماسة في باب الأدب عند قول يحيى بن زياد:

لما رأيت الشيب لاح بياضه بمفرق :: رأسي قلت للشيب مرحبا
كان الواجب أن يقول: "قلت له مرحبا لكنهم يكرّرون الأعلام وأسماء الأجناس كثيراً والقصد بالتكرير التّفخيم" قلت ومنه قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء :: قهر الموت ذا الغنى والفقير
والقراءة المعروفة يلوون: بفتح التحتية وسكون اللام وتخفيف الواو مضارع لوى، وذكر ابن عطية أنّ أبا جعفر قرأه: يُلوون بضم ففتح فواو مشددة مضارع لوى بوزن

فعل للمبالغة ولم أر نسبة هذه القراءة إلى أبي جعفر في كتب القراءات

اعتراض واستطراد: فإنه لما ذكر لي اليهود أسنتهم بالتوراة، وهو ضرب من التحريف، استطرد بذكر التحريف الذي عند النصارى لمناسبة التشابه في التحريف إذ تقول النصارى على المسيح أنه أمرهم بعبادته فالمراد بالبشر عيسى عليه السلام، والمقصود تنزيه عيسى عن أن يكون قال ذلك، ردّاً على النصارى، فيكون رجوعاً إلى الغرض الذي في قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)

وفي "الكشاف": قيل نزلت لأن رجلاً قال: يا رسول الله نُسَلِّمُ عليك كما يُسَلِّم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال: «لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله» قلت: أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، فعلى تقدير كونه حديثاً مقبولاً فمناسبة ذكر هذه الآية أنها قصد منها الردّ على جميع هذه المعتقدات ووقع في أسباب النزول للواحد من رواية الكلبي، عن ابن عباس: أن أبا رافع اليهودي والسيد من نصارى نجران قالوا يا محمد: "أتريد أن نعبدك" فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن يُعبد غير الله» ونزلت هذه الآية

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ نفي لاستحقاق أحد لذلك القول واللام فيه للاستحقاق وأصل هذا التركيب في الكلام ما كان فلان فاعلاً كذا، فلما أريدت المبالغة في النفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدال على الجنس، وجعل نفي الجنس عن الشخص بواسطة نفي الاستحقاق إذ لا طريقة لحمل اسم ذات على اسم ذات إلا بواسطة بعض الحروف، فصار التركيب: ما كان له أن يفعل، ويقال أيضاً: ليس له أن يفعل، ومثل ذلك في الإثبات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾^(٢)

فمعنى الآية: ليس قول: ﴿كُونُوا عِبَاداً لِّي﴾ حقاً لبشر أي بشر كان وهذه اللام هي أصل لام الجحود التي في نحو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾^(٣)، فتراكيب لام الجحود كلها من قبيل

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) طه: ١١٨.

(٣) الأنفال: ٣٣.

قلب مثل هذا التركيب لقصد المبالغة في النفي، بحيث ينفى أن يكون وجود المسند إليه مجعولاً لأجل فعل كذا، أي فهو بريء منه بأصل الخلقة ولذلك سميت جحوداً

والمنفي في ظاهر هذه الآية إيتاء الحكم والنبوءة، ولكن قد علم أن مصبّ النفي هو المعطوف من قوله: {ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي} أي ما كان له أن يقول كونوا عباداً لي إذا آتاه الله الكتاب

والعباد جمع عبد كالعبيد، وقال ابن عطية: "الذي استقرت في لفظ العباد أنه جمع عبد لا يقصد معه التحقير، والعبيد يقصد منه، ولذلك قال تعالى: "يا عبادي" وسمّت العرب طوائف من العرب سكنوا الحيرة ودخلوا تحت حكم كسرى بالعباد، وقيل لأنهم تنصّروا فسموهم بالعباد، بخلاف جمعه على عبيد كقولهم: هم عبيد العصا، وقال حمزة بن عبد المطلب هل أنتم إلا عبيدٌ لأبي؟ ومنه قول الله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} (١)؛ لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلّة مقدرتهم وأنه تعالى ليس بظلام لهم مع ذلك، ولما كان لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك آس بها في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} (٢) فهذا النوع من النظر يُسلك به سُبُل العجائب في ميزة فصاحة القرآن على الطريقة العربية السلبية»

وقوله: {مَنْ دُونِ اللَّهِ} قيد قصد منه تشنيع القول بأن يكونوا عباداً للقاتل بأن ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى إلى عبودية البشر، لأن حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين، فإنّ النصارى لما جعلوا عيسى ربّاً لهم، وجعلوه ابناً لله، قد لزمهم أنهم انخلعوا عن عبودية الله فلا جدوى لقولهم: نحن عبد الله وعبيد عيسى، فلذلك جعلت مقالّتهم مقتضية أن عيسى أمرهم بأن يكونوا عباداً له دون الله، والمعنى أن لأمر بأن يكون الناس عباداً له هو أمر بانصرافهم عن عبادة الله {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} أي ولكن يقول: كونوا ربانيين أي كونوا منسوبين للرب، وهو الله تعالى، لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه

ومعنى ذلك أن يكونوا مخلصين لله دون غيره والربّاني نسبة إلى الرب على غير

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) الزمر: ٥٣.

قياس كما يقال اللّحياني لعظيم اللحية، والشّعراي لكثير الشعر

وقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ} أي لأنّ علمكم الكتاب من شأنه أن يصدّكم عن إشراك العبادة، فإنّ فائدة العلم العمل

وقرأ الجمهور: بما كنتم تعلمون بفتح المثناة الفوقية وسكون العين وفتح اللام مضارع علّم وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف: بضم ففتح فلام مشدّدة مكسورة مضارع علّم المضاعف

{تَدْرُسُونَ} معناه تقرأون أي قراءة بإعادة وتكرير: لأنّ مادّة درس في كلام العرب تحوم حول معاني التأثير من تكرر عمل يُعمل في أمثاله، فمنه قولهم: دَرَسَتِ الرِّيحُ رَسْمَ الدَّارِ إذا عفته وأبلته، فهو دارس، يقال منزل دارس، والطريق الدارس العافي الذي لا يتبين وثوب دارس خَلْقٌ، وقالوا: دَرَسَ الْكِتَابَ إذا قرأه بتمهّل لحفظه، أو للتدبّر، وفي الحديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة» إلخ رواه الترمذي فعطف التدارس على القراءة فعلم أنّ الدراسة أخصّ من القراءة وسموا بيت قراءة اليهود مدرّساً كما في الحديث: إنّ النبي ﷺ خرج في طائفة من أصحابه حتى أتى مدرّاس اليهود فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلخ ومادة درس تستلزم التمكن من المفعول فلذلك صار درس الكتاب مجازاً في فهمه وإتقانه ولذلك عطف في هذه الآية: {وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} على {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}

وفي قوله: {وَلَا يَأْمُرُكُمْ} التفات من الغيبة إلى الخطاب

وقرأ الجمهور "يأمرُكم" بالرفع على ابتداء الكلام، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي، فإنه لما وقع بعد فعل منفي، ثم انتقض نفيه ولكن، احتيج إلى إعادة حرف النفي، والمعنى على هذه القراءة واضح: أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا إلخ ولا هو يأمرهم أن يتخذوا الملائكة أرباباً وقرأه ابن عامر، وحمزة ويعقوب، وخلف: بالنصب عطفاً على أن يقول ولا زائدة لتأكيد النفي الذي في قوله: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ}، وليست معمولة لأنّ لاقتضاء ذلك أن يصير المعنى: لا ينبغي لبشر أوتي الكتاب إلّا يأمركم أن تتخذوا، والمقصود عكس هذا المعنى، إذ المقصود أنه لا ينبغي له أن يأمر، فلذلك اضطرّ في تخريج هذه القراءة إلى جعل لا زائدة لتأكيد النفي وليست لنفي جديد

قال ابن عرفة: "إن قيل نفي الأمر أعم من النهي فهلا قيل وينهاكم والجواب أن ذلك باعتبار دعواهم وتقولهم على الرسل» وأقول: لعل التعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله: {ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ} لأنهم زعموا أن المسيح قال: إنه ابن الله فلما نفي أنه يقول ذلك نفي ما هو مثله وهو أن يأمرهم باتخاذ الملائكة أرباباً، أو لأنهم لما كانوا يدعون التمسك بالدين كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه، أو لأن المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر، إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدنية فاقتصر، في الرد على الأمة، على أن أنبياءهم لم يأمرهم به ولذلك عقب بالاستفهام الإنكاري، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله: {يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}

فهناك سببان لإنكار أن يكون ما هم عليه مرضياً أنبياءهم؛ فإنه كفر، وهم لا يرضون بالكفر فما كان من حق من يتبعونهم التلبس بالكفر بعد أن خرجوا منه

والخطاب في قوله: {وَلَا يَأْمُرُكُمْ} التفات من طريقة الغيبة في قوله: {ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ} كَوْنُوا عِبَاداً لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ} فالمواجه بالخطاب هم الذين زعموا أن عيسى قال لهم: كونوا عباداً لي من دون الله

فمعنى: {أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} يقتضي أنهم كانوا مسلمين والخطاب للنصارى وليس دينهم يطلق عليه أنه إسلام فقيل: أريد بالإسلام الإيمان أي غير مشركين بقرينة قوله: {بِالْكَفْرِ} وقيل: الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قوله: {إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} لأن اليهود والنصارى لم يوصفوا بأنهم مسلمون في القرآن، فهذا الذي جراً من قالوا: إن الآية نزلت لقول رجل لرسول الله ﷺ: "ألا نسجد لك"؟، ولا أراه لو كان صحيحاً أن تكون الآية قاصدة إياه؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: ثم يأمر الناس بالسجود إليه، ولما عرج على الأمر بأن يكونوا عباداً له من دون الله ولا بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً^(١)

* * * * *

(١) تفسير ابن عاشور: ٥٩ / ٦٠.

المطلب التاسع:

الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف

{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالتَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (١)

المخاطب بفعل قل: هو النبي ﷺ ليقول ذلك بمسمع من الناس: مسلمهم، وكافرهم، ولذلك جاء في هذه الآية قوله: {وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا} أي أنزل عليّ لتبليغكم فجعل إنزاله على الرسول والأمة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل، وعدى فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أن الإنزال يقتضي علوّ فوصول الشيء المنزل وصول استعلاء وعدى في آية سورة البقرة بحرف (إلى) باعتبار أن الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدى بحرف (إلى) والجملة اعتراض واستئناف: لتلقين النبي عليه السلام والمسلمين كلاماً جامعاً لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويعلن به للأمم، نشأ عن قوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ} (٢)

ومعنى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} أننا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حبّ نبينا على كراحتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى، وحذف المعطوف وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة وهذه الآية شعار الإسلام وقد قال الله تعالى: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} (٣) وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران

عطف على جملة {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ} وما بينهما اعتراض، كما علمت، وهذا تأسيس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقولهم: نحن على ملة إبراهيم، فنحن ناجون على كلّ حال والمعنى من يبتغ غير الإسلام بعد مجيء الإسلام

استئناف ابتدائي يناسب ما سبقه من التنويه بشرف الإسلام

(١) آل عمران: ٨٤ - ٨٩.

(٢) آل عمران: ٨٣.

(٣) آل عمران: ١١٩.

(وكيف) استفهام إنكاري والمقصود إنكار أن تحصل لهم هداية خاصة وهي إما الهداية الناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به، وإسنادها إلى الله ظاهر؛ وإما الهداية الناشئة عن أعمال الأدلة والاستنتاج منها، وإسنادها إلى الله لأنه موجد الأسباب ومستبباتها ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في الاستبعاد، فإنهم آمنوا وعلموا ما في كتب الله، ثم كفروا بعد ذلك بأنبيائهم، إذ عبدَ اليهود الأصنام غير مرة، وعبد النصراني المسيح، وقد شهدوا أنّ محمداً صادق لقيام دلائل الصدق، ثم كابروا، وشككوا الناس وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال، وإنما تسري الهداية لمن أنصف وتهياً لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا أنفسهم وقيل: نزلت في اليهود خاصة وقيل: نزلت في جماعة من العرب أسلموا ثم كفروا ولحقوا بقريش ثم ندموا فراسلوا قومهم من المسلمين يسألونهم: هل من توبة؟ فنزلت، ومنهم الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطعيمة بن أبيرق

وقوله: **{وَشَهِدُوا}** عطف على **{إِيمَانِهِمْ}** أي وشهادتهم، لأنّ الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق يحسن عطفه على الفعل وعطف الفعل عليه

الإشارة للتنبيه على أنهم أحرىء بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم عليهم وتقدم معنى **{لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ}** في سورة البقرة (١٦١) وتقدم أيضاً معنى **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا}** في سورة البقرة (١٦٠)، ومعنى فإن الله غفور رحيم، الكناية عن المغفرة لهم قيل: نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري من بني عمرو بن عوف الذي ارتدّ ولحق بقريش وقيل بنصاري الشام، ثم كتب إلى قومه ليسألهم هل من توبة، فسألوا رسول الله فنزلت هذه الآية فأسلم ورجع إلى المدينة وقوله: **{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنه غفور رحيم^(١)

وقوله - تعالى: **{لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ}** بيان لثمرة الإيمان الحق الذي رسخ في قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هاديهم ومرشدهم محمد ﷺ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعاً قد أرسلهم - سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وإذا وجد تفاضل أو اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون في أمور أخرى

(١) تفسير ابن عاشور: ٦٠.

سوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق وقد جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة للرسالات، وجامعة لكل ما فيها من محاسن فوجب الإيمان بها، وإلا كان الكفر بها كفراً بجميع الرسالات السابقة عليها وقوله: **{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** يفيد الحصر، نحن له وحده أسلمنا وجوهنا، وأخلصنا عبادتنا لا لغيره كائننا من كان هذا الغير وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين

ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب ديناً سوى دين الإسلام فهو خاسر فقال - تعالى: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}**

أى: ومن يطلب ديناً سوى دين الإسلام الذى أتى به - عليه الصلاة والسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام، لأن دين الإسلام الذى جاء به محمد، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده قال - تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}** ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات، وجمع فيه محاسنها

أما عاقبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه - بقوله: **{وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**

أى وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله، واستحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال

وفى الحديث الشريف: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»** أى مردود عليه، وغير مقبول منه

وفى الإخبار بالخسران عن الذى يبتغى أى يطلب ديناً سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع ديناً سوى دين الإسلام يكون أشد خسراناً، وأسوأ حالاً، لأن الطلب أقل شراً من الاتباع الفعلى

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا ما فسد منهم، استمع إلى القرآن وهو يصور هذا المعنى

بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول: {كَيْفَ يَهْدِي}

روى المفسرون روايات في سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال: إن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا لى رسول الله ﷺ: هل لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم^(١)

وعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله - ما علمت - لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله - عز وجل - لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصرى أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت النبى ﷺ فى كتابهم وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هى الرواية التى جاءت عن الحسن البصرى بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة ولأن القرآن قد ذكر فى غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم كانوا يستفتحون به {عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات شاملاً لكل من ذكرتهم الروايات ولكل من يشابههم، إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه: وأشبه هذه الأقوال بظاهر التنزيل ما قاله الحسن، من أن هذه الآيات معنى بها أهل الكتاب على ما قال، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ فى هذه الآيات، ثم عرف عباده سنته فيهم فيكون داخلاً فى ذلك كل من كان مؤمناً

(١) سنن النسائي: ٤٠٠٠.

بمحمد ﷺ قبل أن يبعث ثم كفى به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده ﷺ ثم ارتد وهو حي عن إسلامه، فيكون معينا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله^(١)

والاستفهام في قوله - تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ} للنفي والاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس في الكفر والضلال، مع علمهم بالحق، وإيمانهم به لفترة من الوقت

والمعنى: أن الله - تعالى - جرت سنته في خلقه ألا يهدي إلى الصراط المستقيم، قوما {كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ} أي ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وبعد أن {شَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ} وهو محمد ﷺ " حق " وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه، وبعد أن {جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} أي البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما يدعيه، من قرآن كريم عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، ومن معجزات باهرة دالة على صدقه ﷺ

فأنت ترى أن حالهم التي أوجبت هذا النفي والاستبعاد تتمثل في أنهم كانوا مؤمنين، وكانوا يشهدون بأن الرسول حق، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التي تؤيد إيمانهم وشهادتهم، ومع كل ذلك استحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان، واستولى عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرّمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم ويتوبوا عن غيهم، ويصلحوا ما أفسدوه، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم

قال صاحب الكشاف: " قوله: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا} أي كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءتة الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات^(٢)

فإن قلت: علام عطف قوله: {وَشَهِدُوا}؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل، لأن معناه بعد أن آمنوا ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار

(١) ابن جرير ٦١/١.

(٢) تفسير الكشاف: ٦٠.

"قد" بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق "

وقوله - تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} جملة حالية أو معترضة

والمعنى: أنه - سبحانه - قد مضت سنته في خلقه أنه لا يهدي إلى الحق أولئك الذين أثروا الكفر على الإيمان، عن تعمد وإصرار، ووضعوا الشيء في غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم

وفى تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم، إشعار بأنهم قد ظلموا أنفسهم بإيقاعها في مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذي شهدوا له بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به، وظلموا الحقائق والبراهين التي نطقت بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمور إدراكا سليما، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة»

ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}

قال الراغب: اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله - تعالى - في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره " والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة {جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ} أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب استحبابهم الكفر على الإيمان {وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم، ودعائهم عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله

وقوله: {أُولَئِكَ} مبتدأ وقوله: {جَزَاؤُهُمْ} مبتدأ ثان، وقوله: {أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ} إلخ خبر المبتدأ الثانى، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم، صادرة من الله وهى أشد ألوان اللعن، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل: لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم فى كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه: منها أنهم فى الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال - تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد حصل للكفار من الكفار ومنها كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ومنها وهو الأصح عندى: أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد فى نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر، فإذا لعن الكافر وكان هو فى علم الله كافرا فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك (١)

ثم أكد - سبحانه - تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما داموا على تلك الحالة الشنيعة فقال - تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر فى الدنيا، وانغماسهم فيما يغضب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال أو التأخير بسبب ما ارتكبه فى الدنيا من شرور وآثام

ولكن القرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن يتوب، وينهى الناس عن أن يقتطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصلحوا فيقول - بعد تلك الحملة المرعبة التي شنّها على الكفر والكافرين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أى: أن اللعنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وهم خالدون فى العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر الذى ارتكبه، وعن الظلم الذى اقترفوه، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق، وحافظوا على أداء الأعمال الصالحة " فإن الله - تعالى - غفور رحيم " أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف منهم من كفر وظلم

ففى هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن كفرهم وللمذنبين بأن يثوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم، فإنه - سبحانه - يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة، فهو القائل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أما الذين لا يتوبون

(١) تفسير الفخر الرازى: ٦١.

ولا يستغفرون ولا يثوبون إلى رشدهم بل يصرون على الكفر فيزدادون كفراً والذين يرتكسون في كفرهم وضلالهم حتى تفلت منهم الفرصة، وينتهي أمد الاختبار، ويأتي دور الجزاء، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة

* * * *

المطلب العاشر:

أصناف الكفار

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (١)

صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر فقال - تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}

أى استمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضللال فكان الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاث أصناف من الكافرين: قسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحاً فقبل الله توبته وهذا القسم هو الذى استثناه الله بقوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وقسم كان كافراً ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة، فلم يقبلها الله - تعالى - منه

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}

وقسم كان كافراً واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}

أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا منه وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله: {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ}

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه لن يقبل الله - تعالى - من

أحدهم ما كان قد أنفقه في الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهباً، لأن كفره قد أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾^(١) وكذلك لن يقبل الله - تعالى - عن أحدهم فدية عن عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر ولو كان ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهباً، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب

قال ابن كثير: قوله - تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾^(٢) أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرينة كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(٣) وكذلك لو افتدى - نفسه في الآخرة - بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال - تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وقال - تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال: عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله له: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك»^(٤)

وفي رواية للإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، خير منزل فيقول الله - تعالى - له: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات - لما يرى من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب! شر منزل، فيقول له: أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول أي رب! نعم فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فإرد إلى النار»^(٥)

(١) الفرقان: ٢٣.

(٢) صحيح مسلم: ٣١٥ الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل.

(٣) مسند أحمد: ١١٨٤١.

(٤) مسند أحمد: ١١٨٩٢.

وقال صاحب الكشف: فإن قلت: فلم قيل في الآية السابقة: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بغير فاء وقيل هنا: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ بوجود الفاء ؟ قلت: قد أوزن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سببا في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم "

وقوله: ﴿ذَهَبًا﴾ منصوب على أنه تمييز وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء وأعزها على النفس

وقوله: ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ جملة حالية، والواو للحال أى لا يقبل من الذى مات على كفره هذا الفداء ولو فى حال افتراض تحقق هذا الفداء فى يده وتقديمه إياه لكى يدفعه لخالفه وينجو من العقوبة التى توعد به

أى أن العذاب الأليم نازل قطعاً على هذا الذى مات على كفره، حتى ولو فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهباً وحتى لو فرضنا أنه ملك هذا المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من العذاب، فإن كل ذلك غير مقبول منه، ولا بد من نزول العذاب به

والحالة المذكورة وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العذاب، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه "

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم، وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم، أو تخفيف وقعه عليهم

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب، وأقسى أنواع العقاب، حتى يقلعوا عن كفرهم، ويثوبوا إلى رشدهم

المبحث الثالث: مقاصد القرآن ونعم الله على عيسى عليه السلام

والتبشير بمحمد ﷺ:

المطلب الأول:

تحريف الكتب الإلهية، وإهمال الهداية

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} (١)

قوله: {يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا}

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: {يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ}، اليهود الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، يختارون الضلالة وذلك: الأخذ على غير طريق الحق، وركوب غير سبيل الرشد والصواب، مع العلم منهم بقصد السبيل ومنهج الحق وإنما عنى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامهم على التكذيب بمحمد ﷺ، وتركهم الإيمان به، وهم عالمون أنّ السبيل إلى الحق الإيمان به، وتصديقه بما قد وجدوا من صفته في كتبهم التي عندهم وأما قوله: "ويريدون أن تضلوا السبيل"، يعني بذلك تعالى ذكره: ويريد هؤلاء اليهود الذين وصفهم جل ثناؤه بأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب "أن تضلوا" أنتم، يا معشر أصحاب محمد ﷺ، المصدقين به "أن تضلوا السبيل"، يقول: أن تزولوا عن قصد الطريق ومَحَجَّة الحق، فتكذبوا بمحمد، وتكونوا ضلالًا مثلهم

وهذا من الله تعالى ذكره تحذير منه عباده المؤمنين، أن يستنصحووا أحدًا من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئًا من طعنهم في الحق

ثم أخبر الله جلّ ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جلّ ثناؤه: "والله أعلم بأعدائكم"، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون يقول: فانتبهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من العشّ والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبيغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا

وأما قوله: "وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً"، فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمكم، وينصركم على أعدائكم "وكفى بالله ولياً"، يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم ولياً يليكم ويولي أموركم بالحيطة لكم، والحراسة من أن يستفزكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدّوكم^(١)

فالمقصود من الآية الكريمة: تعجيب المؤمنين من سوء أحوال أولئك الأحرار، وتحذير لهم من موالاتهم أو من الاستماع إلى أكاذيبهم وشبهاتهم

والخطاب لكل من يصلح له من المؤمنين وتوجيهه إلى النبي ﷺ هنا مع توجيهه بعد ذلك إلى الكل - في قوله: {أَنْ تَضِلُّوا} - للإيذان بكم الشهرة شناعة حال أولئك اليهود، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها أو يعلمها

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، ولم يؤتوا الكتاب كله، لأنهم نسوا حظاً كبيراً مما ذكروا به، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل، وهذا القليل لم يعملوا به بل حرفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم وشهواتهم

وقوله: {يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ} هو موطن التعجب من شأنهم لأنهم لا يطلبون الضلالة بفتور أو تريث وإنما يطلبونها بشراهة ونهم ويدفعون فيها أغلى الأثمان وهو الهدى، ولا يكتفون بذلك بل يبتغون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم في الضلال

وقوله: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} جملة معترضة للتأكيد والتحذير

أي: والله - تعالى - أعلم بأعدائكم منكم - أيها المؤمنون - وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور فاحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم وأعدوا العدة لتأديبهم دفاعاً عن

(١) تفسير الطبري: ٨٥.

دينكم وعقيدتكم

وقوله: **{وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا}** تذييل قصد به غرس الطمأنينة في نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم

أى: **{وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا}** يتولى أموركم، ويصلح بالكم، **{وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا}** يدفع عنكم مكرهم وشرورهم؛ وما دام الأمر كذلك فاكتفوا بولايته ونصرته واعتصموا بحبله، وأطيعوا أمره، ولا تكونوا في ضيق من مكر أعدائكم فإن الله ناصركم عليهم بفضله وإحسانه

وقوله: **{وَكَفَى}** فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل والباء مزيدة فيه لتأكيد الكافية ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز وقيل على الحال

وكرر - سبحانه - الفعل كفى لإلقاء الطمأنينة في قلوب المؤمنين، لأن التكرار في مثل هذا المقام يكون أكثر تأثيرا في القلب، وأشد مبالغة فيما سيق الكلام من أجله

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة ومن كان الله كافيه نصره على عدوه فاطمئنوا ولا تخافوا

ثم ذكر - سبحانه - ألوانا من الأقوال والأعمال القبيحة التي كان اليهود يقولونها ويفعلونها للإساءة إلى النبي ﷺ وإلى المسلمين فقال: **{مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}** وتحريف الشيء إمالته وتغييره ومنه قولهم: طاعون يحرف القلوب، أى يميلها ويجعلها على حرف، أى جانب وطرف وأصله من الحرف يقال: حرف الشيء عن وجهه، صرفه عنه

من الذين هادوا: قوم أو فريق من صفاتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه أى يميلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، ويفسرونه تفسيرا سقيما بعيدا عن الحق والصواب

قال الفخر الرازى: فى كيفية التحريف وجوه:

أحدها: أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر مثل تحريفهم اسم " ربعة " عن موضعه فى التوراة بوضعهم " آدم طويل "، وكتحريفهم الرجم بوضعهم الجلد بدله الثانى: أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة، والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ

من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم وهذا هو الأصح

الثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه

والذى نراه أولى أن تحريف هؤلاء اليهود الكلم عن مواضعه يتناول كل ذلك، لأنهم لم يتركوا وسيلة من وسائل التحريف الباطل إلا فعلوها، أملا منهم في صرف الناس عن الدعوة الإسلامية، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل ههنا: {عَنْ مَوَاضِعِهِ} وفي المائدة: {مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} قلت: " أما عن مواضعه " فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه

وأما {مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} فالمعنى أنه كان له مواضع فمن بأن يكون فيها فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقاربه والمعنيان متقاربان

ثم حكى - سبحانه - لوناً ثانياً من ضلالتهم فقال: {وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} أى ويقولون للنبي ﷺ إذا ما أمرهم بشيء: سمعنا قولك وعصينا أمرك فنحن مع فهمنا لما تقول لا نطيعك لأننا متمسكون باليهودية

ثم حكى - سبحانه - لوناً ثالثاً من مكرهم فقال: {وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ} وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وداخلة تحت القول السابق

أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبتهم للنبي ﷺ وهو كلام ذو وجهين وجه محتمل للشر بأن يحمل على معنى " اسمع " حال كونك غير مسمع كلاماً ترضاه ووجه محتمل للخير بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاماً تكرهه

فأنت تراهم - لعنهم الله - أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ بهذا الكلام المحتمل للشر والخير موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير، مع أنهم لا يريدون إلا الشر، بسبب ما طفحت به نفوسهم من حسد للنبي ﷺ وللمسلمين

ثم حكى - سبحانه - لونا رابعاً من خبثهم فقال: {وَرَاعِنَا لِيَا أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ}

وهو كلام معطوف على ما قبله وداخل تحت القول السابق^(١)

وذكر في موضع آخر أنهم كثير، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}^(٢)

وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين، وإنما يقع منهم - أعني المتمنين الضلال للمسلمين - وهو قوله: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُم وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}^(٣)

قوله جل ثناؤه: {وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ}

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن اليهود الذين كانوا حول مهاجرى رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسيئون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يسئبه: "اسمع، لا أسمعك الله" {وَرَاعَنَا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ}

قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وراعنا"، أي: راعنا سمعك، افهم عنا وأفهمنا^(٤)

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه ويطمعهم - بعد ذلك كله - في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله لو تابوا إلى الطريق القويم وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم وأنها هكذا كانت وهكذا تكون: {وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانظُرْنَا}

(١) سيد طنطاوي صفحة / ٨٥.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) آل عمران: ٦٩.

(٤) الطبري صفحة / ٨٦.

لكان هذا خيراً لهم، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم ولكن واقع الأمر أنهم - بسبب كفرهم - مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل

وصدق قول الله فلم يدخل في الإسلام - في تاريخه الطويل - إلا القليل من اليهود ممن قسم الله لهم الخير، وأراد لهم الهدى؛ باجتهدهم للخير وسعيهم للهدى أما كتلة اليهود، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً، حرباً على الإسلام والمسلمين منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون، منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله - إلا كان من ورائه اليهود أو كان لليهود فيه نصيب!

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب - اليهود - دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله لا يغفر أن يشرك به وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّا اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}**

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين؛ وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ}**

فهم أوتوا الكتاب، فليس غريباً عليهم هذا الهدى والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقاً لما معهم فليس غريباً عليهم كذلك وهو مصدق لما معهم

ولو كان الإيمان بالبينة أو بالأسباب الظاهرة لآمنت يهود أول من آمن ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح وكانت لها أحقاد وعناد وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة

الرقبة كما تعبر عنهم التوراة بأنهم: " شعب صلب الرقبة! » ومن ثم لم يؤمن ومن ثم جيئها التهديد العنيف القاسي: {مَنْ قَبِلَ أَنْ نَـطْمِسَ وَجُوهًا فَـنَزِدْهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}

وطمس الوجوه: إزالة معالمها المميزة لأدميتها؛ وردها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقري وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي؛ الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم؛ ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب والكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضلال، طمس للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد

سواء كان هذا هو المقصود أو ذاك فهو التهديد الرعب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأبحار فأسلم: أخرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَـطْمِسَ وَجُوهًا فَـنَزِدْهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} فبادرت الماء فاغتسلت، وإنني لأمس وجهي مخافة أن أطمس! ثم أسلمت

والتعقيب على هذا التهديد: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} فيه تأكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم: {عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ} كقول النصارى: {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ} وهم لم يكونوا يعبدون الأحرار والرهبان إنما كانوا - فقط - يقرون لهم بحق التشريع حق التحليل والتحرير الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان - كما سيجيء في سياق السورة بالتفصيل

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك - لمن يشاء - ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به؛ لم يرجع في الدنيا عن شركه

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون مقطوعوا الصلة بالله رب العالمين وما تشرك النفس بالله، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا - وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل - ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية

سواء كان هذا هو المقصود أو ذاك فهو التهديد الرعيب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحرار فأسلم:

أخرج ابن أبي حاتم، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا} فبادرت الماء فاغتسلت، وإنني لأمس وجهي

مخافة أن أطمس! ثم أسلمت

والتعقيب على هذا التهديد: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}

فيه تأكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

الأماني والعمل:

{لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} (١)

وساق ابن جرير بسنده:

عن مسروق قال: تفاخر النصارى وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ} (٢)

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن نمير، حدثنا إسماعيل، " عن أبي بكر بن أبي زهير، قال: «أخبرت أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: "يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}؟ فكل سوء عملناه جزينا به فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر أأنت تمرض؟ أأنت تنصب؟ أأنت تحزن؟ أأنت تصيبك الالواء؟» قال بلى! قال: «فهو مما تجزون به» (٣) ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثوري عن إسماعيل

وروى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - إلى "ابن عمر، يحدث عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ألا أقرئك آية نزلت علي؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله فأقرأنيها فلا أعلم أنني قد وجدت انفساماً في ظهري، حتى تمطيت لها! فقال رسول الله ﷺ: «مالك يا أبا بكر» فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه! فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم

(١) النساء: ١٢٣.

(٢) الطبري صفحة ٩٨.

(٣) مسند أحمد ٦٥.

تجزون بذلك في الدنيا، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» (١)

وروى مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة - بإسناده - " عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» (٢)

على أية حال لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى ولقد هزت هذه الآية كيانهم، ورجفت لها نفوسهم، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جداً ويعرفون صدق وعد الله حقاً ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا

وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء، وقضية الشرك قبلها والإيمان، برد كل ما في السماوات والأرض لله، وإحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا}

وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه في القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة - والسلطان والقهر، فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله وإنما هو توحيد إيجابي توحيد الفاعلية والتأثير في الكون، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً

ومتى شعرت النفس أن الله ما في السماوات وما في الأرض (٣)

* * * * *

(١) سنن الترمذي: ٢٩٦٥ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل ومولى بن سباع مجهول وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر وليس له إسناده صحيح.

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: ٢٩٦٤.

(٣) الظلال صفحة / ٩٩.

المطلب الثانى :

أوصاف المسيح في القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا^(١)

يأهل الكتاب {لَا تَغْلُوا} أى: لا تتجاوزوا الحد المشروع مأخوذ من الغلو، وهو - كما يقول القرطبي - التجاوز فى الحد ومنه: غلا السعر يغلو غلاء وغلا الرجل فى الأمر غلوا وغلا الجارية لحمها وعظمها، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها - أى: أترابها - وقد تجاوز أهل الكتاب الحد وغالوا فى شأن عيسى أما اليهود فقد أنكروا رسالته واتهموا أمه مريم بما هى منه بريئة

وأما النصارى فقد رفعوا عيسى - عليه السلام - إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية، واعتبروا بعضهم إلهًا، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

والمعنى: يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد المشروع والمعقول فى شأن دينكم، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الذى شعره الله - تعالى - وارتضته العقول السليمة وقد ناداهم - سبحانه - بعنوان أهل الكتاب للتعريض بهم، حيث إنهم خالفوا كتبهم التى بين أيديهم

والخطاب هنا وإن كان يشمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى، إلا أن النصارى هم المقصودون هنا قصدا أوليا، بدليل سياق الآية الكريمة، فقد ذكرت حجبا تبطل ما زعمه النصارى فى شأن عيسى، ولذا قال ابن كثير ما ملخصه: قوله -

(١) النساء: ١٧١ - ١٧٤.

تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ ينهى - سبحانه - أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزل التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سواء أكان حقاً أم باطلاً، أم ضلالاً أم رشاداً، ولهذا قال - تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وفى الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: " لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله "

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام بالنهى عن الافتراء الشنيع الذى افتروه على الله

أى: لا تصفوه - سبحانه - بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ صاحبة الولد، ولا تقولوا عليه - سبحانه - إلا القول الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، والبرهان الواضح

وعدى - سبحانه - قولهم بحرف على، لتضمنه معنى الافتراء والكذب، فقد قالوا قولاً وزعموا أنه من دينهم، مع أن الأديان السماوية بريئة مما زعموه وافتروه

ثم بين - سبحانه - القول الفصل فى شأن عيسى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

أى: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله أرسله - سبحانه - لهداية الناس إلى الحق، ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى: أن عيسى مكون ومخلوق بكلمة من الله وكلمة (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة وهذه الكلمة ألقاها - سبحانه - إلى مريم، أى: أوصلها إليها بنفخ جبريل فيها فكان عيسى بإذن الله بشراً سوياً

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى: ونفخة منه، لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم فكان عيسى بإذن الله فنسب إلى أنه روح من الله، لأنه بأمره كان وسمى النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح قال - تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وقيل المراد بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى: وذو روح من أمر الله، لأنه - سبحانه - خلقه كما يخلق سائر الأرواح

وقيل: الروح هنا بمعنى الرحمة كما فى قوله - تعالى: **{وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}** أى: برحمة منه وصدر - سبحانه الجملة الكريمة بأداة القصر (إنما) للتنبيه على أن عيسى - عليه السلام - ليس إلا رسولا أرسله الله لهداية الناس إلى الحق

وذكره - سبحانه بلقبه وباسمه وبنوته لمريم، للإشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس، وبشر كسائر البشر، فهو مولود خرج من رحم أنثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فيكفى أنه قد خرج من رحم أم، وكفى بذلك دليلا على بشريته

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقوله: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}** أى: خلقه بكلمة منه وهى (كن) كما خلق آدم وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر ببذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، ولأسباب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته (كن) وبذلك سمى كلمة الله

وتعلق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد وإنما سمى بذلك، لأنه نشأ بكلمة لا بمنى من الرجل يمنى

وقوله: **{وَرُوحٌ مِّنْهُ}** أى أنه - سبحانه - أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين وقد يقال: إنه نشأ بروح منه - سبحانه - أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال - تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}**^(١) والراى الأول أولى وعلى ذلك يكون معنى قوله: **{وَرُوحٌ مِّنْهُ}** أى: أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسط سلالة بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل

وسمى الله - تعالى - عيسى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية

وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فنحلوه ما ليس له، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلها، أو ابن إله

(١) سورة السجدة: ٧ - ٩.

وقوله: {الْمَسِيحُ} مبتدأ، و {عِيسَى} عطف بيان أو بدل منه وقوله: {ابْنُ مَرْيَمَ} صفة له وقوله: {رَسُولُ اللَّهِ} خبر للمبتدأ وقوله: {وَكَلِمَتُهُ} معطوف على ما قبله وهو رسول الله أو قوله: {أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} جملة حالية من الضمير المجرور في {كَلِمَتُهُ} بتقدير قد، والعامل فيها معنى الإضافة والتقدير وكلمته ملقيا إياها إلى مريم

وقوله: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} معطوف على {كَلِمَتُهُ} والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لروح ومن لا بدأه الغاية مجازا وليست بتبعيضية، أى أن الروح كائن من عند الله - تعالى - ونافخ بإذنه

وبعد أن بين - سبحانه - القول الحق في شأن عيسى، دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وبجميع رسله ونهاهم عن التمسك بالضلال والوهم فقال - تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكفى بِاللَّهِ وَكِيلًا}

والفاء في قوله: {فَآمِنُوا} للإفصاح عن جواب شرط مقدر

أى: إذا كان ذلك هو الحق في شأن عيسى، فآمنوا بالله إيماناً حقا بأن تقرروه بالالوهية والعبادة، وآمنوا برسله جميعا بدون تفريق بينهم، ولا تغالوا في أحدهم منهم بأن تخرجوه عن طبيعته وعن وظيفته

وقوله: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ} نهى لهم عن النطق بالكلام بالباطل

أى: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة، أو المعبودات ثلاثة فتلاثة خبر لمبتدأ محذوف وعبر - سبحانه - بقوله: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ} بدل قوله - مثلا -: ولا تؤمنن بثلاثة؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه قالوا تارة معناه: الآب والابن والروح القدس، أى أنهم ثلاثة متفرقون وتارة يقولون معناه: أن الأقانيم ثلاثة والذات واحدة إلى غير ذلك من الأقوال التى ما أنزل الله بها من سلطان

قال صاحب الكشف: والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى إلى قوله - تعالى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} {وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم

هذا، وقد أفاض بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم وقوله: **{انتهوا خيراً لكم}** أمر لهم بسلوك الطريق الحق، والإقلاع عن الضلالات والأوهام

انتهوا عما أنتم فيه من ضلال يا معشر أهل الكتاب، واتركوا القول بالتثليث، يكن انتهاؤكم خيراً لكم، بعبادتكُم الله وحده تكونون قد خرجتم من ظلمات الشرك إلى نور الوجدانية

وقوله: **{إنما الله إله واحد}** إثبات لوحداية الله - تعالى - بأقوى طريق أى: إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله - تعالى - ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدير لأمره

وقوله: **{سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ}** تنزيه له - جل وعلا - عن صفات المخلوقين، وتوبيخ لمن وصفه بصفات لا تليق به

وسبحان منصوب بفعل مقدر من لطفه، أى: أسبحه تسبيحاً وأنزهه تنزيهاً عن أن يكون له ولد، لأن الأبوة والبنوة من صفات المخلوقين، وهو - سبحانه - منزله عن صفات المخلوقين، قال - تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** ^(١) وقوله: **{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** جملة مستأنفة مسبوقة لتعليل التنزيه أى أنه - سبحانه - مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها، ولا يخرج من ملكه منها شيء

قال - تعالى: **{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** ^(٢) ومن كان شأنه كذلك تنزهه عن أن يلد أو يولد أو يكون له شريك فى ملكه

وقوله: **{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}** تذييل قصد به بيان سعة قدرته - سبحانه - وهيمنته على هذا الكون والوكيل: هو الحافظ والمدير لأمر غيره

أى: وكفى بالله وكيلاً يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه

ومفعول كفى محذوف للعموم أى: كفى كل أحد وكالة الله وحفظه وتدبيره، فتوكلوا

(١) الشورى: ١١.

(٢) مريم: ٩٣.

عليه وحده، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا له

ثم بين - سبحانه - أن المسيح عيسى - عليه السلام - عبد من عباد الله - تعالى -، وأنه لن يستنكف أبداً عن عبادة الله والإذعان لأمره فقال: **{لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}**

وأصل **{يَسْتَنكِفَ}** - يقول القرطبي: نكف، فالياء والسين والتاء زوائد يقال: نكفت من الشيء واستنكف منه وأنكفته أى: نزهته عما يستنكف منه ومنه الحديث: "سئل - رسول الله ﷺ عن **{سُبْحَانَ اللَّهِ}** فقال: "إنكاف الله من كل سوء" ^(١)

يعنى: تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد

قال الزجاج: استنكف أى: أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك ومنه الحديث: "ما ينكف العرق عن جبينه" أى: ما ينقطع

وقيل: هو من النكف وهو العيب يقال: ما عليه فى هذا الأمر من نكفٍ ولا وكفٍ أى عيب أى لن يمتنع المسيح ولن يتنزه عن العبودية لله - تعالى - ولن ينقطع عنها ولن يعاب أن يكون عبداً لله تعالى

والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير ما سبقها من تنزيهه لله - تعالى - عن أن يكون له ولد، وإثبات لوحدهانيته - عز وجل - وإفراده بالعبادة

وقد روى المفسرون فى سبب نزولها "أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال: **{«ومن صاحبكم؟»}** قالوا: عيسى، قال ﷺ: **{«وأى شئ قلت؟»}** قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله قال ﷺ: **{«إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله»}**

والمعنى: لن يأنف المسيح ولن يمتنع أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن ذلك، فإن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف والله - تعالى - ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته قال - تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا}** وصدور - سبحانه - الجملة بحرف (لن) المفيدة للنفي المؤكد، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عن عبادة الله والخضع له أمر مستمر

(١) سيد طنطاوى/ ١٠٤.

وثابت ثبوتنا لا شك فيه، لأنه - سبحانه - هو الذى خلق الخلق ورزقهم ومن حقه عليهم أن يعبدوه، ويدعوا لأمره، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال القاضي عياض:

ومما زادنى عجباً وتيهياً :: وكدت بأخمصى أطأ الشرباً
دخولى تحت قولك يا عبادى :: وجعلك خير خلقك لى نبياً

هذا، وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وممن فهم هذا الفهم الإمام الزمخشري فقد قال: وقوله: {لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ} أى: لن يأنف ولن يهذب بنفسه عزة، (من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بإصبعك) {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} أى: ولا من هو أعلى منه قدراً، وأعظم منه خطراً وهم الملائكة الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم

ثم قال: فإن قلت: من أين دل قوله: {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك وذلك أن الكلام إنما سبق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع عيسى عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أعلى منه درجة فكأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلها منزلة

وهذا الفهم الذى اتجه إليه الزمخشري من أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لم يوافق عليه أكثر العلماء، فقد قال الإمام ابن كثير: وقد استدلل بعض من ذهب إلى تفصيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} وليس له فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع

وليس له فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال: {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل وقيل: إنما ذكروا لأن بعض الناس اتخذهم آلهة مع الله كما اتخذ الضالون المسيح إلهاً أو ابناً لله فأخبر - سبحانه - أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه

وقد حاول بعض العلماء أن يجعل الآية الكريمة بعيدة عن موطن النزاع

فقال: وعندى أن الترقى قائم، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام وذلك أن النصرارى غلوا غلواً كبيراً فى المسيح، لأنه ولد من غير أب، ولأنه جرت على يديه معجزات كثيرة، ولأنه روحانى المعانى، فيبين الله - تعالى - أنه مع كل هذا لن يستتكف أن يكون عبداً لله، ولا يستتكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى أن يكون عبداً لله، وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم وأجرى على أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم، وهم أرواح طاهرة مطهرة فكان الترقى فى هذه المعانى، وهم فيها يفضلون عيسى وغيره وبذلك تكون الآية بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائماً يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل: لا تضرب حراً ولا عبداً فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فأولى أن يكون ضرب الحر غير جائز

وذكر وصف المقربين، لأنهم إذا كانوا لا يستتكفون فأولى بذلك غيرهم

ثم هدد - سبحانه - كل من يمتنع عن عبادته والخضوع له فقال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾

أى: ومن يأنف من عباده الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استكباره واستكباره، فإن مرد العباد جميعاً إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته

فالضمير فى قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يعود إلى المستتكفين والمستكبرين وإلى غيرهم من المؤمنين المطيعين بدليل أن الحشر عام للمؤمنين والكافرين، وبدليل التفصيل المفرع على هذا الحشر فى قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أى: أن مرجع العباد جميعاً إلى الله من استكبر عن عبادته وامتنع ومن لم يفعل ذلك بل آمن وأطاع فأما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات، ولم يستتكفوا ولم يستكبروا، فسيُعطيهم

- سبحانه - ثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة، ويزيدهم على ذلك شأناً عظيماً من الرضا والفضل ومضاعفة الأجر

{وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا} عن عبادة الله وطاعته {فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} لا يحيط به الوصف {وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً} أى أحدا يدافع عنهم ويلى أمورهم، ولا يجدون كذلك " نصيراً " ينصرهم وينجيهم من عذاب الله وبأسه

وبعد هذا الوعد والوعيد والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وجه - سبحانه - نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق فقال - تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}

والمراد بالبرهان هنا: الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ويصح أن يكون المراد به النبي ﷺ وسماه - سبحانه - بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه ﷺ، والمراد بالنور المبين: القرآن الكريم

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ}

والبرهان: هو محمد ﷺ وإنما سماه برهاناً؛ لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والنور المبين هو القرآن الكريم وسماه نوراً، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب^(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة / ١٠٥.

المطلب الثالث :

مقاصد القرآن والرسالة النبوية

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (١)

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها؛ وتسمع توجيهاته؛ وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام

ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويز ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرده وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذليلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربها؛ وحتى تستمسك بعهداها، وحتى توفي بعقدتها فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس وإلا بقيت هكذا ذليلاً للقافلة وعد الله لا يخلف الله وعده

ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية:

{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان فأمر الله نبيه ﷺ أن يجلبهم عن المدينة ثم أن يأمر بإجلالهم عن الجزيرة كلها وقد كان

كذلك يقص الله - سبحانه - على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، من أهل الكتاب ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك فنالهم جزاء هذا النقص للميثاق

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} من اليهود والنصارى {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا} محمد ﷺ {يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} أي: يظهر لكم كثيراً من الأحكام والمسائل التي ذكرتها كتبكم وكنتموها عن الناس، كإخفائكم صفة النبي ﷺ التي تجدونها في التوراة والإنجيل وكنتمانكم ما جاء فيها من بشارات تيشر به وغير ذلك من الأحكام التي أخفاها علماءكم عن العامة، وتولي الرسول ﷺ إعلانها إظهاراً للحق، ووضعاً للأمور في نصابها وقوله: {وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} أي: يعرض ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففي السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الاقتضاح والمواخذة

يقال: عفا عن المذنب، أي: ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه

والمراد بالكتاب في قوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} جنس الكتب، فيشمل التوراة والإنجيل وفي ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول في الإسلام؛ فإن علمهم بما في كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ ولم يدعوهم إلى الإيمان به فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق في رسالته كانت مذمتهم أشد وأقبح، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأقسى وكان التعبير بقوله - تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ} للإشارة إلى أنه ﷺ قد وصل إليهم، ويعيش بينهم، فهم يرونه ويراهم ويخاطبهم ويخاطبونه، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة

وفي التعبير بقوله - تعالى: {رَسُولُنَا} تشريف للرسول ﷺ حيث أضافه - سبحانه - إلى ذاته، وفيه كذلك إيدان بوجوب اتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل

والمراد بالكتاب في قوله: {تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} التوراة والإنجيل فقد امتدت أيدي اليهود والنصارى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم

وفي إظهار الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة له، لأنه لم يقرأ كتاباً، ولم يجلس أمام معلم، فأخبره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور مغيبة، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان به فيما يدعوهم إليه ثم مدح الله - تعالى - رسوله، وما جاء به من الخير والهدى فقال: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}**

والمراد بالنور هنا: محمد ﷺ فهو نور الأنوار - كما يقول الألوسي والمراد بالكتاب: القرآن الكريم الذي أنزله - تعالى - على نبيه ﷺ والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ﷺ ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع أخرى لا تحصى

قال ابن جرير ما ملخصه، قوله تعالى: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}** يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: " قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك قوله: **{وَكِتَابٌ مُبِينٌ}** يعني: كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلّاله وحرّامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبيينا محمد ﷺ

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا: القرآن الكريم وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشف فقال: قوله: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}** يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانتها ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح، لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة في الذات إذ الرسول ﷺ قد جاء للناس برسالة هي نور في شخصه ﷺ كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه في رسالته

ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته ﷺ فقال - تعالى: **{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}**

والضمير في قوله: (به) يعود إلى مجموع ما ذكر، أو إلى الكتاب المبين باعتباره أقرب مذكور و(سبل) جمع سبيل بمعنى طريق و(السلام) مصدر بمعنى السلامة

والمعنى: قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين -
يهدي الله - تعالى - بذلك أو بالكتاب {مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} أي: من علم - سبحانه -
منه أنه يريد اتباع ما يرضي بأن يخلص له العبادة ويستجيب للحق الذي أرسل
به أنبياءه فإنه متى كان كذلك، أوصله - سبحانه - إلى {سُبُلِ السَّلام} أي: إلى
طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء، بأن يثبتته في الدنيا على طريق
الحق، ويكرمه في الآخرة بمثوبته وجنته هذه هي الثمرة الأولى من ثمار اتباع
ما جاء من عند الله من نور وكتاب مبين أما الثمرة الثانية فقد بينها - سبحانه -
بقوله: {وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ}

والضمير المنصوب في قوله: (ويخرجهم) وهو (هم) يعود إلى (من) في قوله: {مَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} باعتبار المعنى
أي: ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم اتباع ما يرضيه
يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان (بإذنه) أي:
بإرادته وعلمه

وقوله: {وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} بيان للثمرة الثالثة من ثمار اتباع ما جاء من عند
الله من حق وخير

أي: ويهدي - سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم اتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم،
وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو طريق الإسلام الذي يوصل إلى الفوز
الفلاح في الدنيا والآخرة

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعنا أهل الكتاب إلى اتباع الحق الذي جاء به
محمد ﷺ من عند الله، بأوضح أسلوب، وأكمل بيان، وبيننا لهم ما يترتب على اتباعه ﷺ
من منافع جليلة، وفوائد عظيمة تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا ممن يستمعون
القول فيتبعون أحسنه

* * * * *

المطلب الرابع:

التذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السلام

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *} إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(١)

يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: {مَاذَا أُجِبْتُمْ} أي: ماذا أجابتكم به أممكم

فـ{قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا} وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ} أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرا لربك، حيث أنعم عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك

{إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرتك وزكأك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله وقيل: إن المراد "بروح القدس" جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتنبيته في المواطن المشقة

{تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا} المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، وامتناز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}

{وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} فالكتاب يشمل الكتب السابقة وخصوصاً

(١) المائدة: ١٠٩ - ١١١.

التوراة فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي

{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} أي طيرا مصورا لا روح فيه فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين {وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي} فهذه آيات بيّنات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ} لما جاءهم الحق مؤيدا بالبيّنات الموجبة للإيمان به {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} وهموا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكفّ الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه، فهذه مننّ امتنّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها فقام بها عليه السلام أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم {وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا}

أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعواناً فأوحيت إلى الخواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان^(١)

* * * * *

(١) تفسير السعدى صفحة ١٢٦.

المطلب الخامس:

مائدة عيسى عليه السلام

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ^(١)}

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}

" المائدة ": الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد، إذا تحرك فكأن المائدة تتحرك بما عليها وقال أبو عبيدة: سميت " مائدة " لأنها ميد بها صاحبها أي: أعطيتها وتفضل عليه بها والخوان: ما يؤكل عليه الطعام

ويرى الأخفش وغيره أن المائدة هي لطعام نفسه، مأخوذة من " مادة " إذا أفضل و " إذ " في قوله: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} متعلق بمحذوف تقديره: أذكر وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم

وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولدته وقوله: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} فيه قراءتان سبعيتان:

الأولى: {يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} بالياء - على أنه فعل فاعل وقوله: {أَنْ يُنْزِلَ} المفعول والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز، لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك في قدرة الله

ومن تخرجاتهم في معنى هذه القراءة أن قوله: {يَسْتَطِيعُ} بمعنى " يطيع " والسين زائدة كاستجاب وأجاب

أي: أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك - ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا

مائدة من السماء؟

وسنفضل القول في تخريج هذه القراءة، وفي اختلاف المفسرين في إيمان
الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة

أما القراءة الثانية: فهي " هل تستطيع ربك " بالتاء وبفتح الباء في " ربك " والمعنى:
هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء

قال القرطبي: قراءة الكسائي وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد " هل
تستطيع " بالتاء " ربك " بالنصب وقرأ الباقرن بالياء " هل تستطيع " " ربك " بالرفع

والمعنى على قراءة الكسائي - بالتاء: هل تستطيع أن تسأل ربك

قالت عائشة: كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا: " هل يستطيع ربك " وقال
معاذ: أقرأنا النبي ﷺ: هل يستطيع ربك قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء "

وقوله - سبحانه: {قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} حكاية لما رد به عيسى على
الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة

أي قال لهم عيسى: اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملؤوا قلوبكم هيبة وخشية منه،
ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصادق في
إيمانه يبتعد، عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي إلى فتنته

ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسى فقال: {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَ وَأَنْتَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}

أي: قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب:

أولها: إننا نرغب في الأكل منها لننال البركة، ولأننا في حاجة إلى الطعام بعد أن
ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك

وثانيها: أننا نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئناناً إلى أنك صادق فيما تبليغه
عن ربك، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي، مما يؤدي إلى رسوخ
الإيمان، وقوة اليقين

وثالثها: أننا نرغب في نزولها لكي نعلم أن قد صدقتنا في دعوة النبوة، وفي جميع ما

تخبرنا به من مأمورات ومنهيات، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك في نبوتك

ورابع هذه الأسباب: أننا نرغب في نزولها لكي نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ليزداد الذين آمنوا منهم إيماناً، ويؤمن الذي عنده استعداداً للإيمان

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون في قدرة الله، أو في نبوة عيسى أو أن مقصدهم من هذا الطلب التعتت

وإنما هم يريدون نزولها لتلك الأسباب السابقة التي يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى في نبوته

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه في سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

وقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي: يا الله فالميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان وهذا التعويض خاص بنداء الله ذي الجلالة والإكرام

وقوله: ﴿عِيداً﴾ أي سرورا وفرحاً لنا، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور قال القرطبي: والعيد واحد الأعياد أصله من عاد يعود أي: رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة وقال الخليل: " العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه، وقال ابن الأنباري: سمى عيداً للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور"

والمعنى: قال عيسى بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حجتهم: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ أي: يا الله يا ربنا ومالك أمرنا، ومجيب سؤالنا أتوسل إليك أن تنزل علينا ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أطعمة كائنة من السماء هذه الأطعمة ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها، ويكون - أيضاً

- يوم نزولها عيداً وسروراً وبهجة لمن سيأتي بعدنا ممن لم يشاهدنا
قال ابن كثير قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن
بعدنا وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من
بعدهم وقال سلمان الفارسي: تكون عظة لنا ولمن بعدنا
وقوله: {وَأَيَّةٌ مِّنْكَ} معطوف على قوله: {عيداً}

أي: تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيداً لأولنا وآخرنا، وتكون أيضاً - دليلاً -
وعلاماً منك - سبحانه - على صحة نبوتي ورسالتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك،
ويزداد يقينهم بكمال قدرتك

وقوله: {وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} تذييل بمثابة التعليل لما قبله أي: أنزلها علينا يا
ربنا وازرقنا من عندك رزقاً هنيئاً رغداً، فإنك أنت خير الرازقين، وخير المعطين، وكل
عطاء من سواك لا يغني ولا يشبع

وقد جمع عيسى في دعائه بين لفظي " اللهم ربنا " إظهاراً لنهاية التضرع وشدة
الخشوع، حتى يكون تضرعه أهلاً للقبول والإجابة

وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من السماء: للإشارة إلى أنها هبة رفيعة، ونعمة
شريفة، آتية من مكان عال مرتفع في الحسن والمعنى، فيجب أن تقابل بالشكر لوأهبها -
عز وجل - وبتمام الخشوع والإخلاص له

وقوله: {تَكُونُ لَنَا عِيداً} صفة ثانية لمائدة، وقوله: {لَنَا} خبر كان وقوله: {عيداً} حال
من الضمير في الظرف

قال الفخر الرازي: تأمل في هذا الترتيب، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا
في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا: {نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا} وأخروا الأغراض
الدينية الروحانية

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وآخر
غرض الأكل حيث قال: {وَارْزُقْنَا} وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون
بعضها روحية، وبعضها جسمانية

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق بقوله: {وَارْزُقْنَا} لم

يقف عليه: بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال: {وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} فقوله: {ربنا} ابتداء منه بذكر الحق وقوله: {أَنْزَلَ عَلَيْنَا} انتقال من الذات إلى الصفات

وقوله: {تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا} إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة من المنعم

وقوله: {وَأَيَّةٌ مِّنْكَ} إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال

وقوله: {وَارزقنا} إشارة إلى حصّة النفس

ثم قال الإمام الرازي: فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازل إلى الأدون فالأدون

ثم قال: {وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحواريين من أقوال فقال - تعالى: {قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ}

وقوله: {مُنْزِلُهَا} ورد فيه قراءتان متواتران

إحداهما: منزلها - بتشديد الزاي - من التنزيل وهي تفيد التكثير أو التدرج كما تنبئ عن ذلك صيغة التفعيل وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع

وقرأ الباقر: {مُنْزِلُهَا} بكسر الزاي - من الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة

والمعنى: قال الله - تعالى - إني منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولي عيسى - عليه السلام: {فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ} أي فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها {فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} أي: فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذاباً لا يعذب مثله أحداً من عالمي زمانه أو من العالمين جميعاً

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها: حرف إن في قوله: {فإني أُعَذِّبُهُ} ومنها: المصدر في قوله: {فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً} إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب

ومنها: وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه: أن الكفر بعد إجابة ما طلبوه، وبعد رؤيته ومشاهدته؛ وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله أقول: الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب، وأعظم العقاب هذا، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريم، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل

المسألة الأولى: آراء العلماء في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم »

المسألة الثانية: آراء العلماء في نزول المائدة وعدم نزولها

وللإجابة على المسألة الأولى نقول: لعل منشأ الخلاف في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟﴾ فإن هذا القول يشعّر بشكهم في قدرة الله على إنزال هذه المائدة وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم الزمخشري - إلى عدم إيمانهم، وجعلوا الظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ متعلقاً بقوله قبل ذلك: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون، في الوقت الذي قالوا له فيه: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فكانهم ادعوا الإيمان والاسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان، وإلا فلو كانوا صادقين في دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ؟﴾

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم اتبعه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ فإذن دعواهم كانت باطلة، وأنهم كانوا شاكين، وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم وكذلك قول عيسى لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١) أن الظرف في قوله: **{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}** ليس متعلقا بقوله: **{قَالُوا آمَنَّا}** وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود في تفسيره فقد قال: قوله: **{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}** كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه - عليه السلام - وبين قومه منقطع عما قبله، كما ينبئ عنه الإظهار في موضع الاضمار وإذ منصوب بمضمر وقيل: هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم

٢) أن قول الحواريين لعيسى: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}** لا يسحب عنهم الإيمان، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخریجات منها:

أ - أن قولهم لم يكن من باب الشك في قدرة الله، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظري بدليل أنهم قالوا بعد ذلك **{نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا}**

وشبيهه بهذا قول إبراهيم: **{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمَئِنَّ قُلُوبِي}** قال القرطبي ما ملخصه: " الحواريون خلصان الأنبياء ودخلواهم وأنصارهم، وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم **{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}** وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة، لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: **{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا}** كما قال إبراهيم: **{وَلَكِنْ لَيْطَمَئِنَّ قُلُوبِي}**

ب - أن السؤال إنما هو الفعل لا عن القدرة عليه، وقد بسط الألوسي هذا المعنى فقال: إن معنى: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** هل يفعل ربك كما تقول للقادِر على القيام: هل تستطيع أن تقوم معي مبالغة في التقاضي

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة، من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ هي - أي الاستطاعة - من أسباب الإيجاد

ج - أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول الفخر الرازي: قال السدي؛ قوله: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** أي: هل يطيعك ربك إن سألته وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة

والذي نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التي ذكرناها، ولأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال:

{وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْحوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي} ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذرهم

ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين، لما أمر الله أتباع النبي ﷺ بالتأسي بهم في إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال - تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}** وقال - تعالى: **{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** فهاتان الآيتان صريحتان في مدح الحواريين وفي أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة، وآمنوا به إيماناً سليماً من الشك والتردد

وأما المسألة الثانية: وهي آراء العلماء في نزول المائدة: فالجمهور على أنها نزلت وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه: والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إن الله أنزل المائدة لأن الله لا يخلف وعده، ولا يقع في خبره الخلف وقد قال - تعالى - مخبراً في كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك: **{إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ}** وغير جائز أن يقول الله إني منزلها عليكم ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه - تعالى - خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم

ومن الآثار ما خرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد: فخانوا وادخروا ورفعوا لغد

فمسخهم قردة وخنزير»^(١)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم

والذي يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاماً كثيراً عما كان على المائدة من أصناف الطعام، وعن كيفية نزولها ومكانه، وعن كيفية استقبالها وكشف غطاءها، والأكل منها والباقي عليها بعد الأكل وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحاً، لضعف أسانيده، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثراً طويلاً في هذا المعنى ثم قال في نهايته: هذا أثر غريب جدا قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم

ويعجبني في هذا المقام قول ابن جرير: وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فأن يقال: كان عليها مأكول وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزاً، وجائز أن يكون من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: {فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ} قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضاً أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء

أي: مثل ضربه الله للناس نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبياؤه

قال الحافظ ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى ولس في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الأحاد

(١) خرجه الترمذي عن عمار بن ياسر: ٢٩٨٧.

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال: ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعني عدم نزولها فقط، فقد يكون له شيء من الوجهة وإن كان يعني أنها لا تنزل ولم يسأل، فهو محل نظير كبير، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعي على نقله، لا سيما وعيسى في بيئة محصورة: جماعة سألوا وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها في كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شيء

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداءً وانفرد بها عن سائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - في القرآن قد قصه في غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأنجيل علموا بكل شيء حتى بمثل هذه المحاوراة الخاصة التي لم تنته بحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها في أنجيلهم - التي وضعوها - دليلاً على عدم سؤالها فقصه السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين

ومن الجائز أن تكون مما ورد في الأنجيل، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب أو ضاع منهم علمه بسبب ما والقرآن كما وصف بنفسه مهيمن على كتبهم التي وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها، وأنه يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون

هذا ومما سبق يتبين لنا: أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها، كما جاء في الآية الكريمة

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك في قوله: **{إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}** والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب علي وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل، ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب، لأن ظاهر الآيات يؤيده، وكذلك الآثار التي وردت في ذلك

ثم حكت السورة الكريمة ما سيقوله الله لعيسى يوم القيامة، وما سيرد به عيسى على

خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه بما هما بريئان منه فقال - تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} (١)

* * * * *

المطلب السادس:

الألوهية والربوبية لله تعالى

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢)

إن الله - سبحانه - ليعلم ماذا قال عيسى للناس ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم

إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجب الراجف الخاشع المنيب يبدأ بالتسبيح والتنزيه:

{قَالَ سُبْحَانَكَ}

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً:

{مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة/ ١٢٦.

(٢) المائدة: ١١٦ - ١٢٠.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}

ثم يخلي يده منهم بعد وفاته وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله - سبحانه - قد توفي عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله وليس هنالك - فيما أرى - أي تعارض يثير أي استشكل بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله أما صورة حياتهم عنده فحن لا ندري لها كيفاً وكذلك صورة حياة عيسى - عليه السلام - وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:

{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجب، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟

إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة فلعلهم يتذاوبون خزيًا وندماً فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إنه

التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم في أعظم القضايا كافة قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين وهي الكلمة الأخيرة في المشهد وهي الكلمة الحاسمة في القضية ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين:

{لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}

{وَرَضُوا عَنْهُ}

درجات بعد درجات الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم:

{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

ولقد شهدنا المشهد - من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة - وسمعنا الكلمة الأخيرة شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعده، ولا مستقبلاً ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الأذان أو تقرؤها العيون إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الأذان وتراه العيون

على أنه إن كان بالقياس إلينا - نحن البشر المحبوبين - مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانيين

وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله - سبحانه

- بملك السماوات والأرض وما فيهن؛ وقدرته - سبحانه - على كل شيء بلا حدود: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن "الدين" وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنها قضية واحدة قضية الألوهية قضية التوحيد وقضية الحكم بما أنزل الله لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد^(١)

* * * * *

المطلب السابع:

خصائص القرآن والتوراة

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يُلْقَاهُ رَبُّهُمْ يَوْمَئِذٍ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾^(٢)

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ للإيجاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام،

(١) تفسير الظلال / ١٢٧.

(٢) الأنعام: ١٥٤ - ١٥٧.

وقد أعطاه الله كتاباً فصل فيه كل شيء، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب، كي لا يقولوا: إنه لم ينتزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكننا أهدى منهم، فها هو ذا كتاب ينتزل عليهم، ويقطع هذه الحجة عليهم، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَى كُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾

قال الألوسي: قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ إلخ كلام مستأنف مسوق من جهته - تعالى - تقريراً للوصية وتحقيقاً لها، وتمهيداً لما سبقه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْهُ﴾ بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريراً لمضمونه، فعلنا ذلك ﴿ثُمَّ آتَيْنَا﴾ وقيل عطف على ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْهُ﴾ وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة، كأنه قيل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ (ثم أتى عليهم ما آتاه الله موسى)

وكلمة: ثم لا تفيد الترتيب الزمنية هنا، وإنما تفيد عطف معنى على معنى، فكأنه - سبحانه - يقول: لقد بينت لكم في هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأننا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً

وقوله: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض

وفاعله ضمير الذى، أى: آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان فالذى لجنس المحسنين

وتدل عليه قراءة عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " وقراءة الحسن " على المحسنين "

ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى: آتينا موسى الكتاب تنمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و " تماماً " مفعول لأجله أى: آتيناه لأجل تمام نعمتنا، أو حال من الكتاب، أى: حال كونه أى الكتاب تاماً أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً فهو " كنباتاً " فى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أى إنباتاً

وقرأ يحيى بن يعمر " على الذى أحسن " بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و"الذى" وصف للدين أى: تماماً على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه

قال ابن جرير: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قراء الأمصار "

وقوله: ﴿وَتَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على ما قبله، أى: وبياننا مفصلاً لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: هذا الكتاب هداية لهم إلى طريق الحق، ورحمة لمن عمل به لعلمهم - أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب - يصدقون بيوم الجزاء، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أى: وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا ﷺ كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة، والسعادة الثابتة

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أى: اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام

﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته واتباع غيره

{اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أى: لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال: **{أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ**
الكتاب على طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ}

أى: أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة، أو لنلا تقولوا لو لم
 ننزله: إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنيتين من قبلنا وهما اليهود
 والنصارى، وإن كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشيء منها لأنها ليست بلغتنا

فقوله: **{أَنْ تَقُولُوا}** مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدراً مدلولاً عليه بنفس أنزلناه
 الملفوظ به فى الآية السابقة أى: أنزلناه كراهية أن تقولوا

وقيل: إنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضاً: **{وَاتَّقُوا}** أى: واتقوا
 قولكم كيت وكيت وقوله: **{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** معترض جار مجرى التعليل
 والمراد بكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور

وتخصيص الإنزال بكتابينهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتغال
 على الأحكام

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول ﷺ

ثم ساق - سبحانه - آية أخرى لقطع أذارهم فقال: **{أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ**
لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ}

أى: وأنزلنا الكتاب - أيضاً - خشية أن تقولوا معذرين يوم القيامة لو أننا أنزل علينا
 الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا، لكننا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم استجابة لله
 ولرسوله لمزيد ذكائنا، وتوقد أذهاننا، وتفتح قلوبنا

وقوله: **{فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ}** جواب قاطع لأذارهم وتعللاتهم أى:
 فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد ﷺ هذا الكتاب الواضح المبين، والذى هو
 هداية لكم إلى طريق الحق، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات

وقوله: **{فَقَدْ جَاءَكُمْ}** متعلق بمحذوف تنبئ عنه الفاء الفصحية إما معلل به أى: لا
 تعتذروا فقد جاءكم وإما شرط له أى: إن صدقتم فيما كنتم تعدون به فقد حصل ما
 فرضتم وجاءكم بينه من ربكم

والاستفهام في قوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ وَصَدَفَ عَنْهَا} للإنكار والنفي أي: لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءت ببيانتها الكاملة، وهداياتها الشاملة

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجيء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أي: وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم؟ ومعنى: وصدف عنها أي: أعرض عنها غير متفكر فيها، أو صرف الناس عنها وصدّهم عن سبيلها فجمع بين الضلال والإضلال

ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقوله: {سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} أي: سنجزئهم أسوأ العذاب وأشدّه بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها

فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم، وتتوعدهم بأشد ألوان العذاب^(١)

* * * * *

المطلب الثامن:

اتباع ملة إبراهيم عليه السلام

{قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (٢)

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخللها، إلى فذكرة ما أمر به الرسول ﷺ في هذا الشأن، غلقاً لباب المجادلة مع المعرضين، وإعلاناً بأنه قد تقلد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلدوه وأنه ثابت على ما جاءهم به، وأن إعراضهم لا يزلله عن الحق

(١) تفسير الألوسي ١٤٩.

(٢) الأنعام: ١٦١ - ١٦٥.

وفيه إيذان بانتهاء السورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه، ثم أخذ يبين ما رَضِيه لِنَفْسِه وما قرَّ عليه قَرَارُه، علم السامع أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجة، ولذلك غيّر الأسلوب فأمر الرسول ﷺ بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويعاً بالمقول

وقوله: {إِنِّي هَدَانِي رَبِّي} متصل بقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} ^(١) الذي بيّنه بقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} ^(٢) فزاده بياناً بقوله هذا: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، ليبين أنّ هذا الدين إنّما جاء به الرسول ﷺ بهدي من الله، وأنّه جعله ديناً قيماً على قواعد ملة إبراهيم عليه السلام، إلا أنّه زائد عليه بما تضمّنه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصراط الذي هو سبيل النجاة وافتتح الخبر بحرف التأكيد لأنّ الخطاب للمشرّكين المكتبين

وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتراز بمربوبية الرسول ﷺ لله تعالى، وتعريضاً بالمشرّكين الذين أضلّهم أربابهم، ولو وحّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم

وقوله: {هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} تمثيلية: شبّهت هيئة الإرشاد إلى الحقّ المبلّغ إلى النجاة بهيئة من يدلّ السائر على الطريق المبلّغة للمقصود

والمناسبة بين الهداية وبين الصراط تامّة، لأنّ حقيقة الهداية التعريف بالطريق، يقال: هو هاد خريّت، وحقيقة الصراط الطريق الواسعة وقد صحّ أن تستعار الهداية للإرشاد والتعليم، والصراط للدين القويم، فكان تشبيهاً مركباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التمثيلية

ووصف الصراط بالمستقيم، أي الذي لا خطأ فيه ولا فساد، وقد تقدّم عند قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} ^(٣)، والمقصود: إتمام هيئة التشبيه بأنّه دين لا يتطرّق متبعه شكّ في نفعه كما لا يتردّد سالك الطريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحير في أمره

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الأنعام: ٩٢.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

وفي قوله: **{دِينًا}** تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبه، وانتصب على الحال من: **{صِرَاطٌ}** لأنه نكرة موصوفة

والدين تقدّم عند قوله تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}**^(١) وهو السيرة التي يتبعها الناس والقيم بفتح القاف وتشديد الياء كما قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: وصف مبالغة قائم بمعنى معتدل غير معوج، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز، لأن المرء إذا قام اعتدلت قامته، فيلزم الاعتدال القيام

والأحسن أن نجعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر، وهو مرادف القيوم، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوم عليه، فالإسلام قيم بالأمّة وحاجتها، يقال: فلان قيم على كذا، بمعنى مدبر له ومصلح، ومنه وصف الله تعالى بالقيوم، وهذا أحسن لأن فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءاً من التمثيلية، فلا تكون إعادة لبعض التشبيه

وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي، وخلف: **{قيماً}** بكسر القاف وفتح الياء مخففة وهو من صيغ مصادر قام، فهو وصف للدين بمصدر القيام المقصود به كفاية المصلحة للمبالغة، وهذه زنة قليلة في المصادر، وقُلب واوه ياء بعد الكسرة على غير الغالب: لأن الغالب فيه تصحيح لامه لأنها مفتوحة، فسواء في خفتها وقوعها على الواو أو على الياء، مثل عَوْضٍ وَحَوْلٍ، وهذا كشذوذ جياذ جمع جواد، وانتصب **{قيماً}** على الوصف لـ **{دِينًا}**

وقوله: **{مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ}** حال من: **{دِينًا}** أو من: **{صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** أو عطف بيان على **{دِينًا}**

والملة: الدين، فهي مرادفة الدين، فالتعبير بها هنا للتفنن ألا ترى إلى قوله تعالى: **{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ}**^(٢)

و**{مَلَّةٌ}** فعلة بمعنى المفعول، أي المملول، من أملت الكتاب إذا لقت الكاتب ما يكتب، وكان حقها أن لا تقترن بهاء التانيث لأن زنة (فعل) بمعنى المفعول تلزم التذكير،

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) البقرة: ١٣٢.

كالدَّبْح، إلا أنهم قرنوها بهاء التأنيث لما صيروها اسماً للدين، ولذلك قال الراغب: الملة كالدِّين، ثم قال: "والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذي تسند إليه نحو ملة إبراهيم، ملة آبائي، ولا توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد الأمة، ولا تستعمل إلا في جملة الشريعة دون آحادها لا يقال: الصلاة ملة الله، أي ويقال: الصلاة دين الله ذلك أنه يراعى في لفظ الملة أنها مملول من الله فهي تضاف للذي أمّلت عليه

ومعنى كون الإسلام ملة إبراهيم: أنه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي: التوحيد، ومسابقة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحق، وقد بينت ذلك عند قوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} ^(١)

والحنيف: المجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي، وقد تقدّم عند قوله تعالى: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^(٢)

وجملة: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} عطف على الحال من {إِبْرَاهِيمَ} عليه السلام المضاف إليه، لأن المضاف هنا كالجزاء من المضاف إليه

استئناف أيضاً، يتنزل منزلة التفرّيع عن الأول، إلا أنه استؤنف للإشارة إلى أنه غرض مستقلّ مهمّ في ذاته، وإن كان متفرّعاً عن غيره، وحاصل ما تضمّنه هو الإخلاص لله في العبادة، وهو متفرّع عن التوحيد، ولذلك قيل: الرياء الشرك الأصغر علّم الرسول ﷺ أن يقوله عقب ما علّمه بما ذكر قبله لأنّ المذكور هنا يتضمّن معنى الشكر لله على نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم، فإنّه هداه ثم ألهمه الشكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى وأعيد الأمر بالقول لما علمت أنفاً

وافتحت جملة المقول بحرف التوكيد: للاهتمام بالخبر ولتحقيقه، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان يُرائي بصلاته، فقد قال بعض المشركين لمّا رأى رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة: «ألا تنظرون إلى هذا المرائي أياكم يقوم إلى جزور بني فلان فيعمد إلى قرئها وسلاها فإذا سجد وضعه

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) البقرة: ١٣٥.

بين كتفيه» فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ ^(١)

واللام في {لله} يجوز أن تكون للملك، أي هي بتيسير الله فيكون بياناً لقوله: {إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^(٢) ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشرّكين إذ كانوا يسجدون للأصنام ولذلك أردف بجملة: {لَا شَرِيكَ لَهُ}

والنّسك حقيقة العبادة ومنه يسمى العابد الناسك

والمحيّا والممات يستعملان مصدرين ميميّين، ويستعملان اسمي زمان، من حيي ومات، والمعنيان محتملان فإذا كان المراد من المحيا والممات المعنى المصدرى كان المعنى على حذف مضاف تقديره: أعمال المحيا وأعمال الممات، أي الأعمال التي من شأنها أن يتلبّس بها المرء مع حياته، ومع وقت مماته وإذا كان المراد منهما المعنى الزماني كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات

ثم إنّ أعمال الحياة كثيرة وفيرة، وأمّا الأعمال عند الموت فهي ما كان عليه في مدّة الحياة وثبائه عليه، لأنّ حالة الموت أو مدّته هي الحالة أو المدّة التي تنقلب فيها أحوال الجسم إلى صفة تؤذن بقرب انتهاء مدّة الحياة وتلك حالة الاحتضار، وتلك الحالة قد تؤثر انقلاباً في الفكر أو استعجالاً بما لم يكن يستعجل به الحي، فربّما صدرت عن صاحبها أعمال لم يكن يصدرها في مدّة الصّحة، اتّقاءً أو حياءً أو جلباً لنفع، فيرى أنّه قد ينس مما كان يُراعيه، فيفعل ما لم يكن يفعل، وأيضاً لتلك الحالة شؤون خاصّة تقع عندها في العادة مثل الوصيّة، وهذه كلّها من أحوال آخر الحياة، ولكّنها تضاف إلى الموت لوقوعها بقربه، وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت

ويجوز أن يكون المراد من الممات ما يحصل للرسول عليه الصّلاة والسّلام بعد وفاته من توجهاته الرّوحية نحو أمّته بالدّعاء لهم والتّسليم على من سلّم عليه منهم والظهور لخاصّة أمّته في المنام فإنّ للرسول بعد مماته أحكام الحياة الرّوحية الكاملة كما

(١) صحيح مسلم بشرح النووي / ٣٣٤٩.

(٢) الأنعام: ١٦١.

ورد في الحديث: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ السَّلَامَ» وكذلك أعماله في الحشر من الشفاعة العامة والسجود لله في عرصات القيامة فتلك أعمال خاصة به ﷺ وهي كلها لله تعالى لأنها لنفع عبده أو لنفع أتباع دينه الذي ارتضاه لهم، فيكون قوله: {وَمَمَاتِي} هنا ناظراً إلى قوله في الحديث: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم»

ويجوز أن يكون معنى مماته لله الشهادة في سبيل الله فإن رسول الله ﷺ سمّته اليهودية بخبير في لحم شاة أطعموه إياه حصل بعض منه في إمعائه ففي الحديث: «ما زالت أكلة خبير تعادني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبهري»

وبقوله: {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} تحقق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنفس إلى المسلم له، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} ^(١)، وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في قوله: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} ^(٢)

وقوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره، لأن غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} وجملة: {لَا شَرِيكَ لَهُ} حال من اسم الجلالة مصرحة بما أفاده جمع التوكيد مع لام الملك من إفادة القصر والمقصود من الصفة والحال الرد على المشركين بأنهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم، وبأنهم أشركوا معه غيره في الإلهية {إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} إلخ، أي أن ذلك كان لله بهدي من الله وأمر منه، فرجع إلى قوله: {إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^(٣) يعني أنه كما هداه أمره بما هو شكر على تلك الهداية، وإنما أعيد هنا لأنه لما أضاف الصلاة وما عطف عليها لنفسه وجعلها لله تعالى أعقبها بأنه هدي من الله تعالى، وهذا كقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} ^(٤) وتقديم الجار والمجرور للاهتمام

(١) آل عمران: ٢٠.

(٢) البقرة: ١٣١.

(٣) الأنعام: ١٦١.

(٤) الزمر: ١١، ١٢.

بالمشار إليه

وقوله: **{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** مثل قوله: **{وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ}** خبر مستعمل في معناه الكنائى، وهو لازم معناه، يعني قبول الإسلام والثبات عليه والاعتباط به، لأن من أحب شيئاً أسرع إليه فجاءه أول الناس، وهذا بمنزلة فعل السبق إذ يطلق في كلامهم على التمكن والترجح، كما قال النابغة:

سَبَقْتُ الرِّجَالَ الْبَاهِشِينَ إِلَى الْعَلَا :: كَسَبْتُ الْجَوَادَ اصْطَادَ قَبْلَ الطَّوَارِدِ

لا يريد أنه كان في المعالي أقدم من غيره لأن في أهل المعالي من هو أكبر منه شيئاً، ومن نال العلا قبل أن يولد الممدوح، ولكنه أراد أنه تمكن من نوال العلا وأصبح الحائز له والثابت عليه

وفي الحديث: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» وهذا المعنى تأييس للمشركين من الطمع في التنازل لهم في دينهم ولو أقلّ تنازل ومن استعمال (أول) في مثل هذا قوله تعالى: **{وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}**^(١) وليس المراد معناه الصريح لقلة جدوى الخبر بذلك، لأن كلّ داع إلى شيء فهو أول أصحابه لا محالة، فماذا يفيد ذلك الأعداء والأتباع، فإن أريد بالمسلمين الذين اتبعوا حقيقة الإسلام بمعنى إسلام الوجه إلى الله تعالى لم يستقم، لأن إبراهيم عليه السلام كان مسلماً وكان بنوه مسلمين، كما حكى الله عنهم إذ قال إبراهيم عليه السلام: **{فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}**^(٢) وكذلك أبناء يعقوب كانوا مسلمين إذ قالوا^(٣): **{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**^(٤)

{أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا} أى: أغير الله - تعالى - تريدوننى أن أطلب رباً فأشركه فى عبادته، وال حال والشأن أنه - سبحانه - هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق لكل شيء

فجملته **{وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}** حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال

ثم بين - سبحانه - أن كل إنسان مجازى بعمله فقال: **{وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا}**

(١) البقرة: ٤١.

(٢) البقرة: ١٣٢.

(٣) تفسير ابن عاشور: ١٥٠.

(٤) البقرة: ١٣٦.

أى: لا تجترح نفس إنما إلا عليها من حيث عقابه فلا يؤاخذ سواها به، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به

{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أى: ولا تحمل نفس مذنبية ولا غير مذنبية ذنب نفس أخرى، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبه بالمباشرة أو بالتسبب قال القرطبي: وأصل الوزر: الثقل، ومنه قوله تعالى: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} وهو هنا الذنب كما فى قوله تعالى: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال: {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ} أى: رجوعكم بعد الموت يوم القيامة {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} بتمييز الحق من الباطل، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله

ثم ختمت السورة بهذه الآية: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} أى: خلائف القرون الماضية، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم وخلائف: جمع خليفة، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه وقوله: {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} أى: فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك ثم بين - سبحانه - العلة فى ذلك فقال: {لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره

وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهُ خُصْرَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ كَيْفٍ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنْ أُولَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»

ثم رهب - سبحانه - من معصيته، ورغب فى طاعته فقال: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ} لمن عصاه وخالف رسله {وَأِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين^(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى: ١٥٠.

المطلب التاسع:

تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

إنه لنباً عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبى الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته فهو " النبي الأمي"، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وهو يضع عن المؤمنين به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي؛ ويعظمونه ويوقرونه، وينصرونه ويؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه {أولئك هم المفلحون}

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل - على يد نبيهم موسى عليه السلام - كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مستقر رحمته فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى - عليه السلام - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به وفيه التخفيف عنهم والتيسير، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين!

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً فقد سجل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم الأم خلق وقف لهذا النبي وللدين الذي جاء به اليهود أولاً والصليبيون أخيراً وأن الحرب التي شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً

خبیثة ماکرة لئیمة قاسیة؛ وأنهم أصروا علیها ودأبوا؛ وما یزالون یصرون ویدأبون!
والذی یراجع - فقط - ما حکاه القرآن الکریم من حرب أهل الکتاب للإسلام
والمسلمین - وقد سبق منه فی سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق - یطلع
على المدى الواسع المتطاوّل الذی أداروا فیهِ المعركة مع هذا الدین فی عناد لئیم!
والذی یراجع التاریخ بعد ذلك - منذ الیوم الذی استعلن فیهِ الإسلام بالمدينة، وقامت
له دولة - إلى اللحظة الحاضرة، یدرك كذلك مدى الإصرار العنید على الوقوف لهذا
الدین وإرادة محوه من الوجود!

ولقد استخدمت الصهیونیة والصلیبیة فی العصر الحدیث من ألوان الحرب، والکید
والمکر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضیة وهی فی هذه الفترة بالذات تعالج
إزالة هذا الدین بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه فی المعركة الأخيرة الفاصلة لذلك
تستخدم جمیع الأسالیب الّتی جربتها فی القرون الماضیة کلها - بالإضافة إلى ما
استحدثته منها - جملة واحدة!

ذلك فی الوقت الذی یقوم ممن ینتسبون إلى الإسلام ناس یدعون فی غرارة ساذجة
إلى التعاون بین أهل الإسلام وأهل بقیة الأدیان للوقوف فی وجه تیار المادیة والإلحاد!
أهل بقیة الأدیان الذین یذبّحون من ینتسبون إلى الإسلام فی كل مكان؛ ویشنون علیهم
حرباً تنسم بكل بشاعة الحروب الصلیبیة ومحاکم التفتیش فی الأندلس - سواء عن طریق
أجهزتهم المباشرة فی المستعمرات فی آسیا وإفريقية أو عن طریق الأوضاع الّتی
یقیمونها ویسندونها فی البلاد (المستقلة!) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانیة!
تنکر «الغیبیة» لأنها «علمیة»! و«تطور» الأخلاق لتصبح هی أخلاق البهائم الّتی
ینزو بعضها على بعض فی «حریة!»، و«تطور» كذلك الفقه الإسلامی، وتقیم له
مؤتمرات المستشرقین لتطویره

کیما یحل الربا والاختلاط الجنسی وسائر المحرمات الإسلامیة!!

إنها المعركة الوحشیة الضاریة یخوضها أهل الکتاب مع هذا الدین، الذی بشروا به
وبنبیه منذ ذلك الأمد البعید ولكنهم تلقوه هذا التلقی اللئیم الخبیث العنید!

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالاته الناس جميعاً، هي آية مكية في سورة مكية وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً ﷺ لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالاته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله وأن يكون «المستشرقون» الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم المحاربين لهم ولعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم "متقفون"!

* * * * *

المطلب العاشر:

ألوان التهديد والعقاب لبني إسرائيل!!!

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١)

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}

فهو إذن الأبدي الذي تحقق منذ صدوره؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب والذي سيظل نافذاً في عومهم، فبيعت الله عليهم بين أونة

(١) الأعراف: ١٦٧ - ١٧١.

وأخرى من يسومهم سوء العذاب وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تنجح إلى انحراف

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة

لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة - كما أخبر الله نبيه في قرآنه - معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة

{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب - كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر - وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، في التوراة والإنجيل فليس عذابه - سبحانه - عن نقمة ولا إحنة إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة

ثم تمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ، من بعد موسى وخلفائه، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة:

{وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة في هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد

ذلك حين تفرق اليهود في الأرض؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات، مختلفة المشارب والمسالك فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات تارة بالنعماء وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم:

{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسيان المؤدي إلى الغرار والبوار

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ}

وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ وكلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا: **{سَيُغْفَرُ لَنَا}** وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ويسأل سؤال استنكار:

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق فما بالهم يقولون: **{سَيُغْفَرُ لَنَا}** ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيده غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً؛ ويقنعون عن المعصية فعلاً؛ وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!

بلى! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد إنما يدرسون ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخرج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة؛ ولا يأخذونه عقيدة؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!!

{وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

نعم! إنها الدار الآخرة! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتناهى؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويرفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة «الاشتراكية العلمية» أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه: «العلمية»

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس؛ وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال

إن «العلمية» التي تناقض «الغيبية» جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر جهالة يرجع عنها «العلم البشري» ذاته، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين إلا الجهال! جهالة تناقض فطرة «الإنسان» ومن ثم تفسد «الحياة» ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار! ولكنه المخطط الصهيوني الرهيبة الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحتها ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية

المطاف! والذي تردده البيغاوات هنا وهناك، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض تمضي عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك!

ولأن قضية الآخرة، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى عرض الحياة الدنيا إلى العقل:

{وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً:

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم؛ ولا في سلوكهم وحياتهم

غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مطلقة، تعطي مدلولها كاملاً، لكل جيل ولكل حالة

إن الصيغة اللفظية: **{يُمَسِّكُونَ}** تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه في غير تعنت ولا تنطع ولا تزممت فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنتع والتزممت شيء آخر إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله! فهو الذي يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله!

والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة؛ وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لإصلاح الحياة والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مدلولاً معيناً إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة

والنفوس، ولا تصلح بسواه والإشارة إلى الإصلاح في الآية:

{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}

يشير إلى هذه الحقيقة حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتقر القلوب عن العبادة فتفتقر عن تقوى الله

إنه منهج متكامل يقيم الحكم على أساس الكتاب؛ ويقيم القلب على أساس العبادة ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب؛ فتصلح القلوب، وتصلح الحياة

إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب!

وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق:

{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

إنه ميثاق لا ينسى فقد أخذ في ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق؛ فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يترجعوا في ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي وتظل موصولة بالله لا تنساه!

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! نقضت الميثاق، ونسيت الله، ولجت في المعصية، حتى استحققت غضب الله ولعنته وحق عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها، وأفاء عليها من عطاياه فلم تشكر النعمة، ولم ترع العهد، ولم تذكر الميثاق، وما

ربك بظلام للعبيد^(١)

قال ابن عباس: (اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به، وحرّم عليهم الصيد فيه، وأمرهم بتعظيمه، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر، فإذا انقضى السبت ذهبوا وما تعود إلا فى السبت المقبل، وذلك بلاء ابتلاهم الله به، فذلك معنى قوله تعالى: {وَيَوْمَ لَا يَسْتُونُ لَا تَأْتِيهِمْ}

وقال الإمام القرطبى: (وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد)

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} معناه: بمثل هذا الابتلاء، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم، وتحايلهم القبيح على شريعتهم، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعة سهل له أمور دنياء، وأجل له ثواب أخراه، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى: {وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} والذى يفهم من هذه الآية الكريمة، - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

- ١ -فرقة المعتدين فى السبت، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار
 - ٢ -فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم
 - ٣ -فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت
- وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله: {وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ

تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} أى: قالت فرقة من أهل القرية، لإخوانهم الذين لم يألوا جهداً في نصيحة العادين في السبت، لم تعظون قوماً لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً، جزاء تماديهم في الشر، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم: {مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين:

الأولى: الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والثانية: الأمل في صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجو من العقوبة، ويسيروا في طريق المهتدين

وقيل: إن أهل القرية كانوا فرقتين، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت في السبت، وفرقة أحجمت عن الإقدام، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً في زعمكم؟ فأجابتهم الناصحة بقولها: {مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن هذا هو الظاهر من الضمائر في الآية الكريمة، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية (ولعلمك تتقون) بكاف الخطاب، بدل قولهم: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة، والفرقة الناصحة

قال الإمام القرطبي عند تفسيره الآية الكريمة: إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق، فرقة عصت وصدت، وكانوا، نحوا من سبعين ألفاً، فرقة نهت واعتزلت، وكانوا نحوا من اثني عشر ألفاً، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة هي التي قالت للناهية، لم تعظون قوماً - عصاة - الله مهلكهم، أو معذبهم على غلبة الظن وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية؟ (

وقوله: {مُعَذِّبَةً} بالنصب على أنها مفعول لأجله أى: وعظناهم لأجل المعذرة، أو

منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى: نعتذر معذرة وقرئت: " معذرة " بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى: موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليقه: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً ولكنهم قيل لهم: لم تعظون؟ فقالوا: موعظتنا معذرة

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السَّوَاءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى: فلما لج الظالمون فى طغيانهم، وعموا وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين، وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين، فقد سكنت عنها

ويرى بعض المفسرين: أنها لم تتج، لأنها لم تنه عن المنكر فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم

ويرى جمهور المفسرين: أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبه، وإذا كانت قد سكنت عن النصيحة، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه، فلا جدوى وراء وعظهم، وإلى هذا رأى ذهب صاحب الكشاف وغيره

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً - من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين

قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين، غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم وإذا علم الناهى حال المنهى، وأن النهى لا يؤثر فيه، سقط عنه النهى، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحکم يأس الأولين، ولم يخبرهم كما خبروهم أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم، كما وصف الله

تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: **{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا}** الحديث **أَسْفَاً** وقال الإمام ابن كثير: (ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة، ما أدري ما فعل بهم، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقال: **{لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}** قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكساني حلة)

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله، لأنه لم يرد نص صحيح في شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين ولم تذكر في السبب موقفاً سلبياً استحققت معه الإهمال، إن لم تكن بسببه أهلاً للمؤاخذة

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى: **{فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}** أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك

قال الألوسى: (والأمر فى قوله تعالى: **{قُلْنَا}** تكوينى لا تكليفى، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به، وهذا كقوله تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل)

وقيل فى تفسير الآية: إن الله تعالى - عاقب القوم أولاً بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة، فلما لم يرتدعوا ويتوبوا إلى رشدهم، مسخهم مسخاً خلقياً وجسمياً، فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية، وعليه الجمهور:

وقيل: مسخهم مسخاً خلقياً ونفسياً، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، وهذا مروى عن مجاهد

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصحية، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان^(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوي/ ١٥٥.

المبحث الخامس: الإسلام دين الحق والتوحيد:

المطلب الأول:

عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (١)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله في ذلك: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} الآية

و " عزير " كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق م تقريباً، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة؛ وأدخل الأحرف الكلدانية عوضاً عن العبرانية القديمة، وألف أسفار: الأيام، وعزرا، ونحميا

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب " ابن الله " قال البيضاوى: وإنما قالوا ذلك - أى: عزير ابن الله - لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة "بختنصر" - سنة ٥٨٦ ق م من يحفظ التوراة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله

وقال صاحب المنار ما ملخصه: جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره، وعبق شذا ورده وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً متعددة فى الأسباب التى حملت اليهود على أن يقولوا

(١) التوبة: ٣٠ - ٣٣.

"عزير ابن الله" وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل، ولذا فقد ضربنا عنها صفحا وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم، فكانوا مشاركين لهم في الإثم والضلال، وفيما يترتب على ذلك من عقاب

وأما قول النصارى: "المسيح ابن الله" فهو شائع مشهور، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته في التوالد والتناسل، فقالوا عنه: "ابن الله"

وقد حاجهم - سبحانه - في سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم، فكان أولى بنسبة النبوة إليه، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك، فينبغي أن يكون عيسى كآدم قال - تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ذم لهم على ما نطقوا به يمجحه العقل السليم، والفكر القويم

أى: ذلك الذى قالوه فى شأن " عزير والمسيح " قول تلوكه ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افتراءهم واختلاقهم، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك

قال - تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾^(١) ولقد أنذر، سبحانه، الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٢) وأسند، سبحانه، القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية، حتى لكانها مسموعة مرئية وليبان أن هذا القول لا وجود له فى عالم الحقيقة والواقع، وإنما هو لغو ساقط وليد الخيالات والأوهام، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم، أى: أنه قول

(١) سورة مريم: ٩٢ - ٩٥.

(٢) سورة الكهف: ٤، ٥.

صادر منهم وليس محكيا عنهم

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كل القول يقال بالفم فما معنى قوله: {ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ}؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من أى معنى تحته، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم، لا تدل على معان وذلك أن القول الدال على معنى، لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر فى القلب وما لا معنى له مقول بالفم لا غير

والثانى: أن يراد بالقول: المذاهب، كقولهم: " قول أبى حنيفة " يريدون مذهبه ما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة، حتى يؤثر فى القلوب، وذلك أنهم اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة فى انتقاء الولد وقوله: {يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} ذم آخر لهم على تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر

قال الجمل ما ملخصه: قرأ العامة: {يُضَاهِيُونَ} بضم الهاء بعدها واو - وقرأ عاصم: "يضاهئون" بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة - فقيل: هما بمعنى واحد وهو المشابهة، وفيه لغتان: ضاهات وضاهيت

والمراد بالذين كفروا من قبل: قيل، أهل مكة وأمثالهم من المشركين السابقين الذين قالوا، الملائكة بنات الله وقيل: المراد بهم قدماء أهل الكتاب، أى، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبي ﷺ يشابه قولهم فى العزيز وعيسى قول آبائهم الأقدمين، - أى المعاصرين للعهد النبوى - قد ورثوا الكفر كابراً عن كابر

والأولى من هذين الوجهين: أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى

قال صاحب المنار: وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس

وهذه الحقيقة التاريخية - والتي بينها القرآن في هذه الآية - من معجزاته لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم، بل لم تظهر إلا في هذا الزمان

والمعنى أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم: {عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ} وقال البعض الآخر: {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم {فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} وقوله: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} تعجيب من شناعة قولهم، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لا بد أن يقتل، ومن غلبه لا بد أن يغلب

وعن ابن عباس، أن معنى: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} لعنهم الله وكل شئ في القرآن قتل فهو لعن وقوله: {أَنى يُؤْفَكُونَ} تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد

{وَأَنى} بمعنى كيف و{يُؤْفَكُونَ} من الإفك بمعنى الانصراف عن الشئ والابتعاد عنه، يقال: أفكه عن الشئ يأفكه أفكاً، أى، صرفه عنه وقلبه ويقال: أفكت الأرض أفكاً، أى: صرف، عنها المطر

والمعنى: قاتل الله هؤلاء الذين قالوا: {عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ} والذين قالوا: {المسيح ابن الله} لأنهم بقوله هذا محل مقت العقلاء وعجبهم، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك؟!

إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم

وقوله - سبحانه: {اتخذوا أخبارهم وزهباتهم أرباباً مِّن دُونِ اللَّهِ والمسيح ابن مَرْيَمَ} بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة، وأفعال ذميمة

والضمير في قوله: {اتخذوا} يعود إلى الفريقين اللذين حكمت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان

والأخبار: علماء اليهود جمع خبر، بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه، مأخوذ من التعبير بمعنى التحسين والتزيين، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة

والحسن، والرهبان: علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، أنهم أطاعوهم فيها أحلوهم، وفيما حرموه عليهم، ولو كان هذا التحليل والتحرير مخالفاً لشرع الله

وهذا التفسير مأثور " عن رسول الله ﷺ فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ، فر إلى الشام: وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومها، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها، فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى المدينة، وكان رئيساً فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفى عنق عدى صليب من فضة، وكان الرسول يقرأ هذه الآية: {اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} (١) "

قال عدى: فقلت، إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»

قال ابن كثير: وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير الآية: أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا

وقال السدى: استنصحو الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وقال الألوسى: وقيل اتخذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله، تعالى، وحينئذ فلا مجاز، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله، لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر الحق فعلى المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهد مقلده

وقوله: {والمسيح ابن مريم} معطوف على قوله: {أخبارهم} والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى: اتخذوه رباً وإلهاً

قال صاحب المنار ما ملخصه: جمع - سبحانه بين اليهود والنصارى فى اتخاذ رجال دينهم أرباباً بأن أعطوهم حتى التشريع فيهم: وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلها يعبدونه واليهود لم يعبدوا عزيزاً، ولم يؤثر عمن قال منهم إنه ابن الله، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح: إنه هو الله الخالق المدبر لأمر العباد

وقوله: **{وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** جملة حالية أى: اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب من اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، بأن أطاعوهم فيما يحلونه لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان مخالفاً لشرع الله؛ وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً وإلهاً

والحال أنهم جميعاً ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده، فهو المعبود الذى لا تغنو الوجوه إلا له، ولا يكون الاعتماد إلا عليه، وكل ما سواه فهو مخلوق له

وقوله: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** صفة ثانية لقوله: **{إِلَهِهَا}** أو هو استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك شرعاً وعقلاً

وقوله: **{سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** تنزيه له عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له

أى: تنزه الله - عز وجل - وتقّس عن الشركاء والنظرء والأعوان والأضداد والأولاد، فهو رب العالمين، وخالق الخلائق أجمعين

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: ومن النص القرآنى الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ﷺ للآية وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار وهى: أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير الرسول ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد فى ألوهيتهم، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم ومع هذا فقد حكم الله، سبحانه، عليهم بالشرك فى هذه الآية، وبالكفر فى آية تالية فى السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها - فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشركاً بالله، الشرك الذى

يخرجه من عداد المؤمنين، ويدخله في عداد الكافرين

إن النص القرآني يسوى في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بالوهية المسيح اعتقاد وقدموا إليه الشعائر في العبادة

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقوالهم الكاذبة، ودعاؤهم الباطلة فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

والمراد بنور الله: دين الإسلام الذي ارتضاه سبحانه - لعباده ديناً وبعث به رسوله، ﷺ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب، ويشفى النفوس، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار وقيل المراد بنور الله: حجه الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقيل المراد به: القرآن، وقيل المراد به: نبوة النبي ﷺ وكلها معان متقاربة

والمراد بإطفاء نور الله: محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه، كثغراهم للشبهات من حول تعاليمه، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف في وجهه، وعلى محاربته

والمراد بأفواههم أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التي تنطق بما لا وزن له ولا قيمة

والمعنى: يريد هؤلاء الكافرين بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التي جاء بها نبيه ﷺ عن طريق أقوالهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه، أو أصل تستند إليه، وإنما هي أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذي لا وزن له ولا قيمة

قال الألوسي ما ملخصه: في الكلام استعارة تمثيلية، حيث شبه - سبحانه - حال أهل الكتاب في محاولة إبطار نبوة النبي، ﷺ، عن طريق تكذيبهم له، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم مثبت في الآفاق ليطفئه بنفخه

وروعى في كل من المشبه والمشبه به معنى الإفراط والتفريط، حيث شبه الإبطال

والتكذيب بالإطفاء بالفم، ونسب النور إلى الله - تعالى - العظيم الشأن
ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيماً، فكيف يطفأ بنفخ الفم
وقوله: **{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين،
وتقرير لسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في جعل العقابة للحق وأتباعه
والفعل **{يَأْبَى}** هنا بمعنى لا يريد أو لا يرضى - أى: أنه جار مجرى النفي، ولذا
صح الاستثناء منه

قال أبو السعود: وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله: **{إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ}** من
الموجب، وهو قوله: **{وَيَأْبَى اللَّهُ}** - لكونه بمعنى النفي، ولوقوعه في مقابلة
قوله: **{يُرِيدُونَ}**، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة، أى: لا
يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه،
فضلاً عن الإطفاء

وفي إظهار " النور " في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره - سبحانه - زيادة اعتناء
بشأنه، وتشريف له على تشريف، وإشعار بعلّة الحكم

وجواب **{وَلَوْ}** في قوله: **{وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** محذوف لدلالة ما قبله عليه
والمعنى: يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والحال أن الله - تعالى - لا
يريد إلا إتمام هذا النور، ولو كره الكافرون هذا الإتمام - سبحانه - دون أن يقيم
لكراهمتهم وزناً

فالآية الكريمة وعد من الله تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى
يمضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تناقل، وهى فى الوقت نفسه تتضمن
فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم

ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره، وبين كيفية هذا الإتمام فقال: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهَدْيِ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}**

والمراد بالهدى: القرآن الكريم المشتتمل على الإرشادات السامية، والتوجيهات
القوية، والأخبار الصادقة، والتشريعات الحكيمة

والمراد بدين الحق: دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان

وقوله: **{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}** من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان، والسيادة والسلطان

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه

والضمير فى: **{لِيُظْهِرَهُ}** يعود على الدين الحق أو الرسول ﷺ والمعنى: هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الهادى للتى هى أقوم، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين آخر، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحدة والغلبة، ولإظهار رسوله ﷺ على أهل الأديان كلها، بما أوحى إليه - سبحانه - من هدايات، وعبادات، وتشريعات، وآداب فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة

وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: **{وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}** وختم التى قبلها بقوله: **{وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** للاشعار بأن هؤلاء الذين قالوا: **{عُزِّرْ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}** قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا، بين رذيلتى الكفر والشرك، وأنه، سبحانه، سيظهر أهل دينه على جميع أهل الأديان الأخرى

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك، منها: ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مِنْ مِشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا، وَسَيَلِغَ مَلِكٌ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا»**

وروى الإمام أحمد عن مسعود بن قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحى من محارب الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّهُ سَتَفْتَحُ لَكُمْ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ عَمَالُهَا فِي النَّارِ، إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ»** (١)

وروى أيضاً عن تميم الدارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا بَرٍّ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، يَعْزُّ عَزِيزًا وَيَذِلُّ ذَلِيلًا، عِزًّا يَعْزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذِلًّا يَذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»** وكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية

وأخرج أيضاً عن عدى بن حاتم قال: دخلت على رسول الله، ﷺ فقال: **«يَا عَدَى**

أسلم تسلم»، فقلت يا رسول الله: إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، أأست من الركوسية، وأنت تأكل من مرياع قومك» قلت: بلى قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك»

ثم قال ﷺ: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام» تقول: «إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، ومن رمتهم العرب، أعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها

قال: «فوالذي نفسي بيده ليؤمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الطعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز»

قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد»^(١) قال عدى بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها

وإلى هنا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب في قولهم: {عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}، وأرشدتهم إلى الطريق الحض الواضح المستقيم ليسيروا عليه، ووبختهم على تشبههم في هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين، وعلى انقيادهم لأخبارهم ورهبانهم بدون تعقل أو تدبر، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذي ارتضاه الله هم على الأديان كلها

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الرذائل التي انغمس فيها الأخبار والرهبان، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون فقال - تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترف على الخلق، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس، تنبيهها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر،

أخذ أموال الناس بالباطل

ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم، وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغبة الواحد تراه يتهالك عليه؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله

المراد بالأكل في قوله: {لِيَأْكُلُونَ} مطلق الأخذ والانتفاع

وعبر عن ذلك بالأكل، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده، على سبيل المجاز المرسل، بعلاقة العلية والمعلولية وأكلهم أموالهم الناس بالباطل، يتناول ما كانوا يأخذونه من سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة كما يتناول ما سوى ذلك ما كانوا يأخذونه بغير وجه حق

وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهي أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأبحار والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم، إنصافاً للعدد القليل منهم الذي لم يفعل ذلك، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام، ويقيدون أنفسهم بالحلال

قال صاحب المنار: وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق في عبارات الكتاب العزيز، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه

فمن الأول قوله - تعالى - في اليهود: {وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} وَلَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} ومن الثاني قوله - تعالى - في اليهود أيضاً: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِثًّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ} ومن الثالث قوله - سبحانه - في شأن المحرفين للكلم الطاعنين في الإسلام من اليهود - أيضاً: {مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ

وَرَاعَنَا لِيَا بَالْسَنَةِهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} وقد نبهنا في تفسير هذه الآيات وأمثالها على العدل الدقيق في أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظيم شأنه

وقوله: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} جريمة من جرائمهم الكثيرة

والصد: المنع والصرف عن الشيء وسبيل الله: دينه وشريعته

أى: أن هؤلاء الكثيرين من الأحرار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل، بل إنهم يضيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهى أنهم ينصرفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشهواتهم، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل، كأن يصفوه لهم بأنه دين باطل، أو بأن رسوله ﷺ ليس هو الرسول الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة إلى غير ذلك من وسائلهم المتنوعة فى صرف الناس عن الحق^(١)

* * * * *

المطلب الثانى:

مقاصد القرآن وشرائعه

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلِلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} (٢)

يا أيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب، وتخضع لها النفوس وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم ومن هداية لكل إلى طريق الحق والخير، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء، استمالة لهم إلى الحق باللفظ

(١) سيد طنطاوي ١٩١.

(٢) يونس: ٥٧ - ٦٠.

أسلوب، وأكمل بيان، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويتنبهوا من غفلتهم
ووصفت الموعظة بأنها من ربكم، لتذكيرهم بما يزيدهم تعظيماً وقبولاً، لأنها لم
تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب، وإنما هي صادرة من خالق
النفوس ومربيها، العليم بما يصلحها ويشفيها

وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين، لأنهم هم المستحقون لها، بسبب إيمانهم وتقواهم
قال الألوسي ما ملخصه: " واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية
كما يشفى من الأمراض القلبية، فقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: "
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني أشتكى صدري، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «اقرأ
القرآن، يقول الله - تعالى - {شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ}»

وأخرج البيهقي في الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلاً شكى إلى النبي ﷺ وجع
حلقه، فقال له: «عليك بقراءة القرآن»

وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم، والخبر الثاني لا يدل
عليه، إذ ليس فيه أكثر من أمره ﷺ الشاكي بقراءة القرآن إرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول
به وجعه

ونحن لا ننكر أن للقراءة بركة، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع، وإنما
ننكر الاستدلال بالآية على ذلك

والخبر الأول وإن كان ظاهراً في المقصود، لكن ينبغي تأويله، كأن يقال: لعله ﷺ
اطلع على أن في صدر الرجل مرضاً معنوياً قليباً، قد صار سبباً للمرض الحسي
والبدني، فأمره ﷺ بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثاني

والحسن البصري ينكر كون القرآن شفاء للأمراض، فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه
قال: "إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم،
والحق ما ذكرناه "

وقوله: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} حض للناس على
اغتنام ما في تعاليم الإسلام من خيرات، وإيثارها على ما في الدنيا من شهوات
أى: قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة: اجعلوا فرحكم الأكبر،

وسروركم الأعظم، بفضل الله الذي شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد ﷺ، وبرحمته التي وسعت كل شيء وهي بالمؤمنين أوسع، لا بما تجمعون في هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن، ورحمته بالإسلام ومنهم من فسرهما بالجنة والنجاة من النار

ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى: لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق ﷺ يحدد المراد منهما، وما دام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى

قال ابن كثير: قوله - تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة

فعن أئيف بن عبد الكلاعي قال: لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضي الله عنه - خرج عمر ومولى له، فجعل يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله - تعالى - ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر: كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله - تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} (١)

أي: ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم، ورسول كريم، وقرآن مبين

ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به والجار والمجرور في كل منهما متعلق بمحذوف، وأصل الكلام: قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص، وأدخلت الفاء لإفادة السببية، فكأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضله ورحمته، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا

قال القرطبي: " والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب وقد ذم الله الفرع في مواضع، كقوله - سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} وكقوله: {إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} ولكنه مطلق

فإذا قيد الفرخ لم يكن ذمًا، لقوله - تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} وكقوله - سبحانه - هنا: {فَبَذَلْنَاكَ فَلْيَفْرَحُوا} أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا"

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرّموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} أي: قل لهم يا محمد - أيضا - أخبروني أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم: إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنتم، وقسمتم هذا الرزق الحلال، فجعلتم منه حلالا وجعلتم منه حراما

وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا فى آيات متعددة، منها قوله - تعالى: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} وقالوا ما في

قال الإمام ابن كثير: " قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} الآيات

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: «هل لك مال؟» قلت: نعم قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيق والخيول والغنم فقال: «إذا آتاك الله مالا فليزك عليك» ثم قال: هل تنتج إبلك صحاحا آذانها، فتعتمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول: هذه بحر، وتشق جلودها وتقول: هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك؟ قلت: نعم قال: «فإن ما آتاك الله لك حل ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك»

وقوله: {قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} استفهام قصد به التوبيخ والزجر أي: قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزجر: إن الله وحده هو الذي يملك التحليل والتحريم، فهل هو - سبحانه - أذن لكم في ذلك، أو إنما أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم لأنه لو أذن لكم في ذلك لبينه على لسان رسوله ﷺ

قال صاحب الكشاف: " وقوله: {ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ} متعلق بأرأيتم، وقيل: تكرير للتوكيد والمعنى أخبروني الله أذن لكم في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة، بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء

ثم قال: وكفى بهذه الآية زاجراً بليغاً عن التجاوز فيما يسأل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله "

ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال: {وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}

أى: هؤلاء الذين أحلوا وحرّموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة؟ أيعتدون أن الله سيتركهم بدون عقاب؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افتراءهم عليه الكذب

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى، وقال - سبحانه: {وَمَا ظَنُّ} بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم، واتباع شريعته فيما أحل وحرّم

أى: إن الله لذو فضل عظيم على عباده، حيث خلقهم ورزقهم، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم، لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له^(١)

* * * * *

المطلب الثالث:

الإسلام دين الحق

(١) تفسير سيد طنطاوي: ٢١٥.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (١)

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}

فهو الإعلان الأخير، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم

{فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}

وليس الرسول موكلًا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقًا، إنما هو مبلغ، وهم موكلون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية والختام خطاب إلى الرسول - ﷺ - باتباع ما أمر به، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه:

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}

وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق (٢)

{قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ} المتمثل في كتاب الله وفي سنتي {مِنْ رَبِّكُمْ} وليس من أحد سواه {فَمَنِ اهْتَدَىٰ} إلى هذا الحق، وعمل بمقتضاه {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} أى: فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره

{وَمَنْ ضَلَّ} عن هذا الحق وأعرض عنه {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أى: فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه

{وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أى بحفيظ يحفظ أموركم، وإنما أنا بشير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبكم على أعمالكم

(١) يونس: ١٠٨، ١٠٩.

(٢) الظلال سيد قطب: ٢١٥.

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

أى: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ - أيها الرسول الكريم - فى جميع شؤونك ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك من تشريعات حكيمة، وآداب قويمة

﴿وَاصْبِرْ﴾ على مشاق الدعوة وتكاليفها

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين قومك، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه هو العليم بالظواهر والباطن، وهو الذى لا معقب لحكمه

وبعد: فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته، وشمول علمه، ونفاذ إرادته، وسعة رحمته، وسمو عزته

وكيف أقامت الأدلة - أيضاً - على صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه (١)

* * * * *

المطلب الرابع:

موقف أهل الكتاب والمشركين من نبوة محمد ﷺ

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢)

قوله - سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ثناء منه - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه

والمراد بالكتاب هنا: التوراة والإنجيل

(١) سيد طنطاوي: ٢٢١.

(٢) الرعد: ٣٦ - ٣٩.

والمعنى: والذين أعطيناهم التوراة والإنجيل، فأمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيها الرسول الكريم -، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين

هؤلاء الذين تلك صفاتهم، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك، يزيدهم إيماناً على إيمانهم، ويقينا على يقينهم

وقيل: المراد بالكتاب: القرآن الكريم، وبالموصول: أتباع النبي ﷺ من المسلمين فيكون المعنى: والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فأمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح، لأن الآية الكريمة سبقت بعد الحديث عن عاقبة الذين اتقوا وهم المؤمنون الصادقون، وعاقبة الكافرين ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه

ومن المفسرين الذين اقتصرُوا في تفسيرهم للآية على الرأي الأول: الإمام ابن كثير فقد قال: الله - تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائلون بمقتضاه {يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} أى: من القرآن، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَحْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُكْذِرُ بَعْضَهُ﴾ بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم، والأحزاب: جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى: ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى ينكرونه، إهمالا لشأنهم، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض

وقوله - سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ﴾ أمر منه - تعالى - لنبيه ﷺ بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لكل من خالفك فيما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وحده {وَلَا أُشْرِكَ بِهِ} بوجه من الوجوه إليه وحده " أدعو " الناس لكى يخلصوا له العباداة والطاعة {وَإِلَيْهِ مَآبٍ} أى وإليه وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحدٍ غيره

فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده والذم لمن أنكره جحوداً

وعناداً، والأمر للنبي ﷺ بالسير في طريقه بدون خشية من أحدٍ

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الفضائل التي امتاز بها القرآن الكريم فقال - تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}

والكاف للتشبيه، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من {أَنْزَلْنَاهُ} وضمير الغائب في أنزلناه يعود إلى {بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} في قوله في الآية السابقة: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} وقوله: {حُكْمًا عَرَبِيًّا} حالان من ضمير الغائب

والمعنى: ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز، أنزلنا عليك القرآن يا محمد {حُكْمًا} أى: حاكماً بين الناس {عَرَبِيًّا} أى: بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك

ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة، فيكون المعنى: وكما أنزلنا الكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات أقوامهم أنزلنا عليك القرآن حاكماً بين الناس بلغتك وبلغة قومك، وهى اللغة العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه

وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم: فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته، وهو المعبر عنها بكونه " حكماً "

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهى المعبر عنها بكونه " عربياً "

أى: نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها

ثم فى كونه " عربياً " امتنان على العرب المخاطبين به ابتداءً، حيث إنه نزل بلغتهم، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيهِ، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم، قال - تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} أى: فيه بقاء شرفكم {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} وقال - تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب، حيث لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان

ثم ساق - سبحانه - تحذيراً للأمة كلها فى شخص نبيها ﷺ من اتباع أهواء كل كافر

أو فاسق: فقال - تعالى: {وَلَّيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ}

واللام فى قوله: {وَلَّيْنِ} موطنه للقسم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين

والأهواء: جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق، ومطالبهم المتعنتة، والمراد بما جاءه من العلم: ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحي الصادق

والولى: الناصر والمعين والقريب والحليف والواقى: المدافع عن غيره

والمعنى: " ولئن اتبعت " - يا محمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك، " من بعد ما جاءك من العلم " اليقيني بأن الإسلام هو الدين الحق، " مالك من الله " أى من عقابه " من ولى " يلى أمرك وينصرك " ولا واق " يقيك من حسابه

وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول ﷺ للتأكيد من مضمونه

فكأنه - سبحانه يقول: لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول ﷺ ليس إلا من قبيل التعنت والجحود، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر، فقال - تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً}

أى: " ولقد أرسلنا رسلا " كثيرين " من قبلك " يا محمد " وجعلنا لهم " أى لهؤلاء الرسل " أزواجا " يسكنون إليهن " وذرية " أى: وأولادا تقر بهم أعينهم

قال الشوكانى: " وفى هذا الرد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء

أى: هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تتكبرون عليه ما كانوا عليه"

وقوله - سبحانه: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} رد على ما طلبوه منه ﷺ

من معجزات

أى: وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات

وقوله - سبحانه: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه ﷺ

أى: لكل وقت من الأوقات " كتاب " أى: حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته، وسعة علمه، وعظيم حكمته فقال: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}

وقوله: {يَمْحُو} من المحو وهو إذهاب أثر الشئ بعد وجوده

وقوله: {يُثَبِّتُ} من المحو وهو إذهاب أثر الشئ بعد وجوده

وقوله: {يُثَبِّتُ} من الإثبات وهو جعل الشئ ثابتا قارا فى مكان ما

وأم الكتاب: أصل الكتاب والمراد بأُم الكتاب: اللوح المحفوظ، أو علمه - سبحانه - المحيط بكل شئ

قال الفخر الرازى: " والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشئ أما له ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب "

والمعنى: يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه، ويثبت ما تريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة، ومن الصحة أو المرض، ومن الغنى أو الفقر، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون

قال - تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

وقال - تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل، لخصه الإمام الشوكانى تلخيصا حسنا فقال:

قوله - سبحانه: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ} أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب

وقيل: " يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه، ويثبت ما لا يشاء فلا ينسخه والأول أولى كما تفيد " ما " فى قوله: " ما يشاء " من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله: " لكل أجل كتاب " ومع قوله: " وعنده أم الكتاب " أى أصله وهو اللوح المحفوظ

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جفَّ القلم» وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضا - سبحانه

وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى -: بما خلق وبما هو خالق (١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوي: ٢٥٤.

المطلب الخامس:

النهى عن تعدد الألهة

{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (١)

وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام: لا تتخذوا شركاء معي في العبادة والطاعة، بل اجعلوهما لي وحدي، فأنا الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء

قال الألوسي: وقوله: {وَقَالَ اللَّهُ} معطوف على قوله - سبحانه: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} وإظهار الفاعل، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر، للإيذان بأنه - تعالى - متعين الألوهية والمنهى عنه هو الإشراك به، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين

{اثْنَيْنِ} صفة للفظ إلهين أو مؤكد له وخص هذا العدد بالذكر، لأنه الأقل، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوّه بالطريق الأولى

وقوله - سبحانه: {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} بيان وتوكيد لما قبله، وهو مقول لقوله - سبحانه: {وَقَالَ اللَّهُ}

أى: وقال الله لا تتخذوا معي في العبادة إلها آخر، وقال - أيضا: إنما المستحق للعبادة إله واحد، والقصر في الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة، أى: الله وحده هو المختص بصفة الودانية

وقد نهى - سبحانه - عن الشرك في آيات كثيرة، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله - تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلِقَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} وقوله - سبحانه: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} والفاء في قوله {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} واقعة في جواب شرط مقدر و{إِيَّايَ} مفعول به لفعل محذوف يقدر

مؤخرا، يدل عليه قوله: {فَارْهَبُونِ}

والرهبة: الخوف المصحوب بالتحرز، وفعله رهب بزنة طرب
والمعنى: إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شيء
وفى الجملة الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب، للمبالغة فى التخويف، إذ
تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما
وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء

وقدم المفعول وهو إياى لإفادة الحصر، وحذف متعلق الرهبة، للعموم

أى: ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون

والم تأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن
الشرك، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، تارة عن طريق التقرير {وَقَالَ اللَّهُ}
وتارة عن طريق النهى الصريح، وتارة عن طريق القصر وتارة عن طريق التخصيص

وذلك لى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء، ويؤمنوا بالله الواحد القهار

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته، ونفاذ إرادته،

فقال - تعالى: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا}

والمراد بالدين هنا: الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب نهيه، وقد أتى الدين
بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته:

وأياماً لنا غراكراماً :: عصينا الملك فيها أن ندينها

أى: عصيناها وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له

قوله: {وَاصِبًا} من الوصوب بمعنى الدوام والثبات، يقال: صبب الشيء يصبب -
بكسر الصاد - وصوباً، إذا دام وثبت ومنه قوله - تعالى: {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أى:
دائم

أى: والله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً، لا شريك له
فى ذلك، ولا منازع له فى أمره أو نهيه وله - أيضاً - الطاعة الدائمة، والخضوع
الباقي الثابت الذى لا يحول ولا يزول

والآية الكريمة معطوفة على قوله: {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}

والاستفهام في قوله: {أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَتَّقُونَ} للإنكار والتعجيب، والفاء للتعقيب، وهى معطوفة على محذوف، والتقدير، أفتبعد أن علمتم أن الله - تعالى - له ما فى السموات والأرض، وله الطاعة الدائمة تتقون غيره، أو ترهبون سواه؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء، وإنما يكون من الضالين الجاهلين ثم بين - سبحانه - أن كل نعمة فى هذا الكون، هو - سبحانه - مصدرها وموجدها، فقال: {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}

أى: وكل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم، ونماء فى مالكم، وكثرة فى أولادكم، وصلاح فى بالكم فهى من الله - تعالى - وحده

فالمراد بالنعمة هنا: النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس، لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية، و" ما " موصولة مبتدأ، متضمنة معنى الشرط وقوله: {فَمِنَ اللَّهِ} خبرها

وقوله {مِّنْ نُّعْمَةٍ} بيان لما اشتملت عليه " ما " من إبهام

وقوله - سبحانه: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} بيان لطبيعة الإنسان، ولموقفه من خالقه - عز وجل - والضر: يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان

وقوله: {تَجَاوَزُونَ} من الجوار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون، يقال: جأ فلان يجأ جأراً وجواراً، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاثة وأصله: صياح الوحش {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيايَ فَارْهَبُونَ}

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك، {فَإِيايَ فَارْهَبُونَ} يقول: إياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكا

القول في تأويل قوله تعالى: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَعَيَّرَ اللَّهُ

تَتَقُونَ

يقول تعالى ذكره: والله ملك ما في السموات والأرض من شيء، لا شريك له في شيء من ذلك، هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، ويبيده حياتهم وموتهم وقوله: {وله الدينُ واصباً} يقول جل ثناؤه: وله الطاعة والإخلاص دائماً ثابتاً واجباً، يقال منه: وَصَبَ الدِّينُ يَصِيبُ وَصُوباً وَوَصَباً كما قال الديلي:

لا أَبْتَغِي الحَمْدَ القَلِيلَ بَقَاؤُهُ :: يَوْمًا بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ وَاصِباً ^(١)

ومنه قول الله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}

وقول حسان:

غَيْرَتْهُ الرِّيحُ تَسْفِي بِهِ :: وَهَزِيمٌ رَغْدُهُ وَاصِبٌ ^(٢)

فأما من الألم، فإنما يقال:

وصب الرجل يوصب وصباً، وذلك إذا أعيأ وملّ، ومنه قول الشاعر:

لا يَغْمِزُ السَّاقُ مَنْ أَيْنَ وَلَا وَصَبٍ :: وَلَا يَعِضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ ^(٣)

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، ويقال فيه الديلي أيضاً، استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن (١: ٣٦١) على أن معنى "واصباً": دائماً. وروايته فيه كرواية المؤلف (الطبري). واستشهد به كذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٠: ١١٤) ورواه بروائتين: الأولى كرواية المؤلف، وقال قبلها: أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما... البيت. والأخرى باختلاف في الشطر الثاني. وهو: "بدم يكون الدهر أجمع واسباً" وظاهر أن هذه الرواية محرفة عن الأولى. وقال صاحب لسان العرب في "وصب". وفي التنزيل العزيز، "وله الدين واسباً" قال أبو إسحاق، قيل في معناه: دائماً: أي طاعته دائمة واجبة أبداً. قال: ويجوز، والله أعلم أن يكون "وله الدين واسباً": أي له الدين والطاعة، رضي العبد بما يؤمر به، أو لم يرض به، سهل عليه، أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب، والوصب: شدة التعب، وفيه: "بعذاب واسب" أي دائم ثابت. وقيل: موجه.

(٢) البيت لحسان بن ثابت (ديوانه طبع ليدن سنة ١٩١٠ ص ٦١) وقبله بيت وهو المطلع:

قَدْ تَعَفَّى بَعْدَنَا عَازِبٌ :: مَا بِهِ بَادٍ وَلَا قَارِبٌ

وتسفى به: تحمل إليه التراب. والهزيم: السحاب المتشقق بالمطر. يقول: غير هذا المكان ما تسفيه الريح عليه من التراب، وما يأتي به السحاب من مطر رعه دائم.

(٣) هذا البيت لأعشى باهلة، واسمه عامر بن الحارث جمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي (١٣٥ - ١٣٧) من قصيدة يقولها في أخ له اسمه المنتشر، قتله بنو الحارث بن كعب وقطعوه إرباً إرباً (عضوا عضواً) برجل منهم كان فعل معه مثل ذلك. ورواية البيت فيه وفي اللسان (صفر):

لا يَتَأَسَّى لِمَا فِي الْقَدْرِ يَرْقُبُهُ :: وَلَا يَعِضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

قال: والصفرة دويبة تكون في البطن، تدعيها الأعراب، ويكون منها الجوع وخطأ رواية البيت الصاغاني، وأورده كرواية المؤلف (انظر هامش اللسان: أرى) والغمز: العصر باليد والشرسوف: جمعه شراسيف، وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن

وقوله: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} يقول تعالى ذكره: أغير الله أيها الناس تتقون، أي ترهبون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافع سواه

القول في تأويل قوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ}

اختلف أهل العربية في وجه دخول الفاء في قوله {فَمِنَ اللَّهِ} فقال بعض البصريين: دخلت الفاء، لأن "ما" بمنزلة "من" فجعل الخبر بالفاء وقال بعض الكوفيين: "ما" في معنى جزاء، ولها فعل مضمر، كأنك قلت: ما يكن بكم من نعمة فمن الله، لأن الجزاء لا بد له من فعل مجزوم، إن ظهر فهو جزم، وإن لم يظهر فهو مضمر، {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}، {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}

يقول تعالى ذكره: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرج البلاء عنكم {إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويدبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضر {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} يقول: ليجدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشف الضر عنهم {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وهذا من الله وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم جل ثناؤه: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم^(١)

(١) الطبري: ٢٧٢.

لقد أمر الله الا يتخذ الناس إلهين اثنين إنما هو إله واحد لا ثاني له ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر {فَيَأْيَ فَأَرْهَبُونَ} دون سواي بلا شبيهه أو نظير ويذكر الرهبة زيادة في التحذير ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض

إنما هو إله واحد وإنما هو كذلك مالك واحد: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ودائن واحد: {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا} (أي واصلًا منذ ما وجد الدين، فلا دين إلا دينه) ومنعم واحد: {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} وفطركم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق، وتتقي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ} وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه

وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه؛ وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم، وبالهدى الذي آتاهم فلينظروا إذن ما يصيبهم بعد المتاع القصير: {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}

هذا النموذج الذي يرسمه التعبير هنا: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} نموذج متكرر في البشرية ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع، فتضعف صلتها بالله، وتزيغ عنه ألوانا من الزيف تبدو في الشرك به وتبدو في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها، فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله؛ ولكن يلجأ إلى بعض مخالفيه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله، أو بغير هذه الحجة في بعض الأحيان، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب فهؤلاء أشد انحرافا من

مشركي الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذي رأيناه!

{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيًّا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ} فإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها أو يبيحونها للذكور دون الإناث كما أسلفنا في سورة الأنعام باسم الآلهة المدعاة؛ التي لا يعلمون عنها شيئاً، إنما هي أوهام موروثة من الجاهلية الأولى

والله هو الذي رزقهم هذه النعمة التي يجعلون لما لا يعلمون نصيباً منها، فليست هي من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها، إنما هي من رزق الله، الذي يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه!

وهكذا تبدو المفارقة في تصورهم وفي تصرفهم على السواء الرزق كله من الله والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة!

وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيباً من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه آلهة الجاهلية ما يزال بعضهم يطلق عجلاً يسميه "عجل السيد البدوي" يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا ينتفع به أحد، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله وهو حرام نذره على هذا الوجه حرام لحمه ولو سمي اسم الله عليه لأنه أهل لغير الله به!

{تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ} بالقسم والتوكيد الشديد فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد^(١)

* * * * *

المطلب السادس:

وعيد المكذبين للرسول

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (١)

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم إذ الأصل هو التوحيد، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور، ومن تشبيه وتمثيل كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه

وعند هذا الحد يأخذ السياق في استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله في الكون، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات، وفيما وهبه من نعم وآلاء، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله

وقد ذكر في الآية السابقة إنزال الكتاب وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام:

{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}

والماء حياة كل حي والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها والذي يحول الموت إلى حياة هو الذي يستحق أن يكون إلها: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} فيتدبرون ما يسمعون فهذه القضية قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

{فَزَيَّنَ} من التزيين وهو تصيير الشيء زينا، أى: حسنا والزينة: هى ما فى الشيء

من محاسن ترغب الناس فيه

والمعنى: أقسم لك - أيها الرسول الكريم - بذاتي، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك، فكانت النتيجة أن استحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم، حيث زين لهم الأفعال القبيحة، وقبح لهم الأعمال الحسنة، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم، المعرض عن إرشاداتهم، المحارب لدعوتهم

وقوله - سبحانه: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأروه حسنا

قال الإمام الشوكاني ما ملخصه: " والمراد باليوم فى قوله - تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا - أى مدة أيام الدنيا - فيكون المعنى: فهو قرينهم فى الدنيا ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده فيكون للحال الآتية ويكون الولي بمعنى الناصر والمراد نفى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الآخرة

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذى مضى، وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضية من الشيطان، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية الثانى: أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول الآية والمراد: تزيين الشيطان لكفار قريش أعمالهم، فيكون الضمير فى: ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ لكفار قريش فيكون المعنى: فهو ولي هؤلاء المشركين اليوم أى: معينهم على الكفر والمعاصى لهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة "

ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أى: وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام وبذلك يعرفون الحق من الباطل، والخير من الشر

وسبقت هذه المعانى بأسلوب القصر، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم، ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا

الكتاب بنفس منسوحة، وقلب متفتح (١)

* * * *

المطلب السابع:

اتباع ملة إبراهيم

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (٢)

القرآن الكريم يرسم إبراهيم عليه السلام نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله ويقول عنه هنا: إنه كان أمة واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير وورد في التفسير المأثور هذا المعنى وذلك وهما قريبان فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدأيته فكانه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد

{قَانِتًا لِلَّهِ}: طائعا خاشعا عابدا {حَنِيفًا}: متجها إلى الحق مائلا إليه {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون! {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ}: بالقول والعمل لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا، ويكفرونها عملا، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء {اجْتَبَاهُ} اختاره {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: هو صراط التوحيد الخالص القويم

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد، ويؤكد النص من جديد على أن إبراهيم {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فالصلة الحقيقية هي صلة الدين الجديد فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه، وليس من ديانة إبراهيم، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى

(١) تفسير سيد طنطاوي: ٢٧٣.

(٢) النحل: ١٢٠ - ١٢٤.

الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ} وأمرهم موكول إلى الله {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل، وكملت في الدين الأخير، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيينه فليأخذ الرسول ﷺ في طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل ما اعتدوا إلا أن يعفو ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل؛ مطمئناً إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين فلا يحزن على من لا يهتدون، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا} فأما "الأمة"، فهو الإمام الذي يقتدى به والقانت: هو الخاشع المطيع والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

قال سفیان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم

وقال الأعمش، عن الحكم عن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين؛ أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نَسَأَلْ إِذَا لَمْ نَسَأَلْكَ؟ فكأن ابن مسعود رقّ له، فقال: أخبرني عن الأمة فقال: الذي يعلم الناس الخير

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله [ورسوله] أعلم قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير والقانت: المطيع لله ورسوله وكذلك كان معاذ معلم الخير وكان مطيعاً لله ورسوله

وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير
وقال مجاهد: {أُمَّةٌ} أي: أمة وحده، والقانت: المطيع وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم
أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار
وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله
وقوله: {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ} أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: {وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} ^(١)،
أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به
وقوله: {اجْتَبَاهُ} أي: اختاره واصطفاه، كما قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِ عَالِمِينَ} ^(٢)
ثم قال: {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع
مرضي
وقوله: {وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن
إليه في إكمال حياته الطيبة، {وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}
وقال مجاهد في قوله: {وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} أي: لسان صدق
وقوله: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} أي: ومن كماله وعظمته وصحة
توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: {أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كما قال في "الأنعام": {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^(٣)، ثم قال تعالى منكراً على اليهود
{إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ}

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة،
فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة،
 واجتمعت الناس فيه وتمت النعمة على عباده ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل

(١) النجم: ٣٧.

(٢) الأنبياء: ٥١.

(٣) الأنعام: ١٦١.

على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة

ثم إنهم لم يزلوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد ويقال إنه: لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم وقد ثبت في الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري

وعن أبي هريرة، وحذيفة، رضي الله عنهما، قالوا قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق» (١)، (٢)

* * * * *

(١) صحيح مسلم ٨٥٦.

(٢) ابن كثير ٢٨١.

المطلب الثامن :

حقيقة عيسى عليه السلام

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} (١)

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}

ذلك عيسى ابن مريم، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه في مولده ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون يقولها لسانه ويقولها الحال في قصته: {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ} تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولداً

والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعاف للنصرة والله باق لا يخشى فناء، قادر لا يحتاج معيناً والكائنات كلها توجد بكلمة كن وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين وينتهي ما يقوله عيسى عليه السلام ويقول له حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير وهذا هو المقصود بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستكراً نابياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجمعا من الأساقفة وهو أحد

المجامع الثلاثة الشهيرة بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفًا فاختلفوا في عيسى اختلافًا شديدًا، وقالت كل فرقة فيه قولاً قال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحياء وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة: الله إله وهو إله وأمه إله وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مائة وثمانية اتفقوا على قول فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرده الآخرين وشرده المعارضين وبخاصة الموحدين

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحداية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهد جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين:

{قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم بهذا التذكير للتفخيم والتحويل المشهد الذي يشهده الثقلان: الإنس والجن، وتشهده الملائكة، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ثم يأخذ السياق في التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس:

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

فما أعجب حالهم! لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولأسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم!

{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} يوم تشتد الحسرات حتى لكان اليوم محض للحسرة لا شيء فيه سواها، فهي الغالبة على جوه، البارزة فيه أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات: **{إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون

أُنذِرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد!:

{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}

جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - فى هذه السورة: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}** ثم بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال: **{إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** أى: لا يتصور فى حقه - سبحانه - اتخاذ الولد، لأنه إذا أراد قضاء أمر، فإنما يقول له: كن، فيكون فى الحال، بدون تأخير أو تردد

بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال: **{فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم}**

والأحزاب: جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه - عليه السلام - فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه، وهم اليهود كما فى قوله: **{وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}** ومنهم من قال هو ابن الله، أو هو الله، أو إله مع الله، أو هو ثالث ثلاثة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى

ولفظ **{ويل}** مصدر لا فعل له من لفظه، وهو كلمة عذاب ووعيد

و**{مُشْهَد}** يصح أن يكون مصدراً ميماً بمعنى الشهود والحضور

والمعنى: هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه: **{اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ}** ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافاً كبيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً، حيث وصفوه بما هو برىء منه، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة، حيث سيلقون عذاباً شديداً من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان

وعبر عنهم بالموصول فى قوله: **{لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}** إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشعاراً بعلّة

الحكم

قال أبو حيان: " ومعنى: {مَنْ بَيْنَهُمْ} أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم "

وجاء التعبير في قوله: {مَنْ مَّشَّهَدَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} بالتنكير، للتهويل من شأن هذا المشهد، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة، الذي يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى

وقوله - سبحانه: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} تهكم بهم، وتوعد لهم بالعذاب الشديد، فهو تأكيد لما قبله

و{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} صيغتا تعجب، لفظهما لفظ الأمر، ومعناهما التعجب، أى حمل المخاطب على التعجب، وفاعلها الضمير المجرور بالباء، وهى زائدة فيهما لزوماً، والمعنى: ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم، لما يخلع قلوبهم، ويسود وجوههم، مع أنهم كانوا فى الدنيا صماً وعمياناً عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم فالمراد باليوم فى قوله: {لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق

أى: أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة

تم أمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة، فقال: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (١)

والإنذار: الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير، وأشد ما يخوف به يوم القيامة

والحسرة: أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه

أى: وأنذر - أيها الرسول الكريم - المشركين، وخوفهم من أهوال يوم القيامة، يوم يتحسر الظالمون على تقريطهم فى طاعة الله، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم، لأن حكم الله

قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين، وبعذاب الفاسقين، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار

وقوله: {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} حال من الضمير المنصوب في {أَنذَرَهُمْ} أى: أُنذَرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان هذا، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله - تعالى: {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ}

أى: ذبح الموت فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت» ثم قرأ ﷺ: {وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته، وشمول ملكه فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا} أى: إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها، وهؤلاء الخلائق جميعاً {وَالْيَنَّا} وحدنا {يُرْجَعُونَ} يوم القيامة، فنحاسبهم على أعمالهم

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} ^(١) وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى، وعن قصة مريم وعيسى، حديثاً يهدى إلى الرشد، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق

* * * * *

المطلب التاسع:

نسبة الولد إلى الله تعالى

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} (١)

قال سيد قطب رحمه الله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو: جو الغضب والغيرة والانتفاض! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية، والمساس بقداسة الذات العلية، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاج

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} حتى تنطلق كلمة التفطيع والتبشيع: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئه وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته؛ وتجافي ما وقر في ضميره وما استقر في كيانه؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب:

{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد

وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان {لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} فعين الله على كل فرد وكل فرد يقدم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان

وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة، إذا المؤمنون في ظلال ندية من الود السامي: ود الرحمن: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيراً - فقال: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ} أي: في قولكم هذا، {شَيْئًا إِذَا} قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا

ويقال: {إِذَا} بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى وقوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد:

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ :: تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة»

قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟

قال: «تلك أوجب وأوجب» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن»^(١)

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم

وقال الضحاك: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} أي: يتشققن فراقاً من عظمة الله

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ} أي: غضباً لله، عز وجل

{وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} قال ابن عباس: هدمًا

وقال سعيد بن جبیر: {هَدًّا} ينكسر بعضها على بعض متتابعات

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْدَ المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله عز وجل؟ فيقول: نعم، ويستبشر قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًّا} (٢)، (٣)

* * * * *

(١) سنن الترمذی (٨٩٨)، سنن أبي داود (٢٧١٠).

(٢) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١١٧٦) من طريق ابن أبي عمر، عن سفيان، عن مسعر به، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٧/٩) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر، عن عون، عن ابن مسعود، بنحوه. وقال الهيثمي في المجمع (٧٩/١٠): "رجاله رجال الصحيح".

(٣) ابن كثير ٣١١.

المطلب العاشر:

عبادة اليهود العجل

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاها فكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا} (١)

وهكذا فوجئ موسى إنه عجلان إلى ربه، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوماً، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة وقد استخلصهم من الذل والاستعباد، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه؛ وترك في كياناتهم النفسي خليلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتتهار أمام أول اختبار ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء، حتى لقي ربه، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناء يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها

وينتهي السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه، ليصور انفعال موسى عليه السلام مما علم من أمر الفتنة، ومسارعتة بالعودة، وفي نفسه حزن وغضب، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل

الوثنية؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة في الصحراء؛ وذكرهم منذ قليل بآلانه، وحذرهم الضلال وعواقبه ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية، وإلى عبادة العجل!

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة، استعجالاً في عرض موقف العودة إلى قومه ولكن السياق يشي بهذه التفصيلات فلقد عاد موسى غضبان أسفاً يوبخ قومه ويؤنب أخاه فلا بد أن كان يعلم شناعة الفعل التي أقدموا عليها:

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه؛ وقد أخرج كشفها عن موقف المناجاة، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون: هذا إلهكم وإله موسى وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربّه هنا حاضر!

فراح موسى يسألهم في حزن وغضب: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟} وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد؛ ولم يمتز على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت ويؤنبهم في استنكار: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ} فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمدًا، ويقصد إليه قصدًا! أفتال عليكم

العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب {فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي} وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم، لا تغيرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي: {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا} فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا! {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} وقد حملوا معهم أكداً من حلي المصريين كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهم فهم يشيرون إلى هذه الأحمال ويقولون: لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام فأخذها السامري فصاغ منها عجلاً والسامري رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب؛ وفي بلاهة فكر وبلاهة روح قالوا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى} راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه!

وهي قولة تضيف إلى معنى البلاهة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه!

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} والمقصود أنه حتى لم يكن عجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية! فهو درجة أقل من درجة الحيوانية وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية! (١)

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك، لأنه جلّ ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر،

وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثر موسى

وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل

وقوله **{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ}** يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة **{غَضَبَانَ أَسْفًا}** متغيظا على قومه، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله

وقوله **{قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا}** يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم، وقوله **{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ}** يقول: أفضال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: يقول: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم مواعيدي وكان إخلافهم مواعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى **{لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}**

وقوله **{يَمْلِكُنَا}** يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة

{فَتَنَّا} من الفتن ومعناه لغة: وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أو

زائف

والفتنة تطلق في القرآن بإطلاقات متعددة منها: الدخول في النار كما في قوله - تعالى: **{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}** ومنها الحجة كما في قوله - تعالى: **{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** ومنها: الاختبار والامتحان، كما في قوله - سبحانه: **{أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}** ومنها الاضلال والاشراك، كما

فى قوله - تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وقوله - سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل فى غيبه موسى - عليه السلام

ويدل على هذا قوله - تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ والسامرى: اسم للشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل، قيل: كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة وقيل: إنه كان من قوم يعبدون البقر، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة

أى: قال الله - تعالى - لموسى: فإننا قد أضلنا قومك من بعد مفارقتك لهم، وكان السبب فى ضلالهم السامرى، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه

وقوله - تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن علم بضلال قومه

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه، وتلقى منه التوراة

قال الألوسى ما ملخصه: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ عند رجوعه المعهود أى: بعد ما استوفى الأربعين " ذا القعدة وعشر ذى الحجة " وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار المذكور، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد منه قوله: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فقال بنو إسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه لهم السامرى: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، لأن موسى نسى إلهه هنا، وذهب ليبحث عنه فى مكان آخر، فالضمير فى قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ يعود لموسى

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل، بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه

وقيل: إن الذي حدث منه النسيان هو السامري، وأن النسيان بمعنى الترك، أى: فترك السامري ما كان عليه من الإيمان الظاهري، ونبذ الدين الذي بعث الله - تعالى - به موسى، وحض الناس على عبادة العجل الذي صنعه لهم والقول الأول هو أرجح، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه هو المأثور عن السلف

قال ابن جرير: " وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون: {فَنَسِيَ} خبراً من الله - تعالى - عن السامري، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، ولأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبراً من السامري عنه بذلك أشبه من غيره "

وقوله - تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: ابلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفتنوا إلى أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهاً، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه، ولا يرد عليهم قولاً يقولونه له، ولا يملك لهم شيئاً لا من الضر ولا من النفع

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} (١)

* * * * *

المبحث السادس : عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات :

المطلب الأول :

جزاء المعرضين عن القرآن

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا}{^(١)

بدأت السورة بالحديث عن القرآن، وأنه لم ينزل على الرسول ﷺ ليشقى به أو بسببه ومن القرآن قصة موسى عليه السلام وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته، وعاقبة من يعرض عنه ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعري، وتخضع الأصوات للرحمن، وتعنو الوجوه للحي القيوم لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس، ويذكرها بالله ويصلها به وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول ﷺ من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فأنه ميسره وحافظه إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً

وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يوحي إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في المأ الأعلى، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى

وتختتم السورة بتسليية الرسول ﷺ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم، فلهم أجل معلوم ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم

وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ولقد هلكت القرون من قبلهم،
وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير، فلينفذ يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم

{قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى}

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}

كذلك القصص الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق نقصه
عليك في القرآن ويسمى القرآن ذكراً، فهو ذكر لله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه
الآيات في القرون الأولى

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميه المجرمين مشهداً في يوم القيامة فهؤلاء
المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله

ويا لسوءها من أحمال! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق
الوجوه من الكدر والغم يتخافتون بينهم بالحديث، لا يرفعون به صوتاً من الرعب
والهول، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر وفيم يتخافتون؟ إنهم يحسدون عما
قضوا على الأرض من أيام وقد تضاعلت الحياة الدنيا في حسهم، وقصرت أيامها في
مشاعرهم، فليست في حسهم سوى أيام قلائل: **{إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}** فأما أرشدهم وأصوبهم
رأياً فيحسونها أقصر وأقصر: **{إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}** وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها
على الأرض وتنطوي؛ ويتضاعل متاع الحياة وهموم الحياة؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة
في الزمان، وشيئاً ضئيلاً في القيمة فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها والمتاع؟
وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة ما قيمة هذه أو تلك إلى
جانب الآمال التي لا نهاية لها، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع؟!

{وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا} تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم

أي: وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا **{ذِكْرًا}** عظيماً وهو القرآن الكريم، كما
قال - تعالى: **{وهذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}** قال الفخر الرازي: وفي تسمية

القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال - سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل، وعلى الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام

قال صاحب الكشاف: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل، وينقض ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم، أى: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، ومن ذلك قوله - تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أى: من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك، يحمل يوم القيامة على ظهره أثاما كثيرة: تؤدي إلى العقوبة المهيينة من الله - تعالى: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أى: وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم

قال الألوسي: قوله: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ إنشاء الذم، على أن "سَاء" فعل ذم بمعنى بئس وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على "حملا" الواقع تمييزا والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ساء حملهم حملا وزرهم

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

أى: اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر

المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول، أو حالة كونهم " زرقا " أى: عمياء، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها أو " زرقا " معناه: عطاشا، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق

قال - تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} وقوله - سبحانه: {يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا} استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت

أى: إن هؤلاء المجرمين يتهايمسون فيما بينهم فى هذا اليوم العصيب، قائلين: ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام

ومقصدهم من هذا القول: استقصار المدة، وسرعة انقضائها، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب، بعد أن تبين لهم أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون

وقوله - تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} بيان لشمول علمه - سبحانه -

أى: نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم، لا يخفى علينا شىء مما يتخافتون به من شأن مدة لبثهم فى قبورهم أو فى الدنيا

{إِذْ يَقُولُ امْتَلَهُمْ طَرِيقَةٌ} أى: أعد لهم رأيا، وأرجحهم عقلا {إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} واحدا وقيل المراد باليوم مطلق الوقت، وتكثيره للتقليل والتحقيق أى: ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدلى على شدة الهول

قال - تعالى: {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}: أى الساعة {لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

* * * * *

المطلب الثاني :

مساوى القول بتعدد الألهة

{أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} (١)

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل {اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ} أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرين على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفست السموات الأرض، فقال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} أي: في السماء والأرض، {لَفَسَدَتَا}، كقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} (٢)، وقال هاهنا: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} أي: عما يقولون إن له ولدًا أو شريكًا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًا كبيرًا

وقوله: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: {فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٣)

وهذا كقوله تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} (٤)

{أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} (٥)

(١) الأنبياء ٢١ - ٢٤ .

(٢) الأنبياء: ٢١ - ٢٤ .

(٣) الحجر ٩٢، ٩٣ .

(٤) المؤمنون: ٨٨ .

(٥) ابن كثير: ٣١٧ .

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم ووصف هؤلاء بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات وبيعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض فهل الآلهة التي اتخذوها تفعل هذا؟ إنها لا تفعل، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله

ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً؛ وينسق بين أجزائه جميعاً؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعاً لها فالإرادة مظهر الذات المريدة والناموس مظهر الإرادة النافذة ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره:

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}

وهم يصفونه بأن له شركاء تنزه الله المتعالي المسيطر: {رَبُّ الْعَرْشِ} والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون

{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل؛ ومن ذا الذي يسأله؛ وهو القاهر فوق عباده، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذ حاكماً لنظام الوجود؟ والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم

ومقياس يوضع والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب: ولماذا صنع الله كذا وما الحكمة في هذا الصنيع؟ وكأنما يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع!

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب والواجب في حق المعبود، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود

إن الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويسيطر على كل شيء، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}

وإلى جانب الدليل الكوني المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك التي لا تعمد على دليل:

{أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً فَلَمْ يَأْتُوا بِبُرْهَانِكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي}

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ﷺ وهناك ذكر من سبقه من الرسل وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}

* * * * *

المطلب الثالث :

عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوت

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْئِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (١)

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن يبعث الله الرسل للناس لا تبديل فيها ولا تحويل توحيد الإله وتوحيد المعبود؛ ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن الله ولداً وهي إحدى مقولات الجاهلية السخيفة:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْئِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}

ودعوى النبوة لله سبحانه دعوى اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة الله وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزيز لله وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة فهم ليسوا بنات لله كما يزعمون {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} عند الله لا يقترحون عليه شيئاً تأدباً وطاعة وإجلالاً إنما يعملون بأمره لا يناقشون وعلم الله بهم محيط ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه وهم بطبيعتهم خائفون الله مشفقون من خشيته على

قريبهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها وهم لا يدعون الألوهية قطعاً ولو ادعوا جداً لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائناً من كان، وهو جهنم فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق، ولكل أحد، ولكل شيء في هذا الوجود

وكذلك تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة، لا يدعيها أحد ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم!

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله، مشفقين من خشيته بينما المشركون يتناولون ويدعون!

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد؛ والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب يجول السياق بالقلب البشري في مجالي الكون الضخمة، ويد القدرة تدبره بحكمة، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأفهمناه عن طريق وحيناً أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بطاعتي وعبادتي والخضوع لى وحدى

هذا، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون

* * * * *

المطلب الرابع:

أدلة توحيد الله تعالى

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَخْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (١)

وللعلماء في معنى هذه الآية أقوال أشهرها: أن معنى {كَانَتَا رَتْقًا}: أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس، فقد سئل عن ذلك فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق - سبحانه - للأرض أهلا، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات

ومنهم من يرى أن المعنى: كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشيء الواحد، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما، ورفع السماء إلى مكانها، وأبقى الأرض في مقرها، وفصل بينهما بالهواء

قال قتادة: قوله: {كَانَتَا رَتْقًا}: يعني أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء ومنهم من يرى أن معنى "كانتا رتقا" أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سبع سموات منفصلة، والأرضون كانت كذلك رتقا، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا

قال مجاهد: كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة، ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه: كونهما "كانتا رتقا" بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت، ففتق - سبحانه - السماء بالمطر والأرض بالنبات، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله - تعالى - منها:

أن قوله - تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر فى رأى أنها بصرية، والذى يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض لا نبات فيها فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء، وخروج النبات من الأرض ومنها: أنه - سبحانه - أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله أى: وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض، كل شىء حى

ومنها: أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى، كقوله - تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ والمراد بالرجع: نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح، لأن المطر لا ينزل من السموات، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا؟

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع، لأن كل قطعة فيها سماء كما يقال: ثوب أخلاق - أى: قطع والآية الكريمة مسوقة بتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، ويعلمون أن من كان كذلك، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه، مما لا يضر ولا ينفع

والمعنى: أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم، ويعلموا بعقولهم، أن السموات والأرض كانتا رتقا، بحيث لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ففتق الله - تعالى - السماء بالمطر، والأرض بالنبات

إنهم بلا شك يشاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه

وقال - سبحانه: ﴿كَانَتْ﴾ بالثنائية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض، كما فى قوله - تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ وقوله - تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ تأكيد لمضمون ما سبق، وتقرير لوحداثيته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق و﴿مِنْ﴾ ابتدائية

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شيء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شيء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض الأخبار - خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار

قال - تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ قال القرطبي: وفى قوله - تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء قاله قتادة: الثانى: حفظ حياة كل شيء بالماء: الثالث: وجعلنا من ماء الصلب - أى: النطفة - كل شيء حى

وقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار

أى: أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته ومع ذلك لا يؤمنون؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب، وأغرب الغرائب!!

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾

الرواسى: جمع راسية، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض

أى: وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت، كراهة أن {تَمِيدَ بِهِمْ} أى: أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض يقال: ماد الشيء يميد ميذا - من باب باع - إذا تحرك واهتز {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّلَّذِينَ يَهْتَدُونَ}، والفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع

والسبل: جمع سبيل وهو الطريق وهو بدل من {فِجَاجًا}

أى: وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة، ومنافذ متعددة، لعلمهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التى يريدون الوصول إليها ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة

{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} أى: وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن التشقق، ومن كل شيطان

رجيم وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلما معروضون
 ذاهلون، لا يتعظون ولا يتذكرون

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط، قوله - تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ
 تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ومن الآيات الدالة على حفظها من
 التشقق والتفطر قوله - سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
 مِنْ فُرُوجٍ﴾^(١) وعلى حفظها من الشياطين قوله - تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٢)
 ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله -
 سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ثم ختم -
 سبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله - تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

أى: وهو وحده - سبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق
 الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب " كل " أى: كل واحد من الشمس والقمر يسير فى
 فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام، كالسباح فى الماء

وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء

وجاء يسبحون بضمير العقلاء لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء، كما
 فى قوله - تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُمُ لِي سَاجِدِينَ﴾ هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها
 قد ساقته جملة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته

ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعا إلى الفناء، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن
 من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها، وأن المشركين لو علموا المصير السيئ الذى
 ينتظرهم يوم القيامة، لما قالوا ما قالوه من باطل، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح^(٣)

إنها جولة فى الكون المعروض للأنظار، والقلوب غافلة عن آياته الكبار، وفيها ما
 يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ

(١) ق: ٦.

(٢) الحجر: ١٧.

(٣) تفسير سيد طنطاوي صفحة: ٣٢٤.

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقنا، مسألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر كانت سديماً ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم وقد تنقض غداً، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية

ونحن أصحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تقبل اليوم وترفض غداً لذلك لا نحاول في هذه الضلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخاراً وتجمده بالبرودة إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الضلال إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علماً تجريبياً كذلك إنما هو منهج للحياة كلها منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقرها هنا: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض أو فتق السماوات عن الأرض ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال!

فأما شطر الآية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة يعد

العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً ويمجدون «دارون» لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول

وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله لا من موافقة النظريات أو الكشف العلمية له وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها ماثلة في الوجود: {أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟} وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟

ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة: وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحى، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلاً وطرقاً ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولاً، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال!

{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} والسما كل ما علا ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق ومحفوظ من

الدينس باعتباره رمزاً للعلو الذي تنتزل منه آيات الله {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة بحياة الإنسان في الأرض وبالحياة كلها والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة؛ وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير

وفي نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه؛ ونواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها

* * * * *

المطلب الخامس:

وحدة الأديان السماوية

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلُكُنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} (١)

لفظ الأمة يطلق بإطلاق متعددة يطلق على الجماعة كما في قوله - تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} (٢) ويطلق على الرجل الجامع للخير، كما في قوله - تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا} (٣) ويطلق على الحين والزمان، كما في قوله - سبحانه: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} أى وتذكر بعد حين من الزمان والمراد بالأمة هنا: الدين والملة كما في قوله - تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أى:

(١) الأنبياء: ٩٢ - ١٠٠.

(٢) القصص: ٢٣.

(٣) النحل: ١٢٠.

على دين وملة معينة

والمعنى: إن ملة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعا هي ملتكم ودينكم أيها الناس، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء، وأن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شيء، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبه

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذي جاء به الرسل، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال: **{وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ}**

والضمير في قوله - تعالى: **{وَتَقَطَّعُوا}** يعود للناس الذين تفرقوا في شأن الدين شيئا وأحزابا أي: وافترق الناس في شأن الدين الحق فرقا متعددة، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا، يجازى فيه المحسن خيرا، ويعاقب فيه المسيء على إساءته

وقال - سبحانه: **{فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}** بالنفي المفيد للعموم، لبيان كمال عدالته - تعالى - وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد، أو أخذ شيء مما يستحقه

وعبر عن العلم بالسعي، لإظهار الاعتداد به، وأن صاحب هذا العمل الصالح، قد بذل فيه جهدا مشكورا، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب، فقال: **{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}**

وللمفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها:

أن المعنى: وحرام - أي: وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا في الآخرة للحساب

فالآية الكريمة تأكيد لما قرره الآيات السابقة، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم، والذين آمنوا وعملوا صالحا في دنياهم، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة

وقد أكدت الآية الكريمة ورجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع، حيث نفت عن الأذهان ما قد يبتادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب في الدنيا، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد

قال صاحب فتح القدير: **{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا}** قرأ أهل المدينة "حرام"، وقرأ أهل

الكوفة " وحرّم " - بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل: حلال وحل ومعنى {أَهْلَكْنَاهَا}: قدرنا إهلاكها وجملة: {أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} فى محل رفع مبتدأ، وقوله: " حرام " خبرها والمعنى: وممتنع ألّبتة عدم رجوعها إلينا للجزاء وقال بعض العلماء: " وجعل أبو مسلم هذه الآية من تنمة ما قبلها و " لا " فيها على بابها وهى مع لفظ " حرام " من قبيل نفى النفى فيدل على الإثبات، والمعنى: وحرام على القرية المهلكة عدم رجوعها إلى الآخرة، بل واجب رجوعها للجزاء، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه ويعمله يجزيه

ومنهم من يرى أن " لا " زائدة، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى: وحرام على أهل قرية أهلكتهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم

ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى: {أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} أى: لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان

قال صاحب الكشاف: استعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قوله - تعالى: {إِنَّ اللَّهَ حَزَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} أى منعهما منهم ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ} ^(١) ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - بعد ذلك: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} ^(٢)

(١) سورة الواقعة: ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٦.

فإن حتى هنا ابتدائية: وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها، فكأنه قيل: إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألينة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب، ويقولوا عند مشاهدته: يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس، قيل: مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر، وقيل: من الأوج وهو سرعى الجرى والمراد بفتحهما: فتح السد الذى على هاتين القبيلتين، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس

{وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} والحذب: المترفع من الأرض كالجبل ونحوه و{يَنْسِلُونَ} من النسل - بإسكان السين - وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى السير، يقال: نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع، وفعله من باب قعد وضرب

أى: وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضمير "هم": يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل: إن الضمير "هم" يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر

وقوله: {وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} معطوف على {فُتِحَتْ} أى: فتح السد الذى كان على يأجوج ومأجوج، وقرب موعد الحساب والجزاء

قال الألوسى: وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء، وبعد قتله الدجال

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث طويل: إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى، لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - سبحانه: {مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} ثم يرسل الله عليهم نغفا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة "

وقوله: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} جواب للشرط وهو قوله: تعالى - قبل ذلك {إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}

والضمير " هي " للقصة والشأن و" إذا " للمفاجأة

قال الجمل: قوله: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} فيه وجهان: أحدهما - وهو الأجود - أن يكون هي ضمير القصة وشاخصة: خبر مقدم وأبصار: مبتدأ مؤخر، والجمله خبر لهي لأنها لا تفسر إلا بجمله مصرح بجزأياها

والمعنى: لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة، ومن خروج يأجوج ومأجوج، ومن عودة الخلق إلينا للحساب ورأى المشركون كل ذلك، فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفرع

يقال: شخص بصر فلان يشخص شخصا فهو شاخص، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما

وقوله: {يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا} مقول لقول محذوف

أى: أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصوا البصر: يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك، فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب

وقوله: {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود

أى: لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم وأهواله، فقد أخبرنا رسلنا به، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعمهم، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لا ينفعهم فيه ذلك

وقوله - سبحانه: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} زيادة فى توبيخهم وتوبيخهم

والْحَصَبُ - بفتحيتين: ما تحصب به النار أى: يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب والخشب
أى: إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - وقود جهنم، وزادها الذى تزداد به اشتعالا

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقل، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم،

حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة

قال صاحب الكشف: فإن قلت: لم قرنوا بالهتيم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم، النظر إلى وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة، وينتفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم

وجملة: {أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} بدل من: {حَصَبٌ جَهَنَّمَ}، أو مستأنفة

أى: أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون في جهنم دخولا لا مفر لكم منه وجاء الخطاب بقوله: {أَنْتُمْ} على سبيل التغليب، وإلا فالجميع داخلون فيها ولا يدخل في هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا}

أى: لو كان هؤلاء الأصنام المبعودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم في النار، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب، وحيث تبين لكم دخولهم إياه، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها

وقوله: {وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} تذييل مقرر لما قبله أى: وكل من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل الخلود الأبدى

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين في جهنم فقال: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} أى: لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر، كما هو شأن المغموم المحزون وأصل الزفير: تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع

{وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} أى: وهم في جهنم لا يسمعون ما يريحهم، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم، أو: وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير

إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد، بقدر استعداد كل أمة، وتطور كل جيل؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها، واستعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريعات؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلاً بعد جيل

ومع وحدة أمة الرسل، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها وثار بينهم الجدل، وكثر بينهم الخلاف، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة والعقيدة واحدة، وأمة الرسل كلها واحدة

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله في الآخرة: {كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} فالمرجع إليه وحده، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} (١)

* * * * *

المطلب السادس :

نفى اتخاذ الله ولدا

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (١)

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة، لا ينكرون الله، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض، مدبر السماوات والأرض، المسيطر على السماوات والأرض ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة، يقولون: إنهم يعبدونها لتقربهم من الله، وينسبون له البنات سبحانه وتعالى عما يصفون، فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون:

{قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} (٢)

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطق، ولا يرتكن إلى عقل؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام

{قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله: {قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}

{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} فهو سؤال عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم والسماوات السبع قد تكون أفلاكاً سبعة، أو مجموعات نجمية سبعة، أو سدماً سبعة، أو عوالم سبعة، أو أية خلائق فلكية سبعة والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود فمن هو رب السماوات السبع ورب

(١) الأنبياء: ٩١ - ٩٢.

(٢) المؤمنون: ٨٤ - ٨٩.

العرش العظيم؟ {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش، ولا يتقون رب السماوات السبع، وهم يشركون معه أصناماً مهينة، ملقاة على الأرض لا تريم {قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}

{قُلْ مَنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان سؤال عمن بيده ملكية كل شيء ملكية استعلاء وسيطرة ومن هو الذي يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد؛ ولا يملك أحد أن يجير عليه، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده من؟ {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} فما لهم يصرفون عن عبادة الله؟ وما لعقولهم تتحرف وتتخبط كالذي مسه السحر: {قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}

ألا إنه الاضطراب والتخبط الذي يصاب به المسحورون!

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، في اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير:

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (١)

يجيء هذا التقرير في أساليب شتى بالإضراب عن الجدل معهم، وتقرير كذبهم الأكيد: {بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} ثم يفصل فيما هم كاذبون: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة: {إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} مستقلاً بما خلقه، يصرفه حسب ناموس خاص؛ فيصبح لكل جزء من الكون، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع {وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف واحد، وتدبير واحد

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}

{عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} فليس لغيره من خلق يستقل به، ويعلم من دون الله أمره **{فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** ^(١)

أتبع الاستدلال على إثبات الوجدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهية وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو القياس تسمى مطلوباً كما في علم المنطق ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقولته: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** هو المطلوب وقوله: **{إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}** إلى آخر الآية هو الدليل وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل

وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظراً إلى أن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً عند قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ}** ^(٢)

و (إذن) حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقدر والكلام المجاب هنا هو ما تضمنه قوله: **{وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** فالجواب ضد ذلك النفي وإذ قد كان هذا الضد أمراً مستحيل الوقوع تعين أن يقدر له شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد لمثل هذا الشرط هو (لو) الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق

وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد (إذن) دليل على أن المقدر شرط (لو) لأن اللام تلزم جواب (لو) ولأن غالب مواقع (إذن) أن تكون جواب (لو) فلذلك جاز حذف

(١) الظلال: ٣٤٨.

(٢) المؤمنون: ٨٦.

الشرط هنا لظهور تقديره

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: {إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ} (١)

فقوله: {إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة

وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولداً لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان لله ولد لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (٢) أي له

والذهاب في قوله: {لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ} مستعار للاستقلال بالمذهب به وعدم مشاركة

غيره له فيه

وبيان انتظام هذا الاستدلال أنه لو كان مع الله آلهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالفاً لمخلوقات لثبوت الموجودات الحادثة وهي مخلوقة، فلا جائز أن تتوارد الآلهة على مخلوق واحد لأن ذلك: إما لعجز عن الانفراد بخلق بعض المخلوقات وهذا لا ينافي الإلهية، وإما تحصيل للحاصل وهو محال، فتعين أن ينفرد كل إله بطائفة من المخلوقات

ولنفرض أن تكون مخلوقات كل إله مساوية لمخلوقات غيره بناء على أن الحكمة تقتضي مقداراً معيناً من المخلوقات يعلمها الإله الخالق لها؛ فتعين أن لا تكون للإله الذي لم يخلق طائفة من المخلوقات ربوبية على ما لم يخلقه وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقتضي الكمال لا النقص ولا جرم أن تلك المخلوقات ستكون بعد خلقها معرضة للزيادة والنقصان والقوة والضعف بحسب ما يحف بها عن عوارض الوجود التي لا تخلو عنها المخلوقات كما هو مشاهد في مخلوقات الله تعالى الواحد ولا مناص عن ذلك لأن خالق المخلوقات أودع فيها خصائص ملازمة لها كما اقتضته حكمته، فتلك المخلوقات مظاهر لخصائصها لا محالة فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات

(١) النساء: ١٤٠.

(٢) الزخرف: ٨١.

لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين:

أولهما: أن يكون كل إله مختصاً بمخلوقاته فلا يتصرف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أن كل إله من الآلهة عاجز عن التصرف في مخلوقات غيره وهذا يستلزم المحال لأن العجز نقص والنقص ينافي حقيقة الإلهية وهذا دليل برهاني على الوجدانية لأنه أدى إلى استحالة ضدها فهذا معنى قوله تعالى: {لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}

وثاني: اللازمين: أن تصوير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الآلهة أقوى من بعض وهو مناف للمساواة في الإلهية وهذا معنى قوله تعالى: {وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}

وهذا الثاني بناء على المعتاد من لوازم الإلهية في أنظار المفكرين، وإلا فيجوز اتفاق الآلهة على أن لا يخلقوا مخلوقات قابلة للتفاوت بأن لا يخلقوا إلا حجارة أو حديدًا مثلاً؛ إلا أن هذا ينافي الواقع في المخلوقات

ويجوز اتفاق الآلهة أيضاً على أن لا يعتز بعضهم على بعض بسبب تفاوت ملكوت كل على ملكوت الآخر بناء على ما اتصفوا به من الحكمة المتماثلة التي تعصمهم عن صدور ما يؤدي إلى اختلال المجد الإلهي؛ إلا أن هذا المعنى لا يخلو من المصانعة وهي مشعرة بضعف المقدرة

فبذلك كان الاستدلال الذي في هذه الآية برهانياً، وهو مثل الاستدلال الذي في قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} ^(١) إلا أن هذا بني على بعض لزوم النقص في ذات الآلهة وهو ما لا يجوز المردود عليهم، والآخر بني على لزوم اختلال أحوال المخلوقات السماوية والأرضية وهو ما تبطله المشاهدة

أما الدليل البرهاني الخالص على استحالة تعدد الآلهة بالذات فله مقدمات أخرى قد

(١) الأنبياء: ٢٢.

وقى أئمة علم الكلام بسطها بما لارواج بعده لعقيدة الشرك وقد أشار إلى طريقة منها المحقق عمر القزويني في هذا الموضع من «حاشيته» على «الكشاف» ولكنه انفرد بادعاء أنه مأخوذ من الآية وليس كما ادعى وقد ساقه الشهاب الألوسي فإن شئت فتأمله

ولما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم عقب الدليل بتنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين بقوله تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} وهو بمنزلة نتيجة الدليل وما يصفونه به هو ما اختصوا بوصفهم الله به من الشركاء في الإلهية ومن تعذر البعث عليه ونحو ذلك وهو الذي جرى فيه غرض الكلام

وإنما أتبع الاستدلال على انتفاء الشريك بقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} المراد به عموم العلم وإحاطته بكل شيء كما أفادته لام التعريف في {الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} من الاستغراق الحقيقي، أي عالم كل مغيب وكل ظاهر، لدفع توهم أن يقال: إن استقلال كل إله بما خلق قد لا يفضي إلى علو بعض الآلهة على بعض، لجواز أن لا يعلم أحد من الآلهة بمقدار تفاوت ملكوته على ملكوت الآخر فلا يحصل علو بعضهم على بعض لاشتغال كل إله بملكوته ووجه الدفع: أن الإله إذا جاز أن يكون غير خالق لطائفة من المخلوقات التي خلقها غيره لئلا تتداخل القُدر في مقدرات واحدة لا يجوز أن يكون غير عالم بما خلقه غيره لأن صفات العلم لا تتداخل، فإذا علم أحد الآلهة مقدار ملكوت شركائه فالعالم بأشدية ملكوته يعلو على من هو دونه في الملكوت فظهر أن قوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} من تمام الاستدلال على انتفاء الشركاء، ولذلك فرع عنه بالفاء قوله: {فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

وقرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف: {عَالِمُ الْغَيْبِ} برفع {عَالِمِ} على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو من الحذف الشائع في الاستعمال إذا أريد الإخبار عن شيء بعد أن أجريت عليه أخبار أو صفات

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بجر {عَالِمِ} على الوصف لاسم الجلالة في قوله: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}

و (ما) مصدرية والمعنى فتعالى عن إشراكهم، أي هو أعظم من أن يكون موصوفاً بكونه مشاركاً في وصفه العظيم، أي هو منزّه عن ذلك ^(١)

* * * * *

(١) تفسير ابن عسور: ٣٤٨.

المطلب السابع: القرآن والنبوة

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ
الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ
صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} (١)

قال الإمام الرازي: اعلم أنه - سبحانه - لما تم الكلام في إثبات المبدأ والمعاد ذكر
بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت الدلالة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن،
لا جرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة

أى: إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - أنه يقص على
بنى إسرائيل، الذين هم حملة التوراة والإنجيل، أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، ويبين لهم
وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل: اختلافهم في شأن عيسى - عليه السلام -
فاليهود كفروا به، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان، والنصارى قالوا فيه إنه
الله، أو هو ابن الله، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق في شأن عيسى - عليه السلام -
فقال: من بين ما قاله: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}
وقال - سبحانه: {يَقْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} للإشارة إلى أن القرآن
ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعي
الحديث عنها، ولأن في عدم ذكرها سترا لهم، عما وقعوا فيه من أخطاء

وقوله - تعالى: {وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} صفة أخرى من صفات القرآن الكريم
الدالة على أنه من عند الله - تعالى

أى: وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط
المستقيم، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله
وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين، لأنهم هم الذين آمنوا به، وصدقوا بما فيه،

وعملوا بأوامره، واجتنبوا نواهيه، وطبقوا على أنفسهم أحكامه، وآدابه، وتشريعاته
ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال: **{إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ}**

أى: إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين بنى إسرائيل الذين اختلفوا فيما
بينهم اختلافا كبيرا، بحكمه العادل، كما يقضى بين غيرهم، فيجازى الذين أساءوا بما
عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى

{وَهُوَ} - سبحانه: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ}** الذى لا يغالب **{الْعَلِيمُ}** بكل شىء فى هذا الوجود،
والفاء فى قوله - تعالى: **{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** للتفريع أى: ما دمت قد عرفت ذلك - أيها
الرسول الكريم - ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده، وتوكل عليه دون سواه، وبلغ
رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه

وجملة " إنك على الحق المبين " تعليل للتوكل على الله وحده

أى: توكل على الله - تعالى - وحده، لأنك - أيها الرسول الكريم - على الحق
الواضح البين، الذى لا تحوم حوله شبهة من باطل

وقوله - تعالى: **{إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}** تعليل آخر
لوجوب التوكل على الله - تعالى

وقد شبه - سبحانه - أولئك المشركين، بالأموات الذين فقدوا الحياة، وبالصم الذين
فقدوا السمع، وبالعَمى الذين فقدوا البصر، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس، فصاروا
كالفاقدين لها

أى: دُمْ - أيها الرسول الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده، وإنك لا
تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين ما يردهم عن شركهم، لأنهم كالموتى الذين لا حس
لهم ولا عقل، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع

وقوله: **{إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}** لتتميم التشبيه وتأكيد نفى السماع أى: إذا أعرضوا عن
الحق إعراضا تاما، وأدبروا عن الاستماع إليك

قال الجمل: فإن قلت: ما معنى قوله: **{مُدْبِرِينَ}** والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر؟
قلت: هو تأكيد ومبالغة للأصم وقيل: إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع

الصوت، أو يفهم بالإشارة، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم

ومعنى الآية: إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت، الذى لا سبيل إلى إسماعه، وكالأصم الذى لا يسمع ولا يفهم

وقوله - سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أى: وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه، لأن الهداية إلى طريق الحق، مردها إلى الله - تعالى - وحده

ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك، من هم أهل السماع والبصر فقال: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع إسماعا مجديا نافعا، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا، المسلمون وجوهم لنا

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقّت الكثير من وسائل التسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، كما ساقّت ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى: وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذى أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحق، فى أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها، وذلك كالذى اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التى اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحق، ويهديكم إلى سبيل الرشاد

إن هذا القرآن لهدى، يقول: لبيان من الله، بَيَّنَّ به الحق فيما اختلف فيه خلقه من أمور دينهم ﴿وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن منهم المحقّ بجزائه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ يقول: وربك

العزیز فی انتقامه من المبطل منهم ومن غیرهم، لا یقدر أحد علی منعه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفین من بنی اسرائیل فیما اختلفوا فیہ، ومن غیرهم من المبطل الضالّ عن الهدی

یقول تعالی ذکره لنبيه محمد ﷺ: ففوّض إلى الله يا محمد أمورك، وثق به فیها، فإنه كافیک {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} لمن تأملّه، وفكر ما فیہ بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحقّ، دون ما علیه اليهود والنصارى، المختلفون من بنی اسرائیل، ودون ما علیه أهل الأوثان، المكذبوك فیما أتیتهم به من الحقّ، یقول: فلا یحزنك تكذیب من كذبك، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به

وقوله: {إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى} یقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحقّ من طبع الله علی قلبه فأماته، لأن الله قد ختم علیه أن لا يفهمه {وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءُ} یقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصمّ الله عن سماعه سمعه {إِذَا وَلَّلُوا مُدْبِرِينَ} یقول: إذا هم أدبروا معرضین عنه، لا یسمعون له لغلبة دين الكفر علی قلوبهم، ولا یصغون للحقّ، ولا یتدبرونه، ولا ینصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وینكرون القول به، والاستماع له القول فی تأویل قوله تعالی: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} (١)

اختلف القراء فی قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفیین: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي} بالياء والألف وإضافته إلى العمي بمعنى: لست يا محمد بهادي من عمي عن الحقّ {عَنْ ضَلَالَتِهِمْ} وقراءة عامة قراء الكوفة {وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى} بالتاء ونصب العمي، بمعنى: ولست تهديهم {عَنْ ضَلَالَتِهِمْ} ولكن الله يهديهم إن شاء

والقول فی ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مشهورتان فی قراء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب وتأویل الكلام ما وصفت {وَمَا أَنْتَ} يا محمد {بهادي} من أعماه الله عن الهدی والرشاد فجعل علی بصره غشاوة أن یتبين سبيل الرشاد عن

ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد ^(١)

ولقد اختلف النصارى في المسيح عليه السلام وفي أمه مريم قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة: إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والابن وروح القدس (والابن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وولد منها في صورة يسوع! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوماً! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً فاختلقت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأنه بشر ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون

واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف منهم من قال: إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء ومنهم من قال: إن يهوذا أحد حواريه الذي خانته ودل عليه ألقى عليه شبه المسيح وصلب

ومنهم من قال: ألقى شبهه على الحواري سيمون وأخذ به وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقال: ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَاعِدْ إِلَيْنَا فِي سَحَابٍ﴾ وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مطهراً من الأقدار التي ألصقتها

(١) تفسير الطبري: ٣٨٣.

هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكذب نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً!

إبراهيم بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيسو! ولوط بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتجنب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر وكان ما أرادت! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته! وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم مجارة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوّثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم عليه السلام

وهذا القرآن المهيم على الكتب قبله الذي يفصل في خلافات القوم فيها، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين!

{وَأَنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}

{هُدَى} يقيهم من الاختلاف والضلال، ويوحد المنهج، ويعين الطريق، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد، {وَرَحْمَةً} يرحمهم من الشك والقلق والحيرة، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال؛ ويصلهم بالله يطمنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون في يسر وبساطة، بلا تكلف ولا تعمل ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتمت إلى مواضع اتصالها به،

وعرفت أن ناموسها هو ناموسه وهذا التناسق بين النفس والكون، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة، والسلام بين البشر، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها

وبعد هذه اللحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة يقرر لرسول الله ﷺ أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه، ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له حكمه القوي المبني على العلم اليقين: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} (١)

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار سنة لا تتخلف قد تبطئ لحكمة يعلمها الله، وتتحقق بها غايات يقدرها الله ولكن السنة ماضية وعد الله لا يخلف الله وعده ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر

ويمضي في تسليية الرسول ﷺ وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله؛ فهو لم يقصر في دعوته ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي آذانهم فتتحرك قلوبهم، فيقبلون على الناصح الأمين فأما الذين ماتت قلوبهم، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان، فما له فيهم حيلة، وليس له إلى قلوبهم سبيل؛ ولا ضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل: {إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} (٢)

(١) النمل: ٧٩.

(٢) النمل: ٨٠، ٨١.

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة حالة جمود القلب، وخمود الروح، وبلادة الحس، وهمود الشعور فيخرجهم مرة في صورة الموتى، والرسول ﷺ يدعو، وهم لا يسمعون الدعاء، لأن الموتى لا يشعرون! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي، لأنهم لا يسمعون! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون! وتترأى هذه الصور المجسمة المتحركة، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور!

وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون فهم الأحياء، وهم السامعون، وهم المبصرون: {إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}

إنما تسمع الذين تهيات قلوبهم لتلقي آيات الله، بالحياة والسمع والبصر وآية الحياة الشعور وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم وعمل الرسول ﷺ هو أن يسمعهم، فيدلهم على آيات الله، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم {فَهُمْ مُسْلِمُونَ}

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه، حتى يستسلم له، فلا يشاق فيه

وهكذا يصور القرآن تلك القلوب، القابلة للهدى، المستعدة للاستماع، التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله، فتؤمن لها وتستجيب^(١)

* * * * *

المطلب الثامن :

المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} (١)

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} (٢)، وقال: {وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} (٣)، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} (٤)

وقال: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (٥)

قال سعيد بن جبیر: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: {يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} حتى ختمها، فجلعوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له

قال الله: {أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم

(١) القصص: ٥٢ - ٥٥.

(٢) البقرة: ١٢١.

(٣) آل عمران: ١٩١.

(٤) الإسراء: ١٠٧، ١٠٨.

(٥) المائدة: ٨٢، ٨٣.

بالثاني؛ ولهذا قال: **{بِمَا صَبَرُوا}** أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِى، وَعَبَدَ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا»**

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلَحِيُّ، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان ابن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال: "مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا

وقوله: **{وَيَذَرُونَهُ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ}** أي: لا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقرابات

وقوله: **{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ}** أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال تعالى: **{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}** (١)

{وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أي: إذا سَفِهَ عليهم سَفِيه، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: **{لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نُحِبُّهَا

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش في أُنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان

يوصف لهم في كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِنْ ركب بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم تترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركباً أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَأَلُ أنفسنا خيراً^(١)

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أي ذلك كان

قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ} إلى قوله: {لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}

قال: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن، قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن أنزلهن في النجاشي وأصحابه، رضي الله عنهم، والآيات التي في سورة المائدة: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا} إلى قوله: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}^(٢)

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}^(٣)

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها: أنها نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ فلما قدموا عليه، قرأ عليهم سورة يس، فجعلوا يبكون وأسلموا

وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود

وقيل: نزلت في نصارى نجران

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوماً من أهل الكتاب أسلموا، وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام، مع أن في اتباعها سعادتهم ورشدهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٢/١).

(٢) المائدة: ٨٢، ٨٣.

(٣) ابن كثير: ٣٩٢.

والضمير فى قوله: **{مَنْ قَبْلَهُ}** يعود إلى القرآن الكريم، أو إلى النبى ﷺ والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل
 أى: الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه، والهداية التى لا تشوبها ضلالة

{وَإِذَا يُنْشَىٰ} عليهم هذا القرآن **{قَالُوا}** بفرح وسرور **{آمَنَّا بِهِ}** بأنه كلام الله - تعالى: **{إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا}** أى: إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا **{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ}** أى: من قبل نزوله **{مُسْلِمِينَ}** وجوهنا لله - تعالى، ومخلصين له العبادة
 قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أى فرق بين الاستئنافين **{إِنَّهُ}** و**{إِنَّا}**؟

قلت: الأول تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به والثانى: بيان لقوله: **{آمَنَّا بِهِ}** لأنه يحتمل أن يكون إيماننا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقدم، لأن آباءهم القدماء قرؤوا فى الكتب الأول ذكره؛ وأبناءهم من بعدهم
 ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال: **{أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}**

أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة شهواتهم، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف
 قال القرطبي: قوله - تعالى: **{أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}** ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبى ﷺ فأمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله - عز وجل - وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغداها فأحسن تغذيتها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران»

قال علمائنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين، فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين

وقوله - تعالى: **{وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}** بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة

و{وَيَذَرُونَ} من الدرء بمعنى الدفع ومنه الحديث الشريف: " ادروا الحدود بالشبهات "

أى: لا يقابلون السيئة بمثليها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} أى: ومما أعطيناكم من مال يتصدقون، بدون إسراف أو تقتير {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ} أى: وإذا سمعوا الكلام الساقط الذى لا خير فيه انصرفوا عنه تكرما وتنزها

{وَقَالُوا} لمن تطاول عليهم وآذاهم: لنا أعمالنا، التى سيحاسبنا الله - تعالى - عليها {وَلَكُمْ} - أيضا - أعمالكم، التى سيحاسبكم الله - تعالى - عليها {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} أى: سلام متاركة منا عليكم، وإعراض عن سفاهتكم، فليس المراد بالسلام هنا: سلام التحية، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض {لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} أى: إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين، وعن المجادلة معهم

قال ابن كثير ما ملخصه: لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبى ﷺ، وآمنوا به، وقاموا عنه، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش، فقالوا لهم: خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تكذب تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قاله، ما نعلم وفدا أحق منكم فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه (١)

* * * * *

المطلب التاسع:

الإسلام دين الفطرة والتوحيد

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} (١)

يقول تعالى ذكره: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين، {حَنِيفًا} يقول: مستقيماً لدينه وطاعته {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت "فطرة" على المصدر من معنى قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة

قال ابن جرير: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} قال: الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعاً، يقرّون بذلك، وقرأ: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} قال: فهذا قول الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ}

عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرّ عمر بمعاذ بن جبل، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة فقال عمر: صدقت

قال صاحب الكشف: قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} أى: فقوم وجهك له وعدله، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلاً به عليه

والمراد بالفطرة فى قوله - تعالى: {فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ} الملة أى: ملة الإسلام

والتوحيد

أو المراد بها: قابلية الدين الحق، والتهيؤ النفسى لإدراكه والأصل فيها أنها بمعنى

الخلق

أى: اثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين الحق، والزموا - أيها الناس
قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين
الذى شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التى
فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى: فطر خلقه على معرفته وتوحيده

وفى الحديث: «إنى خلقت عبادى حنفاء، فاجتالهم - أى حولتهم - الشياطين عن دينهم»
وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا على
الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها
من جدعاء؟ ثم يقول: فطرة الله التى فطر الناس عليها»

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم وحد الخطاب أولاً، ثم جمع؟ قلت: خوطب
رسول الله ﷺ أولاً، وخطاب الرسول خطاب لأمته، مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم
جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص

وقوله: {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر -
سبحانه - الناس عليها

أى: الزموا فطرة الله التى هى دين الإسلام، وقبول تعاليمه والعمل بها، لأن هذا
الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم
و{ذَلِكَ} الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم، هو {الدين القيم} أى: القويم المستقيم،
الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه، فى قوله: {فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}

وقوله - تعالى: {وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} استدراك لبيان موقف الناس من هذا
الدين القيم

أى: ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه
الحقيقة، بسبب استحواذ الشيطان عليهم، واتباعهم للأهواء الزائفة، والتقاليد الفاسدة
ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم
فقال: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ}

قال القرطبي: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما، أنه القطع ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله - عز وجل - بالطاعة والثاني: أن أصله الرجوع، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة، ولفظ {مُنِيبِينَ} منصوب على الحال

والمعنى: أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده، كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة، ومتقين له في كل أحوالكم، ومدامين على إقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع واطمئنان

{وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} المبدلين لفطرة الله - تعالى - المتبعين لأهوائهم وشهواتهم

وقوله {مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} بدل مما قبله

أى: ولا تكونوا من المشركين، الذين اختلفوا في شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} أى: كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل، وملة فاسدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في مواعده، وفي موضعه، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده، وفي أغوار النفس وفطرتها يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} واتجه إليه مستقيماً فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المنفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، إنما تتبع الشهوات، والنزوات بغير ضابط ولا دليل أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على نهيه دون سواه:

{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين؛ وكلاهما من صنع الله؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود؛

وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير والفطرة ثابتة والدين ثابت: {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردّها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة^(١)

* * * * *

المطلب العاشر:

أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّيْتُ تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ^(٢)

تكملة لتوجيه الرسول ﷺ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضال من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور

ومن ثم يجيء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذي خلقه الله، وصغر الناس جميعاً بالقياس إلى السماوات والأرض ويمضي الدرس يعرض بعض الآيات الكونية وفضل

(١) سيد طنطاوى: ٤٠٧.

(٢) غافر: ٥٦ - ٦٥.

الله في تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضال ويشير إلى فضل الله على الناس في ذوات أنفسهم وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذي يشركون به ويوجه الرسول ﷺ إلى الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله وينتهي الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل ويختم كما ختم الشوط الماضي بتوجيه النبي ﷺ إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم، أم توفاه إليه قبل مجيء وعد الله فالأمر لله وهم إليه راجعون على كل حال

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (١)

إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة، ينسى أنه كائن صغير ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول من الله فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله!

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر، يقرر أنه الكبر والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدل فيما لا جدال فيه الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته ومحاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهله له حقيقته

وليست له حجة يجادل بها، ولا برهان يصدع به إنما هو ذلك الكبر وحده: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود ولو عرف دوره فأتقته ولم يحاول أن يتجاوزه ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق

الوجود، وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله وفي استسلام لله وإسلام

{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحى باستبشاعه واستفظاعه فالإنسان إنما يستعيز بالله من الشيء الفظيع القبيح، الذي يتوقع منه الشر والأذى وفي الكبر هذا كله وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله؛ وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه ويؤدي صدور الآخرين فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه **{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** الذي يسمع ويرى، والكبر الذميمة يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير وعن ضالته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}**

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراها، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما ولكنه حين «يعلم» حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى، يطامن من كبريائه، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضالة إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه، والذي من أجله كرمه فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفي لهذا الإدراك

هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشموس في المجرة القريبة منا؛ والتي نحن منها وقد كشف البشر حتى اليوم نحو مائة مليون من هذه المجرات! متناثرة في الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون تائهة فيه!

والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون! وهو على ضآلته هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير بل هي على الأرجح أم هذه الأرض الصغيرة ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة: ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال!

أما المجرة التي تتبعها الشمس فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة ضوئية والسنة الضوئية تعني مسافة ست مائة مليون ميل! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية!

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية!

ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير في هذا الكون العريض!

والله سبحانه يقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر ولا أصعب ولا أيسر فهو خالق كل شيء بكلمة إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها، وكما يعرفها الناس ويقدرونها فأين الإنسان من هذا الكون الهائل؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير؟

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ} فالبصير يرى ويعلم؛ ويعرف قدره وقيمه، ولا يتطاول، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه، ولا نسبته إلى ما حوله، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير وهذا عمي وجهل فهو يسيء يسيء كل شيء يسيء إلى نفسه، ويسيء إلى الناس ويسيء قبل كل شيء

إدراك قيمته وقيمة ما حوله ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حوله فهو أعمى والعمى عمى القلوب!

{قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ}

ولو تذكرنا لعرفنا فالأمر واضح قريب لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير ثم لو تذكرنا الآخرة، ووثقنا من مجيئها، وتصورنا موقفنا فيها، واستحضرنا مشهدنا بها:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ}

ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون، فلا يدعون للحق، ولا يعرفون مكانهم الحق، فلا يتجاوزوه

والتوجه إلى الله بالعبادة، ودعاؤه والتضرع إليه، مما يشفي الصدر من الكبر الذي تنتفخ به، فيدعوها إلى الجدل في آيات الله بغير حجة ولا برهان والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لتتوجه إليه ندعوه، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار:

{وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}

وللدعاء أدب لا بد أن يراعى إنه إخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها، أو تخصيص وقت أو ظرف، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة فضل آخر وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أنا لا أحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه» وهي كلمة القلب العارف، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله فضلاً على نسيانها عظمة الله ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها ونسيانها للموقف الدليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس، تلك النعم التي توحى بعظمته تعالى والتي لا يشكرون الله عليها، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه:

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١)

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك وهي تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم، ومع رزق الله لهم من الطيبات وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحداية وإخلاص الدين لله فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق

إن بناء الكون على القاعدة التي بناه الله عليها، ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة في هذه الأرض ونموها وارتقائها، كما أنه هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته وهو الذي جعل الليل مسكناً له وراحة واستجماماً، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية والحركة، والأرض قراراً صالحاً للحياة والنشاط، والسماء بناء متماسكاً لا يتداعى ولا ينهار، ولا تختل نسبه وأبعاده ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه الأرض وربما وجود الحياة! وهو الذي سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان، الذي صورته الله فأحسن صورته، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون، الصالحة للظروف التي يعيش فيها فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى؛ ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد، بهذا الترابط ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصاً له الدين، هاتفاً: الحمد لله رب العالمين ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبده بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلهاً وهو الله رب العالمين فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحي الارتباط في تصميم هذا الكون

وعلاقته بحياة الإنسان مجرد لمحات تسير مع اتجاه هذه الإشارة المجملة في كتاب الله
«لو كانت الأرض لا تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار»
«لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل، وتفككت
الأرض، وتناثرت هي الأخرى في الفضاء»

«لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد
وسرعة دوران الأرض حول نفسها، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم، هي سرعة توافق
ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها»

«لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها»
«ماذا يحدث لو استقام محور الأرض، وجرت الأرض في مدارها حول الشمس
في دائرة، الشمس مركزها؟ إذن لاخفتت الفصول، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء،
وما ربيع وما خريف»

«لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد
الكربون والأوكسجين ولما أمكن وجود حياة النبات»

«ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين
في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة
تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل
للإحتراق ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت
العاقبة مروعة أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة
الرصاص تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره»

«لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في
المائة فإن جميع المواد القابلة للإحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن
أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر ولو أن نسبة
الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المائة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها
عليها في خلال الدهور ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها
الإنسان كالنار مثلاً تتوافر له»

ارتبطاً بهذا الوجود الكبير هناك آلاف الموافقات في تصميم هذا الكون لو اختلف منها أدنى اختلال ما كانت الحياة في صورتها هذه التي نعرفها، موافقة هكذا لحياة الإنسان فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء؛ وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن؛ وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض؛ مجهزاً بأداة الخلافة الأولى: العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض

ولو رحنا نبحت دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه بوصفها داخلة في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾^(١) لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان، يزحم اللثة واللسان؛ وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليضغط الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة!

ثم إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش في هذا الكون عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يراها وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يسمعها وكل حاسة فيه أو جراحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف

إنه مخلوق لهذا الوسط ليعيش فيه، ويتأثر به، ويؤثر فيه وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه أي بالأرض والسماء ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها

(١) سورة غافر: ٦٤.

الأرض والسماء ألا إنه الإعجاز في هذا القرآن

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان ونقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} ^(١) إن السكون بالليل ضرورة لكل حي ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها في النور ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لا بد من ليل لا بد من ظلام فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص وكأنما النهار حي يبصر ويرى وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه لأن هذه هي الصفة الغالبة

وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم ولو كان أحدهما سرمداً بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس:

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين، بأن الذي خلقهما هو الذي يكون إلهاً يستحق هذا الاسم العظيم: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ} وإنه لعجيب يستحق التعجب أن يرى الناس يد الله في كل شيء، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد عجيب يستحق التعجب أن يكون هذا كله، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار {فَآَنِي تُؤْفَكُونَ}

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن كذلك كان في كل زمان؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان:

{كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}

وينتقل من ظاهرتي الليل والنهار، إلى تصميم الأرض لتكون قراراً، والسماء لتكون

(١) سزرة غافر: ٦١.

بناء: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان، المحسوب حسابهم في تصميم هذا الوجود، المقدره في بنائه تقديرًا

ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذي أشرنا إلى بعض أسرارهِ: {وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}

ذلكم الذي يخلق ويقدر ويدبر، ويراعيكم ويقدر لكم مكاناً في ملكه ذلكم الله ربكم {فَتَبَارَكَ اللَّهُ} وعظمت بركته وتضاعفت {رَبُّ الْعَالَمِينَ} أجمعين {هُوَ الْحَيُّ}

أجل هو وحده الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة وغير مبتدئة ولا منتهية وغير حائلة ولا زائلة وغير متقلبة ولا متغيرة وما من شيء له هذه الصفة من الحياة سبحانه هو المتفرد بالحياة

وهو المتفرد بالألوهية بما أنه المتفرد بالحياة فالحي الواحد هو الله:

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}

ومن ثم {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} واحمدوه في الدعاء: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وأمام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوجدانية، وحقيقة الألوهية

وحقيقة الربوبية، يجيء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلم للقوم أنه منهي عن عبادة ما يدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين^(١)

* * * * *

(١) الظلال: ٤٧٣.

المطلب الحادى عشر:

وحدة أصول الشرائع

المراد بالبينات فى قوله - تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}** الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - وتدخل فيها المعجزات دخولا أوليا

والمراد بالكتاب: جنس الكتب وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما

والميزان: الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى المكايل وغيرها والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم

وشاع إطلاق الميزان على العدل، باستعارة لفظ الميزان على العدل، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، والمراد بإنزاله، تبليغه ونشره بين الناس

أى: بالله لقد أرسلنا رسلنا، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحيها، وأنزلنا معهم العدل بأن أرشدناهم إلى طريقه، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه

قال ابن كثير: يقول الله - تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}** أى: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات **{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}** وهو النقل الصدق **{وَالْمِيزَانَ}** وهو العدل أو وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبی ﷺ وليبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام، وأن رسالته إنما هى امتداد لرسالتهم وقوله - تعالى: **{لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** علة لما قبله أى: أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتاب وشرعنا العدل، ليقوم الناس بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم، واستقامة أحوالهم، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم

قال الألوسى: " والقيام بالقسط " أى: بالعدل، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب، وهو - أى: القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به، معاشا ومعادا

وقوله - تعالى: **{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ}** معطوف على ما قبله والمراد بإنزال الحديد: خلقه وإيجاده وتهيته للناس، والإنعام به عليهم، كما فى قوله

- سبحانه: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ} والمراد بالبأس الشديد: القوة الشديدة التي تؤدي إلى القتل وإلحاق الضرر بمن توجه إليه، أى: لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم

وأوجدنا الحديد، وأنعمنا به عليكم، ليكون قوة شديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم، وفى تأديب أعدائكم، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارمة، والمباني العالية الواسعة، والمصانع النافعة وآلات الزراعة والتجارة

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات السماوية التى تهدي الناس إلى ما يسعدهم وزودهم - أيضا - بالقوة المادية التى تحمى الحق الذى جاؤوا به وترد كيد الكائدين له فى نحورهم، وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه، كما قال - تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} ^(١) ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: أى: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، تنزل عليه السور المكية، لبيان أن دين الله حق فلما قامت الحجة على من خالفه، شرع الله القتال بعد الهجرة، حماية للحق، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم»

ولهذا قال - تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} يعنى السلاح كالسيف والحراب

{وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} أى: فى معاشهم كالفأس والقدم وغير ذلك

هذا، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد، وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر: الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: ثم إن الحديد

لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله الله سهل الوجدان، كثير الوجود والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده، فإن كل شيء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله تعالى - الحصول عليه سهلاً ميسوراً فعلمنا من ذلك أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر، كان وجدانه أسهل

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شيء، ففرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا، كما قال الشاعر:

سبحان من خص العزيز بعزة :: والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذى :: نفس، فمحتاج إلى أنفاسه

وقوله: - سبحانه: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ معطوف على محذوف يدل عليه السياق

والمراد بقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾ أى: وليظهر علمه - تعالى - للناس، حتى يشاهدوا آثاره
أى: وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس، من الذى سيتبع الحق منهم، فينصر دين الله - تعالى - وينصر رسله، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله - تعالى - بعينيه، وإنما يتبع أمره، ويؤمن بوحدانيتها ووجوده وعلمه وقدرته عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسول ﷺ

فقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من فاعل ﴿يَنْصُرُهُ﴾

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: أن الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة وبالعزة التى لا تقاربها عزة

وختمت الآية بهذا الختام، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل، ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس

فكان هذا الختام تعليل لما قبله أى: لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى انتقامه فعل ما فعل من إرسال الرسل، ومن إنزال الحديد

وقوله - سبحانه: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}** معطوف على جملة: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ}** عطف الخاص على العام

أى: لقد أرسلنا رسلا كثيرين وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء، وأوحينا إليهم كتبنا، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق، كالتوراة التى أنزلناها على موسى، وكالزبور الذى أنزلناه على داود

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر، لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما

والضمير فى قوله - تعالى: **{فَمِنْهُمْ مُّهُتِدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** أى: فمن ذريتهم من اهتدى إلى الدين الحق، وآمن به، وقام بأداء تكاليفه وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون أى: خارجون عن الاهتداء إلى الحق منغمسون فى الكفر والضلال

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ} والتقفيه إتباع الرسول برسول آخر يقال: قفا فلان أثر فلان إذا اتبعه، وقفى على أثره بفلان، إذا اتبعه إياه وأصله من القفا وهو مؤخر العنق فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه

وضمير الجمع فى قوله: **{عَلَىٰ آثَارِهِم}** يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب

أى: ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام: **{وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ}** أى: أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه

قالوا: والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل، يقال: رحم الله ناجليه، أى: والديه، وقيل: الإنجيل مأخوذ من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته ويقال للماء الذى يخرج من البئر: نجل وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين، ومنه قولهم: طعنة نجلاء، أى: واسعة

وسمى الإنجيل بهذا الاسم، لأنه سعة ونور وضياء، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى، ليكون بشارة وهداية لقومه

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة **{قَفَّيْنَا}** للإشعار بأن المسافة التى كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التي كانت واضحة في أتباع عيسى فقال: **{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}**

والرأفة: اللين وخفض الجناح، والرحمة: العطف والشفقة

قالوا: وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص، لأن الرأفة، رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضرر أما الرحمة فهي أشمل وأعم، لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليه

و " الرهبانية " معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهم النصارى المبالغون فى الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد فى متاع الحياة الدنيا

قال بعض العلماء: والرهبانية: اسم للحالة التي يكون عليها الراهب متصفا بها فى غالب شؤون دينه، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس، لأن قياس النسب إلى الراهب: الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة، كما زيدت فى قولهم: شعرانى، لكثير الشعر، ولحيانى لعظيم اللحية

وقوله - تعالى: **{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}** منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر

أى: وابتدعوها رهبانية ابتدعوها، فهو من باب الاشتغال

ويصح أن يكون معطوفا على قوله: **{رَأْفَةً وَرَحْمَةً}** وقوله: **{ابْتَدَعُوهَا}** فى موضع الصفة، والكلام على حذف مضاف، أى: وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة لهم

وجملة: ما كتبناها عليهم، مستأنفة مبينة لجملة **{ابْتَدَعُوهَا}**

والاستثناء فى قوله: **{إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}** منقطع

والضمير فى قوله: **{فَمَا رَعَوْهَا}** يعود لهؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية

والمعنى: ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا به **{رَأْفَةً}** أى لينا وخفض جناح **{وَرَحْمَةً}** أى: شفقة وعطفا، وحب رهبانية مبتدعة منهم، أى: هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم، زهداً فى متاع الحياة الدنيا

ونحن ما كتبنا هذه الرهبانية، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أى: ولكنهم بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

أى: أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - وعلى الإيمان بالحق إيماننا صحيحا خاليا مما يفسده فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - حيث كفروا به وقالوا: الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم أكثر من الذين آمنوا به إيماننا صحيحا قال الإمام ابن جرير: واختلف أهل التأويل فى الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، ولم يقوموا بها، ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى، فتنصروا وتهودوا

وقال آخرون: بل هم قوم جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوا حق رعايتها، لأنهم كانوا كفارا فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا حق رعايتها وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال: إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بعض الطوائف التى ابتدعتها، وذلك لأن الله - تعالى - قد أخبر أنه أتى الذين آمنوا منهم أجرهم، فدل ذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها وكثير منهم - أى: من الذين ابتدعوها الرهبانية - أهل معاص، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به

وقال الإمام الألوسى ما ملخصه: وقوله - تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنفة وقوله - سبحانه: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أى: ما فرضناها نحن عليهم رأسا، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله

وقوله - تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أى: ما حافظوا عليها حق المحافظة، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته، لا سيما إذا قصد به رضا - عز وجل

وجائز أن يكون الاستثناء متصلاً من أعم العلل أى: ما قضيناها عليهم لشيء من الأشياء، إلا لبيتغوا بها رضوان الله، ويستحقوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها إلا أنهم لم يحافظوا عليها، ولم يرعوها حق رعايتها

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلاً، وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها، لابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها والظاهر أن الضمير فى قوله: {فَمَا رَعَوْهَا} يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد: نفى وقوع الرعاية من جميعهم، أى: فما رعاها كلهم بل بعضهم

فالآية الكريمة تنهى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى:

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا النداء للمؤمنين فقال - تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا}

أى: يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرّون، وداوموا على الإيمان برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك

{يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ} أى: يعطكم بسبب ذلك نصيبين وضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله

وأصل الكفر - كما يقول القرطبى - كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى، كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط

{وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} أى: ويجعل لكم بفضلته نورا تمشون به يوم القيامة كما قال - تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} أى: ما فرط منكم من ذنوب، بأن يزيلها عنكم

{والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أى: واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه
فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برسوله، أن
يؤتيهم نصيبين من رحمته وأن يجعل لهم نورا يمشون به، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى
كل شئونهم، وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم فضلا منه وكرما
قالوا: وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر، لأن أولهما بسبب إيمانهم
بالرسول ﷺ

وثانيهما: بسبب إيمانهم بالرسول السابقين، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين
من الأجر: أحدهما للإيمان بالرسول ﷺ والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى
نسخت شريعته بالشرعية المحمدية

وقوله - سبحانه: {لَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَّقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ} رد على
مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية
قال الجمل ما ملخصه: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى: {أولئك
يؤثنون أجرهم مرتين بما صبروا} قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين
لإيمانه بكتابنا وكتابكم ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم، فبأى شئ فضلت
علينا؟ فأنزل الله هذه الآية

و{لَّا} زائدة، واللام متعلقة بمحذوف، هو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى
الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا وتؤمنوا برسوله، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا - وقد
أعلمناكم بذلك - لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شئ من فضل الله
أى: أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله كالكافرين من رحمته وكمغفرة الذنوب -
لأنهم لم يؤمنوا برسوله ﷺ ولم يخلصوا العبادة له - عز وجل
وقوله - سبحانه: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} مؤكدا لما
قبله، ومقرر له

أى: ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشئ من فضل الله إلا إذا
أمنوا بالله ورسله وليعلموا - أيضا - أن الفضل والعطاء بيد الله - تعالى -
وحده، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده، وهو - سبحانه - صاحب الفضل

الواسع العظيم

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله - تعالى - واتباع رسوله ﷺ فى كل ما جاء به، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك

والرد على المتفكرين من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم ليس أحد أفضل منهم، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول ﷺ أم استمروا على كفرهم

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ} فى حق هذه الأمة

وهى كقوله - تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} ومما يؤيد هذا القول - أى: أن هذه الآية فى حق هذه الأمة - ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عمالا وأقل عطاء قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئا، قالوا لا: قال فإنما هو فضلى أوتيته من أشياء»^(١)

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، فيكون المعنى: يا من آمنتم بموسى وبعبسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله ﷺ واثبتوا على ذلك، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، أنهم لن ينالوا شيئا مما ناله المؤمنون منهم ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير، فقد قال -

(١) مسند أحمد: ٤٢٧٩.

رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى ذكره - : يأيتها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، خافوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفاً من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم

أى: يؤتكم أجراً لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما الصلاة والسلام

ويبدو لنا أن الخطاب في هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة، على سبيل الحض والتبشير، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿لَنَلَّأَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ واضح في ذلك، وأن جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه

ولذا قال بعض المحققين: هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، فى المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح فى ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب (١)

* * * * *

(١) سيد طنطاوي: ٥٤١.

المطلب الثاني عشر:

بشارة عيسى بالرسول محمد ﷺ

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} ^(١)

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: {لَمْ تُؤَدُّونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} أي: لم تصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال ﷺ: «رحمة الله على موسى: لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» ^(٢)

وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يُوصِّلوا إليه أذى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} ^(٣)

وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى:

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ^(٤) وقال {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا

(١) الصف: ٦ - ٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٦٢٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) الأحزاب: ٦٩.

(٤) الأنعام: ١١٠.

تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(١) ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}

وقوله: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشّر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»

ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه^(٢)

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبى الرحمة، والتوبة، والملحمة»

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به^(٣)

وقد قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ^(٤)} وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(٥)}

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي

(١) النساء: ١١٥.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥).

(٤) الأعراف: ١٥٧.

(٥) آل عمران: ٨١.

ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه
وقال محمد بن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب
رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى
عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض
الشام»^(١)

وهذا إسناده جيد ورؤي له شواهد من وجوه آخر، فقال الإمام أحمد:
حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبى،
عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ:
«إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم،
وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٢)

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر
قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم،
وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(٣)

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى: سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية، عن
أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى
النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن
عُرْقُطَة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن
العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجداً له، ثم ابتدراه عن يمينه
وعن شماله، ثم قالوا له: إن نفرًا من بني عمناء نزلوا أرضك، ورجبوا عنا وعن ملتنا
قال: فأين هم؟ قالوا: هم في أرضك، فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم
فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) من طريق يוני بن بكير عن ابن إسحاق به، وقال: "خالد بن
معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديث إلى الصحابة
فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه". قلت: وقد ورد موصولاً كما سيأتي في رواية أحمد.
(٢) المسند (١٢٧/٤) وسعيد بن سويد لم يوثقه غير ابن حبان.
(٣) المسند (٢٦٢/٥).

وجل قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة

قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسهما بشر ولم يقرضها ولد قال: فرفع عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته^(١)

وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: "أخبرنا عن بدء أمرك" يعني: في الأرض، قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت" أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه

وقوله: {فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} قال ابن جريج وابن جرير: {فَلَمَّا جَاءَهُم} أحمد، أي: المبشر به في الأعصار المتقدمة، المئوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (٢)

(١) المسند (٤٦١/١).

(٢) سورة الصف: ٧ - ٩.

ثم قال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ} أي: يحاولون أن يَرُدُّوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة "براءة"، بما فيه كفاية، والله الحمد والمنة (١)

جاء عيسى ابن مريم جاء يقول لبني إسرائيل: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} فلم يقل لهم: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة

وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه فهو منهج واحد في أصله، متعدد في صورته، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأنجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأنجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: {النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلمهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية ولكن

(١) ابن كثير بتصرف: ٥٥٢.

اليهود كانوا يريدونه منهم فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفیصل في مثل هذه الأخبار وهو القول الأخير

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل اليهود والنصارى للنبي الذي بشرت به كتبهم والتنديد بهذا الاستقبال، وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله، وأن يكون هو الدين الأخير!

{فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (١)

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم حاربوه بالاتهام: {فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد وحاربوه بالدس والوقیعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله ابن أبي بن سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ وحاربوه بالكاذب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلنا تغييران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق،

وحاربوه في الأندلس في المغرب،

وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مزقوها وقسموا
تركة ما كانوا يسمونه «الرجل الأبيض» واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض
الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام فلما أرادوا تحطيم
«الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا
«بطلاً»! ونفخوا فيه

وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتتحقق منه بطلاً في أعين
مواطنيه بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين،
وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة
كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا
مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء
والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} ويدسون ويكيدون
محاولين القضاء على الدين الجديد وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله
بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!

{وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وصدق وعد الله أتم نوره في حياة الرسول ﷺ فأقام
الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار صورة ذات معالم
واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في
عالم الواقع وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً
يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر
فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين
والحين وتنبض وتنتفض قائمة على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من
حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد

لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي

العبيد! وإن خيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (١)

وشهادة الله لهذا الدين بأنه {الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} هي الشهادة وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال، وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى

وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعه! وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله

تحقيقاً لوعد الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى وكانت تطميناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة بإذن الله^(١)

* * * * *

المطلب الثالث عشر:

التوحيد والتنزيه لله تعالى

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

سألوا رسول الله ﷺ عن نسب ربّ العزة، فأنزل الله هذه السورة جواباً لهم وقال بعضهم: بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه، فقالوا له: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فأنزلت جواباً لهم

ذكر من قال: أنزلت جواباً للمشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الربّ تبارك وتعالى نزل ذلك من أجل مسألة اليهود:

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني ابن إسحاق، عن محمد، عن سعيد، قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سأله عنه قال: " يقول الله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} " فلما تلا عليهم النبي ﷺ، قالوا: صف لنا ربك كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعاه، فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم غضباً، فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته، وأتاه

(١) الظلال: ٥٢٢.

(٢) سورة الإخلاص: ١ - ٤.

بجواب ما سألوه عنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)

قال المشركون للنبي ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل ثناؤه لا يموت ولا يورث: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثلته شيء^(٢)

هذه السورة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة قال البخاري: حدثنا إسماعيل: حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعد، «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»^(٣)

وليس في هذا من غرابة فإن الأهمية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذه الأهمية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة وقد تضمنت السورة من ثم أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو لفظ أدق من لفظ «واحد» لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شيء غيره معه وأن ليس كمثلته شيء

إنها أهمية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية

وهي من ثم أهمية الفاعلية فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء، في هذا أصلاً وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) الطبري: ٦٠٤.

(٣) البخاري: ٦١٥٢.

شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه اللذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية
خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود
شيء من الأشياء أصلاً! فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي ولا حقيقة لفاعلية
الإرادة الإلهية فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة
فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهام

يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود
كثيرة وفيه يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا
الله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية
هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل
شيء يراه ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله لأنه لا حقيقة هناك
يراهها إلا حقيقة الله

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى
السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية
كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل
الأمور مباشرة بمشيئة الله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} وغيرها كثير

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب
الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب،
ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام
يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل
خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع
هذا أن لا حقيقة إلا الله وأن لا وجود إلا وجوده

وأن لا فاعلية إلا فاعليته :: ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق!
 من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من
 تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده،
 ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته
 ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرغبة في السراء والضراء في النعماء
 والبأساء وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في
 الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده تلقى العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع
 والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد
 والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من
 الحواجز المعوقة والشوائب المضللة سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء
 والنفوس ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرغبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس
 والتعاطف والتجاوب فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها
 والهروب من مزاولتها فكلها خارجة من يد الله؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها
 تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة
 الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية ولكن الانطلاق عند
 الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب

إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة
 البشرية جميعها ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل
 مقوماتهما

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير ولكن الإسلام لا يريد أن الخلافة في
 الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص إنه طريق أشق، ولكنه هو

الذي يحقق إنسانية الإنسان أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه وهذا هو الانطلاق انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب، لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفرعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولكن القرآن يذكر هذه التفرعات لزيادة التقرير والإيضاح:

{اللَّهُ الصَّمَدُ} ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمراً إلا بإذنه والله سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تتورثها حال بعد حال صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال ثم هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل وهذه كذلك محال

ومن ثم فإن صفة {أَحَدٌ} تتضمن نفي الوالد والولد

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية وهذا كذلك يتحقق بأنه {أَحَدٌ} ولكن هذا تأكيد وتفصيل وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله بزعمهم ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض

وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه^(١)

* * * * *

(١) الظلال: ٦٠٤.

الفصل الثانى: فى مجال العبادات

المبحث الأول: قصة البقرة وتلاعب اليهود بالدين:

المطلب الأول:

الأمر بذبح البقرة

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصَاهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (١)

روى المفسرون أنه كان في بني إسرائيل رجل غني، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجددوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتتعضوا وقت أن حدث في أسلافكم قتل ولم يعرف الجاني فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمة الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقي، فقال لهم: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً} فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا} أي أتجعلنا موضع سخريتك؟ {قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به

والذي عليه جمهور المفسرين أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم في شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقي إذا ضرب القاتل ببعضها، كما سيأتي في قوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبده وهو العجل، وفي أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبده وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة، لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح

وقولهم: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا} يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك ولكنهم قوم لا يعقلون

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}: أي ألتجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفي هذا الجواب تبرؤ وتنزّه عن الهزء، وهو المزاح الذي يخالطه احتقاره واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلاً عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضاً - رداً لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن

الجهل ما يلقى صاحبه في أسوأ العواقب، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع^(١)

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافياً لحملهم على أن يذبحوا أي بقرة تنفيذاً لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله: ﴿ادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟﴾

أي: قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التي يكون لها أثر في معرفة قاتل القاتل، لا بد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ادْعَ لَنَا رَبَّكَ﴾ فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربهم ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربي الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَّانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

أي: قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها: إنه - تعالى - يقول: إن البقرة التي أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح في الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به

وقد أكد - سبحانه - جملة: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ تنزيلاً لهم منزلة المنكرين لتعنتهم في السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ﴾ للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ في جوابهم إلى تكرير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة

وقوله تعالى: ﴿فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال

وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسع، أي: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقي بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثرُوا من المراجعة، فإنها ليست في مصلحتكم

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعاً، واستقصاء في السؤال، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنّها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

{قَالُوا ادْع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}

والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنّها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكي يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها، تعجب في هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها

قال ابن جرير: " والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، وهو شدته وصفؤه "

وقال صاحب الكشاف: "الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه يقال في التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده "

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنّها ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟ كلا! ما أغنتهم فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم في غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم: **{قَالُوا ادْع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}**

ومعنى الآيتين الكريميتين: قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحاً لحال البقرة التي أمرنا بذبحها حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله: **{إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ**

تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَّا شَيْءَ فِيهَا} أي قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذلة بالعمل في الحراثة ولا في السقي، وهي بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت {الآن جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} لكثرة أسئلتهم وترددهم فقله - تعالى: {قَالُوا ادْع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ} حكاية لسؤالهم الثالث الذي وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيث نفاستها، بعد أن عرفوا سننها ولونها

فكأنهم يقولون له: إن في أجوبتك السابقة عنها تقصيراً يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بياناً لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة في الطلب، فعلوا ذلك بقولهم: {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} أي: لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذراً في هذا التكرار

لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التي تريدنا أن نذبحها

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: " وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا في الثالثة، لأن للثلاثة في التكرير وقعاً من النفس في التأكيد والسأمة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة "

وقولهم: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسأمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم في كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له:

اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحاً، وكشفاً لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدي إليها، ثم إلى القاتل الحقيقي، وبذلك ندرك الحكمة، التي من أجلها أمرتنا بذبحها

قال ابن جرير: وأما قوله تعالى: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها ومعنى اهتدائهم في هذا الموضع: تبينهم ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر "

وفي قوله تعالى: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِئَ فِيهَا} إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهي، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذلة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو في الصفرة الفاقعة

وقوله تعالى: {لَا ذَلُولَ} صفة لبقرة، يقال: بقرة ذلول، أي: ربيعة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض: تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها والمراد: نفي التذليل ونفي إثارة الأرض وسقي الزرع عن البقرة المطلوبة أي: هي بقرة صعبة لم يذلها العمل في حراثة الأرض، ولا في سقي الزرع، فهي معفاة من العمل في هذه الأشياء

{لَا} في قوله تعالى: {لَا ذَلُولَ} للنفي، وفي قوله تعالى: {وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ} مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقي، وأعيد في قوله تعالى: {وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ} مراعاة للاستعمال الفصيح

وقوله - تعالى: {مُسَلَّمَةً لَا شِئَ فِيهَا} صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة والشية: اللون المخالف لبقية لون الشيء، وأصله من وشى الشيء، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته والمعنى: إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من بياض أو سواد أو غيرهما، بل هي صفراء كلها

وأرادوا بالحق في قوله تعالى: {قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} الوصف الواضح الذي لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكانهم يقولون له: الآن - فقط - جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا

والفاء في قوله تعالى: {فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} قد عطف ما بعدها على محذوف

يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أي: فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم في صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طلبتهم

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} استنقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل "

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التي من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

المعنى: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً، فاختلتم وتنازعتم في قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل، فقد بين - سبحانه - الحق في ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القاتل بأي جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القاتل بعد موته، يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليعدد على بني إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فنتقبلها بشغف واهتمام

قال صاحب الكشاف: فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القاتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها؟ وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبخوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما حدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين

فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة وإلى الامتثال وما يتبع ذلك
والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة
الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب
الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها،
أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في
قوله: **{اضربوه بَعْضُهَا}** حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية
مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة "

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جمعهم في قوله تعالى: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ}** مع أن القاتل
بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد

وأُسند القتل - أيضاً - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي، لأنهم من سلالات أولئك
الذين حدث فيهم القتل، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتنبيه على أن
الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال

وقوله تعالى: **{فادارأتم فيها}** بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التي ذكرنا قصتها
ومعنى ادارأتم فيها: اختلفتم وتخاصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً
أي يدفعه ويزحمه، أي تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح
عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره

وقوله تعالى: **{والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}** معناه: والله - تعالى - مظهر ومعلن ما
كنتم تسترونه من أمر القتل الذي قتلتموه، ثم تنازعتم في شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل
الحقيقي بدون أن يظلم غيره

وهذه الجملة الكريمة: **{والله مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}** معترضة بين قوله
تعالى: **{فادارأتم}** وبين قوله تعالى: **{فَقُلْنَا اضربوه بَعْضُهَا}** وفائدته إشعار المخاطبين قبل
أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سنكشف أمره لا محالة

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: " وإنما تعلق إرادة الله بكشف حال من قتل
هذا القتل - مع أنه، ليس أول قتيل ظل دمه في الأمم - إكراماً لموسى - عليه السلام -
أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لا سيما وقد قصد

القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لنلا يضلوا "

وقوله تعالى: **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}** إرشاد لهم إلى الوسيلة التي عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقي، والضمير في قوله: **{اضْرِبُوهُ}** يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القاتل

وضرب القاتل ببعضها - أي كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى وفيه تيسير عليهم واسم الإشارة في قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}** مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا في شأن القاتل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القاتل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى في الآخرة للثواب والعقاب

وبذلك تكون الآية ظاهرة في أن الذي ضرب ببعض البقرة قد صار حياً بعد موته قال الإمام ابن جرير - رحمه الله: فإن قيل: وما كان معنى الأمر بضرب القاتل ببعضها؟ قيل: ليحيا فينبئ نبي الله والذين ادارؤوا فيه عن قاتله

فإن قال: وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل: ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**

والمقصود بالآيات في قوله تعالى: **{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير والتي منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القاتل بعض وميت، وأخبره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقي وذلك لكي تستعملوا عقولكم في الخير وتوقفوا بأن من قدر على إحياء نفس واحدة، فهو قادر على إحياء الأنفس جميعاً لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى في تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن

المراد بالإحياء في قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}** حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقي بعد الموت

فقد قال في تفسيره: وأما قوله تعالى: **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}** فهو بيان لإخراج ما يكتمون، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها، وقالوا: أنهم ضربه فعدت إليه الحياة، وقال: قتلني أخي أو ابن فلان، الخ ما قالوه، والآية ليست أيضاً نصاً في جملة فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية

ومعنى إحياء الموتى على هذا: حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: **{وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}** وقوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}** فالإحياء هنا معناه: الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين

والذي نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}** الإحياء الحقيقي للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتي:

أولاً: مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " لما ضرب المقتول ببعضها - يعني ببعض البقرة - جلس حياً، فقبل له من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني ثم قبض

ثانياً: ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالاً ولا تفصيلاً، ولا تصريحاً ولا تلميحاً، لأن قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}** ظاهر كل الظهور، في أن المراد بالأحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحيائهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد أيضاً قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى: الأحياء من الناس، وإحياء الموتى تشريع

العقوبات صوناً لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجنة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية

ثالثاً: تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرون، يودى إلى غرس الإيمان بصحة البعث في القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتاً للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر

رابعاً: قوله تعالى بعد ذلك: **{وَيُؤْيِكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد بـ **{آيَاتِهِ}** في هذا الموضع، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتي ليست في طاقة البشر، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء

ثم بين القرآن الكريم، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التي تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث في النفوس الإيمان، لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم، فقال تعالى: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**

والمعنى: ثم صلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيت ما رأيتم من معجزات منها إحياء القتل أمام عينكم، فهي كالحجارة في صلابتها ويبوستها، بل هي أشد صلابة منها، لأن من الحجرة ما فيه ثقب متعددة، وخروق متسعة، فتندفق منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يا بني إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات، وما الله بغافل عما تعملون

وقوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} بيان لما طرأ على قلوب بني إسرائيل من بعد عن الاعتبار، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من المواثيق التي أقروا بها على أنفسهم وجيء (بثم) التي هي للترتيب والتراخي لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بني إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات: فقسّت قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا

وقوله تعالى: {بَعْدِ ذَلِكَ} فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في الآيات السابقة واسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى إحياء القتل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة

و (أو) في قوله تعالى: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} قيل: للتنويع، فإن قلوبهم متفاوتة في القسوة، فمنها ما هو قاس كالحجارة، ومنها ما هو أشد منها قسوة، أي: فبعض قلوبكم كالحجارة في صلابتها وبعضها أشد من الحجارة في صلابتها وقيل: للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم، كأن يقول أحد الناس لآخر: إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة بل هي أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، والحجارة ليست كذلك وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة في القسوة، لأن صلابة الحجرة أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعال التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة "

وقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ

وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها وببوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقا واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقا مختلفة تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتنال أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس

وقوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} تهديد وتخويف، حيث إنه - سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما هم أهله من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت وبالأيات مهما توالى ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر:

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك:

١ - دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسوء أدب مع

مرشيدهم، وإحفاء في الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومما طلة في الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم

٢ - دلالتها على أن التنطع في الدين، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في

الأحكام، لأن بني إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم

ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " لو أن

القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم لكنهم شددوا فشدد الله عليهم " وقد أدى بهم هذا التنطع

والتشديد إلى تضيق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التي يجب توافرها في البقرة

المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مما طلبتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقينهم للشرعية بأنواع

من التقصير عملا وشكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما،

وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهي عن كثرة السؤال قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾^(١) وفي الحديث الشريف: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم»^(٢)

قال صاحب المنار: " وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطرياً وحنيفياً سمحاً، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملاً ثقيلاً على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت "

٣ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: وفي هذه القصة أنواع من العبر منها:

أ - أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قابِلُوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وتيقنوا أن الله - تعالى - أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتنال، ولم يكادوا يفعلون

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فإن أردوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) مسند أحمد: ١٠٠٢٥.

بقوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة

قال الإمام ابن جرير: " وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى: {الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ} وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم "

ب - منها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم

ج - ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المنوعات، زيادة في هداية المهتدى، وأعدارا وإنذارا للضال

د - ومنها: الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: " إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق "

هـ - ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرأ، فإن القاتل قصد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسه، ففضحه الله - تعالى - وهتكه، وحرمه ميراث المقتول

و - ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل في البلادة

ثم قال الإمام ابن القيم في ختام حديثه عن هذه القصة: والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل "

٤ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من

جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التي لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصَاهَا كَذَلِكَ يُخَيِّي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُزَكِّيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

والى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بني إسرائيل برذيلة التنطع في الدين، والتعنت في الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثالات لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ثم ساق القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان رذائلهم ويتمثل هذا اللون في تحريفهم للكلم عن مواضعه، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً، وذلك لقساوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا ^(١)

* * * * *

المطلب الثاني:

التلاعب بالدين

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٢)

أنت إذا تأملت في هذه الآيات الكريمة تراها قد حكمت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة مكررة لئيمة، هي تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيراً بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهرُوا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثي العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أى عداة للنبي ﷺ بل إن الذى حصل منهم هو أنهم بعد

(١) تفسير سيد طنطاوي/ صفحة ١٠/٩.

(٢) آل عمران: ٧٢ - ٧٤.

دخولهم فى الإسلام وجدوه ديناً باطلاً وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر فى دين الإسلام

ولا شك أن هذه الطريقة التى سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطاني، لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام، وبعد إظهارهم الإيمان به، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ويوقع ضعاف الإيمان فى حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب - فى مجموعهم - قوم أميون ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه

والمنتبع لمراحل التاريخ قديماً وحديثاً يرى أن الدهاة فى السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب فى صفوف أعدائه

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله: " هذا النوع الذى تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه وقد وفقه هذا، هرقل، ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ أنه قال له: " هل يرتد أحد من أتباع محمد سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب "

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذى قررناه

ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال فى قوله - تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا﴾ إلخ قال بعض أهل الكتاب لبعض: " أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره فغنه أجدر أن يصدقكم ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم "

وعن السدى: كان - هؤلاء - أحبار قرى عربية، اثنى عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا فى دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمداً حق صادق فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكون، يقولون:

هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله ﷺ بذلك " والمعنى: **{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** أى: فيما بينهم ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم **{آمَنُوا}** بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار **{}** أى قال بعضهم لبعض: نافقوا وأظهروا التصديق بالإسلام ونبيه ﷺ وبما أنزل عليه وعلى أصحابه من قرآن **{وَجَهَ النَّهَارِ}** أى فى أول النهار

وسمى أول النهار وجهها، لأنه أول ما يواجهك منه، وأول وقت ظهوره ووضوحه وقوله: **{وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** معطوف على **{آمَنُوا}** أى: آمنوا فى أول النهار واكفروا فى آخره، بأن تعودوا إلى اليهودية، أملا فى أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين، فيشكوا في دينهم، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام

وقوله: **{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** كشف عن مقصدهم الخبيث، وهو ابتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل قال الفخر الرازي: " والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه:

الأول: أن هذه الحيلة كانت مخيفة فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً
الثانى: أنه - تعالى - لما أطلع المؤمنين على تواضعهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر فى قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان فى إيمانه ضعف

الثالث: أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس "

ثم حكى - سبحانه - لونا من عصبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال تعالى: **{وَلَا تَوْمَنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ}** (١)

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم: **{وَلَا تَوْمَنُوا}** معطوف على قوله - تعالى - فى الآية

السابقة {آمَنُوا بالذي أُنْزِلَ}

وقد فسر بعضهم: {وَلَا تَوْمِنُوا} بمعنى ولا تقروا، أو ولا تعترفوا؛ فتكون اللام في قوله: {إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ} أصلية

وعليه يكون المعنى: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوا دينهم الإسلام، ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضا على سبيل المكر والخديعة: ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحداً من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل، أو بأن أحداً في قدرته أن يحاجبكم أى يبادلكم الحجة عند ربكم يوم القيامة، ولا تقروا ولا تعترفوا بشيء من ذلك " إلا لمن تبع دينكم " أى إلا لمن كان على ملتكم اليهودية دون غيرها

فالمستثنى منه على هذا التفسير محذوف، والتقدير: ولا تؤمنوا أى تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحداً يحاجبكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين أو غيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من الدين والفضائل عن طريق محمد ﷺ الذى أرسله الله رحمة للعالمين، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبي ﷺ ولأتباعه، قد تواصلوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم، وصدق الله إذ يقول فى شأنهم: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} وقد صدر صاحب الكشف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال: " قوله: {وَلَا تَوْمِنُوا} بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا، فتكون اللام في قوله: {لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ} زائدة للتقوية

فيصير المعنى على هذا الوجه: أن بعض اليهود قد قالوا لبعض: أظهروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذى كان عليه، ولا تصدقوا أن أحداً من البشر يؤتى مثل ما أوتيتم يا بنى إسرائيل من الكتاب والنبوة، أو أن أحداً في قدرته أن يحاجبكم عند ربكم فأنتم الأعلون فى الدنيا

والآخرة وأنتم الذين لا تخرج النبوة من بينكم إلى العرب، وما دام الأمر كذلك فلا تتبعوا إلا نبياً منكم يقرر شرائع التوراة، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها أو كان من غير بنى إسرائيل كمحمد ﷺ فلا تصدقوه

فالمستثنى منه على هذا الوجه هو قوله: " أحد " المذكور في الآية، والمستثنى هو قوله: **{إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينُكُمْ}**

والتقدير: ولا تصدقوا أن أحداً يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحتاجكم عند ربكم **{إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينُكُمْ}** أى إلا من كان على ملتكم اليهودية، أما أن يكون من غيركم كهذا النبي العربى فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة، لأنهما - فى زعمهم - حكر على بنى إسرائيل

فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتاباً وديناً وفضائل مثل ما أوتوا هم أى اليهود، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطماس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلاً من كل من سواهم من البشر

وعلى كل من الوجهين يكون قوله تعالى: **{أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ}** حكاية من الله - تعالى - لما تولى به بعض اليهود فيما بينهم من أقوال خبيثة، وأفكار مأكرة

ويكون قوله - تعالى: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ}** كلاماً معترضاً بين أقوالهم ساقه الله - تعالى - للمسارعة بالرد على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ويزدادوا هم رجساً إلى رجسهم، وينكشف ما أضمره وما بيتوه للمؤمنين من سوء وحقد

أى قل لهم يا محمد: إن هداية الله - تعالى - ملك له وحده، وهو الذى يهبها لمن يشاء من عباده، فهى ليست حكراً على أحد، ولا أمراً مقصوراً على قوم دون قوم، وإذا كانت النبوة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل، فالله - تعالى - قادر على أن يسلبها منهم لأنهم لم يشكروه عليها وأن يجعلها فى محمد العربى ﷺ لأنه أهل لها وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته

هذا، ويرى بعض المفسرين أن أقوال اليهود التى حكاها القرآن عنهم قد انتهت بنهاية قوله - تعالى: **{وَلَا تَوْنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينُكُمْ}** وأما قوله - تعالى: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ}**

الله أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} فهو من كلام الله - تعالى - وقد ساقه - سبحانه - للرد عليهم

فيكون المعنى عليه: أن بعض اليهود قد قال لبعض: أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره لعل بعض المسلمين يرجع عن دينه بسبب فعلكم هذا، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم هذا سرا له أثره في بليلة أفكار المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ بالرد عليهم وبالكشف عن مكرهم فيقول: قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله، أى إن هداية الله ملك له وحده فهو الذى يهدى من يشاء وهو الذى يضل من يشاء، وقد هدانا - سبحانه - إلى الإسلام وارتضيانه ديناً لنا ولن نرجع عنه

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهم بعقولهم: أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة: أو مخافة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به، أمخافة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السيئ إلا الحسد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحبأوه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه

وقوله - تعالى: {أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} من كلام الله - تعالى - فقد قرأ ابن كثير: {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ * إِذَا تَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} والمعنى أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع تتكرون اتباعه، ثم حذف الجواب للاختصار، وهذا الحذف كثير

يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه وبعد كثرة إحسانه إليه: أمن قلة إحسانى إليك؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت "

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد عليهم مرة ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فقال: {قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أى قل لهم يا محمد: إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده -

هذا الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى - وحده، وهو - سبحانه - المتفضل به على من يشاء التفضل عليه من عباده، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة في بنى إسرائيل لفترة من الزمان، فذلك بفضل منه وبرحمته، وإذا كان قد سلبها عنهم لأنهم لم يرعوها حق رعايتها وجعلها في هذا النبي العربي فذلك - أيضا - بفضل ورحمته، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته، وهو - سبحانه - صاحب الاختيار المطلق في أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده وهو - سبحانه: ﴿وَاسِعٌ﴾ الرحمة والفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقها وبمن لا يستحقها

ثم قال - تعالى: ﴿يُخَيِّصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده

وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو - سبحانه - صاحب الجود العميم والفضل العظيم، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه، وإنما هو وحده صاحب النعم التي لا تحصى على عباده، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة التي أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين، وفي هذا الكشف تنبيه للمسلمين إلى ما يبيت له لهم هؤلاء الأعداء من شرور وأثام حتى يحذروهم ^(١)

ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة، وأقاويلهم الكاذبة، وهو دعواهم أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، أي أن كل من كان على غير ملتهم فإنه مهذور الحقوق، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم ويثبت أنهم ليسوا أهلا لاختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ﴾

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة ٥٩.

المطلب الثالث :

ادعاء النجاة في الآخرة

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} ^(١)

قال الإمام ابن كثير ^(٢): روى جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فكلّموه وكلمهم ودعاهم إلى الله - تعالى - وحذرهم نقمته فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى؛ فأنزل الله - تعالى - فيهم

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} الآية

وقوله - تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى} حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ودعاوي باطلة، يدل على سفاهة عقولهم، وبلاغة تفكيرهم، حيث قالوا في حق الله - تعالى - ما لا يليق بعظمته - سبحانه

قال الألوسي ^(٣): ما ملخصه: " ومرادهم بالأبناء: المقربون أي نحن مقربون عند الله - تعالى - قرب الأولاد من والدهم ومن مرادهم بالأحباء: جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة، كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قالوا أنهم أشياع وأتباع من وصف بالبنوة أي قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزيز وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه عيسى وأطلق الأبناء على الأشياع مجازاً إما تغليباً أو تشبيهاً لهم بالأبناء في قرب المنزلة وهذا كما يقول أتباع الملك: نحن الملوك

وقيل الكلام على حذف المضاف أي: نحن أبناء أنبياء الله - تعالى - وهو خلاف الظاهر ومقصود الفريقين بقوله - تعالى - حكاية عنهم: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} هو المعنى المتضمن مدحا، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا ومزية عند الله - تعالى - على سائر الخلق

(١) سورة المائدة: ١٨.

(٢) الإمام ابن كثير: ١٠٧.

(٣) الألوسي: ١٠٩.

والمعنى: وقالت طائفة اليهود التي تزعم أنها شعب الله المختار، وقالت طائفة النصارى التي تزعم أنها على الحق دون غيرهم قالت كل طائفة منهما: نحن في القرب من الله - تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين، وأحبائه المختارين، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر

والذي حملهم على هذا القول الباطل، جهلهم بما اشتملت عليه كتبهم، وتخطبهم في الكفر والضلال وفهمهم السقيم لمعاني الألفاظ

قال ابن كثير ^(١): " ونقلوا عن كتبهم أن الله - تعالى - قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوا في عيسى - عليه السلام - وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}**

وعطف - سبحانه - قولهم: **{وَأَحِبَّاؤُهُ}** على قولهم: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ}** للإشارة إلى غلوهم في الجهل والغرور، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون وليسوا مغضوبا عليهم من أبيهم بل هم محل رضاه وإكرامه

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يكتبهم فقال: **{قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}**

والفاء في قوله: **{فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ}** للإفصاح، لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر أي: قل يا محمد لهؤلاء المغرورين، إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه فلأي شيء يعذبكم إذ الحبيب لا يعذب حبيبه

وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم، فقد عذبكم - سبحانه - في الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسوخ وتهيج العداوة والبغضاء بينكم إلى يوم القيامة

أما في الآخرة فإن كتبكم التي بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون في الآخرة على ما تقتربون من أثام في دنياكم

(١) ابن كثير: ١٠٧.

وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم - في زعمهم - أياما معدودات في الآخرة وحكى القرآن عنهم ذلك في قوله - تعالى: **{قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ}** وأقر النصراني بأن الله - تعالى - سيحاسب الناس يوم القيامة، وسيجازي كل إنسان على حسب عمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر

قال القرطبي^(١): " رد الله عليهم قولهم فقال: **{فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ}** فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين، إما إن يقولوا هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذا أبناءه ولا أحبائه فإن الحبيب لا يعذب حبيبه وأنتم تقررون بعذابه، فذلك دليل على كذبكم - وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف - أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم وقوله: **{بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}** رد على أصل دعواهم الباطلة، وبيان لما هو الحق من أمرهم وهو معطوف على كلام مقدر

أي: ليس الأمر كما زعمتم يا معشر اليهود والنصارى من أنكم أبناء الله وأحبائه، بل الحق أنكم كسائر البشر من خلق الله فإنكم إن آمنتم وأصلحتكم أعمالكم نلتم الثواب من الله، وإن بقيتم على كفركم وغروركم حق عليكم العقاب، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح

قال أبو حيان قوله: **{بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}** إضراب عن الاستدلال من غير إبطال له إلى استدلال آخر من ثبوت كونهم بشرا من بعض خلقه، فهم مساوون لغيرهم في البشرية والحدوث، وهما يمتنعان النبوة، فإن القديم لا يلد بشرا، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوجهين النبوة وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحبائه الله، فبطل الوصفان اللذان ادعوهما

وقوله - سبحانه: **{يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}** بيان لعموم قدرته، وشمول إرادته أي أنه - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من خلقه، وهم المؤمنون به وبرسله، ويعذب من يشاء أن يعذبه منهم، وهم المنحرفون عن طريق الحق والهدى، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه

(١) القرطبي: ١١٠.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما قبله من عموم قدرته، وشمول إرادته وهيمنته على سائر خلقه

أي: والله - تعالى - وحده ملك جميع الموجودات وهو صاحب التصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، وإليه وحده مصير الخلق يوم القيامة فيجازيهم على ما عملوا من خير أو شر قال - تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١) وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت حجة اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ﴾ وأثبتت بالمنطق الواضح أنهم كذابون فيما يدعون؛ وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح

وبعد أن بين - سبحانه - فساد أقوال أهل الكتاب وبطلان عقائدهم، ورد عليهم بما لا يدع للعاقل متمسكاً بتلك الضلالات أتبع ذلك بتوجيه نداء آخر إليهم تكريماً لوعظهم، وتحريضاً لهم على اتباع الحق

* * * * *

المطلب الرابع:

موالاة غير المؤمنين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢)

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات منها:

ما رواه السدي من أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد واقعة أحد: أما أنا فأني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأواليه وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث وقال الآخر: وأما أنا فأني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأواليه وأنتصر معه فأنزل الله تعالى الآيات

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) المائدة: ٥١ - ٥٣.

وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حيث بعثه رسول الله ﷺ: إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح

وقيل نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول فقد أخرج ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه قال: قد قبلت فأُنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ} إلى قوله: {نَادِمِينَ}

والخطاب في قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ} للمؤمنين جميعاً في كل زمان ومكان، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

الأولياء جمع ولي ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبیب

والمراد بالولاية هنا: مصافاة أعداء الإسلام والاستنصار بهم، والتحالف معهم دون المسلمين

أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا يتخذ أحد منكم أحداً من اليهود والنصارى ولياً ونصيراً، أي: لا تصافوهم مصافاة الأحاباب، ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعاً يد واحدة عليكم، يبغيونكم الغوائل، ويتربصون بكم الدوائر، فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟

وقد نادى - سبحانه - المؤمنين بصفة الإيمان، لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه، إذ أن وصفهم بما هو ضد صفات الفريقين - اليهود والنصارى - من أقوى الزواجر عن موالاتهما:

وقوله: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} جملة مستأنفة بمثابة التعليل للنهي، والتأكيد لوجوب اجتناب المنهي عنه

أي لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء، لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم، وبعض النصارى أولياء لبعض منهم، والكل يضمرون لكم البغضاء

والشر، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين وقوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** تنفير من موالاة اليهود والنصارى بعد النهي عن ذلك

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم، والطعن في دين الإسلام، كانت كفرا وخروجا عن دين الإسلام

وإلى هذا المعنى أشار ابن جرير بقوله: قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** أي: ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه راض وإذا رضى دينه، فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه "

وإذا كانت الولاية لهم ليست على سبيل الرضا بدينهم وإنما هي على سبيل المصادقة والمصادقة كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة

قال الفخر الرازي: قوله: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** قال ابن عباس: يريد كأنه مثلهم وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين

روى عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إن لي كاتباً نصرانياً فقال: مالك قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفياً؟ أما سمعت قول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}** قلت: له دينه ولي كتابته فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة إلا به فقال: مات النصراني والسلام

يعني: هب أنه مات فما تصنع بعد، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** تعليل لكون من يواليهم منهم وتأكيد للنهي عن موالاتهم

أي: إن الله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم إلى الطريق المستقيم، وإنما يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلال، والفسوق والعصيان، بسبب وضعهم الولاية في غير موضعها الحق، وسيرهم في طريق أعداء الله

وبعد هذا النهي الشديد عن موالاة أعداء الله، صور القرآن حالة من حالات المنافقين

بين فيها كيفية توليهم لأعداء الله، فقال: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ}

والدائرة: من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها وأصلها داورة لأنها من دار يدور ومعناها لغة: ما أحاط بالشيء والمراد بها هنا: المصيبة من مصائب الدهر التي تحيط بالناس كما تحيط الدائرة بما في داخلها

والمعنى: فترى - يا محمد أولئك المنافقين الذين ضعف إيمانهم، وذهب يقينهم، يسارعون في مناصرة أعداء الإسلام مسارعة في الداخل في الشيء، قائلين في أنفسهم أو للناصحين لهم بالثبات على الحق: اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التي تدور بها الزمان كأن تمسنا أزمة مالية، أو ضائقة اقتصادية، أو أن يكون النصر في النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافهم لنتقي شرهم، ولننال عونهم عند الملومات والضوائق

وقوله: {يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ} حال من ضمير يسارعون

والتعبير بقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} تعبير قوي رائع، وصف القرآن به المنافقين وأشباههم في الكفر والضلال في مواطن كثيرة، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلاً للثبات والتماسك

كان ضعف القلب الذي عبر عنه بالمرض يضرب مثلاً للخور، والتردد والتزلزل، وانهيار النفس

وهذه طبيعة المنافقين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان إنهم لا يمكن أن يكونوا صرحاء في انحيازهم إلى ناحية معينة وإنما هم يترددون بين الناحيتين، ويلتمسون الحظوة في الجانبين - فهم كما يقال: يصلون خلف على ويأكلون على مائدة معاوية - وأبلغ من كل ذلك وصف الله لهم بقوله:

{مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ} والتعبير بقوله - سبحانه - ترى تصوير

للحال الواقعة منهم بأنها كالمرئية المكشوفة التي لا تخفى على العقلاء البصراء

وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتحذير له ولأصحابه من مكر أولئك الذين في

قلوبهم مرض

والتعبير بقوله: {يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} يشير إلى أنهم لا يدخلون ابتداء في صفوف الأعداء " وإنما هم منغمرون فيهم دائما " ولا يخرجون عن دائرتهم بل ينتقلون في صفوفهم بسرعة ونشاط من دركة إلى دركة، ومن إثم إلى آثام

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: {يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} بيان لما اعتذروا به من معاذير كاذبة تدل على سقوط همتهم، وقلة ثقتهم بما وعد الله به المؤمنين من حسن العاقبة

ولذا فقد رد الله عليهم بما يكذبهم، وبما يزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم فقال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}

وعسى: لفظ يدل على الرجاء والطمع في الحصول على المأمول، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع لأنه صادر من أكرم الأكرمين الذي لا يخلف وعده، ولا يخيب من رجاء

والفتح يطلق بمعنى التوسعة بعد الضيق كما في قوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ} ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل ومن ذلك قوله - تعالى - {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} ويطلق بمعنى الظفر والنصر كما في قوله - تعالى - {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} ولفظ الفتح هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة فهو سعة بعد ضيق، وفصل بين حق وباطل، ونصر بعد جهاد طويل

والمعنى: لا تهتموا أيها المؤمنون بمسارعة هؤلاء الذين في قلوبهم مرض إلى صفوف أعدائكم وارتمائهم في أحضانهم خشية أن تصيبهم دائرة، فلعل الله - عز وجل - بفضله وصدق وعده أن يأتي بالخير العميم والنصر المؤزر الذي يظهر دينه ويجعل كلمته هي العليا أو يأتي بأمر من عنده لا أثر لكم فيه فيزلزل قلوب أعدائكم، وينصركم عليهم، ويجعل الهزيمة والندم للموالين لأعدائكم، وبسبب شكهم في أن تكون العاقبة للإسلام والمسلمين

ولقد صدق الله وعده، ففضح المنافقين وأذلهم، وأنزل الهزيمة باليهود،

وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم

وقد جاء التعبير في قوله - تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ} بصيغة الرجاء، لتعليم المؤمنين عدم اليأس من رحمة الله، ومن مجيء نصره، ولتعويدهم على أن يتوجهوا إليه - سبحانه - في مطالبهم بالرجاء الصادق، والأمل الخالص

قال الفخر الرازي: فإن قيل: شرط صحة التقسيم أن يكون ذلك بين قسمين متنافيين

وقوله: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ} ليس كذلك، لأن الإتيان بالفتح داخل في قوله: {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ}

قلنا: قوله: {أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ} معناه: أو أمر من عنده لا يكون للناس فيه فعل ألبتة، كبنى النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر

والضمير في قوله: {فَيُضْحِكُوهُ} يعود على أولئك المنافقين الذين في قلوبهم مرض والجملة معطوفة على {أَنْ يَأْتِيَّ} داخل معه في حيز خبر عسى

وعبر - سبحانه - عن ندمهم بالوصف {تَادِمِينَ} لا بالفعل، للإيدان بأنه ندم دائم تصحبه الحسرات والآلام المستمرة، بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد، وأمل خائب

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المؤمنون الصادقون على سبيل الإنكار لمسالك المنافقين الخبيثة وتوبيخهم على ضعف إيمانهم، وهوان نفوسهم فقال - تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ}

قال الألوسي: قوله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا} كلام مستأنف لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة: - وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي بإثبات الواو مع الرفع

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر بغير واو على أنه استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟

وقرأ أبو عمرو ويعقوب: ويقول بالنصب عطفًا على {فَيُضْحِكُوهُ}

وقوله: **{جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}** أي: أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد: الوسع والطاقة والمشقة

يقال: جهد نفسه يجهدها في الأمر إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه والمراد: أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق

والمعنى: ويقول الذين آمنوا بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر عن المنافقين من خداع وكذب، ومتعجبين من ذبذبتهم والتوائهم: يقولون مشيرين إلى المنافقين: أهؤلاء الذين أقسموا بالله مؤكدين إيمانهم بأقوى المؤكدات وأوثقها، بأن يكونوا مع الرسول ﷺ ومعنا في ولايتهم ونصرتهم ومعونتهم

وقد ذكر صاحب الكشف وجهاً آخر في معنى ويقول الذين آمنوا فقال: فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم، واغتراباً بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص **{أهؤلاء الذين أقسموا}** لكم بأغلظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدكم على الكفار

وإما أن يقولوه لليهود، لأنهم - أي المنافقون - حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة كما حكى الله عنهم: **{وَأِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ}** ثم خذلوهم:

وعلى كلا الوجهين فالجملة الكريمة تنعى على المنافقين كذبهم وجبنهم، وتعجب الناس من طباعهم الذميمة، وأخلاقهم المرذولة

وقوله: **{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ}** أي: فسدت أعمالهم وبطلت فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة

ويحتمل أن تكون هذه الجملة مما حكاها الله - تعالى - من قول المؤمنين ويحتمل أنها من كلام الله - تعالى - وقد ساقها على سبيل الحكم عليهم بفساد أعمالهم، وسوء مصيرهم

هذا، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على ضروب من توكيد النهي عن موالاة أعداء الله - تعالى - بأساليب متعددة

منها: النهي الصريح كما في قوله - تعالى: **{لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}**

ومنها: بيان علة النهي كما في قوله: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}

ومنها: التصريح بأن من يواليهم فهو منهم وذلك في قوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}

ومنها: تسجيل الظلم على من يواليهم كما في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

ومنها: الإخبار بأن موالاتهم من طبيعة الذين في قلوبهم مرض قال - تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ}

ومنها: قطع أطماع الموالين لهم وتبشير المؤمنين بالفوز قال - تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ}

ومنها: الإخبار عن حال الموالين لهم بقوله: {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ}

وهنا قد يرد سؤال وهو: إن الآيات الكريمة وما يشبهها من الآيات القرآنية تؤكد النهي عن موالاته غير المسلمين ومودتهم فهل هذا النهي على إطلاقه؟ والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة:

القسم الأول: وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمنهم، ولا يعملون لحساب غيرهم؛ ولم يبدر منهم ما يفضي إلى سوء الظن بهم وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا مانع من مودتهم والإحسان إليهم كما في قوله - تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (١)

والقسم الثاني: وهم الذين يقاتلون المسلمين، ويسيون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم، ولا تجوز موالاتهم، وهم الذين عناهم الله في الآيات التي معنا وفيما يشبهها من آيات كما في قوله - تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ

فأولئك هم الظالمون^(١)

والقسم الثالث: قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدي

ومهما تكن أحوال غير المسلمين؛ فإنه لا يجوز لولي الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التي يؤدي إفشاؤها إلى خسارة الأمة في السلم أو الحرب

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم، وبين لهم فيه أن موالاة أعداء الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين، وأنهم إن ارتدوا فسوف يأتي الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم، وإن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولا يتهم الله ولرسوله وللمؤمنين^(٢)

* * * * *

(١) الممتحنة: ٩.

(٢) تفسير سيد طنطاوى صفحة: ١٠٧.

المبحث الثاني: المحرمات فى شريعتنا وشريعة اليهود

المطلب الأول:

المقارنة بين المحرمات فى شريعتنا وبين شريعة اليهود

{قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} (١)

{قُلْ} يا محمد لهؤلاء المفتريين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما {لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ}

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى من القرآن طعاما محرما على أكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى رداً على قولهم: {مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحي وليس مجرد الهوى والتشهى، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم

و{مُحَرَّمًا} صفة لموصوف محذوف، أى: شيئاً محرماً، أو طعاماً محرماً، وهو المفعول الأول لأجد، أما المفعول الثانى فهو: {فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ} قدم للاهتمام به

وقوله: {يَطْعَمُهُ} فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعاً للمجاز كما فى قوله: {وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال: {إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ}

أى: لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئاً محرماً من المطاعم إلا أن يكون هذا الشيء أو ذلك الطعام {مَيْتَةً} أى: بهيمة ماتت حتف أنفها

{أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا} أى: دما مصبوباً سائلاً كالدّم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه، لا الدم الجامد كالكدب والطحال، والسفح: الصب والسيلان

{أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ} أى اللحم لأنه المحدث عنه، أو الخنزير لأنه الأقرب أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير

{رَجَسٌ} أى: قدر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان {أَوْ فَسَقًا أَهْلًا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ} أى: خروجاً عن الدين، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاعون أو نحو ذلك

والإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كالكالات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالاً وإنما سمي {مَأْهِلًا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ} فسقاً، لتوغله فى باب الفسق، والخروج عن الشريعة الصحيحة، ومنه قوله - تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} أى: فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغٍ فى أكله، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره أو غير طالب له لذته، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر أو حالة كونه - أيضاً - غير عاد فيما يأكل، أى: غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال

وباغ: مأخوذ من البغاء وهو الطلب تقول: بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى: طلبته وعاد: اسم فاعل بمعنى متعد، تقول: فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} وقوله: {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أى: فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين، ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم، وإنما هو رؤوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر

والجملة الكريمة جواب الشرط باعتبار لازم المعنى وهو عدم المؤاخذه وقيل جواب الشرط محذوف: أى فمن اضطر، فلا مؤاخذه عليه وهذه الجملة تعليل له

هذا، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوانب

وغيرها

قال ابن كثير: الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك فأمر - تعالى - رسوله أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وأن الذي حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه فكيف تزعمون أنه حرام؟! ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله - تعالى؟! وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا كما جاء النهي عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير "

وقال القرطبي: والآية مكية، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك، وحرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال:

الأول: ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء في الكتاب مضموم إليها، فهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر "

والخلاصة: أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين، وذلك أن الكفار كما قال الإمام الشافعي - لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه الله وكانوا على المضادة والمحادثة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال - سبحانه - لا حلال إلا ما حرمتوه ولا حرام إلا ما أحللتوه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة

فتقول: لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا للنفي والإثبات على الحقيقة فهو - تعالى - لم يقصد ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل

قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا

نستجيز مخالفة مالك - رضى الله عنه - فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية " وفى حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطها العلماء فارجع إليها إذا شئت ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾

فقوله - تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم، وفى هذا البيان رد على اليهود، وتكذيب لهم، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئاً، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التى كانت حلالاً لهم - بسبب فسقهم وطغيانهم

والمراد بقوله تعالى: ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطيور، كالإبل والنعام والإوز والبط، كما روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة قال الإمام الرازى: قوله - تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين:

الأول: أن قوله - تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة، لتقدم المعمول على عامله

الثانى: أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل لم يبق لقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ فائدة

ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من غير ذوى الظفر فقال - تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾

والشحم: هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها يكون لحمه سميماً والعرب تسمى سنام البعير، وبياض البطن شحمًا، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان

والحوايا: - كما قال ابن جرير - جمع حاوياء وحاوية، وحوية هى ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وفسرت بالمباعر، والمرابض التى هي مجتمع الأمعاء فى البطن

والمعنى: كما حرّمنا على اليهود كل ذى ظفر، فقد حرّمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة، إلا ما استثنيناه من هذه الشحوم وهو ما حملت

ظهورهما أو ما حملت حواياهما، أو اختلط من هذه الشحوم بعظمهما فقد أحللناه لهم
ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَائُهُمْ
بِغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: هذا الذى حرمانه على الذين هادوا من الأنعام والطيور ومن
البقر والغنم، وهذا التضييق الذى حكمنا به عليهم، إنما ألزمناهم به، بسبب بغيتهم
وظلمهم، وتعديتهم حدود الله تعالى

قال قتادة: إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديداً عليهم
ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود، من الأنبياء التى لم يكن النبى ﷺ وقومه
يعلمون عنها شيئاً لأمتهم، وكان تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عليهم عقوبة
لهم، لما كان الأمر كذلك، أكد الله هذا النبأ بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: وإنا لصادقون - يا
محمد - فيما أخبرناك به، ومن بينه ما أعلمناك عنه مما حرمانه على اليهود من الطيبات
وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه
لتحريم إسرائيل إياه على نفسه

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم، فإنهم تحايّلوا على
شرع الله، وأخذوا يذیبونها ويستعملونها فى شؤونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها،
ولقد لعنهم النبى ﷺ بسبب هذا التحايل فى أحاديث متعددة

من ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان قاعداً
خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء وقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم
الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»^(١)

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله حرم بيع
الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها
الجلود، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس، فقال: «لا هو حرام» ثم قال رسول الله
ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود»، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها أى: أذابوها ثم
باعوها وأكلوا ثمنها^(٢)

(١) مسند أحمد / ٢٨٠٩.

(٢) مسند أحمد / ١٣٩٤٨.

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان، فقال - تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} أى: فإن كذبوك - يا محمد - هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين، فيما أخبرناك عنه من أنا حرمانا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم، فقل لهم: إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقاً ورحمته وسعت كل شيء، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستمرين على اقتراف المنكرات، وارتكاب السيئات

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران، حتى يعودوا إلى طريق الحق إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى، ويعتبر بالموعظة^(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة ١٤٧.

الفصل الثالث: فى أحكام المعاملات

المبحث الأول: نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود وتخريب المساجد:

المطلب الأول:

تناقضات اليهود وأكاذيبهم

{أَفْتَطَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} * وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} * قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُيبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَوَّلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (١)

قوله: {أَفْتَطَمْعُونَ} هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ {يُؤْمِنُوا لَكُمْ} أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب، أي: أطمعون أن يستجيبوا لكم و{كَلَامَ اللَّهِ} أي: التوراة وقيل: إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش: {كَلِمَ اللَّهِ} والمراد من التحريف: أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، وإسقاط الحدود عن أشرفهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال: أي: ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتدون بهم، متبعون سبيلهم

ومعنى قوله: {مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ} أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن

ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وأبين لضلالهم

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا} يعني أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا: {قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ} أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم: {أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ} أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عدب به آبؤهم، وقيل إن المراد: ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد ﷺ، وقد تقدم معنى خلا والفتح عند العرب: القضاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلغة اليمن والفتح: النصر، ومن ذلك قوله تعالى: {يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} (١)

وقوله: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} (٢) ومن الأول: {ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} (٣)

{وأنت خير الفاتحين} (٤) أي: الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين، والمحاجة: إبراز الحجة، أي: لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم، وأحق بالخير منه والحجة، الكلام المستقيم، وحاجبت فلاناً، فحججته أي غلبته بالحجة {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم ثم وبخهم الله سبحانه: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} من جميع أنواع الأسرار وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان

وروى ابن جرير عن مجاهد، أن سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: «يا إخوان القردة، والخنازير، ويا عبدة الطاغوت» فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم: {أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ} أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم

وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) الأنفال: ١٩.

(٣) سبأ: ٢٦.

(٤) الأعراف: ٨٩.

يُعلنون} يعني من كفرهم بمحمد ﷺ، ولكذبهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمناً ومعنى: {لَا يَعْلَمُونَ الكتاب إِلَّا أَمَانِي} أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانى التي يتمنونها، ويعلمون بها أنفسهم والأمانى: جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهو لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرأون المكتوب والاستثناء منقطع، أي: لكن الأمانى ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم وقيل الأمانى: الأكاذيب، كما سيأتي عن ابن عباس ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت، حكاها عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأمانى: التلاوة، ومنه قوله تعالى: {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} (١)

أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أول لئلة :: وأخره لاقى حمام المقادر
وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر لئلة :: تمنى داود الزبور على رسل
وقيل الأمانى: التقدير قال الجوهري: يقال: منى له، أي قدر، ومنه قول الشاعر:
لا تأمنن وإن أمسيت في حرم :: حتى تلاقى ما يمنى لك الماني
أي: يقدر لك المقدر قال في الكشف: "والاشتقاق من منى إذا قدر؛ لأن المتمنى يقدر في نفسه، ويجوز ما يتمناه، وكذلك المختلق، والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا " انتهى و«إن» في قوله: {وإن هم إلا يظنون} نافية، أي: ما هم والظن هو: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم كذا في القاموس أي: ما هم إلا يترددون بغير جزم، ولا يقين، وقيل الظن هنا بمعنى: الكذب وقيل: هو: مجرد الحدس، لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانى، ويعتمدون على الظن، الذي لا يقفون من

تقليدهم على غيره، ولا يظفرون بسواه (١)

وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب؟ وقد حدّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيره، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم (٢) وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذاقيرها

وقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس: {فَوَيْلٌ لَهُمْ} يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، {وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا} أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِفُ عهده ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بـ"أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه

و عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما تُعَدَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً} إلى قوله: {خَالِدُونَ} (٣) {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَبِيئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من

(١) فتح القدير للشوكاني صفحة / ١١.

(٢) صحيح البخاري/ التوحيد/ ٦٩٦٩.

(٣) البقرة: ٨٢.

عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشرعية - فهم، من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (١)

وساق ابن جرير بسنده: عن ابن عباس: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة

وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك

وقال الحسن - أيضاً - والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر

وقال ابن جريج، عن مجاهد: {وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: بقلبه

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: {وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قالوا: أحاط به

شركه

عن ابن عباس: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً (٢)

* * * * *

(١) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) تفسير بن كثير بتصرف صفحة / ١١.

المطلب الثاني :

مخالفات اليهود ومتناقضاتهم

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ
مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَىٰ تَقَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا
خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (١)

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي
أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه أن
ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله هذه القواعد التي جاء بها الإسلام
أيضاً، فتنكروا لها وأنكروها

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله القاعدة الأولى للتوحيد المطلق
وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وتضمن خطاب
الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك تضمن
فريضة الصلاة وفريضة الزكاة وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه

ومن ثم تتقرر حقيقتان: الأولى هي وحدة دين الله؛ وتصديق هذا الدين الأخير
لما قبله في أصوله والثانية هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو
يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق

وهنا - في هذا الموقف المخجل - يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب،
فيوجه القول إلى بني إسرائيل وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى خطاب المؤمنين
ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ}

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب!

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟

{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمُ اسْأَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداً وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء - وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن؛ وهو يسألهم في استنكار: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟}

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً: {فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة فهو لاء هم هناك: {فَلَا

يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغام على أية حال

وضمن صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستئجار بالعباد لا برب العباد والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم

ثم يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاؤوهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء^(١)

* * * * *

المطلب الثالث :

موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْضَعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (١)

في «تفسير ابن عطية» و «الكشاف» و «أسباب النزول» للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار: «ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتهم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم» فردا عليهم وثبتا على الإسلام

وإنما أسند هذا الحكم أي الكثير منهم وقد أسند قوله: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} (٢) إلى جميعهم لأن تمنيعهم أن لا ينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنيعهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعاً فأما علماءهم وأخبارهم فخابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشرار لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى وإن لم يتبعوا ديننا، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمنى الكفر وهو رضي به وأما عامة اليهود وجهلهم فقد بلغ بهم الحسد والغيط إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبي ﷺ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ

(١) سورة البقرة: ١٠٩ - ١١٣ .

(٢) البقرة: ١٠٥ .

وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا^(١) وفي هذا المعنى المكتنز ما يدلكم على وجه التعبير بـ **{يُرْذَوْنَكُمْ}** دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية وبه يظهر وجه مجيء **{كُفَّارًا}** معمولاً لمعمول **{وَدَّ كَثِيرٌ}** ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفاراً بالله أي كفاراً كفرة متفقاً عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك فليس ذلك من التعبير عن ما صدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه، وبه يظهر أيضاً وجه قوله تعالى: **{مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}** فإنه تبين أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسول بخلاف الشرك، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله ﷺ عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم

وإنما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر

قال تعالى: **{وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ}**^(٢) فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل

والعفو ترك عقوبة المذنب والصفح بفتح الصاد مصدر صفحاً إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيء ولاه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفتحوا لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق

وقوله: **{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}** أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليكم قيل هو إجلاء بني النضير وقتل قريظة، وقيل الأمر بقتال الكتابيين أو ضرب الجزية

(١) النساء: ٥١.

(٢) الحجرات: ٧.

والظاهر أنه غاية مبهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا يياسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول الناس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية، ومن ذلك إجلاء بني النضير

ولعل في قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تعليمًا للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفي الحديث الصحيح: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل يدعون له ندأ وهو يرزقهم» أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمرهم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الانتساء بصنع الله تعالى وقد قيل: إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية فجملة {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تذييل مسوق مساق التعليل، وجملة: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} إلى قوله: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ} ^(١) تفريع مع اعتراض فإن الجملة المعترضة هي الواقعة بين جملتين شديديتي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له ولكن للكلام والغرض به علاقة وتكميلاً وقد جاء التفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذي هو أذى وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً ^(٢) وقد جوزته صاحب «الكشاف» عند قوله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ^(٣)

معنى الآية الكريمة: أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسداً لكم وبغضاً لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمداً ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وضرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن الإله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير "

وقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا} بيان للون من

(١) البقرة: ١١١.

(٢) تفسير ابن عاشور / صفحة ١٤.

(٣) النحل: ٤٣.

ألوان الشرور التي يضمها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيههم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمني الذميمة إلى الكثرة منهم، انصافاً للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام

وقوله تعالى: **{بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** مبالغة في ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر

ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا التمني الذميمة هو الحقد والحسد، فقال تعالى: **{حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}** أي: أن هذا التمني لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة، من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: " والحسد: قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتم زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القبح في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه "

وقوله تعالى: **{مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}** إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميمة ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم رسخ الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه

والجملة الكريمة: **{حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}** تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة

دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف في نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبي ﷺ بوعده أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبعث به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفروهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبي ﷺ

ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوه إلى حين فقال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والعفو: ترك العقاب على الذنب والصفح: ترك المؤاخذه عليه، فكل صفح عفو ولا عكس والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفوا صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شيء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى

فالمراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: " وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل، للضعيف الجاهل وفي إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غيره مرة، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه "

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أن كل شيء داخل تحت قدرته النافذة التي لا يعجزها شيء

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين في الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرْد والقتل لليهود الحاقدين وبعد أن أمر القرآن المؤمنين في الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التي تظهر قلوبهم، وتزكي نفوسهم فقال - تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١)

فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزله عليكم فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحببت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون^(٢)

وهذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾^(٣) أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبي، والمسلمين من خير، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾^(٤) وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان ليتخلص

(١) البقرة: ١٠٥.

(٢) تفسير الطبري صفحة / ١٦.

(٣) البقرة: ٩١.

(٤) البقرة: ٩١.

من ذلك إلى بيان النسخ

و (الود) بضم الواو المحبة ومن أحب شيئاً تمناه فليس الود هو خصوص التمني ولا المحبة المفرطة كما حققه الراغب

وذكر (الذين كفروا) هنا دون اليهود لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معاً تمهيداً لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قوله: **{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** (١)

ونبه بقوله: **{الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه وبالإيمان بالنبي المقفي على آثارهم وفي التوراة والإنجيل مواضع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا المسلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود

ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله: **{الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** قد يوهم كون البيان قيداً وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين عطف عليه قوله: **{وَلَا الْمُشْرِكِينَ}** كالاتحراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع فيكون له حظ في التمهيد لقوله فيما يأتي: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ}** (٢) وقرأ الجمهور (أن ينزل) بتشديد الزاي مفتوحة والتعبير بالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجماً لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيسير على المكلفين في شرع الأحكام تدريجاً وقرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاي مفتوحة أيضاً وذلك على أن نفي ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجماً

والخير النعمة والفضل، قال النابغة: فلست على خير أذاك بحاسد وأراد به هنا النبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: **{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ}**

وقوله: **{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}** عطف على **{مَا يَوْدُ}** لتضمنه أن الله أراد ذلك

(١) البقرة: ١١١.

(٢) البقرة: ١١٤.

وإن كانوا هم لا يريدونه

والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصاً غير عام سواء خص واحداً أو أكثر ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة

والمشيئة هي الإرادة ولما كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشيئته أي إرادته جارية على وفق حكمته التي هي من كفيات علم الله تعالى فهي من تعلقات علم الله بإبراز الحوادث على ما ينبغي

فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوة فإن الله يختص بها من خلقه قابلاً لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئاً فشيئاً قال تعالى: **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}** ^(١) وقال: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** ^(٢) ولذلك لم تكن النبوة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوة من أرادها لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرهما فرب فاسق صلحت حاله ورب جاهل مطبق صار عالماً بالسعي والاكتساب ومع هذا فلا بد لصاحبها من استعداد في الجملة ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره ووكّل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقا بأفهام المخاطبين

وقوله: **{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلّى عن المعاصي والخبائث ويتحلّى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح: **«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في**

(١) يوسف: ٢٢.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(١) «الشدة»

{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢)

قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} الآية نزلت في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبتما الخير وأفلحتما»

فأنزل الله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} أي تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود {لَوْ يَرُدُّونَكُم} يا معشر المؤمنين {مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا} نصب على المصدر، أي يحسدونكم حسداً {مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} أي من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك، {مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق {فَاعْفُوا} فاتركوا {وَاصْفَحُوا} وتجاوزوا، فالعفو: المحو والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} بعذابه: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قوله: {فَاتَّبَعُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} - إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} (٣) وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٤)

* * * * *

(١) تفسير ابن عاشور صفحة / ١٦.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) التوبة: ٢٩.

(٤) تفسير البغوي صفحة / ١٧.

المطلب الرابع:

تخريب المساجد وهدمها وآداب الخطاب

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ قَائِنُونَ * بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (١)

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه ويرى آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بدمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها

ومن اسم استفهام يراد منه النفي، أي: لا أظلم والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا وذكر اسم الله كناية عما يؤدي فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه تعالى والسعي في الأصل: المشي بسرعة في معنى الطلب والعمل

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل بمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له قال القرطبي: " وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار

شعائر الإسلام فيها خراب لها "

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل في خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس، وها هم اليهود أحرقوا بيت المقدس عدة مرات، وكذلك قاموا بحفر الأنفاق تحته، والكثير من الحفريات حوله تمهيدا لهدمه

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق "

وقوله - تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ معناه: ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها

قال ابن كثير: " وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبي ﷺ من العام القابل منادياً ينادي برحاب منى " ألا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته "

وعندما حج النبي ﷺ عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه في النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه في هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا

ثم أخذ القرآن في تسليمة المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جمع جهات الأرض واللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ تفيد معنى الملك

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى و(ثم) اسم إشارة للمكان

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففي أي مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التي أمرتم بها، والتي تبرأ ذممكم باستقبالها

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة في أي مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففي الحديث الشريف: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»

وكأن الآية تومئ، إلى أن سعى أولئك الظالمين في منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها

وذيلت الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده في أمر الدين: أي: إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التي افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾

قوله - تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ "

واتخذ: من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل والولد: يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع

والذين قالوا اتخذ الله ولداً هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنه قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وحكى عن النصارى أنهم قالوا: ﴿المسيح ابن الله﴾ وحكى عن المشركين أنهم قالوا: " الملائكة بنات الله " فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً

على الفرق الثلاث أو على بعضهم فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ أصبح من السائع في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم:

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية: النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»^(١)

وسبحانه: مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل: أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه

وقوله: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع في الاستدلال على بطلانها

واللام في قوله: ﴿لَّهُ﴾ للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي، و(ما) اسم موصول يراد منه الكائنات: ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله

والمقصود إثبات أن قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أوليستعين به على القيام بأعباء الحياة والله - تعالى - منزّه عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقاءه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصفاته، الباقي على الدوام، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكرامِ﴾ وقوله - تعالى: ﴿كُلُّ لَه قَاتُونَ﴾

معناه: كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصي منهم شيء

على مشيئته وإرادته: شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء {قَانِتُونَ} بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذي ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى - وخص السموات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات

قال القرطبي: " قوله - تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فيعل للمبالغة وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله - تعالى - بديع السموات والأرض، أي منشئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام "

وقوله: {وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} معناه: وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً " وكن فيكون فعلا من الكون بمعنى الحدوث ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففي الكلام استعارة تمثيلية

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن ألا

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكنا بعض الشبهات الباطلة التي أوردها الضالون حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها

ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التي أثارها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا}

عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت

رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية

فالآية الكريمة معطوفة على قوله: **{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}** ومعنى الآية الكريمة **{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** علماً نافعاً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد: **{لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ}** إما مشافهة، أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً

وقد رد الله عليهم بقوله: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** أي: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله

{تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} أي تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال

{قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي: جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة

قال الإمام الرازي: وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقرروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** وحاصل هذا الجواب: أنا قد أيدنا قول محمود بالمعجزات، وبيننا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب العنت وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها:

١ - لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجأجأ

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح في كونها معجزة لأن الخوارق متى توالى كان انخراق العادة عادة فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد بـ **{الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركوا العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكننا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولاً من هذه الآية للأسباب الآتية:

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم

٢ - جملة: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له: **{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** وقالوا: **{أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً}** وطلبوا منه كثيراً من المطالب المتعنتة

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركي العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق

٤ - سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولاً في هذه الآية

٥ - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركوا العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود

وردنا عليهم القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى: **{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا}**

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد بـ {الذين لَا يَعْلَمُونَ} النصارى، مستدلاً بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَه قَانِثُونَ} والنصارى هم الذين قالوا ذلك

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي:

١ - لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحججهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة

٢ - ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب)

هذا وبعد ذلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكننا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً مهما دخل غيرهم معهم في السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي ﷺ

ثم ساق القرآن للنبي ﷺ ما يسلبه ويثبتته فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا} (١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة ١٨ / بتصرف.

المطلب الخامس:

جزاء كتمان آيات الله

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} (١)

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ} قيل: المراد بهذه الآية: علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ والاشتراء هنا: الاستبدال، وقد تقدّم تحقيقه، وسماه قليلاً؛ لانقطاع مدته وسوء عاقبته، وهذا السبب، وإن كان خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله، وأخذ عليه الرشا، وذكر البطون دلالة، وتأكيذاً أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلان أرضي، ونحوه، وقال في الكشاف: إن معنى: {فِي بُطُونِهِمْ} ملء بطونهم: قال: يقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه انتهى

وقوله: {إِلَّا النَّارَ} أي: أنه يوجب عليهم عذاب النار، فسمى ما أكلوه ناراً؛ لأنه يؤول بهم إليها، هكذا قال أكثر المفسرين، وقيل: إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة، ومثله قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} (٢) وقوله: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ} فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم، وعدم الرضا عنهم، يقال فلان لا يكلم فلاناً: إذا غضب عليه وقال ابن جرير الطبري: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبونه لا بما يكرهونه كقوله تعالى: {اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} (٣)، وقوله: {وَلَا يُزَكِّيهِمْ} معناه: لا يثني عليهم خيراً قاله الزجاج وقيل معناه: لا يصلح أعمالهم الخبيثة، فيطهرهم

وقوله: {اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} قد تقدّم تحقيق معناه وقوله: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب، والمراد: تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة

(١) سورة البقرة: ١٧٤ - ١٧٦.

(٢) النساء: ١٠.

(٣) المؤمنون: ١٠٨.

للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم

وحكى الزجاج أن المعنى: ما أبقاهم على النار، من قولهم: ما أصبر فلاناً على الحبس، أي: ما أبقاه فيه، وقيل المعنى: ما أقلّ جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبراً وقال الكسائي وقطرب: أي ما أدومهم على عمل أهل النار وقيل: «ما» استفهامية، ومعناه التوبيخ: أي أي شيء أصبرهم على عمل النار؟ قاله ابن عباس، والسدي، وعطاء، وأبو عبيدة

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر، أي: ذلك الأمر، وهو العذاب قاله الزجاج وقال الأخفش: إن خبر اسم الإشارة محذوف، والتقدير: ذلك معلوم والمراد بالكتاب هنا: القرآن، **{بِالْحَقِّ}** أي: بالصدق وقيل بالحجة وقوله: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ}** قيل: المراد بالكتاب هنا التوراة، فادّعى النصاري أن فيها صفة عيسى، وأنكرهم اليهود، وقيل: خالفوا ما في التوراة من صفة محمد ﷺ واختلفوا فيها وقيل: المراد: القرآن، والذين اختلفوا كفار قريش، يقول بعضهم هو سحر، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين، وبعضهم يقول غير ذلك

{لَفِي شِقَاقٍ} أي: خلاف **{بَعِيدٍ}** عن الحق، وقد تقدم معنى الشقاق

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}** قال: نزلت في يهود وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعاً قليلاً وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسنتين ضعيفين أنها نزلت في اليهود

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: **{وَأُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى}** قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة **{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: ما أجرأهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: **{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن في قوله: **{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول: ما أجرأهم على النار وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه

الاستفهام، يقول: ما الذي أصبرهم على النار؟ وقوله: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ}** قال: هم اليهود والنصارى **{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** قال: في عداوة بعيدة^(١)

قال سيد قطب رحمه الله: والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة، يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان، ويخشون عليها من البيان وإما هو الدنيا كلها - وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله، ومن ثواب الآخرة

وفي جو الطعام ما حرم منه وما حل يقول القرآن عن هؤلاء: **{مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ}**

تنسيقاً للمشهد في السياق وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم! وكأنما هم يأكلون النار! وإنما حقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة، فإذا هي لهم لباس، وإذا هي لهم طعام!

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة، ويدعمهم في مهانة وازدراء والتعبير القرآني عن هذا الإهمال وهذه المهانة وهذا الازدراء هو قوله:

{لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ}

لتجسيم الإهمال في صورة قريية لحس البشر وإدراكهم لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران **{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**

وتعبير آخر مصور موح: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}** فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنما حقيقة فقد كان الهدى مبدولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب

{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!}

فيا لطول صبرهم على النار، التي اختاروها اختياراً، وقصدوا إليها قصداً
فيا للتهكم الساخر من طول صبرهم على النار! وإنه لجزاء مكافئ لشناعة الجريمة
جريمة كتمان الكتاب الذي أنزله الله ليعلم للناس وليحقق في واقع الأرض، وليكون
شريعة ومنهاجاً فمن كتمه فقد عطله عن العمل وهو الحق الذي جاء للعمل: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}

فمن فاء إليه فهو على الهدى، وهو في وفاق مع الحق، وفي وفاق مع المهتدين من
الخلق، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

شقاق مع الحق، وشقاق مع ناموس الفطرة، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ولقد
كانوا كذلك، وما يزلون وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها فلا تأخذ به جملة، وتمزقه
تفاريق وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ونحن نرى مصداقه
واقعا في هذا العالم الذي نعيش فيه (١)

* * * * *

المطلب السادس:

موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من إطاعتهم

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ
وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (٢)

قوله عز وجل: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ} هذه
الآيات: توبيخ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ واليهود المعاصرين ومن كان على شاكلتهم
إلى قيام الساعة، والكتاب: التوراة، وآيات الله يحتمل أن يريد بها القرآن، ويحتمل

(١) الظلال صفحة ٢٦.

(٢) آل عمران: ٩٨ - ١٠١.

العلامات الظاهرة على يدي النبي ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض، قال الطبري: هاتان الآيتان: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وما بعدهما إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، نزلت بسبب رجل من اليهود، حاول الإغراء بين الأوس والخزرج

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي النُّفَعَةُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ الْيَهُودِيُّ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَظِيمَ الْكُفْرِ، شَدِيدَ الضُّعْفِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَسَدَ لَهُمْ؛ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَهُمْ فِي مَجْلِسٍ يَتَحَدَّثُونَ، فَغَاطَهُ مَا رَأَاهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ بَيْنِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَبِيلَةِ بَهَذَةَ الْبِلَادِ، وَاللَّهِ، مَا لَنَا مَعَهُمْ، إِذَا اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ قَتَى شَابًّا مِنْ يَهُودٍ، فَقَالَ: اعْمِدْ إِلَيْهِمْ، وَاجْلِسْ مَعَهُمْ، وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ أَيَّامِ حَرْبِهِمْ، وَأَنْشِدْهُمْ مَا قَالُوهُ مِنَ الشُّعْرِ فِي ذَلِكَ، فَفَعَلَ الْفَتَى، فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَتَفَاحَرُوا، وَتَنَازَعُوا حَتَّى تَوَاتَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكْبِ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَقَالَوْا، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ شَيْئَكُمْ، وَاللَّهِ، رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذْعَةً، فَعَضِبَ الْقَرِيقَانِ، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، السَّلَاحَ السَّلَاحَ! مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةَ، يُرِيدُونَ: الْحَرَّةَ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَتَجَاوَزَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَاهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ، أَدْعُو الْجَاهِلِيَّةَ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَوَعَظُهُمْ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ؛ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَلْفَوْا السَّلَاحَ، وَبَكَوْا، وَعَانَقَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَانصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ، وَمَا صَنَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ

وقال الحسن وغيره: نزلت في أخبار اليهود الذين يصدّون المسلمين عن الإسلام، ويقولون: إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا

ولا شك في وقوع هذين الشينين، وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك، ومعنى «تُبْعُونَ» أي: تطلبون لها الاعوجاج والافتساد، وأنتم شهداء: يريد جمع شاهد على ما في التوراة من صفة النبي ﷺ، وصدقته، وباقي الآية وعيد

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ الآية: خطابٌ عامٌّ للمؤمنين، والإشارة بذلك وقت نزوله إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة شاس بن قيس

قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، ردٌّ: بمعنى صيّر، فيتعدى إلى مفعولين الأول: الكاف، والثاني: الكافرين؛ كقوله: [الوافر]

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضًا :: وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سُودًا

و﴿يَعْتَصِمُ﴾: معناه: يتمسك، وعَصِمَ الشَّيْءُ، إذا مُنِعَ وَحُمِيَ؛ ومنه: قوله: ﴿يَعْتَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(١) وباقي الآية بيّن^(٢)

أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله بتوبيخ أهل الكتاب على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال: قل لهم: يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلائى سبب تكفرون بدلائل الله الدالة على نبوة محمد وصدقه، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها يا أهل الكتاب كيف تحاولون صرف من آمن بالله ورسوله وأذعن للحق عن سبيل الله الحق المستقيمة، وتحاولون أن تصوروها معوجة، وأنتم عالمون أنها حق، وليس الله غافلا عن أعمالكم وسيجازيكم عليها وقد حذر المؤمنون مما يثيره بعض أهل الكتاب من شبهة قائل: إن تطيعوا بعض أهل الكتاب فيما يبيثونه من الشبهة في دينكم تعودوا إلى الضلال بعد الهداية، ويردوكم جاحدين بعد الإيمان

وتصوروا حالكم العجيبة وأنتم تضلون وتكفرون بعد الإيمان، والقرآن يتلى عليكم، ورسول الله بينكم، يبين لكم ويدفع الشبه عن دينكم، ومن يلجأ إلى ربه ويستمسك بدينه فنعم ما فعل، فقد هداه ربه إلى طريق الفوز والفلاح

وإن باب النار مفتوح إذا لم تتقوا الله، فيأبها الذين آمنوا خافوا الله الخوف الواجب بامتنال الأمور واجتناب المنهيات، ودوموا على الإسلام حتى تلقوا الله^(٣)

* * * * *

(١) هود: ٤٣.

(٢) تفسير الثعلبي صفحة / ٦٢.

(٣) المنتخب صفحة / ٦٢.

المطلب السابع:

المطعمات الحلال وإباحة الزواج بالكتابات

{الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (١)

{الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ}

يجيء في التقييد (باليوم) هنا ما جاء في قوله: {الْيَوْمَ يَسَّرَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ} (٢) وقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (٣)، عدا وجه تقييد حصول الفعل حقيقة بذلك اليوم، فلا يجيء هنا، لأنَّ إحلال الطيبات أمر سابق إذ لم يكن شيء منها محرماً، ولكن ذلك اليوم كان يوم الإعلام به بصفة كلية، فيكون كقوله: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (٤) في تعلق قوله: {الْيَوْمَ} به، كما تقدّم

ومناسبة ذكر ذلك عقب قوله: {الْيَوْمَ يَسَّرَ} و{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ} أنَّ هذا أيضاً مئة كبرى لأنَّ إلقاء الأحكام بصفة كلية نعمة في النفع في الدين

والكلام على الطيبات تقدّم آنفاً، فأعيد ليبنى عليه قوله: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} وعطف جملة: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ} على جملة: {الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ} لأجل ما في هذه الرخصة من المنة لكثرة مخالطة المسلمين أهل الكتاب فلو حرّم الله عليهم طعامهم لشقّ ذلك عليهم

والطعام في كلام العرب ما يطعمه المرء ويأكله، وإضافته إلى أهل الكتاب للملابسة، أي ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح قال ابن عطية: الطعام الذي لا محاولة فيه كالبرّ والفاكهة ونحوهما لا يغيّره تملك أحد له، والطعام الذي تقع فيه محاولة صنّعه لا تعلق للدين بها كخبز الدقيق وعصر الزيت فهذا إنْ تُجَنَّبَ من الذمي فعلى جهة التقدر

(١) المائدة: ٥.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) المائدة: ٣.

والتذكية هي المحتاجة إلى الدين والنية، فلمّا كان القياس أن لا تجوز ذبائحهم رخص الله فيها على هذه الأمة وأخرجها عن القياس وأراد بالقياس قياس أحوال ذبائحهم على أحوالهم المخالفة لأحوالنا، ولهذا قال كثير من العلماء: أراد الله هنا بالطعام الذبائح، مع اتفاقهم على أنّ غيرها من الطعام مباح، ولكن هؤلاء قالوا: إنّ غير الذبائح ليس مراداً، أي لأنه ليس موضع تردد في إباحة أكله والأولى حمل الآية على عمومها فتشمل كلّ طعام قد يظن أنّه محرّم علينا إذ تدخله صنعتهم، وهم لا يتوقّفون ما نتوقّى، وتدخله ذكاتهم وهم لا يشترطون فيها ما نشترطه ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح

و{الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}: هم أتباع التوراة والإنجيل، سواء كانوا ممّن دعاهم موسى وعيسى عليهما السلام إلى اتباع الدين، أم كانوا ممّن اتبعوا الدينين اختیاراً؛ فإنّ موسى وعيسى ودعوا بني إسرائيل خاصّة، وقد تهوّد من العرب أهل اليمن، وتنصّر من العرب تغلب، وبهراء، وکلب، ولخم، ونجران، وبعض ربيعة وفسّان، فهؤلاء من أهل الكتاب عند الجمهور عدا عليّاً بن أبي طالب فإنه قال: لا تحلّ ذبائح نصارى تغلب، وقال: إنهم لم يتمسّكوا من النصرانية بشيء سوى شرب الخمر

وقال القرطبي: هذا قول الشافعي، وروى الربيع عن الشافعي: لا خير في ذبائح نصارى العرب من تغلب وعن الشافعي: من كان من أهل الكتاب قبل البعثة المحمّدية فهو من أهل الكتاب، ومن دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فلا يقبل منه إلاّ الإسلام، ولا تقبل منه الجزية، أي كالمشركين

وأما المجوس فليسوا أهل كتاب بالإجماع، فلا تؤكل ذبائحهم، وشدّ من جعلهم أهل كتاب وأما المشركون وعبدّة الأوثان فليسوا من أهل الكتاب دون خلاف

وحكمة الرخصة في أهل الكتاب: لأنهم على دين إلهي يُحرّم الخبائث، ويتقي النجاسة، ولهم في شؤونهم أحكام مضبوطة متبعة لا تظنّ بهم مخالفتها، وهي مستندة للوحي الإلهي، بخلاف المشركين وعبدّة الأوثان وأما المجوس فلم يحرّم كتاب لکنه ليس بالإلهي، فمنهم أتباع (زَرَادُشت)، لهم كتاب (الزندفستا) وهؤلاء هم محلّ الخلاف وأما المجوس (المَانَوِيّة) فهم إباحية فلا يختلف حالهم عن حال المشركين وعبدّة الأوثان، أو هم شرّ منهم وقد قال مالك: ما ليس فيه ذكاة من طعام المجوس فليس بحرام يعني إذا كانوا يتقون النجاسة وفي «جامع الترمذي»: أنّ أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله ﷺ

عن قدور المجوس فقال له: «أُنْقُوها غسلاً واطبخوا فيها» وفي البخاري: أن أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن آنية أهل الكتاب فقال له: «إن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها» قال ابن العربي: «فغسل آنية المجوس فرض، وغسل آنية أهل الكتاب ندب» يُريد لأن الله أباح لنا طعام أهل الكتاب فقد علم حالهم، وإنما يسري الشك إلى آنيته من طعامهم وهو مأذون فيه، ولم يبح لنا طعام المجوس، فذلك منزع التفرقة بين آنية الفريقين

ثم الطعامُ الشامل للزكاة إنما يعتبر طعاماً لهم إذا كانوا يستحلونه في دينهم، ويأكله أبحارهم وعلماءهم، ولو كان ممّا ذكر القرآن أنه حرّمه عليهم، لأنهم قد تأوّلوا في دينهم تأويلات، وهذا قول مالك وأرى أن دليله: أن الآية عمّت طعامهم فكان عمومها دليلاً للمسلمين، ولا التفات إلى ما حكى الله أنه حرّمه عليهم ثم أباحه للمسلمين، فكان عموم طعامهم في شرعنا مباحاً ناسخاً للمحرّم عليهم، ولا نصيرُ إلى الاحتجاج «بشرع من قبلنا» إلا إذا لم يكن لنا دليل على حُكمه في شرعنا وقيل: لا يؤكل ما علمنا تحريمه عليهم بنصّ القرآن، وهو قول بعض أهل العلم، وقيل به في مذهب مالك، والمعتمد عن مالك كراهة شحوم بقر وغنم اليهود من غير تحريم؛ لأنّ الله ذكر أنه حرّم عليهم الشحوم ومن المعلوم أن لا تعمل ذكاة أهل الكتاب ولا إباحة طعامهم فيما حرّمه الله علينا بعينه: كالخنزير والدم، ولا ما حرّمه علينا بوصفه، الذي ليس بذكاة: كالميتة والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع، إذا كانوا هم يستحلون ذلك، فأما ما كانت ذكاتهم فيه مخالفة لذكاتنا مخالفة تقصير لا مخالفة زيادة فذلك محلّ نظر كالمضروبة بمحدّد على رأسها فتموت، والمفتولة العنق فتتمزّق العروق، فقال جمهور العلماء: لا يؤكل

وقال أبو بكر ابن العربي من المالكية: تؤكل وقال في «الأحكام»: فإن قيل فما أكلوه على غير وجه الزكاة كالخنق وحطم الرأس فالجواب: أن هذه ميتة، وهي حرام بالنصّ، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن، كالخنزير فإنّه حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا يريد إباحتها عند النصارى ثم قال: ولقد سُئِلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها؛ هل تؤكل معه أو تؤخذ طعاماً منه؟ فقلت: تؤكل لأنها طعامه وطعام أبحاره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقاً وكلّ ما يروونه في دينهم فإنّه حلال لنا في ديننا» وأشكل على كثير من الناظرين وجه الجمع بين كلام

ابن العربي، وإنما أراد التفرقة بين ما هو من أنواع قطع الحلقوم، والأوداج ولو بالخنق، وبين نحو الخنق لحبس النفس، ورَضَّ الرأس وقول ابن العربي شذوذ

وقوله: **{وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}** لم يعرِّج المفسِّرون على بيان المناسبة بذكر **{وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}** والذي أراه أن الله تعالى نبَّهنا بهذا إلى التيسير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنا أن نُطعمهم طعامنا، فعلم من هذين الحكمين أن علة الرخصة في تناولنا طعامهم هو الحاجة إلى مخالطتهم، وذلك أيضاً تمهيد لقوله بعد: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}** لأن ذلك يقتضي شدة المخالطة معهم لتزوّج نسائهم والمصاهرة معهم

{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}^(١)

عطف **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ}** على **{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ}** عطف المفرد على المفرد ولم يعرِّج المفسِّرون على بيان المناسبة لذكر حِلِّ المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحة تزوّج نسائهم وعندي: أنه إيماء إلى أنهنَّ أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصود هو حكم المحصنات من الذين أوتوا الكتاب فإن هذه الآية جاءت لإباحة التزوّج بالكتابات فقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}** عطف على **{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ}** فالتقدير: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم

والمُحْصَنَاتُ: النسوة اللائ أخصنهنَّ ما أخصنهنَّ، أي منعهنَّ عن الخنا أو عن الريب، فأطلق الإحصان: على المعصومات بعصمة الأزواج كما في قوله تعالى في سورة النساء (٢٤) عطفاً على المحرّمات **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}**؛ وعلى المسلمات لأنَّ الإسلام ورَّعهن عن الخنا، قال الشاعر:

ويصدّهن عن الخنا الإسلام :: وأطلق على الحرائر

لأنَّ الحرائر يترقّعن عن الخنا من عهد الجاهلية ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأول، إذ لا يحلّ تزوّج ذات الزوج، ولا الثاني لقوله: **{مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ}** الذي هو ظاهر في

(١) المائدة: ٥.

أنهنّ بعض المؤمنات فتعيّن معنى الحرية، ففسّر لها مالك بالحرائر، ولذلك منع نكاح الحرّ الأمة إلا إذا خشي العنت ولم يجد للحرائر طَوْلاً، وجوّز ذلك للعبد، وكأنّه جعل الخطاب هنا للأحرار بالقرينة وبقرينة آية النساء (٢٥) {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} وهو تفسير بيّن ملتئم وأصل ذلك لعمر بن الخطاب ومجاهد ومن العلماء من فسّر المحصنات هنا بالعائف، ونقل عن الشعبي وغيره، فمنعوا تزوّج غير العفيفة من النساء لرقّة دينها وسوء خلقها

وكذلك القول في تفسير قوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي الحرائر عند مالك، ولذلك منع نكاح إماء أهل الكتاب مطلقاً للحرّ والعبد والذين فسّروا المحصنات بالعائف منعوا هنا ما منعوا هناك

وشمل أهل الكتاب: الذميين، والمعاهدين، وأهل الحرب، وهو ظاهر، إلا أنّ مالكاً كره نكاح النساء الحربيات، وعن ابن عباس: تخصيص الآية بغير نساء أهل الحرب، فمنع نكاح الحربيات ولم يذكروا دليله

والأجور: المهور، وسمّيت هنا (أجوراً) مجازاً في معنى الأَعْوَاض عن المنافع الحاصلة من آثار عُقْدَةِ النكاح، على وجه الاستعارة أو المجاز المرسل والمهر شعار متقدم في البشر للفرقة بين النكاح وبين المخادنة ولو كانت المهور أجوراً حقيقة لوجب تحديد مدّة الانتفاع ومقداره وذلك ممّا تنزّه عنه عقدة النكاح

والقول في قوله: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} كالقول في نظيره: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} ^(١)

وجملة {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} معترضة بين الجمل والمقصود التنبيه على أنّ إباحة تزوّج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تركية لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين وقد ذكر في سبب نزولها أنّ نساء أهل الكتاب قلن «لولا أنّ الله رضي ديننا لم يباح لكم نكاحنا» والمراد بالإيمان الإيمان المعهود وهو إيمان المسلمين الذي بسببه لقبوا بالمؤمنين، فالكفر هنا الكفر بالرسول، أي: ينكر الإيمان، أي ينكر ما يقتضيه الإيمان من المعتقدات، إذ الإيمان صار لقباً لمجموع ما يجب التصديق به

والحَبْط بسكون الموحدة والحَبوط: فساد شيء كان صالحاً، ومنه سمي الحَبْط بفتحين مرض يصيب الإبل من جرّاء أكل الخَضِر في أوّل الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت وفعل (حَبَط) يؤذن بأنّ الحابط كان صالحاً فانقلب إلى فساد والمراد من الفساد هنا: الضياع والبطلان، وهو أشدّ الفساد، فدلّ فعل (حَبَط) على أنّ الأعمال صالحة، وحُذِف الوصف لدلالة الفعل عليه وهذا تشبيهه لضياع الأعمال الصالحة بفساد الذوات النافعة، ووجه الشبه عدم انتفاع مكتسبها منها والمراد ضياع ثوابها وما يترقبه العامل من الجزاء عليها والفوز بها

والمراد: التحذير من الارتداد عن الإيمان، والترغيب في الدخول فيه كذلك، ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا تنفعهم قرباتهم وأعمالهم، ويعلم المشركون ذلك^(١)

* * * * *

المطلب الثامن:

نقض أهل الكتاب الموثيق والعهود الدينية

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَفَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ^(٢)}

قال الفخر الرازي: قوله - تعالى - {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ} اعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم

(١) تفسير ابن عاشور: ١٠٧.

(٢) المائدة: ١٢ - ١٤.

نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم في هذا الخلق الذميمة

الثاني: أنه لما ذكر قوله: {اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ} وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائهم، وبيان أنهم كانوا أبداً مواظبين على نقض العهود والمواثيق

الثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك التمرد والعصيان فذكر - سبحانه - أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بهم، بل هي عادة جارية له مع جميع عباده^(١)

فالآن يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من مواعظهم؛ واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم؛ وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم؛ التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم؛ وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه

ويحتوى هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى، عند إنقاذهم من الذل في مصر؛ ثم نقضهم لهذا الميثاق؛ وما حاق بهم نتيجة نقضهم له؛ وما أصابهم من اللعنة والطرده من مجال الهدى والنعمة وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا: إنا نصارى ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة التي أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها، فنكسوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم وقالوا لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها، كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواثيق؛ التي عاهدوا الله فيها

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة: ١٠٩.

على توحيده والإسلام له؛ في مقابل ما أعطاهم من النعم، وما ضمن لهم من التمكين؛ فأبوا ذلك كله على أنفسهم؛ فباؤوا باللعنة والفرقة والتشريد

كذلك يتضمن دعوتهم من جديد إلى الهدى الذي جاءتهم به الرسالة الأخيرة؛ وجاءهم به الرسول الأخير ودحض ما قد يدعونه من حجة في أنه طال عليهم الأمد، ومرت بهم فترة طويلة منذ آخر أنبيائهم، فנסوا ولبس عليهم الأمر فما هو ذا قد جاءهم بشير ونذير فسقطت الحجة، وقام الدليل

ومن خلال هذه الدعوة، تتبين وحدة دين الله - في أساسه - ووحده ميثاق الله مع جميع عباده: أن يؤمنوا به، ويوحدوه، ويؤمنوا برسله دون تفريق بينهم، وينصروهم، ويسيروا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وينفقوا في سبيل الله من رزق الله فهو الميثاق الذي يقرر العقيدة الصحيحة، ويقرر العبادة الصحيحة، ويقرر أسس النظام الاجتماعي الصحيح

فالآن نأخذ في استعراض هذه الحقائق كما وردت في السياق القرآني الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)

لقد كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين؛ متضمناً شرطاً وجزاء والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الاثني عشر، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب - وهو إسرائيل - وهم ذرية الأسباط - أحفاد يعقوب - وعدتهم اثنا عشر سبطاً وكان هذا

(١) المائدة: ١٢، ١٣.

(٢) المائدة: ١٤.

نصه:

{وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (١)

{إِنِّي مَعَكُمْ} وهو وعد عظيم فمن كان الله معه، فلا شيء إذن ضده ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود - في الحقيقة - له ولا أثر ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله - سبحانه - تهديه كما أنها تكفيه ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربته من الله يطمئنه ويسعده وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما له زيادة يستريدها على هذا المقام الكريم

ولكن الله - سبحانه - لم يجعل معيته لهم جزافاً ولا محاباة؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده إنما هو عقد فيه شرط وجزاء

شرطه: إقامة الصلاة لا مجرد أداء الصلاة إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر!

وإيتاء الزكاة اعترافاً بنعمة الله في الرزق؛ وملكيته ابتداء للمال؛ وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه - وهو المالك والناس في المال وكلاء - وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن؛ وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيدٍ قليلة سبباً في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطنته؛ كما يفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه

كل هذا الشر الذي تحول دونه الزكاة؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال؛ وفي دورة الاقتصاد

والإيمان برسُل الله كلهم دون تفرقة بينهم فكلهم جاء من عند الله؛ وكلهم جاء بدين الله وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً

وليس هو مجرد الإيمان السلبي، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزهرهم فيما ندبهم الله له، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض لينصر ما آمن به، وليقيم في الأرض، وليحقق في حياة الناس فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية إنما هو منهج واقعي للحياة ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة، وتعزيز، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه وإلا فما وفي المؤمن بالميثاق

وبعد الزكاة إنفاق عام يقول عنه الله - سبحانه - إنه قرض لله والله هو المالك، وهو الواهب ولكنه - فضلاً منه ومنة - يسمى ما ينفقه الموهوب له - متى أنفقه الله - قرضاً لله

ذلك كان الشرط فأما الجزاء فكان: تكفير السيئات والإنسان الذي لا يني يخطيء، ولا يني يندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره

وجنة تجري من تحتها الأنهار وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق

وكان هنالك شرط جزائي في الميثاق: {فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} فلا هدى له بعد ذلك، ولا أوبة له من الضلال بعد إذ تبين له الهدى، وتحدد معه العقد، ووضح له الطريق، وتأكد له الجزاء

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل عن وراءهم وقد ارتضوه جميعاً؛ فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم فماذا كان من بني إسرائيل!

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام - وهو آخر أنبيائهم - وحرفوا كتابهم - التوراة - ونسوا شرائعها فلم ينفذوها، ووقفوا من خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - موقفاً لئيماً ماکراً عنيداً، وخانوه وخانوا موافقهم معه فباؤوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة

لاستقبال هذا الهدى

{فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا
مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}

وصدق الله فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم

لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا - مكرراً - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الله الطاهر النظيف القويم

{وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ}

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمّر المكر والخيانة، ولا تنني تمكر وتغدر إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتأمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يراعون فيهم إلا ولا ذمة أكثرهم كذلك كما وصفهم الله سبحانه في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي

أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم
والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة، تعبير
طريف:

{وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ}

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة يجملها النص بحذف
الموصوف وإثبات الصفة «خائنة» لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي
ظلالها وحدها على القوم فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول
ﷺ ومع الجماعة المسلمة

**{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}**

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ}

ودلالة هذا التعبير: أنهم قالوها دعوى، ولم يحققوها في حياتهم واقعاً ولقد
كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية في
خط النصرانية التاريخي وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذكروا به؛ ونسيانه هو
الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف
بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تعد في القديم وفي الحديث (كما
سنبين إجمالاً بعد قليل) وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله
سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة جزاء وفاقاً على نقض ميثاقهم معه،
ونسيانهم حظاً مما ذكروا به ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا
يصنعون؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في
التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله - سبحانه - في كتابه الصادق الكريم؛ وسال
من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسئل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله
سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛ أو بسبب الخلافات

على الرياسة الدينية؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعاً هؤلاء وهؤلاء لإعلانهم برسالة خاتم النبيين؛ وإنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين، وللناس أجمعين فهم مخاطبون بها، مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم؛ والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه، ولم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم: كقول النصارى: إن المسيح عيسى ابن مريم هو الله وكقولهم هم واليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه ويختتم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة؛ ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم^(١)

* * * * *

(١) الظلال صفحة: ١٠٩ / المكتبة الإلكترونية الشاملة.

المطلب التاسع:

العلاقة مع غير المؤمنين

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (١)

قال الألوسي: أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرَا الإسلام وناقفا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله - تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا}

والدين: هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله والذي يتخذ دين امرئ هزوا ولعبا، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا

وقوله: {هُزُوءًا} أي سخرية يقال: فلان هزئ من فلان إذا سخر منه، واستخف به وأصله هزاء، فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها

وقوله: {لَعِبًا} أي ملهاة وعبثا وأصله من لعب الطفل يقال عن الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعبه

والمعنى: يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان {لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ} الذي هو سر سعادتك وعزتك {هُزُوءًا وَلَعِبًا} أي: اتخذوه مادة لسخريتهم وتهكمهم، وموضعا لعبتهم ولهوهم

و{مَنْ} في قوله: {مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ} بيانية

أي: مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم والمراد بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى وسموا بذلك؛ لأن أصل شرعهم ينتمي إلى كتاب منزل هو التوراة والإنجيل وفي وصفهم بذلك هنا، توبيخ لهم، حيث إنهم استهزؤوا بالدين الحق، مع أن كتابهم ينهاهم عن ذلك

والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم وقرأ الجمهور: {وَالْكَافَرِ} بالنصب عطفًا على {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ} المبين بقوله: {مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}

وقرأ أبو عمرو والكسائي (الكفار) بالجر عطفًا على {مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} وقرأ: {أُولِيَاءَ} أي: نصراء وأصفاء وهو المفعول الثاني لقوله {لَا تَتَّخِذُوا} والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى - ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين؛ لأن الجميع يشتركون في الاستهزاء بتعاليم الإسلام، وفي العبث بشعائره

وقوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} تذييل قصد به استنهاض همتهم لامثال أمر الله - تعالى - وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط أي: واتقوا الله في سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاةكم في غير موضعها، ولا تخالفوا الله أمراً إن كنتم مؤمنين حقاً، ممتثلين صدقاً، فإن وصفكم بالإيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين قال سيد قطب رحمه الله:

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء

ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر إلى آخر هذه التقارير الحاسمة

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يفهم عن موالاته بعضهم لبعض في حربه والكيد له

وسداجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! - ناسين تعليم القرآن كله؛ وناسين تعليم التاريخ كله

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال

مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وأريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن قرارات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولواء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرؤون القرآن وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة اللواء الذي يحذر منه القرآن

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: {الَّذِينَ آمَنُوا}

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولواء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة وكان هذا كله طبيعياً مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله؛ بكل صنوف الكيد

ونزل القرآن ليثبت الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية فهذه صفة المسلم دائماً ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

بعضهم أولياء بعض إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة لقد ولي بعضهم بعضاً في حرب محمد ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة وولي بعضهم بعضاً في كل فجاء الأرض، على مدار التاريخ ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو بعضهم أولياء بعض ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:

{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه فهو عنيف نعم؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذين يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فهذا مفرق الطريق

وما يمكن أن يتمتع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينة وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام؛ ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد؛ يختلف عن كل الأنظمة الأخرى؛ ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد ﷺ وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد؛ لا نظير له بين سائر المناهج؛ ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر؛ ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر؛ ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه؛ ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه الاعتقادية والاجتماعية؛ لم يأل في ذلك جهداً ولم يقبل من منهجه بديلاً ولا في جزء منه صغير ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو وحده الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضىه للناس؛ في وجه العقبات الشاقة والتكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره مما هو قائم في الأرض من جاهلية سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك أو في انحراف أهل الكتاب أو في الإلحاد السافر، بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة؛ يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل

الأديان السماوية يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي إنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً ؛ ولا يقبل فيه تعديلاً ولو طفيفاً هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} {وَآخَذَهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة ؛ والتي ينزل القرآن من أجلها بهذا التحذير فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة (١)

ثم ذكر - سبحانه - بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره، فقال تعالى: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا}

والمراد بالنداء للصلاة: الإعلام بها عن طريق الأذان

قال القرطبي: كان إذا أذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا

وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمحه من أمر

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا} قال: كان رجل من النصارى بالمدينة، إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرف الكاذب فدخل خادمه ليلاً من الليالي بنار، وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس منها

أي: وإذا ناديتهم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضاً إلى الصلاة عن طريق الأذان،

(١) الظلال صفحة: ١٠٧/المكتبة الإلكترونية الشاملة.

اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعاً لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم
واسم الإشارة في قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} يعود إلى ما كان منهم من
استهزاء وسخرية

أي: ذلك الذي صدر عنهم من استهزاء وعبث سببه أنهم قوم سفهاء جهلاء، لا
يدركون الأمور على وجهها الصحيح، ولا يستجيبون للحق الذي ظهر لهم بسبب عنادهم
وأحقادهم

قال ابن كثير: هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين
يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على
كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزوا يستهزؤون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من
اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد

كما قال القائل

وكم من عائب قولاً صحيحاً :: وآفته من الفهم السقيم

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيراً شديداً من موالاة أعدائه عقب ذلك بتوبيخ
أهل الكتاب على عنادهم وحسدتهم، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي ينأى عنها
العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ}

قال القرطبي: قال ابن عباس: " جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن
يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال: نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى
إبراهيم وإسماعيل إلى قوله: ونحن له مسلمون " فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا:
والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم فنزلت
هذه الآية وما بعدها

وتنقمون معناه: تسخطون وقيل تكرهون وقيل تنكرون والمعنى متقارب يقال: نقم
من كذا ينقم ونقم ينقم والأول أكثر وفي التنزيل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز
الحميد وانتقم منه أي: عاقبة: والاسم النعمة والجمع نقم

والاستفهام، للإنكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين ما هو المدح
والثناء والتكريم

والمعنى: قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكتاب، والتعجيب من أحوالهم قل لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم ﴿هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا﴾ أي: ما تعيبون وتتكرون وتكرهون منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذي يجب الإيمان به، والخضوع له، لأنه الخالق لكل شيء، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالنوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال القرآن الكريم

ولا شك أن إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر، بل يمدح ويشكر، ولكن لأن ﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ - أي: خارجون عن دائرة هذا الإيمان الحق - كرهتم منا ذلك، وأنكرتموه علينا، وحسدتمونا على توفيق الله إيانا لما يحبه ويرضاه

وقال الجمل ما ملخصه: وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ مفعول لقوله: ﴿تَقْمُونَ﴾ بمعنى تكرهون وهو استثناء مفرغ وقوله: ﴿مِنَّا﴾ متعلق به أي ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وأصل نقم أن يتعدى بعلی تقول: نقمته عليه بكذا وإنما عدي هنا بمن؛ لتضمنه معنى تكرهون وتتكرون

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ يحتمل أن يكون في محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي: وفسقكم ثابت عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وجمع الأموال حملكم على العناد

والنصب على أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ ولكن الكلام فيه مضاف محذوف لفهم المعنى والتقدير: واعتقاد أن أكثرهم فاسقون وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين أنهم - أي الكفار - فاسقون - أي: ما تعيبون منا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا واعتقادنا أن أكثركم فاسقون

وأما الجر فعلى أن يكون معطوفاً على علة محذوفة والتقدير: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل

لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم

هذا ومن بلاغة القرآن الكريم، وإنصافه في الأحكام، واحتراسه في التعبير أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم بل جعل الحكم بالفسق منصباً على الأكثرين منهم، حتى

يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب

وشبيهه بهذا قوله في آية أخرى: {مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} قال بعض العلماء: في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر، موجبا للنقمة، مع كونه في نفسه موجبا للقبول والرضا وهذا مما تقصد العرب في مثله تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضي إثباته فهو منتفأ أبداً ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فمن الأول قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم :: بهن فلول من قراع الكتائب
وقول الآخر:

فتى كملت أخلاقه غير أنه :: جواد، فما يقي من المال باقياً
ومن الثاني هذه الآية وما يشبهها أي: ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئاً إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً إذا فليس هناك شيء ينقمونه، وما دام الأمر كذلك، فينبغي لهم أن يؤمنوا ولا يكفروا وفيه أيضاً تقرير لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع
ثم تابع - سبحانه - التهكم بهم، وتعجب الناس من أفن رأيهم، مع تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال: {قُلْ هَلْ أَنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟}

والمشار إليه بقوله: {ذَلِكَ} يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبر عنها بقوله: {وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره أو لتأويله بالمذكور ونحوه

والخاطب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم وقيل للكفار مطلقاً، وقيل للمؤمنين
والمثوبة: مصدر بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها في الخير
وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة على طريقة التهكم بهم كما في قوله - تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله: {بشر} وقوله: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ} خبر لمبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله: والمراد اليهود لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من **{لَعَنَهُ اللَّهُ}** أي أبعد من رحمته **{وَعَضِبَ عَلَيْهِ}** بأن منع عنه رضاه **{وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ}** بأن مسخ بعضهم قردة وبضعهم خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي ابتعوا بها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم

فإن قيل: إن قوله: **{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً}** يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر إلا أن ما عليه اليهود أشد شراً، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك؟

فالجواب، أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجارة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ: إن هؤلاء اليهود - يا محمد - ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شراً - مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيت والإزامهم الحجة:

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شراً لا خير فيه - في زعمكم فشر منه عاقبة ومالاً ما أنتم عليه من لعن وطرده من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله وشبيه بهذه الآيات في مجارة الخصم في زعمه قوله - تعالى: **{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** وقوله: **{أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ}** بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم

أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرده من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك **{شَرٌّ مَّكَانًا}** من غيرهم وأكثر ضلالاً عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم في الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار

وقوله: **{أُولَٰئِكَ}** مبتدأ وقوله: **{شَرٌّ}** خبره، وقوله: **{مَّكَانًا}** تمييز محول عن الفاعل

وأثبت - سبحانه - الشرية لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم، إذ أن إثبات الشرية لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه فكأن شرهم قد أثر في مكانهم، أو عظم وضمخ حتى صار متجسماً

وقوله: {وَأَصْلٌ} معطوف على {شَرٌّ} مقرر له والمقصود من صيغتي التفضيل في قوله: {أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَصْلٌ} الزيادة مطلقاً من غير نظر إلى مشاركة غيرهم في ذلك أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ}

قال الألوسي: نزلت كما قال قتادة والسدي - في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به نفاقاً والخطاب للنبي ﷺ وأصحابه

والضمير في: {جَاءُوكُمْ} يعود على اليهود المعاصرين للنبي ﷺ

أي: وإذا جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإسلام، وقالوا لكم: آمنا بأنكم على حق، وحالهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به - أيضاً - فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هي لا تتأثر بالمواعظ التي يلقيها الرسول ﷺ لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم

وقوله: {وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ} جملتان في موضع الحال من ضمير الجمع في {قَالُوا}

والباء في قوله: {بِالْكَفْرِ} وقوله: {بِهِ} للملابسة أي: دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا تغيير فيه البتة

قال الفخر الرازي: وذكر عند الدخول كلمة {قَدْ} وذكر عند الخروج كلمة: {هُمْ} لأن الفائدة من ذكر كلمة {قَدْ} تقريب الماضي من الحال والفائدة من ذكر كلمة: {هُمْ} التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون للنبي ﷺ في ذلك فعل، أي: لم يسمعوا منك يا

محمد عند جلوسهم معك ما يوجب كفراً، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم

ويبدو لنا أنه عبر عن دخولهم بقوله: **{وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ}** وعبر عن خروجهم بقوله: **{وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ}** بإضافة ضميرهم مع قد، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفراً، وأقسى قلوباً منهم عند دخولهم

وهذا شأن الجاحدون المنافقون، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة، ولا النذر مما كانت قوية، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواعظ تزيدها يقيناً على يقينها، وإيماناً على إيمانها ألا ترى إلى قوله - تعالى: **{وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}** وقوله - تعالى: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ}** وعيد شديد لهم على كفرهم ونفاقهم

أي: والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع عند دخولهم وعند خروجهم، لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية من أحوالهم

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال: **{وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ}**

والرؤية في قوله: **{وَتَرَى}** بصرية

والإثم: هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله - تعالى

والعدوان: مجاوزة الحد في الظلم والتعدي والسحت: هو المال الحرام كالرشوة وغيرها

أي: وترى - أيها الرسول الكريم أو أيها السامع - كثيراً من هؤلاء اليهود، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث والتعبير بقوله: **{وَتَرَى}** يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافياً أو مستوراً، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من جوههم

والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها في الخير كما قال - تعالى: **{أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}** **{نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ}** وقد

استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها

والتعديّة بحرف {في} تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام؛ وأنهم ينتقلون فيها في حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكان السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم

وقوله: {لِبئس مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} تذييل قصد به تقبيح أعمالهم التي يأبأها الدين والخلق الكريم

أي: لبئس شيئاً كانوا يعملونه هذه المنكرات التي منها مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت

وهذه الجملة هي حكم من الله - تعالى - عليهم بدم أعمالهم وقد جمع - سبحانه - في حكمه بين صيغة الماضي {كانوا} وصيغة المضارع {يعملون} للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم بالقسم، وباللّام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس الدالة على شدة الذم أي: أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت

ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال:

{لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ}

و{لولا} هنا للحض على الفعل في المستقبل، وللتوبيخ على تركه في الماضي فهي لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الماضي ولحضهم على مباشرتهم في المستقبل وهي هنا بمعنى هلا

والربانيون: كما يقول ابن جرير - جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم

والأحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد في التوراة من أقوال وأحكام

والمعنى: إن هؤلاء دأبهم المسارعة إلى اقتتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام، فهلا ينهاهم علماءهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة، وعن تلك المآكل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت

والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة سمي سحتا من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة أي مقطوعها أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها واليهود أرغب الناس في المال الحرام وأحرصهم عليه

وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيمهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل، إذ القول الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل، وقال في الناس ما ليس فيهم بدون تحرج أو حياء

وأكل السحت يقتل في نفسه المروءة والشرف، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم

ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل سيغفره الله لهم، ألا ترى قول الله - تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قال بعض العلماء: واقتصر - سبحانه - في توبيخ الربانيين على ترك نهيمهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان - الذي ورد في الآية السابقة إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد في النصر على غير المجني عليه ضعف

وقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام

أي: والله لبئس الصنع صنعهم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال: والمعنى، أن الله - تعالى - استبعد من

علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه - تعالى - ذم الفريقين بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخاً متمكناً، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان كمثلاً للمرض الذي شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقي كما هو

وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها

وقال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل المعاصي، هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب» (١)

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس!! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تماردوا أخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً، ولا يقرب أجلاً

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ووصفتهم بجملة من الصفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون، ويجعلوا ولاءهم لله ولرسوله وإخوانهم في العقيدة والدين (٢)

* * * * *

(١) مسند أحمد/ ١٨٤١٩.

(٢) تفسير سيد طنطاوى صفحة: ١١٧.

الفصل الرابع: فى مجال الأخلاق والآداب

المبحث الأول: علاقة أهل الكتاب برسلمهم وتعتت اليهود:

المطلب الأول:

بعض قبائح اليهود وجزاؤهم

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^(١)}

لقد كانوا بين الصحراء بجديها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء لقد أخرجهم الله - على يدي نبيهم موسى - عليه السلام - من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعفة وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيّفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها! وهذا ما يذكرهم القرآن به وهم يدعون في المدينة دعواهم العريضة:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}

ولقد تلقى موسى - عليه السلام - طلبهم بالاستنكار:

{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟}

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية؟

{اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ}

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء؛ فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها ويكون هذا من موسى - عليه السلام - تأنيباً لهم وتوبيخاً

وأنا أرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين ^(١)، أرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى:

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن - من الناحية التاريخية - في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم: {اهْبِطُوا مِصْرًا} هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم - وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين - وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ٨/.

أبشع المعصية وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل! ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبية كانوا دائماً يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعد الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوها يقرر قاعدة وحدة الإيمان ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح وإن فضل الله ليس حجباً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (١)

والذين آمنوا يعني بهم المسلمين والذين هادوا هم اليهود - إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا - والنصارى هم أتباع عيسى - عليه السلام - والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم (٢)

* * * * *

(١) البقرة: ٦٢.

(٢) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ٩.

المطلب الثاني :

مؤمنوا أهل الكتاب

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (١)

قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أخبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (٢)

واختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين وقال الآخرون: تمام الكلام عند قوله: {لَيْسُوا سَوَاءً}

قال ابن مسعود رضي الله عنه معناه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق، المستقيمة، وقوله تعالى: {أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيعوه ولم يتركوه

وقال مجاهد: عادلة وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحدوده، وقيل: قائمة في الصلاة وقيل: الأمة الطريقة

ومعنى الآية: أي ذو أمة أي: ذو طريقة مستقيمة

{يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ} يقرؤون كتاب الله وقال مجاهد: يتبعون

{آنَاءَ اللَّيْلِ} ساعاته، واحدها: إنِّي مثل نحى وأنحاء، وإنِّي وآناء مثل: معي وأمعاء وإنِّي مثل منا وأمناء

(١) آل عمران: ١١٣ - ١١٥.

(٢) انظر أسباب النزول للواحي صفحة / ١٥٢.

وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قوله تعالى: {مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} ثم قال: {لَيْسُوا سَوَاءً} يعني: المؤمنين والفاستين ثم وصف الفاسقين فقال: {لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَى} ووصف المؤمنين بقوله: {أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} وقيل: قوله: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} ابتداء بكلام آخر، لأن ذكر الفريقين قد جرى، ثم قال: ليس هذان الفريقان سواء ثم ابتدأ فقال: من أهل الكتاب.

{وَهُمْ يَسْجُدُونَ} أي: يصلون لأن التلاوة لا تكون في السجود

واختلفوا في معناها فقال بعضهم: هي في قيام الليل، وقال ابن مسعود: هي صلاة العتمة يصلونها ولا يصلوها من سواهم من أهل الكتاب

وقال عطاء: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة" الآية يريد: أربعين رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمداً ﷺ وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي ﷺ منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن سلمة ومحمود بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين، يغتسلون من الجنابة، ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبي ﷺ فصدقوه ونصروه^(١)

قوله - تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} يعود لأهل الكتاب الذين تقدم الحديث عنهم وهو اسم ليس، وخبرها قوله {سَوَاءً} والجملة مستأنفة للثناء على من يستحق الثناء منهم بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم

قال ابن كثير: والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال - تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} أى ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم

وقوله - تعالى: {مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} استئناف مبين لكيفية عدم التساوى ومزيل لما فيه من إيهام

أى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه

فمعنى قائمة: مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام

أو معناها: ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به، كما فى قوله - تعالى: {إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا} أى ملازمة لمطالبته بحقك ومنه قوله

- تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أى ملازماً له والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصفها الله - تعالى - بأنها ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السر والعلن، كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

وقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ من التلاوة وهى القراءة، وأصل الكلمة من الاتباع، فكان التلاوة هى اتباع اللفظ اللفظ

والمراد بآيات الله هنا: ما أنزله على رسوله محمد ﷺ من قرآن وقوله: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أى أوقاته وساعاته والآناء جمع إنى - كمعاً وأمعاء - أو جمع أنى - كعصاً - أو جمع أنى وإنى وإنو فالهمزة فى آناء منقلبة عن ياء كرداء: أو عن واو ككساء والمراد بالسجود فى قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسبيح، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»

والمعنى: ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار

قال الألوسى ما ملخصه: والمراد بصلاتهم هذه: التهجد - على ما ذهب إليه البعض - وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتييس لهم التلاوة، لأنها فى المكتوبة وظيفية الإمام والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة واستدل عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب» وعبر عن الصلاة بالسجود، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجوداً وسجدة، وركوعاً وركعة

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال: **{يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** والمراد بهذا: الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق به الشرع، وجاء به محمد ﷺ

{واليوم الآخر} أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله: **{وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}** إشعار بأنهم لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله، وتستنكره العقول السليمة

وقوله - تعالى: **{وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}** أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - بدون تردد أو تقصير

وقال - سبحانه: **{وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}** ولم يقل إلى الخيرات للإشعار بأنهم مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير، فهم ينتقلون من خير إلى خير فى دائرة واحدة هى دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بـفى المفيدة للظرفية

والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه، لأن من رغب فى الأمر يسارع فى توليه وفى القيام به، واختيار صيغة المفاعلة " يسارعون " للمبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير، وألوان البر

قال صاحب الكشف وقوله: **{يَتْلُونَ}** و**{يُؤْمِنُونَ}** فى محل الرفع صفتان لأمة أى: قائمة تالون مؤمنون وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان، لإشراكهم به عزيزا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض: ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته

ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مدهنيين ومن المسارعة فى الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها "

واسم الإشارة فى قوله: **{وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}** يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات

السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان بالله واليوم الآخر
 أى وأولئك المصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن من جملة الصالحين الذين
 صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم، واستحقوا ثناءه عليهم
 وفى التعبير بقوله: **{مَنْ الصالحين}** إشارة إلى أنهم بهذه المزايا وتلك الصفات، قد
 انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين
 فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف
 الممدوحين

قال الفخر الرازى: واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن
 والمعقول أما القرآن، فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء، فقال بعد
 ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم: **{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين}**
 وذكر حكاية عن سليمان أنه قال: " وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين " وأما
 المعقول، فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد، سواء كان
 ذلك فى العقائد أو فى الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد
 حصل الصلاح، فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات

ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة، بل سيكافئهم
 على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال: **{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ}** أى أن هؤلاء الذين
 وصفهم بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح، وإنما
 سيجازيهم بما هم أهلهم من ثواب جزيل، وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان
 و**{وَمَا}** فى قوله: **{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ}** شرطية وفعل الشرط قوله: **{يَفْعَلُوا}** وجوابه
 قوله: **{فَلَن يُكْفَرُوهُ}**

و**{مِنْ}** فى قوله: **{مِنْ خَيْرٍ}** لتأكيد العموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا
 أم كثيرا فلن يحرموا ثوابه

وأصل الكفر: الستر والتغطية وقد صح تعديّة الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا
 بمعنى حرم

ولذا قال صاحب الكشف: فإن قلت لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان

إلا إلى واحد؟ تقول: شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل: فلن يحرّمه بمعنى: فلن يحرّموا جزاءه "

وقوله: {وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة

وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق وأنهم يتلون آيات آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرن بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون فى الخيرات، وأنهم من الصالحين

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرّموا ثوابه، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا

الحديث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعدّه الله لهم من، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى كفرهم وفسوقهم فقال - تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} (١)

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّٰهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (٢)

القول فى تأويل قوله: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّٰهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فىمن عنى بهذه الآية

فقال بعضهم: عنى بها أصحاب النجاشي، وفيه أنزلت (٣)

(١) سيد طنطاوي صفحة / ٦٤ .

(٢) ال عمران: ١٩٩ .

(٣) الطبري: ٧٦ .

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، {لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى وقد قال تعالى في سورة القصص: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا هُمْ يَتَّبِعُونَهَا} وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ قَبْلَهُ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} ^(١)، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} ^(٢)

وقال: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} ^(٣)، وقال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} ^(٤)

وقال تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} ^(٥)، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا كما وجد في عبد الله ابن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى:

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَّا بَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} ^(٦)، وهكذا قال هاهنا: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}

(١) القصص: ٥٢ - ٥٤.

(٢) البقرة: ١٢١.

(٣) الأعراف: ١٥٩.

(٤) آل عمران: ١١٣.

(٥) الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩.

(٦) المائدة: ٨٢ - ٨٥.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لما قرأ سورة {كهيعص} بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطارقة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضبوا لحاهم

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إِنْ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ» فخرج بهم إلى الصحراء، فَصَفَّهم، وصلى عليه ^(١) وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيك» فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لِعَلْج مات بأرض الحبشة فنزلت: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} ^(٢)

* * * * *

المطلب الثالث:

تعنت اليهود

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَكُفْرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} ^(٣)

ساق ابن جرير بسنده: قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفا من الله مكتوبة

(١) صحيح البخاري برقم (١٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ابن كثير صفحة / ٧٦.

(٣) النساء: ١٥٣ - ١٥٩.

إلى فلان وفلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة "سبحان": {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} (١)

ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم وهذا مفسر في سورة "البقرة" حيث يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٢)

وقوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ} أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٣)

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة "الأعراف"، وفي سورة "طه" بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل: {فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا}

ثم قال تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ} وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (٤)

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

(٢) البقرة: ٥٥، ٥٦.

(٣) الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) الأعراف: ١٧١.

{وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً، وهم يقولون: حطة أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد وتحولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة

{وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} أي: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعا لهم **{وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}** أي: شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: **{وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ}** ^(١)، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة "سبحان" عند قوله: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}** ^(٢)، وفيه: "وعليكم - خاصة يهود - أن لا تعدوا في السبت"

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ قَتَلْنَا اللَّهَ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوهُ وَلَكِنَّ شُبَّةَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} ^(٣)

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام

قوله: **{وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}** وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعا غفيرا من الأنبياء بغير حق عليهم السلام

وقولهم: **{قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي في غطاء وهذا كقول المشركين: **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}**

(١) الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦.

(٢) الإسراء: ١٠١.

(٣) النساء: ١٥٥ - ١٥٩.

مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ^(١) وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلف للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس

قال الله تعالى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى بل هو مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة

{فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي: مَرَدَتْ قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "يعني أنهم رموها بالزنا" وكذا قال السدي، وجُوَيِّرَ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة

وقولهم: {إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}^(٢)

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكفم والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان -

(١) فصلت: ٥.

(٢) الحجر: ٦.

وأنهوا إليه: أن ببيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، وكيف أذاه عن الناس فلما وصل الكتاب امتثل مُتَوَلِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصره هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكانه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو

وَفُتِحَتْ رَوَازِيءُ من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنَّةً من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَوِّنْ عَنْكَ هَؤُلَاءِ وَذَرِكْهُمْ أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأَبْصَارَ مِنَ الْغَيْبِ﴾ (١) وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (١)

فلما رفع خرج أولئك نفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقيون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاله وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون -:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ

اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه} يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر ولهذا قال: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} أي منيع الجنب لا يرام جنبه، ولا يضام من لاذ ببابه {حَكِيمًا} أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم

وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمداً ﷺ (١)

القول في تأويل قوله: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به"، يعني: بعيسى "قبل موته"، يعني: قبل موت عيسى يوجّه ذلك إلى أن جميعهم يصدّقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم ﷺ (٢)

عن ابن عباس قوله: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته"، يعني: أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى، فيؤمنون به، "ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" (٣)

ثم سجل عليهم بعد ذلك رذيلة سابعة ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد في كل زمان ومكان فقال: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} والمسيح: لقلب تشريف وتكريم لعيسى - عليه

(١) الطبري / ١٠٢.

(٢) وثقه الطبري بإسناده عن ابن عباس.

(٣) الطبري / ١٠٣.

السلام - قيل: لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم وقيل: لأنه مسح بالبركة كما فى قوله - تعالى: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ﴾ وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب

أى: وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لعنهم الله وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم السابقة وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله، ورسولا من أولى العزم من الرسل

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلا، وسلخوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة، ففسدوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه، بل زعموا أنهم أسلموا فعلا لهم، ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، حيث نجى عيسى - عليه السلام - من شرورهم، ورفعهم إليه دون أن يمسه سوء منهم

ولا شك أن صدر عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه، لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى - عليه السلام - كما بينا، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره، وفى نيته، وفى شروعه الأثيم، لارتكاب ما نهى الله عنه

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى - عليه السلام - أعداء له، عامدين لقتله، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فيكيف قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؟

قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم، رفعا

لعيسى عما كانوا يذكرونه به، وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقوله - تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رد على مزاعمهم الكاذبة، وأقاولهم الباطلة التي تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - أى: إن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام -، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلاً آخر يشبه عيسى - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله

وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف: قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى: شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونهم المسيح وما هو فى الواقع، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء

وقيل لمعنى: ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهم بذلك أحبارهم

هذا، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان:

الأول: أن الله - تعالى - ألقى شبه عيسى - عليه السلام - على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو (يهوذا الإسخريوطى) الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح، والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: من أقبله أمامكم يكون هو المسيح، فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بين عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى

وهذا الوجه قد جاء مفصلاً فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقوله: كان رجلٌ من الحواريين ينافس عيسى - عليه السلام - فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهماً، فدخل بيت عيسى - عليه السلام - فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى

الثانى: أن الله - تعالى - ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حيناً أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه، فقال لأصحابه: «أيكم يرضى أن يلقي عليه

شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟» فقال رجل منهم أنا فألقى الله صورة عيسى عليه، فقتل ذلك الرجل وصلب

وقد أطنب الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه، ومنها قوله: عن ابن عباس قال: لما أراد الله - تعالى - أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم: إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى

قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى، ويكون معى فى درجتى؟ فقال شاب من أحدثهم سنا فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقال ذلك الشاب فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: أنا

فقال له عيسى، هو أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية، وقال غير واحد من السلف: أنه قال لهم أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليهم، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه

ثم قال - تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أى: وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره أى: فى حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه، أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة ولا يقوم عليه برهان

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيرا فمنهم من زعم أنه ابن الله وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى

ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين معا ولقد اختلفوا فى أمر قتله فقال بعض اليهود: إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقا، وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا إلى غير ذلك من خلافاتهم التي لا تنتهي حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه فالمراد بالموصول في قوله: **{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا}** ما يعم اليهود والنصارى جميعاً والضمير في قوله: (فيه) يعود إلى عيسى - عليه السلام وقوله: **{مُّنَّه}** جار مجرور متعلق بمحذوف صفة الشك قال الآلوسى: وأصل الشك أن يستعمل في تساوى الطرفين، وقد يستعمل في لازم معناه وهو التردد مطلقاً، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد هنا ولذا أكد بنفى العلم الشامل لذلك أيضاً بقوله - سبحانه: **{مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ}** وقوله: **{إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ}** الراجح أن الاستثناء فيه منقطع، أى مالهم به من علم لكنهم يتبعون الظن

وقوله: **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه من قتلهم له، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف واليقين: هو العلم الجازم الذى لا يحتمل الشك والضمير في قوله: **{وَمَا قَتَلُوهُ}** لعيسى وقوله: **{يَقِينًا}** ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها: أنه نعت لمصدر محذوف مأخوذ من لفظ قتلوه: أى: ما قتلوه قتلاً يقيناً، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسى عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم أو هو حال مؤكدة لنفى القتل أى انتفى قتلهم إياه إنتفاء يقيناً فاليقين منصب على النفى أى: أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به، وليس ظنا كظنكم أو وهماً كوهمكم يا معشر أهل الكتاب

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقوله: قوله: **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** أى: وما قتلوه قتلاً يقيناً أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم: **{إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ}** أو يجعل **{يَقِينًا}** تأكيداً لقوله: **{وَمَا قَتَلُوهُ}** كقولك: ما قتلوه حقاً أى حق انتفاء قتله حقاً والمعنى: أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - وزعمهم هذا أبعد ما يكون عن الحق والصواب، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه، فقد نجاه الله من مكرهم، ورفع عيسى إليه، وكان الله **{عَزِيزًا}** أى منيع الجباب، لا يلجأ إليه أحدٌ إلا أعزه وحماه **{حَكِيمًا}** فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور

هذا، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسى إليه بجسده وروحه لا بروحه فقط قال بعض العلماء: والجمهور على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء والخصوصية له - عليه السلام - هي في رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمر المقدر له

وفى بعضهم الرفع في قوله - تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ بأنه رفع بالروح فقط وقد بسطنا القول في هذه المسألة عند تفسيرنا لسورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنِي مَرْيَمُ هَؤُلَاءِ مَتَوَفَّيَكَ وَارْفَعُكَ إِلَيَّ﴾ و﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمعنى ما النافية، والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه

وللمفسرين في تفسير هذه الآية اتجاهان:

الأول: أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى عيسى - عليه السلام - وعليه يكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى - عند نزوله في آخر الزمان - حق الإيمان، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى: قبل موت عيسى، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى - عليه السلام: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أى: على أهل الكتاب ﴿شَهِيداً﴾ فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير فقد قال - بعد سرد الأقوال في الآية -: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله: ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأن المقصود من سياق الآيات، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهالة ذلك فقد أخبر الله - تعالى - أن الأمر لم يكن كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى، وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة

ثم عقد ابن كثير فصلاً عنونه بقوله: ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك به

ثم ساق ابن كثير جملة من الأحاديث في هذا المعنى منها: ما رواه الشيخان عن أبي

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها»

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: {وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله: {وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} وعليه يكون المعنى: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبد الله ورسوله، وأن الله واحد لا شريك له، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه جاء فى وقت الغرغرة، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان

قالوا: ويؤيد هذا التأويل قراءة أبى: {إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ} - بضم النون وبميم الجمع وقد صدر صاحب الكشف كلامه بذكر هذا التأويل فقال ما ملخصه: والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله يعنى: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه

فإن قلت: ما فائدة الإخبار بعيسى قبل موتهم؟ قلت فائدته: الوعدى، وليكون عملهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيهها على معاجلة الإيمان به فى وقت الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم وقيل: الضميران لعيسى بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله

والذى نراه أولى أنه لا تعارض بين التأويلين فإن كلا منهما حق فى ذاته فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقاً فى نبوته، وأنه عبد الله، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه (١)

* * * * *

المطلب الرابع : بعض أوصاف اليهود

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} (١)

يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وذلك من سوء تصور يهود الله سبحانه فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك وقد قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة، وقالوا يد الله مغلولة يعللون بذلك بخلمهم ؛ فالله بزعمهم لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر ؛ فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا يد الله مغلولة ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا وكذلك كانوا فهم أبخل خلق الله بمال ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وعطاياه التي لا تكف ولا تنفذ لكل مخلوق ظاهرة للعيان شاهدة باليد المبسوطة والفضل الغامر والعطاء الجزيل ناطقة بكل لسان ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم وبالكنود وبالجحود وبالبذاءة حتى في حق الله ويحدث الله رسوله عما سيبدو من القوم وعما سيحل بهم بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فبسبب من الحقد والحسد

وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً لأنهم وقد أبوا الإيمان لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل ؛ ولا بد أن يزدوا تبجحاً ونكراً وطغياناً وكفراً فيكون الرسول رحمة للمؤمنين ووبالاً على المنكرين ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم ؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيه تلها ؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، وما تزال طوائف اليهود متعادية وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند ؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشمل على الحقيقة كاملة ففي خلال ألف وثلاثمائة عام بل من قبل الإسلام واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه مهما تقم حولهم الأسناد ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله فأين هي العصبة المؤمنة اليوم التي تتلقى وعد الله وتقف ستارا لقدر الله ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام تؤمن به على حقيقته ؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله واليهود يعرفون هذا ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد ؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض ويضربون لا بأيديهم ولكن بأيدي عملائهم ضربات وحشية منكورة ؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة ولكن الله غالب على أمره ووعد الله لا بد أن يتحقق وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض ؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفي عليه ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين

الدرس السادس: أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء لا افتراق بين دين ودنيا ولا افتراق بين دنيا وآخرة فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة ؛ للدنيا وللدين

تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ؛ وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾^(١) إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ؛ والعقل البشري والموازين البشرية والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج بإزاء هذا الأمر الخطير إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم وهذا جزاء الآخرة وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل لصلحت حياتهم الدنيا ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع وصلاح أمر الحياة ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها وكثير منهم ساء ما يعملون

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده وإن كان هو المقدم وهو الأდوم ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة ووفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا وهذا المنهج

ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ولكنه كذلك وتبعاً لذلك منهج حياة إنسانية واقعية يقام وتقام عليه الحياة وإقامته مع الإيمان والتقوى هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية وفيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع حتى يأكل الناس جميعاً في ظل هذا المنهج من فوقهم ومن تحت أرجلهم

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلاً من الدنيا ؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلاً من سعادة الدنيا ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمايرهم وأوضاعهم الواقعية لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة لا يرى أن هنالك سبيلاً للالتقاء بين الطريقتين ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحى بهذا حقيقة إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله وعن منهجه للحياة اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع الدنيوية أن يتخلوا عن طريق الآخرة ؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف الذي يحض عليه الدين كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ولا مرضية لله سبحانه ولكن تراها ضربة لازب ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة كلا إنها ليست ضربة لازب فالعداء بين الدنيا والآخرة ؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلاً إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا وأن يكون

الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا ؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضىه للناس فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل في التوزيع فيفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم كما يقول الله في كتابه الكريم

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله بإذن الله وفق شرط الله ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها بل الخامات والموارد الكونية كذلك هو الوفاء بوظيفة الخلافة ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه كما يصور التعبير القرآني الجميل ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له عاصيا لله ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها وهو يقول للملائكة {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} وهو يقول كذلك للناس: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا والمنهج الإسلامي بهذا يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق فلا يفوت على الإنسان دنياه لينال آخرته ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله

فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة في المنهج الإسلامي لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج ؛ وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه الله فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون ولا يأكل من سحت ولا يحتجز

دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئاً يملكه مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحققها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع والمنهج يسجل للفرد عمله في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات عبادة الله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة

ويربط المنهج بين الفرد وربّه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة وفي العام الواحد ثلاثين يوماً بصوم رمضان وفي العمر كله بحج بيت الله وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج الذي ينظم أمر الحياة كلها ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق

وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض وتقرير سلطانه في حياة الناس إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج المعين على أداء شطره الآخر وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين إن التصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا ولا العكس إنما يقدمهما معا في طريق واحد وبجهد واحد ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل والتصور الإسلامي وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ؛ بينما يدع الناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين

في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي فريضة الخلافة في الأرض والإيمان والعبادة والصالح والتقوى تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس وهذه تلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الآخروي معا

والطريق هو الطريق ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم والتي منها يقوم في أوهاام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع لأنهما لا تجتمعان إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة وبين العبادة الروحية والإبداع المادي وبين النجاح في الحياة الدنيا والنجاح في الحياة الأخرى إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية إنما هو ضريبة بائسه فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرذ عن منهج الله وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه وهي ضريبة يؤديها الناس من دمانهم وأعصابهم في الحياة الدنيا فوق ما يؤديه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى

إنهم يؤديونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبله خاطر من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه إذا هم أثروا إطراح الدين كله على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ولا تطيق الفراغ والخواء وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية على الإطلاق لأنها جوعة النزعة إلى إله، وهم يؤديونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبله خاطر إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراتهم وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية وتتصور أو يصور لها أعداء البشرية أن الدين لله وأن الحياة للناس وأن

الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة بل ينسق ولا يجوز أن نخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي ولا تقيم منهج الله في حياتها وهي موفورة الخيرات كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء إنه رخاء موقوت حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني

والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء وحافلا بالأحقاد وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة وهو بلاء على رغم الرخاء وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره إن عاجلاً أو آجلاً إلى تدمير الحياة المادية ذاتها

فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم وبخاصة أشدها رخاء مادي مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال

ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحاً كافياً يلفت الأنظار وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ولم ينتشر الموت بالسكينة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي وليس هذا إلا مثلاً للآخرين في فعل الافتراق بين

النشاط المادي والمنهج الرباني ؛ وافتراق الدنيا والآخرة وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس ؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل جماعة من الناس أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة ؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ولكننا مع هذا التأكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة فضلاً على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ؛ ويرفع كل قيم الحياة ؛ ويقوم كل موازين الحياة فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي

وفي المنهج الإسلامي وكل شيء فيه يجيء تبعاً له ومنبثقاً منه ومعتمداً عليه ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة كل أولئك ثمرته للإنسان وللحياة الإنسانية فانه سبحانه غني عن العالمين وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس وجعلها مناط العمل والنشاط ؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها وعده باطلاً لا يقبل وحابطاً لا يعيش وذاهباً مع الريح فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو

أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله فهي كلها لحسابنا نحن لحساب هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا وهي كلها ضروريات لصالح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب، فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن، أولى بالشرط الذين يقولون إنهم مسلمون فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد وقد انتهى إليه كل دين قبله ؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره أو يقبل من أحد غيره فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ؛ ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح وشرط الله قائم ؛ والطريق إليه معروف لو كانوا يعقلون

الوحدة السادسة: الموضوع: بيان كفر وانحراف وإفساد أهل الكتاب

مقدمة الوحدة تقرير نوع العلاقة بين الجماعة المسلمة وأهل الكتاب يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكشف الانحراف فيما يعتقدون وكشف السوء فيما يصنعون ؛ في تاريخهم كله وبخاصة اليهود^(١)

* * * * *

المطلب الخامس :

علاقة أهل الكتاب برسلمهم

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(١)}

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}: العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤديوا ما كلفهم به من تكاليف وأن يتبعوا النبي ﷺ عند ظهوره

وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أي: بالله لقد أخذنا الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من الأمور والمنهيات والشرائع والأحكام

وقوله: {وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا} معطوف على {أَخَذْنَا} والتذكير في قوله: {رُسُلًا} للتكثير والتعظيم

أي: أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم، وأرسلنا إليهم رسلاً ذوي عدد كثير، لكي يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، ولكي يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم

فأنت ترى أن الله - تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به

ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق، اكتفاء بذكره في مواطن أخرى كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - قبل ذلك في هذه السورة

(١) المائدة: ٧٠ - ٧٥.

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا،}

وقوله: {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} بيان لموقفهم الذميم من الميثاق الذي أخذ عليهم ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهدايتهم وسعادتهم أي: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لهدايتهم ولكنهم نقضوا الميثاق، وعصوا الرسل، فكانوا {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ} لما لا تشتيه نفوسهم الشقية، وبما لا تميل إليه قلوبهم الرديئة، ناصبوه العداة؛ فكذبوا بعض الرسل، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل

ولقد كذب اليهود جميع الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم وقتلوا من بين من قتلوا من الرسل بعد أن كذبهم: زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله ﷺ إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرهم وكيدهم قال صاحب الكشف: وقوله: {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ} جملة شرطية وقعت صفة لقوله: {رُسُلًا} والرباط محذوف: أي: رسول منهم {بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ} أي بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم

فإن قلت: أين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف يدل عليه {فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} فكأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه

والتعبير بقوله: {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} يدل على أن حال بني إسرائيل بالنسبة للرسل يدور بين أمرين أما التكذيب لهم، والاستهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة

فكان التكذيب والقتل قد صار سجتين لهم لا تختلفان في أي زمان ومع أي رسول، وذلك لأن لفظ: " كل " يدل على العموم " وما " مصدرية ظرفية دالة على الزمان، فكأنه - سبحانه - يقول في كل أوقات مجيء الرسل إليهم كذبوا ويقتلوا دون أن يفرقوا بين رسول ورسول أو بين زمان وزمان

وقال - سبحانه: {بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ} للمبالغة في ذمهم، إذ هوى النفس ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا تنبغي، والرسل ما أرسلهم الله - تعالى - إلا لهداية الأنفس،

وكفها عن شهواتها التي يؤدي الوقوع فيها إلى المفساد
وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل، ويقتلونهم إلا لأنهم جاءهم بما يخالف هواهم،
ويتعارض مع أنانيتهم وشرهم ومطامعهم الباطلة

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات، ترى الحسن
قبيحا، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها

وقدم - سبحانه - المفعول به في قوله: **{فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}** للاهتمام بتفصيل
أحوال بني إسرائيل السيئة، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم

وعبر عن التكذيب بالفعل الماضي فقال: **{فَرِيقًا كَذَّبُوا}** وعن القتل بالفعل المضارع
فقال: **{وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}** لحكاية الحال الماضية التي صدرت من أسلافهم بتصوير ما حصل
في الماضي كأنه حاصل وقت التكلم، ولاستحضار جريمتهم البشعة في النفوس حتى
لكأنها واقعة في الحال، وفي ذلك ما فيه من النعي عليهم والتوبيخ لهم والتعجيب من
أحوالهم التي بلغت نهاية الشناعة والقبح

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسلهم من التكذيب والقتل لم
ينزجروا، ولم يندموا بلغ بهم الغرور والسفاهة أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئا هينا وأنه لن
يكون له أثر سيئ في حياتهم فقال - تعالى: **{وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}**

وقوله: **{وَحَسِبُوا}** معطوف على قوله: **{كَذَّبُوا}** وهو من الحسبان بمعنى الظن:
وقوله: **{فِتْنَةٌ}** من الفتن وهو إدخال الذهب في النار لتظهر جودته والمراد بها هنا:
الشدائد والمحن والمصائب التي تنزل بالناس

والمعنى: إن بني إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد، وأرسلنا إليهم الرسل
لهدائيتهم، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل، وقتلوا البعض الآخر ولم يكتفوا بهذا بل
ظنوا - لسوء أعمالهم وفساد قلوبهم واستيلاء الغرور والتكبر على نفوسهم - أنهم لن
يصيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون
البغي والفساد وعموا وصموا عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل واشتملت
عليها الكتب السماوية **{ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}** أي: قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه

من فساد {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا} أي: ثم نكسوا على رؤوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على هدايتهم، إلا عددا قليلاً منهم بقي على إيمانه وتوبته فأنت ترى أن الآية الكريمة مسوقة لبيان فساد معتقدات بني إسرائيل وما جبلت عليه نفوسهم من جحود وغرور

حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ومنكرات تقشعر لها الأبدان ومع كل ذلك حسبوا أن الله - تعالى - لا يعاقبهم عليها، لأنهم - كما يزعمون - أبناء الله وأحباؤه ثم إنهم بعد أن تاب الله عليهم نقضوا عهودهم معه وعادوا إلى أعمالهم عن الدين الذي جاءتهم به رسلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذي ألقوه إليهم

وقوله: {أَلَا تَكُونُ} قراءة أبو عمر والكسائي وحمزة بضم النون على اعتبار " أن " هي المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة فخفف {أن} وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا

وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم وقراءة الباقر بفتح النون على اعتبار أن " أن " ناصبة لتكون وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن

وسد مسد مفعولي حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسنود إليه وهو {أن} وما في حيزها

وقوله: {فَعَمُوا} معطوف على {حَسَبُوا} وجيء بالفاء التي للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها

أي أن عماهم عن الطريق القويم وصمم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا

ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أوماً إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم في الآخرة ببيان أن ظنهم لن تنزل بهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح أما الآخرة فلا مكان لها في تفكيرهم، لأنهم قوم تعساء يحرصون على الدنيا حرصاً شديداً دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أي اهتمام

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان وتغلب عليها حب الشهوات وضعف

الوازع الديني في نفوس أفرادها إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصوراً على تدبير شؤون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلاً وشرباً وملذاتهم أغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة

وجيء بحرف العطف {ثم} المفيد للتراخي في قوله: {ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} للإشارة إلى أن قبول توبتهم كان بعد مفاصد عظيمة وقعت منهم أي: ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعراض عن الرشد والهدى

وقوله: {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا} بيان لنقضهم لعهودهم مع الله، وارتكاسهم في الذنوب والخطايا والمنكرات ارتكاساً شديداً بحيث صاروا ليسوا أهلاً لقبول التوبة منهم بعد ذلك أي: بعد أن قبل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا في الذنوب والجرائم بإصرار وعناد فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يتب الله عليهم بعدها

وقوله: {كَثِيرٌ مِّنْهُمْ} بدل من الضمير في قوله: {عَمُوا وَصَمُوا} وهذا الإبدال في غاية الحسن لأنه لو قال: {عَمُوا وَصَمُوا} بدون هذا البدل لأوهم ذلك أنهم جميعاً صاروا كذلك فلما قال: {كَثِيرٌ مِّنْهُمْ} دل على أن العمى والصمم قد حدث للكثيرين منهم، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها وهذا - كما قلنا مراراً - من إنصاف القرآن للناس في أحكامه، ودقته في ألفاظه، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه

وقوله: {وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ} تذييل قصد به بطلان حسابانهم المذكور، والبصير مبالغة في المبصر وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يكون منهم من أعمال سواء أبصرها الناس أم لم يبصروها

والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء وسيحاسبهم على أعمالهم

أي: والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية، والصمم الذي أصابهم بعد ذلك وقد أجمل الإمام الرازي كلامهم فقال:

والآية تدل على أن عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: المراد أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم للإيمان: ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ بأن أنكروا نبوته، وقلة منهم هي التي آمنت به

الثاني: المراد أنهم عموا وصموا حيث عبدوا العجل، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طلبهم رؤية الله جهرة

الثالث: ذكر الله - تعالى - في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا} والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها هذا التحديد غير مقنع

ولعل أحسن منه أن نقول: إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلاً منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} وبعد أن بين - سبحانه - أنماطاً من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ}

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلهاً، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى

واللام في قوله: **{لَقَدْ كَفَرَ}** واقعة جواباً لقسم مقدر

والمراد بالكفر: ستر الحق وإنكاره والانغماس في الباطل والضلال

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذباً وزوراً: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برئ منها ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى في الرد على من جعلوه إلهاً فقال: **{وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}**

أي: وقال المسيح مكذباً لمن وصفه بالألوهية: يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، فهو ربي الذي خلقتني وتعهدي بالتربية والرعاية، وهو ربكم - أيضاً - الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات

والواو في قوله: **{وَقَالَ الْمَسِيحُ}** للحال والجملة حالية من الواو التي هي فاعل **{قالوا}** أي: قالوا ما قالوا، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه وقال لبني إسرائيل حين إرساله إليهم: اعبدوا الله ربي وربكم

وقوله: **{رَبِّي وَرَبَّكُمْ}** تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخلاق له ولهم ولكل شيء

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذراً من الإشراك فقال: **{إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}**

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك: منعه من دخولها، لإشراكه مع الله آلهة أخرى والمأوى: المكان الذي يأوى إليه الإنسان أي يرجع إليه ويستقر فيه

أي: قال المسيح لبني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، لأنه أي الحال والشأن **{مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ}** شيئاً في عبادته - سبحانه: **{فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ}** أي: منعه من دخولها،

بسبب شركه وكفره، وجعل ﴿وَمَا أَوَاهُ النَّارُ﴾ أي: جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهي حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهي استقرارهم في النار، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التي تدل على جهلهم وسفاهتهم والمراد بالظالمين: المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون "أل" للعهد ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً فتكون أل للجنس

وقال - سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ بصيغة الجمع لكلمة "أنصار" وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم

أي: ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأي طريقة من الطرق وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذي حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك وقوله - تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين يتفرقون في العقائد والنحل، ويتجمعون على الكفر والضلال، فهم شيع شتى، وفرق متنازعة، كل شيعة منهم تكفر الأخرى وتعارضها في معتقداتها قال الفخر الرازي ما ملخصه: في تفسير قول النصارى: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ طريقان: الأول: أنهم أرادوا بذلك أن الله مريم وعيسى آلهة ثلاثة والذي يؤكد ذلك قوله - تعالى - للمسيح: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقولته: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة

أقانيهم: أب، وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمير أو اللبن فزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد

ثم قال الإمام الرازي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى: إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقوسية

ومعنى ثالث ثلاثة: واحد من ثلاثة أي: أحد هذه الأعداد مطلقاً وليس الوصف بالثالث فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وشعرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها: أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير

فتقول: رابع أربعة أي: واحد من أربعة وليس زائداً عليها، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله وقوله: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ} بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على "ما" و"و" إلا "مع تأكيد النفي بمن المفيدة لاستغراق النفي

والمعنى: لقد كفر الذين قالوا كذباً وزوراً: إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس في هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين، الذي خلق الخلق بقدرته، ورباهم بنعمته وإليه وحده مرجعهم وإيابهم

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى: {وَإِنْ لَّمْ يَسْتَهْوَ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله: {لَقَدْ كَفَرَ} والمراد بانتهائهم: رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر

والمراد بقوله: {عَمَّا يَقُولُونَ}: أي عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان

أي: لقد كفر أولئك الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة كفراً شديداً بينا والحق أنه ليس في الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ويعتصموا بعروة التوحيد **{لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي: ليصيبين الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم

فالجملـة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار في هذا القول الكاذب والاعتقاد الفاسد الذي يتنافى مع العقول السليمة، والأفكار القيـمة

وقوله: **{لَيَمَسَنَّ}** جواب لقسم محذوف، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف في قوله: **{وإن لم ينتهوا}** والتقدير: والله إن لم ينتهوا ليمسن

وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم في قوله: **{لَيَمَسَنَّ}** رداً على اعتقادهم أنهم لا تمسهم النار، لأن صلب عيسى - في زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام: لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة، كما قال - تعالى - في آية أخرى: **{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}** وقال - سبحانه: **{لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}** بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم

ومن في قوله: **{منهم}** يصح أن تكون تبعية أي: ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم، لأن كثيراً منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا في دين الإسلام

ويصح أن تكون بيانية، وقد وضع ذلك صاحب الكشاف بقوله: ومن في قوله: **{لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}** للبيان كالتي في قوله **{فاجتنبوا الرجس من الأوثان}** والمعنى: ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة **{عَذَابٌ أَلِيمٌ}** أي نوع شديد الألم من العذاب كما تقول: أعطني عشرين من الثياب تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون

وبعد هذا الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم، فتح لهم - سبحانه - باب رحمته، حيث رغبهم في الإيمان، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم

عليه من عقائد فقال - تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

والاستفهام هنا يتضمن حضهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التي لا يقبلها عقل سليم، ولا تصور قويم

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أي: أيسمعون ما يسمعون من الحق الذي يزهق باطلهم ومن النذر التي ترقق القلوب لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم

قال أبو السعود: وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ مؤكدة للإنكار والتعجب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار أي: والحال أن الله: - تعالى - مبالغ في المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله

وقال ابن كثير: هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه كما قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتها ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

وقوله: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك

قال الراغب: والصديق من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لم يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يأتي منه الكذب لتعوده الصدق وقيل، لمن صدق بقوله واعتقاده وحق صدقه بفعله قال - تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾

فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة

والمعنى: إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قد قالوا منكرًا وزورًا، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعي واحد منهم الألوهية وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصديق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها وهما - أي عيسى وأمه مريم - عبادان من عباد الله كانا يأكلان الطعام، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوها بأنيهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافياً تاماً مع صفات الألوهية: إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم، وعظيم جهلكم

وقوله: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ} جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في عيسى أنه الله، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة

وقوله: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} صفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ وأنه ليس بدعا في هذا الوصف وإذا فلا شبهة للذين زعموا أنه إله " لأنه لم يجئ بشيء زائد على ما جاء به الرسل "

وقوله: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} معطوف على قوله: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ} والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها، ونفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، فهي ليست إلها كما أنها ليست رسولا

ولذا قال ابن كثير: دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم بقوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ} والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} وقوله: {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى -

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالشراب والملبس لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس، ودالة على احتياجهما لغيرهما في مطلب حياتهما، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلها

وقال صاحب الكشف: لأن من احتاج إلى الاغذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفص، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاطٍ وأمزجةٍ مع شهوةٍ وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا لله أن يكون كذلك ففي هذه الجمل الكريمة رد على ما زعمه النصارى في شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال: {انظر كيف بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ} أي: يصرفون يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشيء

أي: انظر - يا محمد - كيف تبين لهم الأدلة المتنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحاً ظاهراً ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن التأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة مع أنه - سبحانه - أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب من أحوالهم الغريبة وحيث بثم المفيدة للتراخي في قوله: {ثُمَّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ} لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد أي: أن بيانا للآيات أمر بديع في بابهِ بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم

ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فأمر رسوله ﷺ أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ} (١)

* * * * *

المطلب السادس:

علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (١)

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبیر قال: بعث النجاشي وفداً إلى رسول الله ﷺ فأسلموا، قال: فأنزل الله فيهم: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ} إلى آخر الآية قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلماً حتى مات، فقال رسول الله ﷺ: «إن أحاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه» فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشي بالحبشة (٢)

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى في سبب نزول هذه الآيات أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا: إنا نصارى، وأن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا، لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه (٣)

فقوله - تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيراً من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم اعتناءً ببيان تحقق مضمونها، والخطاب للنبي ﷺ ويصح أن يكون لكل من يصلح للخطاب للإيذان بأن حالهم لا تخفى على أحد من الناس

(١) المائدة: ٨٢ - ٨٦.

(٢) مسند أحمد: ٢٢١١١.

(٣) ابن جرير الطبري/١١٩.

والمعنى: أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم: وهما اليهود والذين أشركوا، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور وهذه الرذائل متى تمكنت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق

وقوله: {أَشَدُّ النَّاسِ} مفعول أول لقوله: {لَتَجِدَنَّ} ومفعول الثاني {الْيَهُودُ} وقوله: {عَدَاوَةٌ} تمييز

قال الألوسي: والظاهر أن المراد من اليهود العموم، أي من كان منهم بحضرة الرسول الله ﷺ من يهود المدينة وغيرهم ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله» وقيل المراد بهم: يهود المدينة وفيه بعد، وكما اختلف في عموم اليهود اختلف في عموم الذين أشركوا والمراد من {النَّاسِ} كما قال أبو حيان - الكفار: أي لتجدن أشد الكفار عداوة هؤلاء

ووصفهم - سبحانه - بذلك لشدة كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، وقد قيل: إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة

وقوله: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان

أي: لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى

قال ابن كثير: أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة: وما ذاك إلا لما في قلوبهم - من لين عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال - تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً} وفي كتابهم: " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " وليس القتال مشروعاً في ملتهم

وقال الجمل: فإن قلت: كفر النصارى أشد من كفر اليهود لأن النصارى ينازعون

في الألوهية فيدعون أن الله ولدا، واليهود ينازعون في النبوة فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟

قلت: هذا مدح في مقابلة ذم وليس مدحاً على إطلاقه، وأيضاً الكلام في عداوة المسلمين وقرب مودتهم لا في شدة الكفر وضعفه

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين

والقسييين: جمع قسيس وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم

والرهبان: جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع، والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف يقال: رهب فلان ربه يرهبه، أي: خافه

والمعنى: ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى، وذلك لأن منهم القسييين الذين يرغبون في طلب العلم ويرشدون غيرهم إليه، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضاً فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين

وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين لأن غرورهم واستكبارهم جعلهم ينصرفون عن الحق فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار، وأن النبوة يجب أن تكون فيهم والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم، وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبي ﷺ لأنهم وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء

قال الألوسي: وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} والمراد بالرسول: محمد ﷺ وبما أنزل إليه: القرآن الكريم

والجملة الكريمة معطوفة على قوله: **{وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}** والضمير في قوله: **{سَمِعُوا}** يعود على الذين قالوا: إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به أي، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزرة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه

وفي التعبير عنهم بقوله: **{ترى}** الدالة على الرؤية البصرية والتي هي أقوى أسباب العلم الحسي، مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثير عند سماع الحق

فلقد كانوا يحسون أنهم في ظلام وضلال فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم ودخلوا في نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له وقوله: **{تفيض}** من الفيض وهو انصباب عن امتلاء: يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه

وقد أجاد صاحب الكشف في تصوير هذا المعنى فقال: فإن قلت: ما معنى قوله: **{تفيض من الدمع}** قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعاً

فإن قلت: أي فرق بين من ومن في قوله: **{مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ}**؟ قلت: الأولى: لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتداءً ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعية على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال: **{يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ**

{الشاهدين}

أي: يقولون بعد أن سمعوا الحق: يا ربنا إنا آمنا بما سمعنا إيماناً صادقاً فاكْتُبْنَا مَعَ

أمة محمد ﷺ التي آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد ﷺ وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول في الدين الحق، فقال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ فالآية الكريمة من تنمة قولهم

والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهد

والمعنى: وأي مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد ﷺ من قرآن يهدي إلى الرشد ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة، وبالعبادات الصحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبي الأمي محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثراً شديداً فاضت معه أعينهم بالدمع ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التي تشهد على غيرها يوم القيامة ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا﴾ يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق والمسارة إلى العمل الصالح، لم يجزموا بحسن عاقبتهم، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع في مغفرته، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئاً عظيماً، عبر عنه - سبحانه - بقوله: ﴿فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

أي: فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه، {جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم

والمراد بقوله: {يَمَّا قَالُوا}: ما سبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} ورتب الثواب المذكور على القول: لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم، وعلى صدق يقينهم، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان

قال الألوسي: قوله: {فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا} أي بسبب قولهم أو بالذي قالوه عن اعتقاد، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الاعتقاد يكون المراد به المقارن له، كما إذا قيل: هذا قول فلان، لأن القول إنما يصدر عن صاحبه لإفادة الاعتقاد

وقيل: إن القول هنا مجاز عن الرأي والاعتقاد والمذهب كما يقال: هذا قول الإمام الأعظم أي: هذا مذهبه واعتقاده

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذا القول قولهم: {رَبَّنَا آمَنَّا} وقولهم: {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ}

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا مع القوم الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين فأعطاهم - سبحانه - جنات تجري من تحتها الأنهار وسماهم محسنين والإحسان أعلى درجات الإيمان، وأكرم أوصاف المتقين

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فأمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم أما الذين سمعوا فأعرضوا ووجدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السييء بقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}

أي: والذين كفروا ووجدوا الحق الذي جاءهم، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم، أي: النار الشديدة الانتقاد يقال: جحيم فلان النار إذا شدد إيقادها

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا في الدين الحق بسرعة ورغبة، فأكرمهم الله غاية الإكرام،

وهذا ينطبق على كل نصراني ينهج نهجهم، ويسلك مسلكهم، فيدخل في الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير^(١)

* * * * *

المطلب السابع:

إفساد الإسرائيليين وتشريدهم في الأرض مرتين

{وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} (١)

{وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً}

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم فانه سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد {قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن فما سيكون بالقياس إلى علم الله كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلمون في الأرض المقدسة وسيسيطرون وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلب عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماهم ويدمرهم تدميراً:

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا}

فهذه هي الأولى: يعلمون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسدون فيها

فبيعت الله عليهم عبادة من عباده أولي بأس شديد، وأولي بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون باستهتار، ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيب {وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا} لا يخلف ولا يكذب

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل؛ فرجعوا إلى ربهم، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض، أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمستضعفين من المستكبرين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

ثم تتكرر القصة من جديد!

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء

فإذا تقرر القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض، اكتفاء بذكره من قبل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوفُوا وُجُوهَكُمْ﴾ بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تقيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال ويستبيحون المقدسات ويستهيئون بها: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء، والذي لا يبقى على شيء

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميراً

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل، لأن النص عليها

لا يزيد في العبرة شيئاً والعبرة هي المطلوبة هنا وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة: **{عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ}**، إن أفدتم منه عبرة فأما إذا عاد بنوا إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية: **{وإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا}**

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر» ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الولايات وليسطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفقاً لسنته التي لا تتخلف وإن غداً لناظره قريب!

ويختتم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكله:

{وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} تحصرهم فلا يفلت منهم أحد؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد **{وَقُضِيَٰنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}** إخبار من الله - تعالى - لهم، بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه المحيط بكل شيء، والذي ليس فيه إجبار أو قسر، وإنما هو صفة انكشافية، تنبئ عن مآلهم وأحوالهم والمراد بالكتاب: التوراة، وقيل: اللوح المحفوظ واللام في قوله: **{لُتْفُسِدَنَّ}** جواب قسم محذوف تقديره: والله لتفسدن والمقصود بالأرض: عمومها أو أرض الشام

و**{مَرَّتَيْنِ}** منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله: **{لُتْفُسِدَنَّ}** من غير لفظه، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله - عز وجل: **{وَلَتَعْلَنَّ}** من العلو وهو ضد السفلى، والمراد به هنا: التكبر والتجبر والبغي والعدوان

والمعنى: وأخبرنا بنى إسرائيل في كتابهم التوراة خبراً مؤكداً: وأوحينا إليهم بواسطة رسلنا، بأن قلنا لهم: لتفسدن في الأرض مرتين، ولتستكبرون على الناس بغير حق، استكباراً كبيراً، يؤدي بكم إلى الخسران والدمار

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه في الكتاب، يدل على ثبوته، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبي - الإحكام للشيء والفراغ منه وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان

وكان من مظاهر إفسادهم في الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركهم العمل بما فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء والمصلحين

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول في الأرض، من يقهرهم ويستبيح حرمااتهم، ويدمرهم تدميراً، فقال - تعالى: **{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا}**

والمراد بالوعد: الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم في الأرض، فالكلام على حذف مضاف، والضمير في **{أُولَاهُمَا}** يعود على المرتين المعبر عنهما بقول: **{لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}**

وقوله: **{فَجَاسُوا}** معطوف على: **{بَعَثْنَا}** وأصل الجوس: طلب الشيء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب

والمعنى: فإذا حان وقت عقابكم - يا بني إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم **{عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}** أى أصحاب بطش شديد في الحروب والقتال، فأذلوكم وقهروكم، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار، لقتل من بقى منكم على قيد الحياة، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم، وهتك أعراضكم، وتخريب دياركم وعدا نافذا لا مرد له، ولا مفر لكم منه

قال الألوسي: واختلف في تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول - فعن ابن عباس وقتادة: هم جالوت وجنوده، وقال ابن جبير وابن إسحاق: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده وقيل: هم العمالقة، وقيل: بختنصر

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم في المرتين، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة فإن قال قائل: وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بني إسرائيل في التوراة أنهم يفسدون في الأرض مرتين وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان، بأن يسلط عليهم

من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم؟

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئاً، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار، وهو تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا من مواجهة المعاصي التي تؤدي إلى الهلاك، وأن يحذروا أممهم من ذلك، ويصبروهم بسوء عاقبة السير في طريق الغي، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل

ومن فوائد إيراد هذا الخبر في القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للنبي ﷺ ومن على شاكلتهم في الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن الإفساد عاقبته الخسران

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول ﷺ الذي ثبتت نبوته ثبوتاً لا شك فيه، لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار، وهي أن الأمم المغلوبة على أمرها تستطيع أن تسترد مجدها، متى أصلحت من شأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه: **{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا}**

ففي هذه الآية الكريمة تذكير لبني إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله: **{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ}** والكرّة: المرة من الشئ: وأصلها من الكرّ وهو الرجوع، مصدر كر يكر - من باب قتل يقال: كرّ الفارس كرّاً، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال والمراد بالكرة هنا: الدولة والغلبة على سبيل المجاز

أي: ثم أعدنا لكم - يابني إسرائيل - الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم، بعد أن أحسنتم العمل، ورجعتم إلى الله - تعالى - واتبعتم ما جاءكم به رسلكم والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان، وما أفاءه الله

عليهم بعد ذلك من نصر وظفر

قال أبو حيان: وجعل - سبحانه: {رَدَدْنَا} موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله في غاية الثقة في كونه سيقع، عبر عن المستقبل بالماضي

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ}

أى: لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم، بل فضلا عن ذلك، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم

وأما النعمة الثالثة فتتجلى في قوله - تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا}

والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته، وهو منصوب على التمييز والمفضل عليه محذوف، والتقدير: وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم، وأن تحسنوا الاستفادة منها، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة، فقد نصركم بعد هزيمتكم، وأغناكم بعد فقركم، وكثركم بعد قتلكم

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التي لا تتخلف، وهي أن الإحسان عاقبته الفلاح، والعصيان عاقبته الخسران، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه، فقال - تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}

أى: إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم، بأن أدبتموها بالطريقة التي ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم، وجنيتم الثمار الطيبة التي تترتب على هذا الإحسان للعمل، وإن أسأتم أعمالكم، بأن أثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة، خسرتم وشقيتم وتحملتكم وحدكم النتائج الوخيمة التي تترتب على إتيان الأعمال التي لا ترضى الله - تعالى

وقد رأيتكم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ} {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا} فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بني إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى: ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل

قال الجمل ما ملخصه: وقوله: **{ليسوءوا}** الواو للعباد أولى البأس الشديد
وفى عود الواو على العباد نوع استخدام، إذ المراد بهم أولاً جالوت وجنوده،
والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل **{ليسوء}** والفاعل
إما الله - تعالى - وإما الوعد، وإما البعث

وقرأ الكسائي لنسوء - بنون العظمة أى: لنسوء نحن وهو موافق لما قبله، من قوله:
بعثنا، ورددنا، وأمددنا، ولما بعده من قوله: عدنا، وجعلنا، وقرأ الباقر ليسوءوا، مسندا
إلى ضمير الجمع العائد على العباد، وهو موافق لما بعده من قوله: **{وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ}**
{وَلْيَبْرُوا}

وقال الإمام الرازي: ويقال ساءه يسوء إذا أجزه، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة
إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن
حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب،
ظهر الكلوح في الوجه

وقوله - سبحانه: **{وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** معطوف على ما قبله وهو
قوله - سبحانه: **{ليسوءوا وجوهكم}**

والمراد بالمسجد: المسجد الأقصى الذى ببیت المقدس، وقوله: **{كَمَا دَخَلُوهُ}** صفة
لمصدر محذوف

والمعنى: وليدخلوا المسجد دخولا كائناً كدخلهم إياه أول مرة

قال أبو حيان: ومعنى: **{كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال
أى: أن المراد من التشبيه، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوه
وقهروهم

وقوله - تعالى: **{وَلْيَبْرُوا مَا عَلَوْا تُبِيرًا}** يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد
بنى إسرائيل، إذ التبتير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه ومنه قول
الشاعر:

وما الناس إلا عاملان فاعمل :: يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى: يخرّب ويهدم ما يبنى

و " ما " فى قوله {مَا عَلُوا} اسم موصول مفعول يتبروا: وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها، والعائد محذوف، وتنبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله
أى: وليدمروا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها، وصارت فى حوزتهم، تدميرا تاما لا مزيد عليه

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض، لم يكتفوا بجوس الديار، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيلا لا يوصف

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم، وسببا فى توبتهم وإنابتهم، إن فتحوا قلوبهم للحق، واعتبروا بالأحداث الماضية، وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى بأبلغ تعبير وأحكمه فقال - تعالى: {عسى رُبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}

أى: عسى ربكم أن يرحمكم: ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم، فقد علمتم أنه - سبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفعه إلا بتوبة

قال أبو حيان: وهذه الترجية ليست لرجوع دولة، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا
وقوله - سبحانه: {وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا} إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم

أى: وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة أمرى، وانتهاك حرمتى، بعد أن تداركتكم رحمتى، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التي جاءهم بها الرسول ﷺ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله ﷺ وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبي ﷺ وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: " عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين "

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم في الآخرة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: إن عدتم إلى معصيتنا في الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة، أما في الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم ﴿حَصِيرًا﴾ أى: سجنًا: حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه، أو الفكاك عنه، أو فراشا تفترشونه، كما قال - تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ قال بعض العلماء: " قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ فيه وجهان: الأول: أن الحصير المحبس والسجن من الحصر وهو الحبس: يقال حصره يحصره حصرا، إذا ضيق عليه وأحاط به

والثاني: أن الحصير: البساط والفراش، من الحصير الذى يفرش، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا "

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكى لنا قضاء الله - تعالى - فى بنى إسرائيل، وسأقت لنا لى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف، والتى من أبرزها أن الإيمان والصالح عاقبتهم الفلاح، وأن الكفر والفساد عاقبتهم الشقاء، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

هذا، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض، يرى أقوالاً متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فكان أول الفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى " صحابين " فبعث الجنود، وكانوا من أهل فارس فتحصنت بنو إسرائيل ودخل فيهم " بختنصر " - أحد جنود

صحابيين - وسمع أقوالهم إلخ

وهذا الأثر من وجوه ضعفه، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى إسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالى ستة قرون

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات: الأولى فى سنة ٦٠٦ ق م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق م، والثالثة فى سنة ٥٨٨ ق م

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقارباً لعصره، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى وإذا فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومع " بختنصر " يتنافى مع الحقائق التاريخية

وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الأثر اضطرابه ظاهر، لأن " صحابين " ملك النبط، هو الذى يسميه المؤرخون " سنحاريب " وكان ملكاً للأشوريين، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة، أى: أن بختنصر لم يكن معاصراً له

والرأى الذى نختاره: هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول، هم جالوت وجنوده ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلي:

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل، وبين " جالوت " قائد أعدائهم، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مهزومين مهزومين من أعدائهم

ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ فقولهم - كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يدل دلالة قوية، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم، وإلى مفارقة أبنائهم

٢ - قوله - تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ صريح فى أن الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده

قال - تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَّبْتُ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم ولاشك أن النصر فى هذه الحالة، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه

٣ - قوله - تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت، وداود، وسليمان لهم

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة، ازدهرت مملكتهم، وعز سلطانهم وأمددهم الله خلاله بالأموال الوفيرة، وبالبنين الكثيرة، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة أما بعد هذا العهد، بل وقبل هذا العهد، فقد كانت حياتهم سلسلة من المأسى والنكبات فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق م تقريبا، انقسمت مملكتهم إلى قسمين: مملكة يهوذا فى الجنوب، ومملكة إسرائيل فى الشمال، واستمرت فى صراع ونزاع حتى قضى الآشوريون سنة ٧٢١ ق م على مملكة إسرائيل، وقضى " بختنصر " على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م

٤ - ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: بعث الله عليهم فى الأولى جالوت، فجاس خلال ديارهم، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا، فبعث لهم طالوت، فقاتلوا جالوت، وانتصروا عليه، وقتل داود جالوت، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الأخيرة " بختنصر "

فخرب المساجد، وتبر ما علوا تنبيرا

هذه بعض الأدلة التي تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول في الأرض، هم: جالوت وجنوده أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى، فيرى كثير من المفسرين أنهم: " بختنصر " وجنوده

وهذا رأى ليس ببعيد عن الصواب، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق م

إلا أننا نؤثر على هذا رأى، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى، هم الرومان بقيادة زعيمهم، تيطس سنة ٧٠ م لأمر من أهمها:

أ - أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل " تيطس " بهم، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال " بختنصر " لهم فهم - على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام -، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم

ب - ضربات الرومان - فى ذاتها - كانت أشد وأقسى على بنى إسرائيل من ضربات " بختنصر " لهم

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة " تيطس " بلغ مليون قتيل، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد " بختنصر " كان أقل من هذا العدد بكثير

ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم

يقول أحد الكتاب واصفاً ما حل باليهود على يد " تيطس " الرومانى: كان " تيطس " فى الثلاثين من عمره، حين وقف سنة ٧٠ م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه، بعد أن بدأت المدينة تعانى من أهوال الحصار

وبعد أن اقتحم " تيطس " وجنوده المدينة، أصدر أمره إليهم: أن احرقوا وانهبوا

واقتلوا، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام - حين قال: ستلقى هذه الأرض يؤسا وعنتا، وسيحل الغضب على أهلها، وسيسقطون صرعى على حد السيف، ويسIRON عبيداً إلى كل مصر، وستطأ أورشليم الأقدام

ج - النكبة التي أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير من النكبة التي أنزلها بختنصر بهم لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم في الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى، بمساعدة " قورش " ملك الفرس، الذي انتصر على " بختنصر " سنة ٥٣٨ ق م تقريباً، وبدؤوا يتكاثرون من جديد

أما بعد تنكيل " تيطس " بهم فلم تقم لهم قائمة، ومزقوا في الأرض شر ممزق، وانقطع دابرهم كأمة

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه " تيطس " بهم من ضربات: إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد " تيطس " تفرقوا في جميع بلاد الله، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوها أو نزلوا فيها ^(١)

* * * * *

(١) سيد طنطاوي: ٢٨٢.

المبحث الثاني:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق:

المطلب الأول:

الأسلوب الأفضل فى الجدل

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (١)

{وَقُلْ لِعِبَادِي} وقل للمؤمنين: {يَقُولُوا} للمشركين الكلمة {التي هي أحسن} وألين ولا يخاشنوه، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن وفسر التي هي أحسن بقوله: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} يعني يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ} اعتراض، يعني يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشادة والمشاقة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} أي رباً موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم وممر أصحابك بالمدارة والاحتمال وترك المحاققة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله وقرأ طلحة: «ينزع» بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله: {وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود قال الله

تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (١) وهم محمد وأُمته فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ} قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزُّبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً (٢)

{وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن} على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه: بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخسنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم

{إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً}

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته

قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المؤمنين، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم، الكلمة التي هي أحسن، والعبارة التي هي أرق وألطف وذلك لأن الكلمة الطيبة، تزيد في المودة التي بين المؤمنين، وتكسر حدة العداوة التي بينهم وبين أعدائهم

قال - تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} قال الألوسي: ومقول فعل الأمر محذوف، أي: قل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر وإلى هذا ذهب الأخفش وقال الزجاج: إن قوله: {يقولوا} هو المقول، وجزمه بلام الأمر محذوف، أي: قل لهم ليقولوا

وقوله - سبحانه: {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ} تعليل للأمر السابق

أي: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم، والعثرات

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) الزمخشري: ٢٨٧.

التي تنطق بها ألسنتكم، لكي يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء في صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم

وينزغ بمعنى يفسد يقال: نزغ - كنفعه - ينزغه، إذا طعن فيه واغتابه، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيدته فى كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

وقوله - تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده

أى: فربما أصابه بها

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده، فيقع فى حفرة من النار»

* * * * *

المطلب الثاني :

صفات المجادلين بالباطل

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا^(١)}

{ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً}

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بانه {شيء} وأنه أكثر شيء جدلاً ذلك كي يطمأن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل ثم يعرض الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات:

{وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا}

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتمام ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذابين من قبلهم من هلاك استبعاداً لوقوعه واستهزاء أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون!

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل فأخذ المكذابين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب كله من أمر الله أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون:

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا}

والحق واضح ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه وهم حين يبطلون الخوارق، ويستعجلون بالعذاب لا يبتغون اقتناعاً، إنما هم يستهزؤون بالآيات والنذر ويسخرون

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا}

فهؤلاء الذين يستهزؤون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به

لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه وقدر عليهم الضلال بسبب استهزائهم وإعراضهم فلن يهتدوا إذن ابداً فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي

{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ}

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به، ولكنه لن يمهلهم:

{بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مُؤْتَلًّا}

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب وموعده في الآخرة يوفون فيه الحساب ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم، فلم يأخذهم أخذ القرى؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه:

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}

فلا يغرنهم إمهال الله لهم، فإن موعدهم بعد ذلك آت وسنة الله لا تتخلف والله لا يخلف الميعاد

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة ومفعول محذوف

والباطل: هو الشيء الزائل المضمحل الذي هو ضد الحق والعدل والحق هو الشيء

الثابت القويم الذي تؤيده شريعة الله - عز وجل

والدحض: الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام فمعنى يدحضوا: يزيلوا ويبطلوا تقول

العرب: دحضت رجل فلان، إذا زلت وزلقت ومنه قوله - تعالى: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والمعنى: ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال

وقوله - تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوءًا﴾ معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين

والمراد بآيات الله: تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولاً أم فعلاً، ويدخل فيها القرآن دخولاً أولياً

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرسل كدليل على صدقهم، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم اتخذوا كل ذلك ﴿هُزُوءًا﴾ أى: اتخذوها محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم، كما قال - سبحانه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾

والاستفهام هنا للنفي والإنكار والمراد بالآيات: آيات القرآن الكريم لقوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾

والمراد بالنسيان: الترك والإهمال وعدم التفكير والتدبر فى العواقب

أى: ولا أحد أشد ظلماً وبغيّاً من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله ﷺ فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها بل نبذها وراء ظهره، ونسى ما قدمت يده من السيئات والمعاصى، نسيان ترك وإهمال واستخفاف

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

والأكنة: جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم يقال فلان وقرت أذنه، أى: ثقل سمعها وأصيبت بالصمم

أى: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق، أغشية تمنع قلوبهم

عن وصول النور إليها، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمماً وثقلاً عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الكفر على الإيمان

{وَإِنْ تَدْعُهُمْ} أيها الرسول الكريم {إِلَى الْهُدَى} والرشد فلن، يستجيبوا لك، ولن {يَهْتَدُوا} إذا أبداً {إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، بسبب زيغ قلوبهم، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها

والضمير فى قوله: {أَنْ يَفْقَهُوهُ} يعود إلى الآيات، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى، إذ المراد منها القرآن الكريم

{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا}

أى: وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما

فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل الناس بالعقاب، ولكنه - عز وجل - ليس غافلاً عن أعمالهم، بل يؤخرهم إلى الوقت الذى تقتضيه حكمته، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}

وقوله - تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}

تلك " تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام

المطلب الثالث :

مجادلة أهل الكتاب

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} (١)

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

إن دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسول بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ﷺ هي دعوة واحدة من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلها أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان: صنف المؤمنين وهم حزب الله وصنف المشاكين لله وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام؛ والتي تقرها هذه الآية من القرآن؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن أو تبادل أو تجارة ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله، الموافقة لما قبلها من الدعوات، المكمل لها

(١) العنكبوت: ٤٦ - ٤٩.

وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} فأنحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة

وإن بعضهم ليفتري على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين الله

وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات

{وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدل والنقاش وكلهم يؤمنون بآله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلهي متصل الحلقات

{وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}

«كذلك» على النهج الواحد المتصل وعلى السنة الواحدة التي لا تتبدل وعلى الطريقة التي يوحى بها الله لرسوله {وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ} فوقف الناس بإزائه في صفتين: صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه، وتصديقه لما بين أيديهم {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذي يغطي روحه عنها ويسترها، فلا يراها ولا يتملاها! والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي، وهو ملحوظ في مثل هذا التعبير

{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِثْلِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبِطُلُونَ}

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئ الكاتبين ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً

فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون وكل وقفة أمام نصوصه توحى للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدر عن بشر!

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قراراتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك! **{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}** الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التي هي أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - في آية أخرى: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** وقوله: **{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** استثناء من الذين يجادلون بالتي هي أحسن

أي: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساءوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب في جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنی في مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمراد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتي هي

أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلماً وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك: **{وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ}** يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد **{آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا}** وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل قال الشوكانى: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه

{وَالِهَکُمْ وَاحِدٌ} لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته **{وَنَحْنُ}** جميعاً معاشر المؤمنين **{لَهُ مُسْلِمُونَ}** أى: مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أرباباً من دونه - عز وجل قال القرطبي ما ملخصه: اختلف العلماء فى قوله - تعالى: **{وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ}** فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - والتنبية على حججه وآياته وقوله: **{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** أى ظلموكم وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله:

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} وقول مجاهد: حسن، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخير يقطع العذر، أو حجة من معقول

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه ﷺ فقال: **{وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}**

والكاف بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا أى: ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك، وهو القرآن

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب: المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله والمراد

بالكتاب جنسه والضمير فى " به " يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب، على سبيل المدح لهم لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه، أما غيرهم من بقى على كفره، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات، فكأنه لم يره أصلاً

وقوله: **{وَمَنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ}**: ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك

و " من " للتبويض، لأنهم لم يؤمنوا جميعاً، وإنما منهم من هداه الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم

{وَمَا يَجْعَلُ بَيِّنَاتٍ} الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صدقك فيما تبليغه عنا، **{إِلَّا الْكَافِرُونَ}** أى: إلا الموغلون فى الكفر، المصرون عليه إصراراً تاماً والجحود: إنكار الحق مع معرفة أنه حق

وعبر عن الكتاب بالآيات، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان، ومنهم من قابله بالجحود والنكران

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى -، فقال: **{وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}**

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تالياً لكتاب من الكتب، ولا عارفاً للكتابة، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة، لارتاب المبطلون فى شأنك، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين و**{من}** فى قوله: **{مِنْ كِتَابٍ}** لتأكيد نفى كونه ﷺ قارئاً لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه

وقوله: **{وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكُمْ}** لتأكيد نفى كونه ﷺ يعرف الكتاب أو الخط

قال الإمام ابن كثير: وهكذا صفته ﷺ فى الكتب المتقدمة، كما قال - تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ}**

والإنجيل} وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم

والمراد بالمبطلين: كل من شك في كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - سواء أكان من مشركي مكة أم من غيرهم

وسماهم - سبحانه - مبطلين، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق، لأن الرسول ﷺ قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة، يعرفون حسبه ونسبه، ويعلمون حق العلم أنه أمي لا يعرف الكتابة والقراءة

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}

أي: هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون - بل هو آيات بينات واضحات راسخات، في صدور المؤمنين به، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم، والإعلاء من شأنهم حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله، ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً

وقوله - سبحانه: {وَمَا يَجْعَلُ آيَاتِنَا إِلَّا لِلظَّالِمِينَ} تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق في أحكامهم وتصرفاتهم

ألا: وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها، وينكر كونها من عند الله - تعالى - إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق، ولكل ما هو صدق

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول ﷺ أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم، حيث استعجلوا الذي لا يستعجله عاقل فقال - تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ الآيات الكونية، كعصا موسى، وناقاة صالح ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا

أى: وقال المبطلون للنبي ﷺ على سبيل التعتن والعناد، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك، لكى نؤمن بك ونتبعك؟

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه ﷺ إلى ما يرد به عليهم

أى: قل - أيها الرسول - الكريم - فى ردك على هؤلاء الجاهلين، إنما الآيات التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده، ينزلها حسب إرادته وحكمته، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى شيئاً

وقوله - سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ كلام مستأنف من جهته - تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم، والاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر والمعنى: أقالوا ما قالوا من باطل وجهل، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق، يتلى على مسامعهم صباح ومساء، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم، لو تدبروه وآمنوا به، واتبعوا أوامره ونواهيه؟

والتعبير بقوله - سبحانه: ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: إن فى ذلك الكتاب الذى أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم -، والذى تتلوه عليهم صباح مساء، لرحمة عظيمة، وذكرى نافعة، لقوم يؤمنون بالحق، ويفتحون عقولهم للرشد، لا للتعتن والجحود والعناد

ثم أرشده - سبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ أى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين: يكفينى كفاية تامة أن يكون الله - تعالى - وحده، هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه، وعلى أن هذا القرآن من عنده

وهو - سبحانه: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} علماً لا يعزب عنه شيء، وسيجازيني بما أستحقه من ثواب، وسيجازيكم بما يستحقونه من عقاب

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ} وأعرضوا عن الحق {وَكَفَرُوا بِاللَّهِ} - تعالى - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة

الذين فعلوا ذلك: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} خسارة ليس بعدها خسارة، حيث أثروا الغى على الرشد، واستحبوا العمى على الهدى، وسيكون أمرهم فرطاً في الدنيا والآخرة

وقوله - عز وجل: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم أى: أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك، التناول عليك، لسوء أدبهم، وعدم فهمهم لوظيفتك بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء، على سبيل التحدى لك كما قالوا فى موطن آخر: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول: {وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ} أى: يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم، والحق أنه لولا أجل مسمى، ووقت معين، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه، بدون إبطاء أو تأخير

ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى -، وإن هذا العذاب المدمر المهلك: {لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أى: ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات، والحال أنهم لا يشعرون به، بل يأتئهم بغتة فيبهتهم، ويستأصل شأفتهم

ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم، والتسلية للرسول ﷺ عما لقيه منهم فقال: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}

أى: يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب، الذى لا يطلبه أحد فى ذهنه مثقال ذرة من عقل، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة، وستحيط بهم جهنم من كل جانب

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال: **{يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ}**
 أى: ستحيط بهم جهنم من كل جانب يوم يحل بهم العذاب **{مَنْ فَوْقَهُمْ وَمَنْ تَحْتَ**
أَرْجُلِهِمْ} أى: من جميع جهاتهم
{وَيَقُولُ} - سبحانه - لهم، على سبيل التقرير والتأنيب **{ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** أى:
 تذوقوا العذاب المهيّن الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب
 بسبب أعمالكم القبيحة، وأقوالكم الباطلة
 وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذّبين، الذين استعجلوا العذاب
 لجهلهم وعنادهم، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق،
 فقال - تعالى: **{الَّذِينَ عَاهَدْتُ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ}** ^(١)

* * * * *

المطلب الرابع:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (١)

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}

فيثبت فى هذه الآية القصيرة وينفى يثبت نعمة الله على نبيه، فى تعبير يوحى بالقربى والمودة: حين يضيفه سبحانه إلى ذاته: {رَبِّكَ} وينفى تلك الصفة المفتراة التى لا تجتمع مع نعمة الله، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه

وإن العجب لياخذ كل دارس لسيرة الرسول ﷺ فى قومه، من قولتهم هذه عنه، وهم الذين علموا منه راحة العقل حتى حكموه بينهم فى رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة

وهم الذين لقبوه بالأمين، وظلوا يستودعونهم أماناتهم حتى يوم هجرته، بعد عدائهم العنيف له، فقد ثبت أن عليا كرم الله وجهه تخلف عن رسول الله أياماً فى مكة، ليرد إليهم ودائعهم التى كانت عنده؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان وهو عدوه قبل إسلامه: لا، فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله!

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذى يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم ولكن الحقد يعمي ويصم، والغرض يقذف بالفرية دون تخرج! وقالها يعرف قبل كل أحد، أنه كذاب أثيم!

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} هكذا فى عطف وفى إنسان وفى تكريم، رداً على ذلك

الحقد الكافر، وهذا الافتراء الذميم

{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ}

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً، لا ينقطع ولا ينتهي، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون وماذا فقد من يقول له ربه: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ} في عطف وفي مودة وفي تكريم

ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملاء الأعلى إلى ما شاء الله

وتبرز من جانب آخر، من جانب إ طاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة ما هو؟ ما عظمتها؟ ما دلالة كلماتها؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين

إن إ طاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة، من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولو أنها ثناء ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن وهو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها من كل شيء آخر أعظم بصورها عن العلي الكبير وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاطم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير!

والله أعلم حيث يجعل رسالته وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه

الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى فيكون كفاءاً لها، كما يكون صورة حية منها إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء فتطبق شخصيته كذلك تلقى هذا الثناء في تماسك وفي توازن، وفي طمأنينة طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة ويعلن هذه كما يعلن تلك، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم والعبد الطائع والمبلغ الأمين

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزوجة أن يراها ولا يحدد مداها وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار!

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربه، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان لقد كان وهو بشر يثني على أحد أصحابه، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر وأصحابه يدركون أنه بشر إنه نبي نعم ولكن في الدائرة المعلومة الحدود دائرة البشرية ذات الحدود فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله وهو يعلم من هو الله هو بخاصة يعلم من هو الله! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه

ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير!!!

إنه محمد وحده هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة إنه محمد وحده هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني إنه محمد وحده هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية؛ حتى لتتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان

إنه محمد وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام والله أعلم حيث يجعل رسالته وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم وأعلن في الأخرى أنه جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته، يصلي عليه هو وملائكته ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وهو جل شأنه

وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم

ثم إن لهذه اللفظة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله؛ وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية

والناظر في هذه العقيدة، كالناظر في سيرة رسولها، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على سواء الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد، ومطابقة القول للفعل، ومطابقتها معاً للنية والضمير؛ والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور

والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على سواء

والرسول الكريم يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ^(١) فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل وتتوارد أحاديثه تترى في الحز على كل خلق كريم وتقوم سيرته الشخصية مثلاً حياً وصفحة نقية، وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} فيمجد بهذا الثناء نبيه ﷺ كما يمجّد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم، ويشد به الأرض إلى السماء، ويعلق به قلوب الراغبين إليه سبحانه وهو يدلهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقاً؛ وهي لا تستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا، وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض؛ وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى:

{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود من أي

اعتبارات قائمة في الأرض؛ إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد

ثم إنها ليست فضائل مفردة صدق وأمانة، وعدل، ورحمة وبر إنما هي منهج متكامل، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة!

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها في محمد ﷺ وتمثلت في ثناء الله العظيم، وقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}

* * * * *

المطلب الخامس:

الفصل في شأن المشركين وأهل الكتاب

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} (١)

"من" في قوله - تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} للبيان، وقوله - سبحانه: {مُنْفَكِّينَ}: للعلماء في معنى هذا اللفظ أقوال متعددة، منها: أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل، يقال: فككت الشيء فانفك إذا افترق ما كان ملتحمًا منه

والبيينة: الحجة الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل، وأصلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح، لأن بها تتضح الأمور، أو من البيئونة بمعنى الانفصال، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسهما

والمراد بها هنا: رسول الله ﷺ، لقوله - تعالى - بعد ذلك: {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً}، ولأنه ﷺ كان في ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة، لتحليه بكمال العقل وبمكارم الأخلاق، ولإتيانه بالمعجزات التي تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ولم يكن - أيضاً - الذين كذبوا الحق من المشركين، ولم يكن الجميع بمفارقين وبمنفصلين عن كفرهم وشركهم، {حتى تأتيهم البينة} التى هى الرسول ﷺ فلما أتتهم هذه البينة، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله

والى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله: " كان الكفار من الفريقين، أهل الكتاب، وعبداء الأصنام، يقولون قبل مبعث النبى ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله - تعالى - ما كانوا يقولونه

ثم قال: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، يعنى أنهم كانوا يَعدُّون باجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق، إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق، ولا أقرهم على الكفر، إلا مجيء الرسول ﷺ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله - تعالى - الغنى، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا، فيقول له واعظة: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار، يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما

وانفكاك الشيء من الشيء، أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله

والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجئ البينة

ومنهم من يرى: أن {مُنْفَكِّينَ} بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين، أى: لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك، حتى تأتيهم البينة، على معنى قوله - تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} أو المعنى: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله - تعالى - وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث الله - تعالى - إليهم رسولا منذرا، تقوم عليهم به الحجة، ويتم على من آمن النعمة، فكأنه - تعالى - قال: ما كانوا ليتركوا سدى

وهناك أقوال أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها

وقد قدم الله - تعالى - ذكر أهل الكتاب فى البيان، لأن كفرهم أشنع وأقبح إذ كانوا يقرؤون الكتب، ويعرفون أوصاف النبى ﷺ فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم

وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى، تسجيل للغفلة وسوء النية عليهم حيث علموا الكتاب

وعرفوا عن طريقه أن هناك رسولا كريما قد أرسله الله - تعالى - لهدايتهم، ومع ذلك كفروا به، كما قال - تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله - سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ بدل من " البينة " على سبيل المبالغة، حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البينة

أى: لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم رسول كريم، كائن من عند الله - تعالى - لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم، مطهرة، أى: منزهة عن الشرك والكفر والباطل، وهذه الصحف من صفاتها - أيضا - أنها ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أى: فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها، بل هى ناطقة بالحق والخير والصدق والهداية، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم

فقوله: ﴿قِيمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب، من قولهم: قام فلان يقوم، إذا استوى على قدميه فى استقامة

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق، ومن إنكارهم له مع علمهم به، فقال - تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ أى: أن الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب، ما تفرقوا فى أمره، وما اختلفوا فى شأن نبوتك إلا من بعد أن جئتكم أنت بما يدل على صدقك، دلالة لا يجدها إلا جهول، ولا ينكرها إلا حسود، ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا

فالآية الكريمة كلام مستأنف، المقصود به تسليته ﷺ عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه - سبحانه - يقول له: لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لإعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب، فإن إعراضهم لم يكن عن جهل، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله

وإنما خص - سبحانه - هنا أهل الكتاب بالذكر، مع أن الكلام فى أول السورة كان فيهم وفى المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقبح فعالهم، لأن الإعراض عن الحق

ممن له كتاب، أشد قبحا ونكرا، ممن ليس له كتاب وهم المشركون والاستثناء فى الآية مفرغ، والمستثنى منه عموم الأوقات والمعنى: لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات، إلا فى الوقت الكائن بعد مجئ البينة لهم ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ﴾ ثم بين - سبحانه - ما كان يجب عليهم أن يفعلوه، فقال: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

والواو فى قوله - تعالى: ﴿وَمَا أَمَرُوا﴾ للحال، فهذه الجملة الحالية، والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضالين، قد بلغوا النهاية فى قبح الأفعال، وفى فساد العقول، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى، فى حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم وقوله: ﴿حنفاء﴾ من الحنف، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل

أى: أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا فى شأن الحق، والحال، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله - تعالى - وحده، مخلصين له الطاعة، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مؤمنين بجميع الرسل بدون تفرقة بينهم، إذ ملتهم جميعا واحدة، ولم يؤمروا - أيضا - إلا بإقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين، وبايتاء الزكاة التى تطهرهم وتركيهم

﴿وذلك﴾ الذى أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا، ومن أداء فرائضنا ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أى: دين الملة المستقيمة القيمة، أو دين الكتب القيمة

ولفظ: " القيمة " بزنة فيعلة - من القوامة، وهى غاية الاستقامة، وهذا اللفظ صفة لموصوف محذوف

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أى: إن الذين أصروا على كفرهم بعد أن تبين لهم، من اليهود والنصارى، ومن المشركين الذين هم عبدة الأصنام مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم، حالة كونهم خالدين

فيها خلوداً أبدياً {أُولَئِكَ} الموصوفون بتلك الصفات الذميمة {هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} أى: هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق ولفظ: " البرية " من البرى وهو التراب، لأنهم قد خلقوا فى الأصل منه، يقال: فلان برآه الله - تعالى - يبرؤه برّواً أى: خلقه وقرأ نافع بالهمز، من قولهم برأ الله - تعالى - الخلق يبرؤهم، أى: خلقهم

وقدم سبحانه - أهل الكتاب فى المذمة، لأن جنائيتهم فى حق الرسول ﷺ أشد، إذا كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون لهم: إن نبيا قد أظللنا زمانه، وإننا عند مبعثه سنتبعه فلما بعث ﷺ كفروا به

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

الأول: أن هؤلاء الضالين خالدون فى النار

والثانى: أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله - تعالى

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة:

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ}

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا فى دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ}

والحقيقة الثالثة: أن الدين فى أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف فى ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ}

والحقيقة لقد كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات

السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء
 الرابعة: أن الذين وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه
 الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ
 اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ مطهرة من الشرك والكفر ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ والكتاب يطلق على
 الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه
 الصحف المطهرة وهي هذا القرآن فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف
 وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحديث في الأرض كلها حدثاً لا تصلح الأرض إلا به
 فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف
 لمحات كاشفة من الكتاب القيم كتبه الرجل المسلم «السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي»
 بعنوان: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه:
 جاء في الفصل الأول من الباب الأول:

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أخط أدوار التاريخ بلا خلاف فكانت
 الإنسانية متدلّية منحدرّة منذ قرون وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من
 التردّي وقد زادت الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها وكان الإنسان في هذا
 القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر،
 والحسن والقبيح وقد خفت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت
 من العواصف التي هبت بعدها، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض
 القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد

وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً
 بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، فراراً من تكاليف الحياة
 وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة؛ ومن بقي منهم في تيار الحياة
 اصطاح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل
 «أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين؛ ولعبة المجرمين والمنافقين،
 حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها؛ وأصبحت مهوود

الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلس في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري»

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركون في مواضع شتى كفروا بعد ما جا من ذلك قوله عن اليهود والنصارى: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}** **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}**

وقوله عن اليهود: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}** وقوله عن النصارى:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}** وقوله عن المشركون: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** وغيرهما كثير

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض «وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء»

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وما كان الذين كفروا من المشركون ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم: **{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ}**

وكان أول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى عليه

السلام فقد انقسموا شعباً وأحزاباً مع أن رسولهم هو موسى عليه السلام وكتابهم هو التوراة فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي طوائف الصدوقيين، والفريسيين، والآسيين، والغلاة، والسامريين ولكل طائفة سمة واتجاه ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى، مع أن المسيح عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم، وقد جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحد الذميم وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان

«وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أي اليهود) إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم، وشوه سمعتهم ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده» أبوسوس «ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً قتلاً بالسيف، وشنقاً، وإغراقاً، وإحراقاً، وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة، قال المقرئ في كتاب الخطط:

«وفي أيام (فوقا) ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس، وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم؛ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية، وجبل الجليل، وقرية الناصرة ومدينة صور، وبلاد القدس؛ فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيسة بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس: فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور

فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم فانهمز اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم كثير وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس،

فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم وحلف لهم ثم دخل القدس

وقد تلقاهم النصارى بالأنجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها خراباً، فسأه ذلك، وتوجع لهم، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم،

وحثوا هرقل على الوقية بهم، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلتزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقية شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم والشام إلا من فر واختفى

«وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان: اليهود والنصارى، من القسوة والضاوأة بالدم الإنساني، وتحين الفرص للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك»

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية

وطبيعة أمه مريم وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه «الله» في زعمهم وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} «وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر أو بين» الملكانية المنوفوسية «بلفظ أصح فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له وقد اشتد هذا

الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك، وصار المذهب المونثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية

وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرؤوا من هذه البدعة والتحريف! وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته وجعل ذلك رسالة رسمية، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر إلى غير ذلك من الفظائع

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعاً {مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ} فلم يكن ينقصهم العلم والبيان؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة:

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق:

عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، والميل عن الشرك وأهله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: {وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ}

عقيدة خالصة في الضمير، وعبادة لله، تترجم عن هذه العقيدة، وإنفاق للمال في

سبيل الله، وهو الزكاة فمن حقق هذه القواعد، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب، وكما هو في دين الله على الإطلاق دين واحد وعقيدة واحدة، تتوالى بها الرسالات، ويتوافى عليها الرسل دين لا غموض فيه ولا تعقيد

وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف، وهي بهذه النصاعة، وبهذه البساطة، وبهذا التيسير فأين هذا من تلك التصورات المعقدة، وذلك الجدل الكثير؟

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم؛ ثم جاءتهم البينة، حية في صورة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة؛ ويقدم لهم عقيدة واضحة بسيطة ميسرة، فقد تبين الطريق ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}

{جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}

إن محمداً ﷺ هو الرسول الأخير؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة، فقد تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم^(١)

* * * * *

الفصل الخامس:

المنهج والأسلوب القرآني في مجادلة أهل الكتاب

المبحث الأول

منهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما سبق من التفسير التحليلي للآيات التي تكلمت عن أهل الكتاب في القرآن الكريم، يتبين لنا المنهج القرآني في محاورته ومجادلته المباشرة لأهل الكتاب وهي كالاتي:

١ - طالبهم الله عز وجل بالإيمان بالقرآن لأنه مصدق لما معهم من التوراة، فالتصديق بالقرآن معناه التصديق لما معهم من التوراة والانجيل

٢ - المنهج القرآني الواضح والصريح مع يهود في تبين بعض قبائحهم وجرائمهم من قتل للأنبياء وكفر بآيات الله، وتكذيب القرآن لهم الإدعاء الكاذب بأنهم شعب الله المختار

٣ - قصة البقرة وما اشتملت عليه من عظات وتوجيهات منها:

أ - دلت على سوء الأدب مع مرشديهم وفظاظتهم وغلظتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم

ب - التنطع في الدين والإلحاف في المسألة يؤديان الى التشديد في الأحكام، فشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم

ج - عدم اعتبارهم بالعظات والمثالات لقساوة قلوبهم وسوء طباعهم - سبحانه الله - انظروا ما يفعلونه بأطفال وشيوخ ونساء فلسطين ولبنان من قتل وتشريد دون رحمة أو رأفة - وما ذلك إلا لانطماس بصيرتهم وقلوبهم التي أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، بل تعدوا على آيات الله فحرفوا الكلم عن مواضعه واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً

٤ - المنهج القرآني الصريح الذي بين أكاذيبهم ومخالفاتهم ونقضهم المواثيق مع الله تعالى فالخزي لهم في الدنيا " ولعذاب الآخرة أشد وأكبر لو كانوا يعلمون"

٥ - أما مواقف يهود مع الرسل والكتب والأنبياء فهنا فضحهم القرآن وكشف

الحقائق وأثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق الذي لا يخضع لأهوائهم بدلوا وحرفوا وكذبوا وقتلوا، - والشاهد - مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام والقرآن ملئ بهذه المواقف وحدث ولا حرج، وكذلك مواقفهم مع آخر رسلهم عيسى عليه السلام

٦ - أما عن عبادة العجل المقدس عندهم وحب الحياة وعداوة جبريل والملائكة والرسول تحدث عنها القرآن بمنهجية واضحة فبعد أن أنجاهم الله من فرعون ورأوا المعجزات الواضحات عبدوا العجل، وصفهم القرآن أيضا أنهم أحرص الناس على - حياة - أى حياة مهما تكون رذيلة منحطة، وهناك سمة أخرى من سماتهم ألا وهي عداوتهم لجبريل - عجيب - كونهم يحقدون على الرسول ﷺ وكون جبريل عليه السلام نزل على محمد ﷺ عادوه وقالوا ينزل بالدمار والخراب علينا، هذه هي أخلاقهم واضحة جلية كما بينها وفندها القرآن

٧ - بين القرآن أيضا مواقفهم من المؤمنين، لقد تمنوا ارتدادهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه، بين الله عز وجل أن الذى حملهم على ذلك، ليس إلا الحقد والحسد، وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره الحكمة تجعل العفو والصفح خيرا من العقوبة والتأنيب، وأمرهم مع ذلك بالمحافظة على إقامة الشعائر والتمسك بدين الله تعالى الذى يظهر القلوب ويزكى النفوس

٨ - سورة البقرة فى أكثر من مائة آية بينت مواقفهم وحججهم وأخلاقهم، من قتل ودمار وتخريب حتى مساجد الله ما سلمت من شرهم، ومع ذلك يذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم لعلهم يخافوا الآخرة - يذكرهم بأنه تعالى فضلهم واصطفى منهم أنبياء ورسلا، وذكرهم عز وجل بالآخرة عسى أن يرجعهم إن عادوا إليه وتابوا وأنابوا

٩ - ومن ضمن الحوار المنهجي للقرآن مع أهل الكتاب أنه طرح عليهم سؤال واضح ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ

- نَصَارَى^(١)؟ - سؤال لا جواب عليه الله أعلم ليس أنتم! وبين المنهج القرآني أنهم يتخذون الذرائع استكباراً حتى يقسموا الصف المسلم، ويفرقوا بين المسلمين والدليل على ذلك كما ظهر لنا في حكمة تحويل القبلة، وأن تروا ما جاء به الرسول ﷺ فبين تعالى لرسوله مهما يأتهم بكل آية أو حجة لن يؤمنوا فأساس الإنكار الكبر والعناد مع علمهم يقينا بما في كتبهم أن النبي ﷺ على الحق المبين
- ١٠ - المنهج القرآني الواضح في الحوار مع أهل الكتاب علمنا أن التوراة التي في أيدي يهود اليوم ليست هي التي أنزلها الله على موسى عليه السلام لانقطاع سندها، واشتمالها على القصص والعبارات التي تنهم أنبياء الله عليهم السلام بما لا يليق بهم، التي تنتزه الكتب السماوية عن ذكرها، وكذلك الحال بالنسبة للأنجيل التي في أيدي النصارى اليوم، إنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى عليه السلام، ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه^(٢)
- ١١ - بين القرآن أن الله هو الخالق لكل ما سواه، وأنه رب لكل ما اتخذ الكفار والمشركين ربا مما دونه، وشهد عز وجل بذلك وملائكته وأهل العلم من خلقه، وبين القرآن لأهل الكتاب أنهم اختلفوا في الحق مع علمهم أنه الحق بعدما تبين لهم، ولأن العلم كالمطر لا تستفيد إلا الأرض النقية، ومن هنا كان اختلافهم بغيا بينهم، فهم أهل مغالطات ولجاجة وأكاذيب وافتراء على الله، فالمطلوب منهم ومن غيرهم الإخلاص لله وحده والانقياد له عز وجل
- ١٢ - كان المنهج القرآني واضحا تماما عندما خاطب أهل الكتاب في قضية قتل الأنبياء، بين لهم المصير المحتوم بالعذاب الأليم وبطلان الأعمال في الدنيا والآخرة
- ١٣ - القرآن يدعو الأمم إلى توحيد الله من عهد آدم، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى كلهم دعوا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، ثم بين القرآن قلة اعتماد أهل الكتاب على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار عندما جادلوا في إبراهيم

(١) البقرة: ١٤٠.

(٢) ظلال القرآن ١٩١ بتصرف.

عليه السلام، وما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ توحيد مطلق لله تعالى

١٤ - ومن سيم يهود: التلاعب بالدين، فهم أهل خداع يظهرون الإسلام ثم يقبلون إلى الكفر ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف المسلمين حتى يقع ضعاف الإيمان في حيرة واضطراب، فهذا مسلك من مسالك اليهود الماكرة التي أرادوا من وراءها كيد الإسلام والمسلمين، فهم الذين قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ وهم لا يرقبون منهم إلا ولا ذمة، وهم أهل خيانة وكفر وجحود وهذا الصنف هو أكثر أهل الكتاب لأنهم ليسوا سواء

١٥ - بيّن القرآن أن شعار الإسلام هو الإيمان بالرسول والأنبياء والكتب ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾^(١)، وبيّن أنه من يطلب ديناً غير الإسلام فهو خاسر، ولن يقبل منه غير هذا الدين الذي ارتضاه عز وجل ديناً له، لذلك كان المنهج واضحاً وكذلك موقف المسلمين من أهل الكتاب والتحذير منهم لأنهم يبتنون الشبه لتضليل المؤمنين، ورغم هذا كله يفتح الله سبحانه وتعالى لهم باب التوبة لمن أراد التوبة منهم وطريق الهداية لمن أراد الهداية منهم وهناك أمثلة من اليهود قبل الإسلام، الذين أسلموا وتابوا إلى الله في عهد النبي ﷺ منهم: حبر اليهود عبدالله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وثعلبة بن شعبة، وكعب الأحبار، ومن النصاري النجاشي ملك الحبشة

١٦ - ذكر الله عز وجل الكثير عن تعنت يهود، بيّن أن قلوبهم مردت على الكفر بآيات الله والطغيان وقلة الإيمان، ونقض العهود والمواثيق وقتل الأنبياء بغير حق، فهم من حاول قتل عيسى عليه السلام، قالوا: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ مزاعم كاذبة، أقوايل باطلة، وذلك ما قالوه إلا من باب التفاخر - التفاخر في ماذا؟! في القتل، في الفساد في الأرض، في هدم الديار، في احتلال البلاد، فما نراه الآن من فعل يهود هو بعينه ما بيّنه القرآن الكريم - ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) آل عمران: ١١٩.

١٧ - بين عز وجل حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه ليس كما زعمت النصارى أنه إلها أو ابن إله، وإنما هو عبد الله ورسوله

١٨ - إن هذا القرآن هو معلّم هذه الأمة ومرشدها، قصّ علينا ما وقع من بني إسرائيل من اللعن والطرْد وقسوة القلب وتحريف الكلم، فالقرآن هو نور المبين يا أهل التوراة والإنجيل، والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي فيه بيان ما اختلفتم فيه

١٩ - التوبيخ بسبب دعواهم الباطلة أن لهم مزية على سائر الخلق في قولتهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، قول باطل وجهل بما اشتملت عليه كتبهم، تخط في الكفر والضلال مع فهم سقيم لمعاني الألفاظ، - سبحان الله - واقعهم يناقض دعواهم؛ فقد عذبهم الله عز وجل في الدنيا بالقتل والمسح والأسر وتهيج العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، وكذلك ضرب الذلة والمسكنة عليهم

٢٠ - كان المنهج والطريق واضح للمؤمنين من خلال آيات القرآن العظيم بعدم موالاته اليهود والنصارى لأنهم جميعا يد واحدة عليكم، فملة الكفر ملة واحدة، فهم مع كراهيتهم بعضهم بعضا واختلافهم فيما بينهم متفقين على كراهية الإسلام والمسلمين

٢١ - حكى القرآن عن بعض أوصاف يهود كيف أنهم أظهروا باءهم بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، وقولتهم: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ورغم ذلك بيّن الله عز وجل أن باب التوبة مفتوح ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لقبول توبتهم رغم ما ارتكبوا من ذنوب عظيمة وكثيرة، فهو الله عز وجل عظيم المغفرة وواسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا

٢٢ - البشرى من موسى وعيسى عليهما السلام بمجيء النبي ﷺ بشرا ببعثته وصفاته ومنهج رسالته وبخصائص ملته لقد أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، ويضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي كانت عليهم؛ فمن أيده ونصره ووقّره منهم، واتبع النور الهادي الذي معه أولئك هم المفلحون ومن المنهج القرآني الواضح النهي عن تعدد الآلهة، تارة عن طريق

النهي الصريح، وتارة عن طريق القصر، وتارة أخرى عن طريق التخصيص وكذا، توعده الله عز وجل المكذبين للرسول بالعذاب الأليم

٢٣ - ثم بيّن الله عز وجل المنهج والأسلوب الأفضل في الجدل مع أهل الكتاب وغيرهم بالقول الحسن؛ فالكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جفأها، تجمعها على الود الكريم، فالشيطان يتلمس السقطات ليغري العداوة والبغضاء بين البشر، والكلمة الطيبة تسدّ الثغرات وتقطع عليه الطريق، فما كان اللين في شيء إلا زانه وأمرنا أيضاً، بالبعد عن المجادلة بالباطل والمخاصمة والمنازعة

٢٤ - أمرنا بالتمسك بالقرآن، فهو حجة لمن اتبعه وتمسك به وحجة على من جعله خلف ظهره وأهمله، وكذلك أمرنا بتوحيد الله كما أمر الأنبياء جميعاً، وبيّن المنهج القرآني أدلة توحيد الله عز وجل واضحة جلية

٢٥ - ثم بيّن المنهج القرآني على وجه الخصوص مجادلة أهل الكتاب بالحسنى لبيان حكمة هذه الرسالة العظيمة، وإنما هذه المجادلة بالحسنى مقصورة فقط على من لم يظلم منهم {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} وكذا وضّح القرآن أخلاق الحبيب محمد ﷺ، وبيّن أنه المثل الأعلى في الأخلاق، إنه محمد ﷺ وحده الذي علّم الله عز وجل منه أنه أهل ليبلغ هذه الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة والشواهد في أسلوب دعوته ﷺ مع أهل الكتاب وغيرهم واضحة، وقد بيّنتها في مواضع أخرى من هذا البحث

فالنبي ﷺ جاء ليتمّم مكارم الأخلاق؛ نهى عن الجور والظلم والخداع، وقتل النفس بغير حق، وإرهاب الأمنين، والاعتداء على الحرمات والأعراض، ونهى عن إشاعة الفاحشة بأي صورة من الصور، ونهى عن الغش والربا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل، لذا وصفه الله عز وجل في كتابه {وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}

* * * * *

المبحث الثاني

أسلوب القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما سبق من الآيات التي تكلمت عن أهل الكتاب في القرآن الكريم يتبين لنا أنه في محاورته وجداله معهم قد تصداهم وواجههم ووبخهم على عنادهم وكفرهم بالله ورد على شبهاتهم وفضح كيدهم، لقد أشركوا بالله وكذبوا وحرفوا آياته

كان الأسلوب واضحاً عندما واجههم في قتلهم للأَنْبياء بغير حق وكذلك من يأمر بالقسط من الناس

وبين القرآن أنه ضربت عليهم الذلة والمسكنة بسبب هذه الذنوب والجرائم التي يرتكبوها، تارة بالمسح والقتل وتارة بالأسر

بين القرآن الكريم ضلالهم واختلافهم فيما بينهم وعداوتهم لبعضهم البعض وضح القرآن أنهم ما تركوا أبواب الهداية والاستسلام لربهم والانقياد لدين الإسلام إلا كبرا وحسداً من عند أنفسهم مع علمهم التام بأن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام حق وضح القرآن الكريم أن شعار المسلمين هو: الإيمان بالله وكتبه ورسله دون التفريق بين أحد منهم، فبين عز وجل أن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، لذا حذر القرآن من أهل الكتاب ومن شرورهم وكيدهم، فهم أهل زور وبهتان، والقول على الله بغير حق قال الشيخ سيد قطب رحمه الله:

إن الأسلوب هنا يعنف ويشدد، ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكرهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من جزاء، موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}

قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديدة! قالوها

تنبئاً لمحمد ﷺ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول ويقول الله رداً على قولتهم: **{بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}** أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم فهم قد كفروا ابتداءً فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى **{فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}** أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبى الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصممهم بالكفر: **{فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ}**

ويوضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا لكان هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع وإن بدا تمثيلاً وتصويراً لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه، وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وكان هذا وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم: أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتهم من الكتاب والنبوة؟ أو مخافة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به؟ أمخافة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السيئ إلا الحسد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحباءه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه

إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالحط والوباء والهزائم بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلاً منهم -، وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وبعد أن بين - سبحانه - أنماطاً من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ}

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلهاً، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذباً وزوراً: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برىء منها وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل

عليهم والغضب أبداً اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم

هذا، وبتدبير آيات القرآن نراها قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين، وأهل الكتاب وهي أنهم:

أولاً: {لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيماناً صحيحاً، لاتبعوا رسوله محمداً ﷺ ولأن منهم من قال: {عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ} ومنهم من قال: {المسيح ابن الله} وقولهم هذا كفر صريح، لأنه - سبحانه - منزّه عما يقولون

قال - تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

وثانياً: أنهم " لا يؤمنون باليوم الآخر " على الوجه الذي أمر الله - تعالى - به، ومن كان كذلك كان إيمانه على فرض وجوده كلا إيمان

قال الجمل ما ملخصه: فإن قلت: اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك؟

قلت: إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه في الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك

وأيضاً فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينجسون - أى أنهم يرون نعيم الجنة {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ} وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئ الكاتب ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم، فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة

كالحق الذي في هذا الكون وكل وقفة أمام نصوصه توحى للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطناً، لا يصدران عن بشر!

{بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قراراتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيوط الواصلة إلى هناك! **{وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}** الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التي هي أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - في آية أخرى: **{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}** وقوله: **{إلا الذين ظلموا منهم}** استثناء من الذين يجادلون بالتي هي أحسن

أي: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم بأن أسأوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب في جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة: دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنة في مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمرد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل في الإسلام أصبح مسلماً وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون في

حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل قال الشوكاني: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه ﴿وَالْهَكَمُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ﴿وَنَحْنُ﴾ جميعاً معاشر المؤمنين ﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى: مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أرباباً من دونه - عز وجل

قال القرطبي ما ملخصه: اختلف العلماء فى قوله - تعالى: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل -، والتنبيه على حججه وآياته وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أى ظلموكم

وهكذا أسلوب القرآن فى مجادلتهم يتصدى لهم مباشرة بإعلامهم أن الله مطلع على مافى قلوبهم وأنه مخرج ما يحذرون، لقد جلى القرآن لعباده أمورهم وكشف أسرارهم وفضح كيدهم لنحذر منهم

لقد أكد القرآن فى أسلوبه ومحاورته مع أهل الكتاب على أنهم إن لم يتوبوا ويعودوا إلى الحق الذى هو الإيمان بالله وحده وبرسوله محمد ﷺ، وبأن الدين الحق هو دين الإسلام الذى لا يقبل الله ديناً سواه فإن المصير عذاب مقيم فى جهنم وبئس المصير، ومع ذلك فإن باب التوبة والرحمة مفتوح لهم وذلك بشرط الإيمان بالله ورسوله



الباب الثالث

الحوار مع أهل الكتاب في

العصر الحديث



الفصل الأول: الحوار وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين

المبحث الأول

المطلب الأول:

شروط الحوار أو الجدل مع أهل الكتاب

١ - العلم والعدل: الأصل في العلم: علم الكتاب والسنة والدوال عليهما وليس كل من انتسب للعلم صلح أن ينافح عن الإسلام أو يدعو إليه بل ربما أفسد هؤلاء ما لا يمكن إصلاحه^(١) قال شيخ الإسلام: " ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسنة وما الذي يخالفه؛ كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكلام في أصول الدين وفي الرأي والتصوف وغير ذلك"^(٢) ويقول رحمه الله تعالى: " والإنسان خلق ظلوماً جهولاً فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله وعدل ينافي ظلمه فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره؟! "^(٣)

وقال ابن القيم في "الهدى" عمن يتهرب عن مجادلة أهل الكتاب: " ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليول ذلك إلى أهله وليخل بين المطي وحاديها والقوس وباريها"^(٤)

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: "والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي وكذلك أصحابه من بعده وقد أمره الله سبحانه

(١) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (ص ١٤٨).

(٢) النبوات (١ / ٥٦١).

(٣) الفتاوى (١٤ / ٣٨، ٣٩).

(٤) (٣ / ٦٣٩).

بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة وبهذا قام الدين وإنما جعل السيف ناصراً للحجة وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته وهو سيف رسوله وأمته" (١)

٢- معرفته بما ينكي وينجع في رد صيال الخصم وجداله (٢): قال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم» (٣) وفي الحديث أن من أقسام الجهاد: الجهاد باللسان؛ ولا يعني ذلك مجرد الكلام وعموم المناقحة فإن هذا يُحسب كلُّ أحد! ولهذا كان شعر حسان رضي الله عنه ليس كشعر غيره فقد كان يقع من الكفار موقع النبل

قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشدَّ عليها من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم» فهجاهم فلم يُرض! فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذيبة ثم أدلَع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم " ثم قالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشنى واشتفى» رواه مسلم (٤)

قال النووي رحمه الله - في شرح الحديث -: "وأما أمره ﷺ بهجائهم وطلبه ذلك من أصحابه واحداً بعد واحد ولم يرض قول الأول والثاني حتى أمرَ حسانَ فالمقصود منه: النكاية في الكفار" (٥)

وكما أن الجهاد باليد لا بد من إعداد العدة فيه وإلا كان ملوماً على تفريطه فكذا الجهاد في ميدان اللسان والكلمة بل أمره أخطر وأشدُّ من الجهاد باليد فإن غاية المجاهد في سبيل الله بيده إذا خسر المعركة أن يُقتل في سبيل الله ولا يلام عند عامة المسلمين على تفريطه في اتخاذ العدد كما يلام من يتخلف عن إعداد العدة لمواجهة الكفر في ميدان النظر والمجادلة وذلك أن الإسلام منصور دوماً وأبداً في مقام الحجة والظهور

(١) زاد المعاد (٣ / ٦٤٢).

(٢) ليس المراد من هذا اللازم تعلم الممانعات والمعارضات التي تحدثوا عنها في علم الجدل، «فليس هذا واجبا بلا ريب». انظر: درء التعارض (٧ / ٤٣٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت (١٦ / ٢٨٢ - ٢٨٣) رقم ٢٤٩٠.

(٥) شرح مسلم، للنووي (١٦ / ٢٨١)، وقريب منه ما في: شرح الأبى على مسلم (٦ / ٣٢١).

بخلاف الظهور بالسيف فإنه يكون مرة له ومرة عليه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد يnehون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظرُ ضعيفَ العلم بالحجة وجواب الشبهة فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل كما ينهى ذلك الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار فإنَّ ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة" أهـ^(١)

مما يلتحق بهذا اللازم: خطاب كل قوم باصطلاحهم الذي تعارفوا عليه إذا كانت هناك حاجة وكانت المعاني صحيحة قال ابن تيمية: "وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعُرفهم فإنَّ هذا جائزٌ حسنٌ للحاجة وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتاجوا إليه"^(٢)

وقال رحمه الله: "ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات فإذا كان عدو المسلمين - في تحصنهم وتسليحهم - على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم: كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع وهو الأصلح في الدنيا والآخرة وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك لا لفضل قوته وشجاعته ولكن لمجانسته لهم كما يكون الأعجمي المتشبه بالعرب - وهم خيار العجم - أعلم بمخاطبة قومه الأعاجم من العربي وكما كون العربي المتشبه بالعجم - وهم أدنى العرب - أعلم بمخاطبة العرب من العجمي"^(٣)

ومما يعين على تحقيق هذا اللازم اعتداء المجادل بطريقة القرآن والسنة في مجادلة ومناظرة أهل الكتاب إذ بذلك تتم النصرة وتقوم الحجة قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون: إنه يُعلم بالعقل مثل تثليث النصارى ومثل تكذيب محمد ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريقة القرآن فإنَّ الله يبين في القرآن ما خالفوا به

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧ / ١٧٣).

(٢) الدرء (١ / ٤٣).

(٣) نقض المنطق (ص ٩٠)، ومجموع الفتاوى (٤ / ١٠٧).

الأنبياء ويذمهم على ذلك والقرآن مملوء من ذلك" أهـ^(١)

و يفيد في هذا الشأن النظر في القواعد الجدلية المشروعة المستنبطة من الكتاب والسنة ومما دلت عليه العقول والفطر السليمة^(٢)

ومن فوائد ما قالوه: أن المناظر لا يحتاج - أحياناً - أن يظهر الحق للمخالف المعاند عند انقطاعه وإنما عليه الاشتغال برد دليله وقلبه عليه ودمغ باطله وبيان تناقضه فيترك في عماية حتى يفيق ويتبين له فساد ما كان عليه

وهذه الطريقة نافعة في كثير من المسائل المطروحة في الحوار والجدال مع أهل الكتاب اليوم كقضية تعدد الزوجات في الإسلام وحقوق الإنسان مثلاً فلوسئل عنها المرء فليس من الضرورة تبين حكم الإسلام فيها لكل سائل لأن السؤال - في الغالب - سؤال تعنت واستنقاص للإسلام حتى أصبحت أمثال هذه المسائل من مسائل الشعار التي يعير بها المسلمون فها هنا يبين لهم ما في واقعهم من تناقض في قضية المرأة واستعبادهم للشعوب ومصادرة الحريات ونحو ذلك من الأمور التي يسمعون الأصم ويراهم الأعمى! والأصل عدم العمل بهذه الطريقة - عند عدم الحاجة إليها - لأنها تخالف أصل بيان الحق والصدع به^(٣) والله تعالى أعلم

وأحياناً قد يضطر المجادل المسلم إلى الاحتجاج على الخصم الكتابي بمقدمات يسلمها

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ١٨٨).

(٢) عامة الكتب التي كتبت في الجدل هي مبنية لهذه القواعد، وإن كان في بعضها قصور أو زيادة على ما جاء به الشرع. وأوصل الدكتور عثمان علي حسن جملتها إلى: ٢٩ قاعدة. انظر: « منهج الجدل والمناظرة » (٢ / ٦٨٣ - ٧٣٩). والإمام بأحوال الجدل والمناظرة ك: الإفحام والنقض والانتقال والسفسطة والانقطاع، إلخ.. مما يفيد ويعين في نصرته الحق من أقرب الطرق، وإن كان أصل ذلك مستقراً في الفطرة البشرية، ولهذا لما تكلم شيخ الإسلام عن لفظ: « الاستدلال » قال رحمه الله: «..، وإن أردت به نفس طلب العلم بالشيء بالدليل والنظر فيما يدل الشيء، فهذا مركز في فطرة جميع الناس، فإنه ما منهم من أحد إلا وعنده من نوع النظر والاستدلال، بل ومن نوع الجدل، بحسب ما هداه الله إليه من ذلك. وقد قال تعالى: « وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ». والإنسان يجادل بالباطل ليدحض به الحق من غير معرفة بقوانين الجدل، فكيف لا يجادل بالحق؟ وللناس من النظر والمناظرة في صناعاتهم وأمور دنياهم ما يبين أن النظر والمناظرة مركز في فطرتهم، فكيف في أمور الدين؟ والله سبحانه يقول: ﴿الذي خلق فسوى وقدر فهدى﴾ وقال: ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾. انظر: درء التعارض (٧ / ٤٣٩).

(٣) انظر: منهج الجدل والمناظرة (٢ / ٨٠٥).

ولوكانت في نفسها باطلة وذلك من أجل بيان تناقضهم لا لتقرير الحق^(١) ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والله تعالى لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علما فلو قدر أنه قال باطلا لم يأمر الله أن يحتج عليهم بالباطل لكن هذا قد يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه لا لبيان الدعوة إلى القول الحق ودعوة العباد إليه" أهـ^(٢)

١ - الصدع بالحق والجهر به: الأصل في المسلم جهره بالحق وصدعه به؛ قال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}^(٣)

٢ - وقال: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}^(٤) وفي قصة جعفر رضي الله عنه مع النجاشي دليل على الجهر بالحق والصدع به في وقت الضعف وهم بديار الكفر ولم يمنعه كونه في دار الكفر من بيان الحق^(٥)

وربما ظنَّ ظان أن مجرد مناظرة أهل الكتاب فيها تنازل عن الحق ومخالفة لوجوب الصدع بالحق وهذا الظن ليس بشيء لأننا في هذا المقام نتكلم بطريق التنزل مع الخصم وهي من طريقة القرآن ولهذا فإننا - كما يقول شيخ الإسلام -: " نتنزل لليهودي والنصراني في مناظرته وإن كنا عالمين ببطلان ما يقوله اتباعا لقوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}^(٦) وقوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}^(٧)، وإلا فعلمنا ببطلان ما يعارضون به القرآن والرسول ويصدون به عن سواء السبيل وإن جعلوه من المعقول بالبرهان أعظم من أن يبسط في هذا المكان"^(٨)

وهذا الصدع لا يعني ترك أدب الجدل والحوار أو التخلي عن أخلاق وآداب الإسلام فالمسلم هو المسلم في كل الأحوال وإنما يصول ويجول بالله والله لا بنفسه ولا لهواه

* * * * *

(١) الحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (١٨٢)، ومناهج الجدل في القرآن الكريم (٤٣٢). وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في « الرد على المنطقيين » من أن بعض المرضى لا ينتفع بالأغذية الفطرية بل يحتاجون إلى علاج وأدوية تناسب مزاجهم. (ص ٣٣٠، وقبلها).

(٢) الرد على المنطقيين (ص ٤٦٨).

(٣) الحجر: ٩٤.

(٤) آل عمران: ١٨٧.

(٥) تتور هاهنا مسألة « الاستضعاف » و« الإكراه » وما ضوابط الصدع بالحق في وقت تحقق الاستضعاف؟. ويليق بهذا بحث مختصر مستقل، يحقق فيه أصل المسألة وما يتعلق بها.

(٦) النحل: ١٢٥.

(٧) العنكبوت: ٤٦.

(٨) درء التعارض (١ / ١٨٨).

المطلب الثاني:

استقامة المسلم وتخلقه بأخلاق الإسلام

وهذا المعنى متفق عليه والكلام فيه قد أشبع في كتب الحوار والجدل ويدخل فيه الكلام عن آداب الحوار والجدال وهو من المتقرر أمره فلا نطيل بتأصيله والتدليل عليه ^(١)

تنبيه:

قد يعرض للمجادل المسلم أثناء رده مسألة تخطئة أعمال واجتهادات المسلمين إذا أوردها عليه الكتابي فما حكم ذلك في وقت الحوار أو الرد ودفع الصيال؟! يجب بالقول: إن جواز ذلك يشترط له أمور تدور مع قاعدة جلب المصالح ودرء المفساد ومن ذلك:

١ - أن يكون الحرص على تأليف المسلمين بكلامه أولى من حرصه على تأليف الكفار به وتأليف القلوب مقصد شرعي لا يفرط فيه

٢ - أن يكون وجه التخطئة لأعمال المسلمين صحيحاً من جهة النظر الشرعي وهذه الأعمال لا تخلو من حالين:

الحال الأول: أن تكون صحيحة شرعاً فهذه لا يجوز ردها أو تأنيبها وهذا كمسائل إقامة الحدود وحكم الردة والختان والجهاد في سبيل الله وتعدد الزوجات وأحكام أهل الذمة والرق وذلك لأنَّ عرضها والدفاع عنها دفاعٌ عن الدين وبيان له ويبقى على المجادل توخي أحسن وأنجع الأساليب في عرضها والدفاع عنها وهو مقام تتفاوت فيه المدارك

والحال الثاني: ألا يقرها الشرع وهذا الحال على درجتين:

الدرجة الأولى: أن يكون القول بها من الشذوذ أو اتباع الهوى المحض

الدرجة الثانية: أن تكون من محال الاجتهاد؛ والخلاف فيها سائغ أو يكون العمل فيها

(١) انظر على سبيل المثال: مناهج الجدل في القرآن الكريم (٤٤٥ - ٤٥٣)، والحوار مع أهل الكتاب (١٥٢ - ١٦١)، ومنهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (٢ / ٧٤١ - ٧٧٨)، والرد على المخالف من أصول الإسلام (٥٩)، وقواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات، للدكتور عبد الله الزحيلي، وغيرها..

بناءً على تقليد عالم

والدرجة الأولى لا يلزم المجادل التزامها إذ ليست من الدين ويخشى أن يكون في التزامها نوع من العصبية للجنس والإقليم وليس هذا من باب الولاء والبراء؛ فإن شذوذها واتباع صاحبها للهوى المحض مما يخرجها عن الإسلام فلا يلزم أن يوالى فيها ويقرر بإنصاف أن هذا ليس من دين الإسلام

أما الدرجة الثانية فهي من محال النظر ولا ضابط يضبط جزئياتها فإنها تتنوع بتنوع الأحوال والبلدان وتختلف باختلاف الأشخاص والمسائل والأصل أنه إذا كان الخلاف فيها سائعا فإن المجادل يبين وجه الاجتهاد ولا محذور في ذلك

٣ - أن يُفَرَّقَ بين أخطاء واجتهادات المكلفين وبين الحكم على الإسلام كدين لا غنى للبشر عنه وهذا من الواضح بمكان

٤ - ألا يؤدي كلامه في ذلك إلى مفسدة أعظم من المصلحة المنشودة فإن المصلحة المنشودة - في أحسن الأحوال - تألف قلب الكافر لدخول الإسلام وقد يكون هذا الكافر غير جاد في التفكير في الدخول في الإسلام وإنما يثير الكلام ويردد ما يقال ويذاع في بلاده وإعلامه وليس عنده أدنى باعث للدخول في الإسلام!

* * * * *

المطلب الثالث :

شروط المحاور الكتابي

ليس هناك شروطاً خاصة بالمحاور الكتابي في الشريعة سوى عدم الظلم^(١) والدليل قول الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} ^(٢) فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فَيُخْرِجُ الْجِدَالَ مَعَهُ عَنْ مَسْمَى "الجدال بالتي هي أحسن"؛ وينتقل الخطاب معه إلى مجادلة بغير التي هي أحسن قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظن أنه حقاً ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاءً له بموجب عمله" أهـ ^(٣)

"والامتناع عن الجدال مع الظالمين واتخاذهم منهجاً مطرداً يخالف منهج النبي ﷺ فقد جادل اليهود بالتي هي أحسن في المدينة وكانوا يكتمون ما أنزل الله ويلبسون الحق بالباطل؛ كما جادل نصارى نجران ودعاهم إلى المباهلة فرفضوا فالأصل أن يقبل الجدال مع كل أحد لأن كل كافر ترجى هدايته نعم قد تكون المصلحة في الامتناع عن مجادلة طائفة منهم أو مع أفراد لسبب أو لآخر وهذا استثناء" ^(٤)

* * * * *

(١) الحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (ص ١٦٢).

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) الجواب الصحيح (١ / ٢١٩).

(٤) الحوار مع أهل الكتاب للقاسم (١٦٢) بتصرف.

المبحث الثاني:

الجدال مع أهل الكتاب بالحسنى وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين:

المطلب الأول:

موضوعات الحوار أو الجدل مع أهل الكتاب

موضوعات الحوار والجدال لها أهمية كبرى إذ إنها ركن من أركانه لا يتم إلا بها^(١) وإن الناظر في الكتاب والسنة يجد أنهما يدوران في مجادلة أهل الكتاب على محورين أساسيين: التوحيد والنبوة^(٢)؛ وما يتعلق بهما من قضايا فتجد فيهما:

١ - الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابْنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٥)

٢ - الأمر بالإيمان برسالة محمد ﷺ وأنه رسول إلى العالم أجمع وهم داخلون تحت عموم رسالته كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦) وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٧)

٣ - إثبات القرآن لنسخ أديانهم وتحريف كتبهم وبطلانها ووجوب إيمانهم بالقرآن

(١) الحوار مع أهل الكتاب للقاسم (١٦٣).

(٢) منهج الجدل والمناظرة (١ / ٤٨٦ - ٥٠٥).

(٣) آل عمران: ٦٤.

(٤) المائدة: ٧٢.

(٥) المائدة: ٧٣.

(٦) المائدة: ١٩.

(٧) البقرة: ١٤٦.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٢)

٤ - الرد على شبهاتهم وافتراءاتهم ونهيهم عن الغلو في الدين وهذا كثير في القرآن والسنة والأصل في مواضع الجدل معهم ما يلي^(٣):

أولاً: كل موضوع يخدم الأهداف التي شرعها الله في مجادلة أهل الكتاب فهو مطلوب وذلك مثل: دعوتهم للإسلام وبيان ما هم عليه من الباطل ورد شبهاتهم وطعنهم في الإسلام وتثبيت المؤمنين بإظهار علو حجة الإسلام وتحقيق مصالح مشروعة للمسلمين عبر الحوار معهم مثل: تحييد بعضهم والضغط عليهم وكشف مؤامراتهم وفضح طرقهم في التنصير ونحو ذلك^(٤)

ثانياً: كل موضوع يخدم أهدافاً نهى الله عنها فهو ممنوع وذلك مثل: موالاة الكفار ومودتهم؛ أو التقارب معهم؛ أو التنازل عن شيء من دين الإسلام كالإلغاء للجهاد أو تحوير معناه أو التنصل من أحكام أهل الذمة أو إبطال الرق؛ ونحو ذلك^(٥)

ثالثاً: إذا كان الموضوع من الاصطلاحات والألفاظ الحادثة التي ربما جمعت حقاً وباطلاً أو كانت باطلاً ولكنها مشتبهة ففي هذا تفصيل يقوم على أمور منها:

أ- معرفة أقسام الناس في موافقة ألفاظ ومعاني الكتاب والسنة

الناس في موافقة نصوص الكتاب والسنة على أقسام:

أحدها: من يوافقها لفظاً ومعنى وهؤلاء أسعد الناس بالحق

الثاني: من يوافقها في المعنى دون اللفظ وفيه تفصيل

الثالث: من يوافق النصوص في اللفظ دون المعنى وهذا مثل استخدام الباطنية

(١) البقرة: ٧٥.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (١٦٣) بتصرف.

(٤) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، للقاسم (١١٢ - ١١٧).

(٥) انظر: الحوار مع أهل الكتاب للقاسم (١١٩ - ١٣٣).

وأشياءهم لألفاظ الشرع للدلالة على معانٍ فاسدة خارجة عن حد الإسلام كاستعمالهم لألفاظ: الصلاة والصيام والحج ومنه استعمال العصرانيين وأشياءهم للفظ: "الكلمة السواء" في غير ما أنزله الله تعالى

الرابع: مخالفة ألفاظ الكتاب والسنة لفظاً ومعنى وهؤلاء أشقى الطوائف^(١)

وينبغي على المرء أن ينظر حين يستخدم تلك المصطلحات الحادثة هو في أي قسم منها

ب- العلم بملايسات نشأتها وتاريخها وطرائق ودرجات استعمال المخالف لها

العلم بنشأة هذه المصطلحات (التسامح والتعايش والحوار وغيرها) وتاريخها مما

يعين على استبانة الحق فيها

ج- وزنها بوزن السلف الصالح في الاصطلاحات الحادثة

يتميز السلف الصالح ومن يسير على أثرهم بأنهم ي نهون عن: "إطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق ولا قصور أو تقصير في بيان الحق ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل ففي إثباتها حق وباطل وفي نفيها حق وباطل فيمنع من كلا الإطلاقين بخلاف النصوص الإلهية فإنها فرقان فرق الله به بين الحق والباطل ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه"^(٢) والأصل في "الاصطلاحات الحادثة" أن توزن بوزنهم في مثلها وأخواتها من الألفاظ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإذا عرفت المعاني المقصودة بهذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبتته الكتاب والسنة وينفى الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا في الوسائل والمسائل: من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو من الصراط المستقيم وهذا من مثرات الشبه"^(٣) أهـ

(١) انظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (٢ / ٦٨٨، ٦٨٩) بتصرف.

(٢) درء التعارض (١ / ٧٦).

(٣) انظر: درء التعارض (١ / ٤٥، ٤٦).

د- تحرير محل الإجمال والإيهام في تلك الألفاظ والمصطلحات

قال ابن القيم رحمه الله تعالى^(١):

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ :: إطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسد هذا الوجود وخبط الـ :: أذهان والآراء كل زمان

فإطلاق الأقوال المجملة والمعاني المشتبهة يثير النزاع بين المتخاصمين أمّا التفصيل والبيان فهو إمّا أن يرفع النزاع أو يقلله ولهذا كان كثير " من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعانٍ مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون في قوله نوع من الصواب وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه وقد يكون الصواب في قول ثالث"^(٢)

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: " فإذا عرفت المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة وعبر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالفه فهذا عظيم المنفعة وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾"^(٣) وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والسنة ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم ثم اعتبار هذه المعاني بهذه المعاني ليظهر الموافق والمخالف"^(٤) أهد

* * * * *

(١) شرح الهراس على النونية (١ / ١٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٢ / ١١٤).

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) درء التعارض: (١ / ٤٥، ٤٦).

المطلب الثاني :

محاورة أهل الكتاب بين مجافٍ ومغال

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وهم أهل كتب سماوية وأهل عقيدة سماوية رغم ما فيها من تحريف وتبديل وقد تسامح الإسلام معهم كثيراً حيث أجاز للمسلمين مصاهرتهم وأكل طعامهم وتحليل ذبائحهم ولذلك يخطئ من لا يعطي أي اعتبار لعقيدة أهل الكتاب ويساويهم بالمشركين البوذيين مثلاً

والإسلام يأمرنا بحسن معاملة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن ويخطئ كثيراً من يصور علاقة المسلمين بأهل الكتاب على أنها علاقة قائمة على البغض والكراهية والعداء والقتال وسوء المعاملة

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَذَا وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وجاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بخصوص وحدة الأديان ما يأتي: "و مما يجب أن يعلم أن دعوة الكفار بعامّة وأهل الكتاب بخاصة إلى الإسلام واجبة على المسلمين بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسلام، وذلك للوصول إلى قناعتهم بالإسلام ودخولهم فيه"

فالعلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب علاقة قائمة على التسامح وحسن المعاملة والعدل والتعارف وتبادل المنافع والمصالح

و يخطئ كثيراً من يعتبر حسن معاملة أهل الكتاب والتسامح معهم نوع من الموالاة فهناك فرق كبير بين التسامح وحسن المعاملة الذي يدعو له الإسلام وبين الموالاة التي ينهى عنها الإسلام فالموالاة المنهي عنها هي مناصرة أعداء المسلمين ضد المسلمين لإضعافهم وتقويض دولتهم ومحاربة دينهم الإسلامي كذلك من الموالاة الرضى بما هم فيه من الكفر

و يمكن تقسيم أهل الكتاب من حيث علاقتهم بالمسلمين إلى:

١ - أهل الذمة: والذمة هنا معناها ذمة الله وعهده ورعايته

٢ - و أهل الذمة هم: (المواطنون) غير المسلمين الذين يعيشون تحت ظل الدولة الإسلامية ولهم حقوق وعليهم واجبات وأهم واجباتهم دفع الجزية والجزية نوع من الضرائب في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون فمن غير المعقول أن يدفع غير المسلم الزكاة لأن الزكاة عبادة

٣ - و من حقوق أهل الذمة على المسلمين: حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وأعراضهم وكفالة حرياتهم والكف عن أذاهم وقد حذر الرسول عليه السلام من إلحاق الأذى بأهل الذمة حين قال: (من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) وهناك قاعدة مشهورة عند فقهاء الإسلام بخصوص أهل الذمة هي: (أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا)

و قد روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: (إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدماننا وأموالهم كأموالنا)

٤ - أهل الحرب: وهم الذين بينهم وبين المسلمين حرب والذي يعلن ويقود الحرب أو يستنفر للجهاد هو حاكم الدولة الإسلامية أو خليفة المسلمين وليس الأفراد

٥ - أهل الهدنة: هم الذين يربطهم مع المسلمين عقد الهدنة والموادعة فإذا كانت هنالك حرب بين المسلمين وأعدائهم وجنح هؤلاء الأعداء للسلم فعلى المسلمين أيضاً أن يقبلوا السلام معهم فالإسلام يدعو دائماً للسلام والأمان ولا يدعو للحرب

٦ - المستأمنون: وهم غير المسلمين أو الحرييون الذين يدخلون الديار الإسلامية لفترة محدودة

و إذا تكلمنا بلغة العصر نقول: المستأمنون هم الأجانب الذين يدخلون الدولة الإسلامية لفترة محدودة بهدف السياحة أو الزيارة أو التعرف على الإسلام أو طلباً للأمان واللجوء إلخ

و تسري عليهم أحكام عقد الأمان ويترتب على عقد الأمان حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وأعراضهم

النبي محمد ﷺ قام شخصياً بهداية بعض اليهود إلى الإسلام:

فقد حدثنا الصحابي الحصين بن سلام كيف أسلم وجاء إلى الرسول وطلب منه إخفاءه ودعوة اليهود إلى الإسلام، وجاء أشراف اليهود وحثهم الرسول ﷺ على قبول دعوة الإسلام ولما وجد منهم إعراض سألهم عن موقع الحصين بن سلام فيهم وما أجابوه بأنه من أشرفهم علماً ومكانة، وعندما سألهم الرسول ﷺ عن ردة فعلهم إن أسلم الحصين، فأجاب اليهود بأنه لا يمكن أن يقوم بذلك على الإطلاق

وفي هذه اللحظة خرج عليهم الحصين وحثهم على ترك تكبرهم وقبول الإسلام واتباع الرسول ﷺ لأن صفته موجودة في كتابهم المقدس

أرسل الرسول ﷺ بعوثاً لهداية اليهود:

قام الرسول ﷺ ببعث مسلمين لهداية يهود خيبر وقال لهم بأن الله سيجزيهم أفضل الجزاء على ذلك

أرسل الرسول ﷺ سيدنا معاذ لدعوة اليهود إلى الإسلام:

قام الرسول ﷺ ببعث سيدنا معاذ إلى اليمن وقال له بما معناه بأنه ذاهب إلى أهل كتاب ويجب عليه أن يدعوهم أولاً إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وعندما يقبلوا بالله رباً طلب منه أن يشرح لهم شعائر الإسلام من صلاة وزكاة إلخ

نحاول أن نوضح العلاقة الصحيحة بين المسلمين وأهل الكتاب في ضوء الآيات القرآنية عامة سواء الأمرة بقتالهم أو الدالة على قربهم ومودتهم

وبه يتبين مسلك الغلط في كلا الموقفين المذكورين في صدر الكلام، فنقول وبالله التوفيق:

بداية نقول: إن الإسلام ينكر أي دين آخر أيا كان ويرى أن عدم اعتناق الإسلام هو كفر ومروق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(١) وهذه المسألة مقطوع بها في دين الإسلام، فالمسلمون على الحق وغيرهم من الأديان الأخرى على الباطل وإن تفاوتوا فيه

هذا عن الموقف العقدي تجاه من لم يدخل في دين الله " الإسلام " أما الموقف العملي تجاه كل الكافرين فهو يتدرج، ف يبدأ الموقف بالدعوة من غير إكراه للدخول في الإسلام والإيمان به، فإن حصل الإيمان الطوعي كان ذلك غاية المنى وإن أبوا فالجزية تفرض

(١) آل عمران: ٨٥.

عليهم لقاء حمايتهم من العدو الخارجي مع صون أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فإن أبوا فالسيف هو الحكم والفصل بيننا وبينهم

فهذا هو موقف المسلمين من الكافرين عموماً وإن كان ثم خلاف بين علمائنا حول تمتع غير أهل الكتاب بخيار الذمة

وهنا يأتي السؤال ألا يتنافى الأمر بقتال النصارى ضمن عموم الكافرين مع ما ورد في شأن النصارى بأنهم أهل مودة وأنهم أقرب إلى أهل الإسلام من اليهود والمشركين؟ ونحن نقول: لا تنافي بين الأمرين البتة، ولكن وضع آيات المودة في غير موضعها وإخراجها عن سياقها وتزويد البعض في مدلولها أدى إلى نشوء هذا الفهم الذي يفترض التعارض ونحن نجلي الأمر من خلال قراءة النص القرآني بسياقه وألفاظه، فالآيات المقصودة بالحديث جاءت بعد آيات التكفير للمثلثة الذين يؤلهون عيسى عليه السلام ووصفهم بالضلال والإضلال، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)

ثم دعاهم إلى التوبة فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

ثم بين حقيقة المسيح عليه السلام فقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٣)

ثم أنكر عليهم عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ثم وعظهم في ترك الغلو، واتباع المضلين من اليهود الذين لعنوا على لسان الأنبياء، وغير ذلك من أوصافهم، ثم بعد هذا البيان العام ذكر شأن طائفة من النصارى قيل هم من نصارى الحبشة بعثهم النجاشي رضي الله عنه فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا، فهذه التزكية إذا ليست في عموم النصارى الذين يؤلهون المسيح ويؤمنون بالتثليث وهي أمور كفرهم الله بها

(١) المائدة: ٧٢، ٧٣.

(٢) المائدة: ٧٤.

(٣) المائدة: ٧٥.

ودعونا نقرأ الآيات المقصودة لنرى بأم أعيننا أنها خاصة كما تدل على ذلك ألفاظها وسياقها، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) فظاهر من الآيات أنها في طائفة خاصة من النصارى قرئ عليهم القرآن فبكوا ثم آمنوا، فوعدهم الله جنات تجري من تحتهم الأنهار، فتعميم هذه الآيات في جميع النصارى أمر لا يدل عليه السياق القرآني فضلا على أن واقع أكثر النصارى لا يساعد على هذا التوجه

فبان بنهاية هذا البحث أن لا تعارض بين الأمر بالقتال ومدح طائفة من النصارى آمنت بالنبي ﷺ وصدقته، بل إن الأمر بقتال النصارى يتوافق مع الخطاب القرآني العام بخصوص النصارى وما ورد فيهم من آيات تقضي بكفرهم وغلوهم وضلالهم

* * * *

المطلب الثالث:

سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين

لم تقتصر سماحة النبي ﷺ مع المسلمين فقط بل شملت أهل الكتاب والمشركين أثناء الحرب فقد أوصى بالقبط خيرا وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إذا فتحتهم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما»^(٢)

وفي صحيح مسلم: «ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما»^(٣)

قال النووي: وفي رواية: «ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، وفيها: فإن لهم ذمة

(١) المائدة: ٨٢ - ٨٥.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢ / ٥٥٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح ١٣٧٤.

(٣) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - ٤ / ١٩٧٠ ح ٢٢٧.

ورحمًا» " قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثر من استعماله والتكلم به، وأما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم^(١)

أما سماحته مع اليهود فعندما قتل أحد الصحابة في أحد أحياء اليهود في خيبر فقد رضي وقبل ﷺ يمين اليهود إذ أقسموا أنهم لم يقتلوه ولم يعلموا قاتله فقد أخرج البخاري بسنده عن بشير بن يسار قال: «زعم أن رجلاً من الأنصار يقال له سهل بن أبي حثمة أخبره أن نفرًا من قومه انطلقوا إلى خيبر فتفرقوا فيها فوجدوا قتيلاً، وقالوا للذي وجد فيهم: قد قتلتم صاحبنا، قالوا: ما قتلنا وما علمنا قاتلاً، فانطلقوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر فوجدنا أحدنا قتيلاً، قال: «الكبر الكبير»، فقال لهم: «تأتون البيعة على من قتله؟» قالوا: ما لنا ببيعة، قال: «فيحلفون»، قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود، فكره رسول الله ﷺ أن يُطلَّ دمه " فوداه مائة من إبل الصدقة»^(٢)

قال ابن حجر: قوله: (باب القسامة) بفتح القاف وتخفيف المهملة هي مصدر أقسم قسماً وقسامة، وهي الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادّعوا الدم أو على المدعى عليهم الدم، وخصّ القسم على الدم بلفظ القسامة، وقال إمام الحرمين: القسامة عند أهل اللغة اسم للقوم الذين يقسمون، وعند الفقهاء اسم للأيمان، وقال في المحكم: القسامة الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون به، ويمين القسامة منسوب إليهم ثم أطلقت على الأيمان نفسها، قال القرطبي في المفهم: فعل ﷺ ذلك على مقتضى كرمه وحسن سياسته وجلباً للمصلحة ودرءاً للمفسدة على سبيل التأليف، ولا سيما عند تعذر الوصول إلى استيفاء الحق، وقال القاضي عياض: هذا الحديث أصل من أصول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام وركن من أركان مصالح العباد، وبه أخذ جميع الأئمة والسلف من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وفقهاء الأمصار من الحجازيين والشاميين والكوفيين وإن اختلفوا في صور الأخذ به (فيطلّ) بضم أوله وفتح الطاء وتشديد اللام أي يهدر^(٣)

قال النووي عند شرحه لهذا الحديث: وفي هذا دليل لصحة يمين الكافر والفاسق

(١) شرح مسلم ١٦ / ٩٧.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الديات - باب القسامة ح ٦٨٩٨.

(٣) فتح الباري ١٢ / ٢٣١ - ٢٥٣.

واليهودي^(١)

ولو تتبعنا المعاهدات التي صدرت عن النبي ﷺ لوجدنا فيها ضروباً من التسامح والموادعة والمساواة، ومن هذه المعاهدات " إعلان دستور المدينة الذي اشتمل على سبع وأربعين فقرة منها ما يخص موادعة اليهود كما يأتي:

- ١ - إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين
- ٢ - وإن لليهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته
- ٣ - وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم
- ٤ - وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين
- ٥ - وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره
- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ^(٢)
- قال ابن زنجويه: وقوله: " إن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين " فهو النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين لهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم
- وقوله: " إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين " إنما أراد نصرهم المؤمنين، ومعاونتهم إياهم على عدوهم، بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه بشيء،

(١) شرح مسلم: ١١ / ١٤٧.

(٢) هذه المعاهدة ورد ذكرها في كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٢٩٢ - ٢٩٥ والأموال لابن زنجويه ٢ / ٤٦٦ - ٤٧٠ وسيرة ابن هشام ٢ / ٩٢ والروض الأنف ٤ / ٢٩٣ ومجموعة الوثائق السياسية من ص ٤١ - ٥٠.

ألا تراه قد بين ذلك فقال: لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، وقوله: " لا يوتغ إلا نفسه " يقول: لا يهلك غيرها (١)

وقد قام بتحليل هذه المعاهدة مؤرخ السيرة أ د أكرم بن ضياء العمري، وأنقل ما ذكره بخصوص اليهود فقال: قد تناولت البنود من ٢٥ إلى ٣٥ تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائريهم من العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين" وقد وردت العبارة في كتاب الأموال " أمة من المؤمنين " مما جعل أبا عبيد يقول: " فإنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه في شيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم" (٢) أما ابن إسحاق فقد قال: " مع المؤمنين " وهو أجود، ولعل ما في كتاب الأموال مصحّف، وقد كفلت المادة رقم ٢٥ لليهود حريتهم الدينية، كما حددت مسؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها (إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - أي لا يهلك - إلا نفسه وأهل بيته) فالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين (لا يحول الكتاب دون ظالم ولا أثم) كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند رقم ٤٥ لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى، إذ شرطت المادة على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشاً " إلا من حارب في الدين " لأنهم كانوا في حالة حرب معهم (٣)

كما نرى تسامحه مع أهل الكتاب من الذين يعادون ويخالفون فيما يفتي إذ يتكلمون فيه ويبلغه ذلك، ثم يقدم لهم الهدية من اللبب أخرج مسلم بسنده عن أنس «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن

(١) الأموال: ٢ / ٤٧٢.

(٢) أبو عبيد: الأموال ص ٢٩٦.

(٣) المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٢٧، ١٢٨.

إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاها، فعرفا أن لم يجد عليهما»^(١)

بل نجد سماحته مع لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة وجف طلع نخل ذكر في بئر روان، وحينما أخبر عائشة بذلك قالت له: أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا، فأمر بها فدفنت»

المشاطة: هو وما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاط من مشاطة الكتان^(٢)

وهكذا كان تسامحه مع بعض المنافقين فقد تحمل المنافق عبد الله بن أبي بن سلول قصة الإفك ومع ذلك فقد عفا عنه ﷺ^(٣)، بل حينما مات عبد الله بن أبي غطاءه بقميصه واستغفر له حتى نزل قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} ^(٤)

كما عفا النبي ﷺ عن عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي بينما كان النبي ﷺ يقسم فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟» قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدهم صلواته مع صلواتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نصية فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس»، قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن عليا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعتة النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} ^(٥)

إنها غاية السماحة إذ لم ينتصر رسول الله ﷺ لنفسه بل عفا عنه

كما له مواقف أخرى مع المشركين فقد أخرج النسائي بسنده الثابت عن عبد الله بن مغفل المزني، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله،

(١) الصحيح - الحيض - ب جواز غسل الحائض رأس زوجها ح ٣٠٢.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الطب - باب السحر ح ٥٧٦٣.

(٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة آل عمران ٨ / ٧٨ ح ٤٥٦٦.

(٤) التوبة: ٨٠.

(٥) صحيح البخاري - كتاب استنابة المرتدين - باب من ترك قتال الخوارج ١٢ / ٣٠٣ ح ٦٩٣٣.

وكانني بغصن من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل يده فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة»، فأمسك بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولاً، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: " اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله "، قال فكتب، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أماناً»، فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله عز وجل {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} إلى قوله: {بَصِيرًا}»^(١)

لقد كان بإمكانه أن يأسرهم أو أن يقتلهم ولكن سمحته تأبى ذلك بل قال لهم ولغيرهم من أهل مكة حينما فتحها: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»

فقد تجلّت روح التسامح عند النبي ﷺ حتى في الحرب فقد قال لهم أيضاً: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن^(٢)

ومن تسامحه مع المشركين أيضاً: أنه كان لا يمنع صلة المسلمين بأهلهم المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «أتتني أمي رغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها؟ قال: «نعم»»^(٣)

إن هذا المنهج العملي والقولي في التسامح والارتقاء فوق حظوظ النفس يؤتي أكله كل حين بإذن الله تعالى، فقد أثر في نفوس الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله ومن جاء بعدهم

(١) (التفسير ٢ / ٣١٢ - ٣١٤ ح ٥٣١)، وأخرجه أحمد (المسند ٤ / ٨٦، ٨٧)، والحاكم (المستدرک ٢ / ٤٦٠، ٤٦١) من طريق الحسين بن واقد عن ثابت به، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦ / ١٤٥)، وقال ابن حجر: أخرجه أحمد والنسائي من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح (الفتح ٥ / ٣١٥)، والحديث أخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس (الصحيح ٣ / ١٤١١ ح ١٧٨٤) بنحو مختصر.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الجهاد - باب فتح مكة ح ١٧٨.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب صلة الولد المشرك وباب صلة المرأة بأهلها ولها زوج ١٠ / ٤١٣ ح ٥٩٧٨ و ٥٩٧٩.

إلى يومنا هذا نرى صوراً ونماذج من التسامح التي ازدانت بها صفحات التاريخ كالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه في لون آخر من التسامح مع المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن دينار قال: "سمعت ابن عمر رضى الله عنهما يقول: «رأى عمر حلة سيرة»^(١) تباع، فقال: يا رسول الله، ابتع هذه والبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود، قال: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له»، فأتى النبي ﷺ منها بحلل فأرسل إلى عمر بحلة فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: «إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن لتبعتها أو تكسوها»، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم^(٢)

وهذا أنموذج آخر في زمن معاوية رضى الله عنه فإن الكفار لما نقضوا عهدهم امتنع المسلمون من قتالهم وقالوا: وفاء بغدر خير من عذر بغدر^(٣) إنه ذروة التسامح الذي نهجه النبي ﷺ وأمر به بقوله: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»^(٤)

وإليك أنموذجاً آخر في زمن التابعين في درء الحدود فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي قلابة أن عمر بن عبد العزيز أبرز سريره يوماً للناس ثم أذن لهم فدخلوا، فقال: ما تقولون في القسامة؟ قالوا: القسامة: القود بها حق، وقد أقادت بها الخلفاء، قال لي: ما تقول يا أبا قلابة؟ ونصبني للناس؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، عندك رؤوس الأجناد وأشرف العرب، رأييت لو أن خمسين منهم شهدوا على رجل محصن بدمشق أنه قد زنى ولم يروه أكنت ترجمه؟ قال: لا، قلت: رأييت لو أن خمسين منهم شهدوا على رجل بحمص أنه سرق أكنت تقطعه ولم يروه؟ قال: لا^(٥)

إنه منهج دقيق في التثبت واحتياط رفيق بالمتهم لأن الشبهة قائمة والتهمة لم يجزم بها بواسطة الرؤية التي هي محور الجرم

* * * * *

(١) السيرة بكسر السين وفتح الباء والمد نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور وقيل: الحلة من الحرير وقيل فيها خطوط من إبريسم كالسيور، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢ / ٤٣٣، ٤٣٤).

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب صلة الأخ المشترك ١٠ / ٤١٤ ح ٥٩٨١.

(٣) انظر تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام للإمام بدر الدين بن جماعة ص ٢٣٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه - كتاب البيوع - ح ١٢٦٤ وحسنه وهو كما قال.

(٥) الصحيح - كتاب الديات - باب القسامة ح ٦٨٩٩.

المبحث الثالث

المطلب الأول:

سماحة النبي محمد ﷺ في معاملة غير المسلمين

بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ رجلا سهلا»^(١)، قال النووي: "أي سهل الخلق كريم الشرائع لطيفا ميسرا في الخلق"^(٢) وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»^(٣) بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ، يسر في كل شيء، وذود عن حرمة الله لا عن عرض الدنيا أو أهواء النفوس وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر وأذكر منها ما يلي:

١. رحمته ﷺ بالخلق عامة وهو الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤)، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم فقد قال ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٥)، وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار لجنسهم أو دينهم وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وقد ساق البخاري في باب رحمة الناس والبهائم حديث النبي ﷺ: «ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»^(٦)، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، رقم الحديث: ١٢١٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٧هـ، ج ٤ ص ٤١٠.

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٦٠.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما ما تدعو فله الأسماء الحسنى، رقم الحديث: ٧٣٧٦.

(٦) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث: ٦٠١٢.

يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان

٢. تجاوزه عن مخالفه ممن ناصبوا له العداة فقد كانت سماحته يوم الفتح غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم فكان موقفه ممن كانوا حربا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١)

٣. دعاؤه ﷺ لمخالفه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس - ظنا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها - فقال ﷺ: «اللهم اهد دوسا وائت بهم»^(٢)

ودعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فخرجت مستبشرة بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أُمِّي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت:

يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح» الحديث^(٣)

وجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد ثقيفا»، قالوا: يا رسول الله ادع عليهم فقال: «اللهم اهد ثقيفا»، فعادوا فعاد فأسلموا» فوجدوا من صالحى الناس إسلاما ووجد منهم أئمة وقادة^(٤)

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج ٤ ص ٦١.

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطئ، رقم الحديث: ٢٥٢٤.

(٣) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه رقم الحديث: ٢٤٩١.

(٤) انظر: تاريخ المدينة، ابن شبة، دار العليان، بريدة، ط١، ج ٢ ص ٩٨.

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فلم يرحمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: «يهديكُم الله ويصلح بالكم»^(١)

٤. وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفه من غير المسلمين «فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم»^(٢) وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب قال في المغني: "ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر"^(٣)

٥. وكان من سماحة النبي ﷺ أن يخاطب مخالفه باللين من القول تأليفا لهم، كما تظهر سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين في كتبه إليهم حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام بالطف أسلوب وأبلغ عبارة

٦. وكان ﷺ يغشى مخالفه في دورهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بيننا نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى جئناهم فقام رسول الله ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر يهود أسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم» الحديث^(٤) وعاد ﷺ يهوديا، كما في البخاري عن أنس رضي الله عنه «أن غلاما ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «أسلم» فأسلم»^(٥)

٧. وكان ﷺ يعامل مخالفه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين يعني: صاعا من شعير^(٦)

٨. وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «صلي أمك»^(٧)

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب إذا عطس اليهودي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد، الألباني، ص ٣٤٨ رقم الحديث: ٧١٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث: ٢٦١٧.

(٣) المغني، ابن قدامة، ج ١٣ ص ٢٠٠.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز، رقم الحديث: ١٧٦٥.

(٥) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، رقم الحديث: ٥٦٥٧.

(٦) رواه البخاري، كتاب المغازي، رقم الحديث: ٤٤٦٧.

(٧) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، رقم الحديث: ٢٦٢٠.

وفي المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان ﷺ غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي، فقد ضمن ﷺ لمن عاش بين ظهرائي المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بمحاجة النبي ﷺ لمن ظلمه فقال ﷺ: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١)

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما»^(٢)، تلك صور من سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين وهو ما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم وهو ما سأعرض له في المطلب التالي

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام لليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى

وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)^(٣) هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً، أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد آبائكم من اليهود والنصارى عزيزاً وعيسى، وأطاعوا الأحرار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا وهذا خطاب فيه خصوصية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، رقم الحديث: ٣٠٥٢ وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ، ج ٢ ص ٥٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً، رقم الحديث: ٣١٦٦.

(٣) سورة آل عمران / ٦٤.

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين^(١))

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ومعناها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)^(٢) و المعنى أنه إذا آمن له أجران أجر لإيمانه بالرسول السابق، وأجر لإيمانه بمحمد، وإذا لم يؤمن أن عليه إثم الضعفاء والأتباع في مملكته إذا لم يسلموا تقليداً له، لأن الأصغر أتباع الأكابر

و في دعوته لليهود والنصارى قال: «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٣) وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ

و في حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعنتها فتزوجها فله أجران»^(٤)

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ له أجران، وكذلك يرى الكتابي أنه له

(١) أخرجه البخاري - جزء ١ ص ٩ - كتاب بدء الوحي - باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ - حديث رقم (٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ - ص ١٠٩ (المكتبة الألفية).

(٣) أخرجه مسلم - الجزء الأول - ص ١٣٤ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٣٥.

(٤) أخرجه البخاري - الجزء الأول - ص ٤٨ - باب تعليم الرجل أمته وأهله - حديث رقم ٩٧.

مزية على المشرك حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك أن الإسلام يقدر الأديان السابقة ويرفع من شأنها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود»، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس^(١)، فقام النبي ﷺ فناداهم: «يا معشر يهود أسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد»، ثم قالها الثانية، فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: «اعلموا أن الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»^(٢) والظاهر أن هؤلاء بقايا من اليهود تأخروا بعد إخراج قبائل اليهود الثلاثة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، لأن القبائل الثلاثة أجليت من المدينة قبل إسلام أبي هريرة رضي الله عنه^(٣)

في هذا الحديث تصريح منه ﷺ لليهود بالدعوة وإخباره لهم أن سلامتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة في إسلامهم واتباعهم لما جاء به من عند الله، أي تسلموا في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب^(٤) وقد أخذ ﷺ الاعتراف من اليهود بأنه بلغهم رسالته، وهذه دلالة على دعوته الخاصة لهم

قال تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}^(٥)

إن أسلوبه ﷺ إما ترغيب أو ترهيب، في هذه الآية يتحدى ﷺ نصارى نجران بأن يتركوا كلامهم عن ألوهية عيسى وذلك بالتضرع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذبين، وهذا من حرصه ﷺ أن يدخلوا الإسلام، ولكن النصارى لم يأمنوا عاقبة الملاعة فتركوها ورضوا بالجزية^(٦) رغم أنهم اعتقدوا بصدق النبي ﷺ، لذلك لم يباهلوا

(١) بيت المدراس بكسر الميم: هو البيت الذي يدرس فيه كتابهم، فتح الباري.

(٢) صحيح البخاري - الجزء ٦ - ص ٢٥٤٧ - باب بيع المكره - (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ٦٥٤٥.

(٣) فتح الباري - الجزء ٦ ص ٢٧١.

(٤) شرح الكرمانى لصحيح البخاري ٥٤/١٣ - مؤسسة المطبوعات الإسلامية - مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية - القاهرة.

(٥) آل عمران: ٦١.

(٦) انظر تفسير القرطبي - الجزء ٤ - ص ١٠٤.

بل فروا منه ولم يؤمنوا ويدخلوا في الإسلام

إن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ولين الجانب معهم أسلوب حكيم من أساليبه ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١)

و في الآية خطاب للمؤمنين عند مقدمهم قبل واقعة بدر تسلية لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمرهم بالصفح والصبر والعفو حتى يأتي فرج الله قال ابن حاتم إن أسامة بن زيد قال: (كان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم)^(٢)

و في آية قرآنية أخرى يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر أو الفتح^(٣) قال تعالى في المعنى السابق: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(٤)

و من حلمه ﷺ على أهل الكتاب أنه استلف تمراً من يهودي إلى أجل معلوم، فخرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما وضع الميت في قبره قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضيني تمري؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم فهم عمر رضي الله عنه بضرب اليهودي، فقال له ﷺ: «يا عمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسن قضاءه» ثم أمره أن يذهب إلى حائط أحد الأشخاص وأن يكيل له بعد رضائه ثم يزيد كذا صاعاً لتعنيف سيدنا عمر إياه فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ، إلا الحلم فقد رأيناه الآن، فشهد شهادة الحق وأمن، ثم مات اليهودي فخرج

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير - الجزء (١) - صفحة ٤٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير - الجزء (١) - صفحة ١٥٤.

(٤) البقرة: ١٠٩.

النبي ﷺ فحمل سريره على عاتقه الأيسر^(١) رغم تجاوز هذا اليهودي في سبه ﷺ ثم سب بني عبد المطلب جميعاً، وطلب دينه في وقت غير مناسب، إلا أنه ﷺ كان حليماً بهذا اليهودي، لذلك كان رد الفعل إسلامه الفوري وهذا أسلوب حكيم للرسول ﷺ مع أهل الكتاب لدعوتهم لدخول الإسلام

إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى بعض أنبيائه من البينات (المعجزات) وذلك لتصديقهم فيما جاؤوا به وقد أيد الله سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات: العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صدق موسى عليه السلام، وكذلك أعطى عيسى ابن مريم عليه السلام إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأيدته بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ما يدل على صدقه فيما جاءهم به

أما النبي محمد ﷺ كانت معجزته الكبرى القرآن، إلا أنه كان يظهر لأهل الكتاب بعض المعجزات التي كانت تتحقق على يديه عليهم يؤمنون به كما آمنوا بأنبيائهم السابقين موسى وعيسى عليهم السلام

روى ابن عباس رضي الله عنهما، أنه حضرت عصابة من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن أربعة أشياء لا يعلمهن إلا نبي كما ذكروا له ذلك وهي: الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وماء المرأة وماء الرجل كيف يكون منه الذكر والأنثى، وإخبار هذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة، وقد أخذ عليهم النبي ﷺ الموائيق والعهود إذا أجابهم وفق ما يعلمون أن يدخلوا الإسلام، وكانت الإجابة أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر نذراً لأن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرم من أحب الشراب وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها والإجابة الثانية أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله والإجابة الثالثة أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه، فالإجابة الأخيرة أن جبريل هو ولي الرسول ﷺ وجميع الأنبياء و في هذا الحديث يبين الرسول ﷺ لأهل الكتاب بعض المغيبات التي لم يحضرها ولم

(١) انظر القسم المطبوع من سيرة ابن إسحاق فقرة ٤٥٩ ص ٢٧٢، ٢٧٣ تحقيق وتعليق محمد حميد الله - تقديم الأستاذ محمد القاسمي.

يقرأ عنها وإنما هي وحي يوحى إليه، وأخبرهم بما سأله عنه طبق ما يعلمون في كتبهم السماوية المنزلة على أنبيائهم ليؤمنن به وليتبعنه ولكن اليهود حاولوا التخلص من العهد الذي التزموا به مع النبي ﷺ بحجة بغضهم لجبريل عليه السلام^(١)، قال تعالى فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) كان النبي ﷺ يبين لأهل الكتاب أن كتابه الذي أنزل عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، فإذا تحقق التوافق حينئذ فإنه رسول من عند الله صدقوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام

قال ابن عمر رضي الله عنهما: (إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا أن رجلاً منهم وامراً زنياً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون قال عبدالله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، قال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة^(٣)

و في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ أقنعهم أن كتاب الله الذي أنزله على نبيهم موسى عليه السلام يوافق كتابه الذي أنزله في شأن الرجم على نبينا محمد ﷺ وهذا أسلوب لدعوته ﷺ أهل الكتاب لدخول الإسلام

قال الإمام ابن حجر في قوله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» قال الباجي: (يحتمل أن يكون علم بالوحي أن الحكم بالرجم فيها ثابت على ما شرع لم يلحقه تبديل، ويحتمل أن يكون علم ذلك بإخبار عبدالله بن سلام وغيره ممن أسلم منهم على وجه حصل له به العلم بصحة نقلهم، ويحتمل أن يكون إنما سألهم عن ذلك ليعلم ما عندهم فيه ثم يتعلم صحة ذلك من قبل الله تعالى)^(٤)

كان رسول الله ﷺ يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تألفاً واستعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ذلك لأنهم إذا رأوه يتعبد بالأحكام التي يعلمون

(١) انظر البداية والنهاية - ابن كثير - الجزء ٦ - ص ١٧٣.

(٢) البقرة: ٩٧.

(٣) أخرجه البخاري - باب قوله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ - الجزء الثالث ص ١٥٣٠ (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ٣٤٣٦.

(٤) فتح الباري - الجزء ١٢ ص ١٦٨ (المكتبة الألفية).

أنها تشريع سماوي أنزله الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلّة والإنجيل، علموا أن مصدر التشريع الذي عندهم والذي عنده واحد هو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه^(١))

و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي ﷺ رأسه^(٢)

وفي هذا الحديث اتضح أن النبي ﷺ وافق أهل الكتاب في أفعالهم حتى يخالف أهل الأوثان، فلما أسلم أهل الأوثان الذين معه والذين حوله واستمر أهل الكتاب على كفرهم تمحضت المخالفة لأهل الكتاب ثم فرق ﷺ رأسه

لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير، والوعد والوعيد، لذلك أخبر ﷺ أن اليهود تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن عذاب دلالة على عذاب الآخرة وهذا يدل على حرصه لدخولهم الإسلام

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «يهود تعذب في قبورها»^(٣)

* * * * *

(١) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١٤٣٤ باب إتيان النبي ﷺ حين قدم المدينة - حديث رقم ٣٧٢٧.
 (٢) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١٣٠٥ - باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث رقم ٣٣٦٥.
 (٣) أخرجه البخاري - الجزء الأول ص ٤٦٣ - باب التعوذ من عذاب القبر - حديث رقم ١٣٠٩ د/ بشرى محمد أحمد.

المطلب الثاني :

صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين

تقدم القول بأن تاريخ الإسلام شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام^(١)

يقول توماس آرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"^(٢)

لقد كان عهد الخلفاء الراشدين امتدادا لعهد النبي ﷺ وشهد صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك

وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة رضي الله عنهم في معاملة غير المسلمين:

١ - في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق - وكانوا من النصارى: " وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله"^(٣)

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي وبيان صورته لن يجدوا أعظم من هذه الصورة في الإسلام مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من الأسباب بل يجعلهم عيالا

(١) انظر: عقد الذمة في التشريع الإسلامي، محمد المطردي، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط ١، ١٩٨٧م ص ١٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، مكتبة النهضة، مصر، ط ٣، ١٩٧٠م، ص ٩٩.

(٣) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص ٣٠٦.

على بيت مال المسلمين ويرضخ له منه أيا كانت ديانتهم

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله^(١)

٢ - وكان أبو بكر رضى الله عنه يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: " وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم"^(٢)

٣ - وأوصى عمر رضى الله عنه الخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم^(٣)

٤ - ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضريب البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شببيته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه^(٤)

٥ - إن السماحة في المعاملة يجب أن تكون في ضوء ضوابط الشرع ومقاصده ومثل ذلك يتطلب أن يكون المسلم على بصيرة بهدي النبي ﷺ وسلف الأمة من الصحابة والتابعين في هذا الشأن، فمن صور السماحة في المعاملة ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه لما قدم الجابية من أرض الشام استعار ثوبا من نصراني فلبسه حتى خاطوا قميصه وغسلوه وتوضأ من جرة نصرانية

(١) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام، ج ١ ص ٤٤٦.

(٢) فتوح الشام، الواقدي، دار الجيل بيروت، دت، ج ١ ص ٨.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما رقم الحديث: ١٣٩٢.

(٤) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص ١٢٦.

وصنع له أهل الكتاب طعاما فدعوه فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة فكره دخولها وقال لعلي رضي الله عنه: اذهب بالناس فذهب علي رضي الله عنه بالمسلمين فدخلوا فأكلوا وجعل علي رضي الله عنه ينظر إلى الصور وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل^(١)

٦ - ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المقلسون) وهم قوم يلعبون بلعبة لهم بين أيدي الأمراء إذا قدموا عليهم بالسيوف والريحان فقال عمر رضي الله عنه: مه ردوهم وامنعوهم فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها سرروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة^(٢)

٧ - وصلى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء رضي الله عنه: هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟ فقالت طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال له سلمان رضي الله عنه: خذا من غير فقيه^(٣)

٨ - وجاء في صفة الصفوة أن عمر بعث عميرا عاملا على حمص فمكث حولا لا يأتيه خبره ولم يبعث له شيئا لبيت مال المسلمين، فقال عمر لكتابه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا فأخذ عمير - لما وصله كتاب عمر - جرابه فوضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة فقدم وقد شحب لونه واغبر وجهه فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله قال عمر: ما شأنك؟ قال: ما تراني صحيح البدن ظاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرونها؟ قال عمر: وما معك؟ وظن عمر أنه جاءه بمال

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، د ت، ج ١ ص ١٥٣، ١٥٧.

(٢) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٩٨٧م ص ١٨٠.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ج ١ ص ١٥٣.

قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، ومعني عزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوا إن عرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي وسأله عمر عن سيرته في قومه وعن الفيء فأخبره، فحمد فعله فيهم ثم قال: جددوا لعمير عهدا

قال عمير: إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني: أخزأك الله، فهذا ما عرضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خلفت معك ^(١) لقد عظم على عمير قوله لرجل من غير المسلمين:

أخزأك الله، وهو دعاء، وما ذكر خطأ اقتترفه في ولايته على حمص أعظم من هذا، وفي ذلك دليل على أن هذا الدين ما جاء إلا بالرحمة والهداية وإنقاذ البشر من الضلال إلى الهدى ومن ظلمات الكفر إلى نور الطاعة، ولا عجب فمن مدرسة النبوة تخرج هذا الصحابي وغيره، ممن لا يؤذون الناس بل يغمرونهم بعطفهم ورحمتهم وسماحتهم وإحسانهم، ولذا قال عنه عمر: إنه نسيج وحده، وقال: وددت أن لي رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين ^(٢)

إن الدعاء لغير المسلمين وفق ضوابط الشرع من أعظم صور التسامح في الإسلام ومن محاسنه الكبرى التي تنظر إلى الإنسان نظرة تكريم وعناية، وفي الدعاء استمالة ظاهرة لقلب المدعو فكل أحد يتمنى من الناس الدعاء له بالخير، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنه: لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك، وفرعون قد مات ^(٣)

٩ - وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه وغلame يسلخ شاة فقال: «يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو رويننا أنه سيورثه» ^(٤)

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ ١٤٠٩ هـ، ج ١ ص ٣٥٤.

(٢) المرجع السابق، ج ١ ص ٣٥٦.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد باب كيف يدعو للذي؟ وحسنه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد، الألباني، ص ٤٣٠ رقم الحديث ٨٤٧.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب جار اليهودي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد،

١٠ - وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطاة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه^(١)

وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف له وجود إلا في الإسلام لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها

١١ - وعندما أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله مناديه ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه^(٢)

١٢ - وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقوله: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ من أموالهم - إلا بحق يجب عليهم"^(٣)

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم وهو ما سأعرض له في المبحث التالي

* * * * *

الألباني ص ٧٢ رقم الحديث: ٩٥.

(١) كتاب الأموال، أبو عبيد، ص ٥٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، دت، ج ٩ ص ٢١٣.

(٣) الخراج، أبو يوسف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ ص ١٢٥.

المطلب الثالث :

سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة خصومها ظاهرة بينة إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة

١ - فمن ذلك ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام حيث كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يقولون: " يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا" ^(١) واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام

٢ - ففي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول:

" إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح " ^(٢)

ويقول أيضا: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعاتهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة"

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: " العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة

(١) فتوح البلدان، البلاذري، دار الهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ص ١٣٩ وانظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٧٣ وكتاب الخراج، أبو يوسف، ص ١٣٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٧٠.

شعائر دينهم وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأخبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود

٣ - إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف^(١)

٤ - ويقول غوستاف لوبون: فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم^(٢) ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: وكان عرب أسبانيا خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من خلال التي اقتبسها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخر^(٣)

٥ - ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة "ريفي بارلمنتير" الفرنسية حيث قال: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام ولنجت من وصمة محاكم التفتيش ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت ترجمة فاروق ببيضون وكمال دسوقي، ط ١٠، ١٤٢٣ هـ ص ٣٦٤.

(٢) انظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٧٢٠.

(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٣٤٤، وانظر: السلوك، أثره في الدعوة إلى الله، فضل إلهي، إدارة ترجمان الإسلام، باكستان، ط ١، ١٤١٩ هـ ص ١٦٤.

الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية^(١)

٦ - ويقول المستشرق دوزي: "إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"^(٢)

٧ - ويقول المستشرق بارتولد: "إن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين إذ أن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل"^(٣)

٨ - ويقول المستشرق ديوراننت: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام"^(٤)

٩ - ويقول أحد الكتاب الأمريكيين المعاصرين وهو: أندرو باترسون: "إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف"^(٥)

١٠ - ويقول بول فندلي وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي: على المسلمين الإعلان جهراً عن هويتهم الإسلامية والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها وإنجازاتهم المجدية سبيلاً للتعرف على الإسلام^(٦)

(١) نقلاً عن: صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط ١٥، ١٤١٨ هـ ص ٤٢٠.

(٢) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، دار العلوم، الرياض، ط ١، ١٤٠٣ هـ ص ٧٠ نقلاً عن: نظرات في تاريخ الإسلام، دوزي، ص ٤١١.

(٣) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، ص ١٢٤، نقلاً عن الحضارة الإسلامية، بارتولد، ق. ص ١٩.

(٤) قصة الحضارة، ول ديوراننت، دار الجيل، بيروت، د ت، ج ١٣ ص ١٣٠.

(٥) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، شركة المطبوعات، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١ م ص ٩١.

(٦) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، ص ٣٤٤. بتصرف.

١١ - وكانت سماحة الإسلام سببا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه سماحة في السلم وسماحة في الحرب والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه^(١)

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام أو عميت بصيرته عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

* * * * *

المطلب الرابع:

مشاركة أهل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية

جعل الإسلام في شريعته الغراء حقوقاً واجبة للمستأمنين يجب الوفاء بها وأداؤها تجاههم، وأرشد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، كما أوجب عليهم حقوقاً تجاه المسلمين الذين آمنوهم في ديارهم فمن تلك الحقوق الواجبة على المسلمين تجاههم:

١ - العدل معهم وعدم التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل ولا يجوز ترويعهم وإخافتهم، ويعاملون بالعدل والقسط:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢)

قال البيضاوي: " لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العدل أقرب للتقوى، صرّح لهم بالأمر بالعدل، وبَيَّنَّ أَنَّهُ بِمَكَانٍ مِنَ التَّقْوَى بَعْدَمَا نَهَاهُمْ عَنِ الْجَوْرِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ مُقْتَضَى الْهَوَى، وَإِذَا كَانَ

(١) انظر: معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، إدوار غالي الذهبي، مكتبة غريب، مصر، ط ١، ١٩٩٣م ص ٤٩.

(٢) المائدة: ٨.

هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين" (١)

وقال ابن كثير: "ومن هذا قول عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئكم من عند أحبّ الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبّي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض" (٢)

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة» (٣) وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» (٤)

وصور تطبيق هذه التعاليم والأحكام في تاريخ المسلمين كثيرة ومتنوعة، فقد كان عمر - رضي الله عنه - يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة والمعاهدين، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: "ما نعلم إلا وفاء" أي: وفاء بمقتضى العقد والعهد الذي بينهم وبين المسلمين (٥) ودخل ذمّي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله قال عمر: ما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي وكان عدو من رؤوس الناس، وفيهم العباس بمجلس عمر، فسأله: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم، أقطعنيها أبي أمير المؤمنين، وكتب لي بها سجلاً فقال عمر: ما تقول يا ذمّي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر: نعم، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته يا عباس (٦)

قال ابن القيم رحمه الله: "أحكام المستأمن والحربي مختلفة، لأن المستأمن يحرم

(١) تفسير البيضاوي ٣ / ٢٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ٥٦٥، والحديث رواه أحمد في مسنده ٢.

(٣) رواه البيهقي في سننه ٥ / ٢٠٥.

(٤) رواه البخاري - كتاب الجزية والموادعة - باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ٦ / ٢٦٩.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ٤ / ٢١٨.

(٦) صفة الصفوة ٢ / ١١٥.

قتله وتضمن نفسه ويقطع بسرقة ماله، والحربي بخلافه" ^(١) وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: " لا يجوز قتل الكافر المستأمن الذي أدخلته الدولة آمناً، ولا قتل العصاة ولا التعدي عليهم، بل يحالون للحكم الشرعي، هذه مسائل يحكمها الحكم الشرعي " ^(٢)

٢- البراءة منهم وعدم موالاتهم:

البراءة: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإغذار والإنذار، وهي ضد الولاء، قال ابن تيمية: " الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد " ^(٣)

قال تعالى: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^(٤)

قال ابن كثير: " وإعلام من الله ورسوله وتقدم إنذار إلى الناس يوم الحج الأكبر - وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً: {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} أي: بريء منهم أيضاً " ^(٥)

فالواجب على المسلمين أن يتبرؤوا ممن برئ الله ورسوله منه، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} ^(٦)

وقد مدح الله نبيه إبراهيم عليه السلام في براءته من أهل الكفر والشرك، وأمر بالافتداء به، فقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا سَتَعْفِرُنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} ^(٧)

قال الطبري: " قد كانت لكم أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم، إلا في قول إبراهيم: {لَا سَتَعْفِرُنَّ لَكَ}، فإنه لا أسوة

(١) أحكام أهل الذمة ٢ / ٧٣٧.

(٢) مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري ٢٩.

(٣) مجموع الفتاوى ١١ / ١٦٠.

(٤) سورة التوبة، من الآية ٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٣٢.

(٦) المجادلة: ٢٢.

(٧) الممتحنة: ٤.

لكم فيه في ذلك؛ لأنّ ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدّها إيّاه، قبل أن يتبيّن أنّه عدوّ الله، فلمّا تبين أنّه عدوّ الله تبرأ منه، فتبرؤوا من أعداء الله من المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا من عبادة ما سواه، وأظهروا العداوة والبغضاء^(١)

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بما نصه: يسكن معي شخص مسيحي، وهو يقول لي: يا أخي، ونحن إخوة، ويأكل معنا ويشرب فهل يجوز هذا العمل أم لا؟

فأجاب رحمه الله: "الكافر ليس أخًا للمسلم أي: في الدين، والله يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، ويقول ﷺ: «المسلم أخو المسلم»، فليس الكافر - يهوديًا أو نصرانيًا أو وثنيًا أو مجوسيًا أو شيعيًا أو غيرهم - ليس أخًا للمسلم، ولا يجوز اتخاذه صاحبًا وصديقًا، لكن إذا أكل معكم بعض الأحيان من غير أن تتخذوه صاحبًا وصديقًا، وإنّما يصادف أن يأكل معكم، أو في وليمة عامة فلا بأس أمّا اتخاذه صاحبًا وصديقًا وجليساً وأكلياً فلا يجوز، لأنّ الله قطع بيننا وبينهم المحبة والموالاتة، فقال الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العظيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني يحبون: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٤)

فالواجب على المسلم البراءة من أهل الشرك وبغضهم في الله، ولكن لا يؤذيهم ولا يضرهم ولا يتعدى عليهم بغير حق، لكن لا يتخذهم أصحابًا ولا أصدقاء، ومتى صادف أن أكل معهم في وليمة عامة أو طعام عارض من غير صحبة ولا ولاية ولا مودة فلا بأس "

٣- النهي عن مشابھتهم والأمر بمخالفتهم:

نهى الشرع الحنيف عن مشابھة الكفار؛ لأنّه يخلق في النفوس ميلاً إليهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٥)

(١) جامع البيان ٢٢ / ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) الممتحنة: ٤.

(٤) المجادلة: ٢٢.

(٥) رواه أبو داود في سننه - كتاب اللباس - باب في لباس الشهرة ٤ / ٤٤، وصححه الألباني في صحيح

قال ابن تيمية: " المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، فالمشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاتة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والموالاتة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين أو كانا متهاجرين، وذلك لأن الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة، بل لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضاً ما لا يألفون غيرهم، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة ^(١)

٤ - الإحسان إلى المحتاج منهم بالصدقة والصلة:

قال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ^(٢) وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قدمت عليّ أمي، وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة، أفصلها؟ قال: «نعم، صليها» ^(٣) وأنزل الله تعالى فيها: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} ^(٤)

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رأى حلة سيرة عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفا إذا قدموا عليك فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة»، ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حلل، فأعطى عمر منها حلة فقال عمر: يا رسول الله كسوتنيها، وقد قلت في حلة عطارده ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أكسكها لتلبسها» فكساها عمر أحاً له مشركاً بمكة ^(٥)

الجامع ٢ / ١٠٥٩.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب صلة المرأة أمها ولها زوج ١٠ / ٤١٣ برقم ٥٩٧٩.

(٤) ينظر: الدر المنثور ٨ / ١٣٠، ١٣١، حيث عزاه لابن المنذر وغيره. والآية سورة الممتحنة: ٨.

(٥) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الجمعة - باب يلبس أحسن ما يجد ٢ / ٣٧٣، ومسلم في صحيحه -

قال النووي: " وفي هذا دليل لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم، وجواز الهدية إلى الكفار" ^(١)، والمشركون بمكة كانوا أهل حرب

ومن الإحسان: الإحسان إلى الحربي الأسير، قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ { إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا } ^(٢)، قال قتادة: " لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم، وإنهم يومئذ لمشركون " ^(٣)، وقال الحسن: " كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية " ^(٤)، وقال الطبري: " هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهراً بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحق " ^(٥)

٥- الواجب على المستأمنين في بلاد المسلمين:

أما الحقوق الواجبة عليهم تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم فأوجزها فيما يأتي:

* مراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم، وأن يراعوا هيبة الدولة الإسلامية التي يستظلون في حمايتها ورعايتها، فلا يجوز لهم سب الإسلام ورسوله وكتابه، ولا أن يروجوا عقائدهم وأفكارهم أو أن ينشروا الفساد بين المسلمين، ولا يجوز لهم أن يشهروا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغيرهما من المحرمات في دين الإسلام، فضلاً عن بيعها والمتاجرة بها، لما في ذلك من إفساد المجتمع الإسلامي

* كما أن عليهم أن لا يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضان ونحو ذلك، مراعاة لمشاعر المسلمين

* كما أن عليهم الالتزام بأنظمة الدولة المسلمة وقوانينها التي تنظمها لأفراد شعبها وتطبقها عليهم، فلا يجوز لهم مخالفتها أو تجاوزها، فإن خالفوا ردعوا وعوقبوا بما يراه ولي أمر المسلمين أو من ينييه ^(٦)

* * * * *

كتاب اللباس - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة إلخ ١٤ / ٣٧، ٣٨.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤ / ٣٩.

(٢) الإنسان: ٨، ٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨ / ٣٧١، وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨ / ٣٧١، وعزاه لابن مردويه وغيره.

(٥) جامع البيان ٢٣ / ٥٤٣، ٥٤٤.

(٦) ينظر: الشرح الكبير ١٠ / ٥٦٧، حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩.

المطلب الخامس:

صوراً من الواقع في هذا العصر بين المسلمين وأهل الكتاب

إباحته ذبائح أهل الكتاب ونكاح نسائهم:

كان رسول الله ﷺ امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّحِذِينَ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) قد أباح لأئمة ذبائح أهل الكتاب دون باقي ملل الكفر، وهذا يعني إذا كان بين المسلمين وأهل الكتاب مبادلة في التجارة، يحصل الاختلاط بينهم، ولا شك أن هذا مدعاة لدخولهم الإسلام وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: أصبت جراباً من شحم يوم خيبر، قال: فالترمت فقلت: لا أعطي أحداً اليوم من هذا شيئاً، فقال: فإذا رسول الله ﷺ مبتسم^(٢)

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث، وفي هذا إباحة أكل طعام الغنيمة في دار الحرب، وقال القاضي: (و أجمع علماء الإسلام على جواز أكل طعام الحربيين ما دام المسلمون في دار الحرب فيأكلون منه قدر حاجتهم، ويجوز بإذن الإمام وبغير إذنه ولم يشترط أحد من العلماء استئذانه إلا الزهري، وجمهورهم على أنه لا يجوز أن يخرج معه شيئاً إلى عمارة دار الإسلام فإن أخرجه لزمه رده إلى المغنم)^(٣)

و كذلك أباح الإسلام مصاهرة أهل الكتاب والتزوج من نسائهم مع ما في الزواج من سكن ومودة ورحمة وهذا يجوز مع الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم كالنساء والضعفة، أما المعتدين فيجب معاداتهم وعدم موالاتهم^(٤)، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) المائدة: ٥.

(٢) انظر فتح الباري الجزء ١٠ - ص ٣٦١ - الحافظ بن حجر - مكتبة الألفية للسنة النبوية - ١٩٩٩ - الإصدار ١/٥.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ ص ١٠٢ (المكتبة الألفية).

(٤) ابن كثير - الجزء الرابع - ص ٣٥٠.

وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١)

قبول الهدية من أهل الكتاب:

لا شك أن قبول الهدية فيه نوع من التقارب، وكلما زاد التقارب بين قوم سهلت دعوتهم وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية من أهل الكتاب ولا يقبلها من غيرهم من المشركين، وهذه خصوصية لهم ربما تدفعهم إلى الدخول في الإسلام

و عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: أهديت للنبي ﷺ ناقة فقال: أسلمت؟ فقلت: لا، فقال النبي ﷺ: «إني نهيت عن زيد المشركين»^(٢)

و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أكيدر دومة وهو من أهل الكتاب أهدى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه علياً فقال: «شققه خمرأً بين الفواطم»^(٣)

وصيته ﷺ على أهل الذمة:

كان النبي ﷺ قد أوصى على أهل الذمة والكتاب، وهدد بالوعيد الشديد على من نقض عهدهم، حتى أنه توعد أصحابه بأن من قتل معاهداً في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حرّم الله عليه الجنة، وهذا من حرصه ﷺ على دعوة أهل الكتاب

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٤)

و كان ﷺ لا يرضى أن يمس أهل الكتاب ظلم ولو كان من أصحابه، سواء كان هذا الظلم اعتداءً على أنفسهم أو أموالهم

عن العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً، فأقبل إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب

(١) الممتحنة: ٨، ٩.

(٢) أخرجه الترمذي - الجزء الرابع - ص ١٤٠ - باب كراهية هدايا المشركين (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٧٧.

(٣) أخرجه مسلم - الجزء الثالث - ص ١٦٤٥ - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء - حديث رقم ٢٥٧١١٥٧٧.

(٤) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١١٥٥ - باب إثم من قتل معاهداً من غير جرم - حديث رقم ٢٥٩٥.

النبي ﷺ وقال: «يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا إلى الصلاة» فاجتمعوا، ثم صلى بهم ثم قام فقال: «أحب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا أني والله وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء وإنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم»

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام لليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى

قد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)

هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: «يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً، أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد آباؤكم من اليهود والنصارى عزيزاً وعيسى، وأطاعوا الأحرار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا»^(٢) هذا خطاب فيه خصوصية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين،

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) صفوة التفاسير - المجلد الأول - دار القرآن الكريم - بيروت - ط ٤ - ص ٢٠٨ - محمد علي الصابوني.

فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين^(١)

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزرارعون ومعناها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)^(٢)

و المعنى أنه إذا آمن له أجران أجر لإيمانه بالرسول السابق، وأجر لإيمانه بمحمد، وإذا لم يؤمن أن عليه إثم الضعفاء والأتباع في مملكته إذا لم يسلموا تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر

وفي دعوته لليهود والنصارى قال: (و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)^(٣)

وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعقها فتزوجها فله أجران»^(٤)

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ له أجران، وكذلك يرى الكتابي أنه له مزية على المشرك حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك أن الإسلام يقدر الأديان السابقة ويرفع من شأنها

* * * * *

(١) أخرجه البخاري - جزء ١ ص ٩ - كتاب بدء الوحي - باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ - حديث رقم (٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ - ص ١٠٩ (المكتبة الألفية).

(٣) أخرجه مسلم - الجزء الأول - ص ١٣٤ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٣٥.

(٤) أخرجه البخاري - الجزء الأول - ص ٤٨ - باب تعليم الرجل أمته وأهله - حديث رقم ٩٧.

الفصل الثاني:

الإرهاب وأثر الإيمان بشريعة الإسلام في علاج هذه الظاهرة:

المبحث الأول:

معنى الإرهاب

لا يوجد مصطلح معاصر اختلف على تعريفه مثل مصطلح الإرهاب، ولقد اطلعت على كثير من التعريفات^(١) فوجدتها غامضة ضبابية وعليها ملحوظات عديدة، (والاصطلاحات لا مشاحة)^(٢) فيها إذا لم تتضمن مفسدة^(٣)

ولولا تفشي هذا المصطلح عالمياً وفرضه علنياً إعلامياً لما استخدمته في هذا البحث، ولهذا فإنني أشيد بدعوة "المجمع الفقهي الإسلامي" برابطة العالم الإسلامي "رجال الفقه والقانون والسياسة في العالم إلى الاتفاق على تعريف محدد للإرهاب تنزل عليه الأحكام والعقوبات، ليتحقق الأمن وتقام موازين العدالة، وتسان الحريات المشروعة للناس جميعاً"^(٤)

وقد قام المجمع بتعريف للإرهاب وهو: العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغياً على الإنسان في دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحراية وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأماكن العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية، أو الطبيعية للخطر فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين

(١) على سبيل المثال: "الإرهاب الدولي" للدكتور محمد عزيز شكري ص(٤٥ - ٧٤). (العنف والسياسة في الوطن العربي، ندوة منتدى الفكر العربي بعمان ص ٢١ - ٣٨. الإرهاب الدولي د. أحمد رفعت ود. صالح الطيار ص ٢٠٧ - ٢٣٠، وعلى الإنترنت في موقع (الإرهاب).

(٢) المشاحة: الضئيلة، والنزاع.

(٣) هذه عبارة ابن القيم في مدارج السالكين (٣ / ٣٠٦).

(٤) بيان صادر عن المجمع الفقهي في دورته السابعة عشرة بمكة المكرمة في (١٩ - ٢١ / ١٠ / ١٤٢٤هـ).

عنها، قال تعالى:

{وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ^(١)

كما أوضح المجمع أن عدم الاتفاق على تعريف محدد للإرهاب اتخذ ذريعة إلى الطعن في أحكام قطعية من أحكام الشريعة الإسلامية، كمشروعية الجهاد والعقوبات البدنية من حدود وتعزيرات وقصاص، كما اتخذ ذريعة لتجريم من يدافع عن دينه وعرضه وأرضه ووطنه ضد الغاصبين والمحتلين والطامعين، وهو حق مشروع في الشرائع الإلهية، والقوانين الدولية

ازداد " هوس الإرهاب " بعد أحداث ١١ سبتمبر، وانطلقت جحافل الأجهزة السياسية والإعلامية والفكرية في الغرب نحو المسلمين وهدم بتهمة الإرهاب من دون كل البشر، والإسلام من دون كل الملل والنحل، ليس هذا فحسب وإنما وُجد من يحاول تأصيل التهمة، بجعل عقيدة الإسلام وشريعته مصدراً للإرهاب، لكي يثبتوا أن الإسلام يربي كائنات بشرية إرهابية، وأن المسلم الحق هو مشروع إرهابي جاهز للقتل، وبهذا يتحقق ترهيب الناس من الإسلام وإبعادهم عنه

إن الغرب يكيل بمكيالين، فحين تُرتكب جريمة نفذها يهودي أو نصراني أو أي ديانة أخرى لا يقال نفذها يهودي أو نصراني، أما حين يكون المنفذ مسلماً فوصف الإرهاب قرين له فيقال: "إرهابي مسلم"

لقد وضعوا الإسلام في قفص الاتهام، وحكموا عليه بدون شهود ولا بينة بالإعدام، وحقاً إن العين لتدمع وإن القلب لينفطر غيظاً وحزناً حين يرى هذا الظلم العالمي والإرهاب العدواني على الإسلام

ويمكن لي أن أخص تعريفات الإرهاب الواردة في المعجمات والقواميس، والمنظمات الدولية، وبعض المفكرين فيما يأتي:

أولاً: تعريفات المعجمات والقواميس للإرهاب:

(١) صدر هذا التعريف من المجمع في دورته السادسة عشرة - بمكة المكرمة. وأعجبني تعريف لمعالي الشيخ د. صالح بن حميد وهو: (الإرهاب هو الإقدام على القتل والتخويف والخطف والتخريب والسلب والترويع بغير سبب مشروع) ذكره في ندوة الإسلام وحوار الحضارات في مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض.

أ - تعرف المعجمات الإرهاب بأنه: ذلك النشاط، أو تلك الوسائل المستخدمة لنشر وبث الرعب^(١)

ب - تعرفه القواميس بأنه: وصف يطلق على كل من يلجأ إلى استخدام العنف لتحقيق أهداف معينة^(٢)

ثانياً: تعريفات المنظمات الدولية:

أ - عرفت قرارات الأمم المتحدة الإرهاب بأنه: تلك الأعمال التي تعرض للخطر أرواحاً بشرية بريئة أو تهدد الحريات الأساسية، أو تنتهك كرامة الإنسان^(٣)

ب - عرفه خبراء الأمم المتحدة بأنه: استراتيجية عنف محرمٌ دولياً، تحفزها بواعث عقيدية (إيديولوجية) تتوخى إحداث الرعب داخل المجتمع لتحقيق الوصول إلى السلطة أو تقويضها^(٤)

ج - عرفه القانون الدولي بأنه: جملة من الأفعال التي حرمتها القوانين الوطنية لمعظم الدول^(٥)

د - عرفته الخارجية الأمريكية بأنه: عنف تولده دوافع سياسية، وينفذ - مع سبق الإصرار - ضد مدنيين لا صلة لهم بالحرب، أو ضد عسكريين عزل من السلاح تقوم به جماعات وطنية، أو عملاء سريون^(٦)

هـ - عرفته الاتفاقية العربية بأنه: كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به، أيا كانت دوافعه أو أغراضه، يقع تنفيذه لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم، أو تعريض حياتهم أو حرياتهم وأمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق أو الأملاك (العامة والخاصة) أو

(١) معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية، مادة (رعب)، ومعجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مادة (رعب).

(٢) انظر: معجم العلوم الاجتماعية، والمعجم الوسيط، والمنجد، والرائد، مادة (رعب).

(٣) انظر: الإرهاب يؤسس دولة للدكتور هيثم الكيلاني ص ١٧.

(٤) انظر: الإرهاب الدولي للدكتور محمد عزيز شكري ص ٤٨.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٥١.

(٦) انظر: الإرهاب والدين في الولايات المتحدة الأمريكية، لجيمس موفاك، مجلة الدبلوماسية، عدد أكتوبر

١٩٩٦م ص ١٥.

احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر^(١)

و - عرفه المجمع الفقهي الإسلامي بأنه: عدوان يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان (دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه) ويشمل صنوف التخويف والأذى، والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحراية وإخافة السبل، وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم، أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأماكن العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية، أو الطبيعية للخطر، فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها^(٢)

ثالثا - عرفه كثير من المفكرين والقانونيين والكتاب بأنه: استخدام عنف منظم بقصد إيجاد حالة من التهديد الموجه ضد الدولة أو الجماعة؛ لتحقيق أغراض سياسية^(٣) وبعضهم يعرفه بأنه: حرب مدمرة تقوم به جماعة سياسية أو عقديّة لها طابع منظم بقصد إحداث حالة من التهديد أو الفوضى؛ لتحقيق السيطرة على المجتمع، أو إسقاط سيطرة الدولة القائمة^(٤)

* * * * *

(١) انظر: المادة الأولى من الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب، جريدة الرياض الصادرة بتاريخ ٢٩ / ١١ / ١٤١٨ هـ العدد (١٠٨١٨).

(٢) كتاب: قرارات المجمع الفقهي الإسلامي ص ٣٥٥، ٣٥٦.

(٣) انظر: الإرهاب السياسي، لعبد الناصر حريز ص ٣٤ - ٣٦، والإرهاب والعنف السياسي، للدكتور أحمد جلال عز الدين ص ٤٩، والإرهاب والشباب لمحمد دعبس ص ٦.

(٤) حقيقة الإرهاب المفاهيم والجذور الدكتور مطيع الله بن دخيل الله الصرهيد الحربي المستشار بإمارة منطقة مكة المكرمة.

المبحث الثاني

أثر الإيمان بالله وشريعته في علاج الإرهاب

جاء الإسلام والبشرية تتخبط في ركاب هائل من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار، والأوهام، والشعائر والتقاليد يختلط فيها الحق بالباطل، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة

والحياة الإنسانية بتأثير هذا الركاب الهائل، تتخبط في فساد وإنحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان^(١)

فجاء الإسلام وكرم الإنسان ورفع به بالإيمان الصحيح، وقوّمه بالمنهج الشرعي الشامل، فعاشت البشرية في ظل الإسلام أرقى حياتها وأسعد قرونها، وها نحن أولاء اليوم نعيش في القرن الخامس عشر الهجري، لكن الغلبة فيه لأهل الباطل، وذلك بسبب بعد المسلمين عن منهج الإيمان الصحيح

والإيمان الصحيح هو منهجنا فنحن أرحم الخلق بالخلق، وأرهبهم للخالق، وهذا إنما هو بفضل عقيدتنا التي هدانا الله لها، فما هي؟

عقيدتنا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره

فؤمن بربوبية الله تعالى؛ أي: بأنه الإله الحق وكل معبود سواه باطل

ونؤمن بأسمائه وصفاته؛ أي: له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا

ونؤمن بوحديته في ذلك؛ أي: بأنه لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢) وشرح أركان الإيمان وذكر أدلتها مما يطول به البحث، ولكن نذكر ثمرات هذا الإيمان الذي لو تحقق لأصلح الفساد الاعتقادي الذي يتخبط فيه العالم والذي من نتائجه الإرهاب العالمي الذي تعاني منه البشرية إن المؤمن حين يتربى على الإيمان الصحيح لا يقع في سلوك العنف أو الإرهاب، وذلك بما تملكه هذه العقيدة من سلطان على الفكر والإرادة، له أكبر الأثر في تهذيب سلوكه وتصرفاته، فتجعله حافظاً لحقوق

(١) خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ص(٢٢).

(٢) مريم: ٦٥.

الله تعالى وحقوق عباده، وسأذكر باختصار بعض ثمرات أركان الإيمان:

فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، والقيام بأمر الله تعالى واجتناب نهيه يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع: {مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^(١)

والإيمان بالملائكة يثمر العلم بعظمة خالقهم، وشكره تعالى على عنايته بعباده، كما أن الإيمان بالملائكة الذين يكتبون أعمال الإنسان له أثره في استقامة السلوك حتى لا تكتب على المؤمن إلا ما هو خير، فيتعد بذلك عن الشر والجريمة

والإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى، وأنها كلام الله ووحيه الذي ينبغي اتباعه، يجعل المؤمن على طاعة والتزام، ويربي فيه ضميره ونفسه اللوامة التي تحمله على الخير وتباعد بينه وبين الشر

والإيمان بالرسول عليهم السلام، وهم القدوة الكاملة من البشر، يحمل المؤمن بهم على محبتهم وتوقيرهم والتأسي بهم في الطاعة والخير والصلاح، والبعد عن كل ما يتنافى مع الإيمان واستقامة السلوك والمنهج

والإيمان باليوم الآخر وما فيه حقائق، إنما هو تربية للشعور الحقيقي بالمسؤولية، وتحقيق للأخلاق الفاضلة المطلقة في سلوكنا وحياتنا، تحقيقاً فعلياً مستمراً، ثابتاً غير متقلب، بلا نفاق ولا رياء وكذلك له أثره في انضباط جميع الدوافع والغرائز والتحكم في هذه القوى الغريزية الجامحة، خوفاً من الله تعالى وطمعاً في جنته

والإيمان بالقدر له أثره في الاعتماد على الله تعالى، وراحة النفس، وطرد الإعجاب بها عند حصول المراد، وطرد القلق والصبر عند فواته، وهو يحمل صاحبه بعد وقوع الأقدار على أخذ العبرة والدرس، والتوبة من الخطأ والذنب

هذه بعض ثمرات أركان الإيمان على سبيل الإشارة لا الحصر ^(٢)، ويمكن القول

(١) النحل: ٩٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص(٧٢) وما بعدها. وعقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ ابن عثيمين، ص ٤٥ - ٤٨. وأثر العقيدة الإسلامية في اختفاء الجريمة ص ١٦٦ - ١٦٧، وغيرها كثير مما كتب عن آثار الإيمان.

بأن الإيمان إجمالاً هو:

أُسُّ الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد، وبُلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضى والقناعة بالأقدار، ونور الأمل في الصدور، وسَكُنُ النفوس إذا أوحشَتْها الحياة، وعزاء القلوب إذا نزل الموت، أو قُرُبَت أيامه، والعروة الوثقى بين الإنسانية ومُثْلِها الكريمة^(١)

إنهم يُلصِقون بالإسلام تهمة الإرهاب ليخوفوا الناس منه وينفروهم عنه، بعد أن رأوا أنه يكتسح القلوب ويُلجم العقول بعقيدته وشريعته، لقد سبق الإسلام جميع القوانين في محاربة الإرهاب، وحماية المجتمعات من شروره، وفي مقدمة ذلك حفظ الإنسان وحماية حياته وعرضه وماله ودينه وعقله من خلال حدود واضحة منع الإسلام من تجاوزها: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ^(٢) وهذا توجيه لعموم البشر

وتحقيقاً لهذا التكريم منع الإسلام بغي الإنسان على أخيه الإنسان وحرّم كل عمل يلحق الظلم به: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} ^(٣)

وشنع على الذين يؤذون الناس في أرجاء الأرض ولم يحدد ذلك في ديار المسلمين: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعُزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} ^(٤)

وفي دين الإسلام توجيه للفرد والجماعة للاعتدال واجتثاث نوازع الجنوح والتطرف، وما يؤدي إليهما من غلو في الدين، لأن في ذلك مهلكة أكيدة: «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» رواه أحمد والنسائي

وعالج الإسلام نوازع الشر المؤدية إلى التخويف والإرهاب والترجيع والقتل بغير حق، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» رواه أبو داود، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه» رواه مسلم

(١) قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص(٤٤٠).

(٢) البقرة: ٢٢٩.

(٣) الأعراف: ٣٣.

(٤) البقرة: ٢٠٥، ٢٠٦.

وقد أوصى الله بمعاملة أهل الذمة بالقسط والعدل فجعل لهم حقوقاً ووضع عليهم واجبات، ومنحهم الأمان في ديار المسلمين، وأوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأ: {وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} (١)

وحرم قتل الذمي الذي يعيش في ديار المسلمين: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة» رواه البخاري وأحمد وابن ماجه

ولم ينه الله المسلمين عن الإحسان لغيرهم وبرهم إذا لم يقاتلوه ويخرجوهم من ديارهم: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (٢)

وأوجب سبحانه وتعالى العدل في التعامل مع أهل الذمة والمستأمنين وغيرهم من غير المسلمين: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (٣)

أنه لمن أظلم الظلم أن توصف شريعة كهذه بالإرهاب، أين مثل هذه التشريعات في التوراة المحرفة، بل وجدنا فيها الحث على القتل والتدمير والظلم! بينما في الإسلام نجد الرحمة والمحبة والسلام تشهد بذلك تعاليم هذا الدين وأحكام شريعته الحنيفية السمحة، وتاريخ المسلمين الصادق النزيه قال تعالى مخاطباً نبيه محمد ﷺ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (٤)، وقال: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (٥) وقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (٦) وقال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» رواه مسلم، وقال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا

(١) النساء: ٩٢.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) الأعراف: ١٩٩.

(٦) التوبة: ١٢٨.

شانه» وقال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»

هذا عدل الإسلام ورحمته ولكنهم صم بكم عمي لا يفقهون!!

فإن قيل: ما يحدث في بلادكم من عمليات إرهابية يخالف هذا

قلنا الجواب: إن هؤلاء شردمة قليلون لا يمثلون الإسلام ولديهم إنحرافات فكرية قادتهم إلى الغلو والتطرف إضافة إلى كونها في غالبها ردود أفعال على ما يحيق بالمسلمين في كل مكان ولا سيما في فلسطين من ظلم عالمي يخلفون فيه ما يدعون من الحريات وحقوق الإنسان وتقرير مصائر الشعوب

ولقد واجه الإسلام حملات الإرهاب قديماً كالخوارج والحركات الباطنية وجيوش الصليبيين وغيرها وسيظل راسخاً أبياً أمام حملات الإرهاب المعاصرة من الداخل والخارج

١ - الإسلام هو دين الله الذي فطر الناس عليه جميعاً، ومن انحرف عنه فقد حاد عن الصراط المستقيم فلا سعادة له ولا أمان إلا بالإسلام

٢ - أن العقائد أو الأديان غريزة أساسية تحل من المجتمعات والدول محل القلب من الجسد، وأن الذي يؤرخ الديانات كأئمة يؤرخ الشعوب وأطوار المدنية

٣ - توجد علاقة طردية بين صفاء العقيدة وتقدم المجتمعات والدول الإسلامية وبالعكس، والتاريخ خير شاهد على ذلك

٤ - أن الإرهاب مصطلح غامض، لم يتفق على تعريفه، وقد كثرت تعريفاته، وأمثلة تعريف المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي

٥ - أن العامل الاعتقادي هو الأهم من عوامل الإرهاب، ولهذا كانت الانحرافات الاعتقادية لها الدور الأكبر في الإرهاب العالمي

٦ - أن الإسلام هو علاج الإرهاب ودواؤه الناجع، بعقيدته المرتكزة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وبشريعته الشمولية الكاملة التي حفظت للإنسان حقوقه مسلماً كان أو غير مسلم

- ٧ - أن الإسلام قد تعرض لحمولات عنيفة من الإرهاب الداخلي والخارجي ولكنه ظل راسخاً، وسيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار
- ٨ - عدم الانصياع لتوجيهات الغرب بطلب تغيير المناهج الإسلامية، لأن تقليص هذه المناهج يزيد من الإرهاب، وتذكيرهم بما في مناهجهم، من التطرف والإرهاب الحقيقي
- ٩ - وجوب التمسك بالعقيدة الإسلامية وعدم التخلي عن ثوابتنا إرضاء لأعدائنا، ونحن نراهم يتمسكون بهذه النبوءات المحرفة ويبنون سياساتهم عليها، ونحن أولى منهم بالتمسك بكتابنا وسنة نبينا محمد ﷺ فالله مولانا ولا مولى لهم^(١)

* * * * *

(١) أثر الانحراف الاعتقادي على الإرهاب العالمي الصهيونية نموذجاً د. سعد بن علي الشهراني عضو هيئة التدريس بقسم العقيدة جامعة أم القرى والمستشار برابطة العالم الإسلامي/بتصرف.

أهم نتائج البحث:

- عناية الإسلام بحفظ الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، ورتب الأحكام المناسبة لها
- غياب العلم الشرعي وتفشي الجهل سبب عظيم لوقوع الفتن وانتشارها، فوجبت العناية بطلب العلم الشرعي من مصادره الأصلية الصحيحة
- عالمية رسالة الإسلام للناس أجمعين، وهذه إحدى خصائص النبي ﷺ، الذي بذل واجتهد في دعوة الناس إلى هذا الدين وتحمل من أجله الأخطار والمتاعب، وكان بذلك قدوة لأُمَّته
- الأصل أن الأمان يعطيه الإمام أو من ينيبه، ويجوز أيضاً إعطاء الأمان من أحاد المسلمين رجالاً ونساء لغيرهم، فيما فيه مصلحة وخير، ولا يتضمن مفسدة أو شراً
- توافرت الأدلة من الكتاب والسنة في بيان حكم الأمان، وبين أهل العلم الغاية المنشودة منه
- لا بد من العلم بالفروق بين الأمان والذمة والهدنة، والتي تدخل تحت مسمى العهد، وما يترتب على ذلك من أحكام شرعية ومصالح مرعية، ومعرفة كلام أهل العلم متقدمهم ومتأخرهم في ذلك
- وجوب العدل مع المعاهدين وعدم جواز التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل لا يجوز ترويعهم وإخافتهم، وقد جاء في السنة الوعيد الشديد لمن قتل معاهدًا أو فجر نفسه من أجل قتلهم وغير ذلك
- وجوب اهتمام المسلمين قادة وعلماء وشعوبًا بالعدل مع المعاهدين والحذر من التعدي عليهم، وصفحات تاريخنا الإسلامي قديمًا وحديثًا شاهدة بذلك، وما يحدث من بعض المسلمين مما هو مخالف للإسلام قليل نادر
- وجوب دعوة هؤلاء المستأمنين إلى الإسلام واستغلال وجودهم في دياره، وذلك بعلم وحكمة تامة وأسلوب مناسب، وحسن تعامل معهم في حدود ما بينه الشرع وألزمنا به

- تحقيق الولاء والبراء مع هؤلاء المستأمنين وغيرهم بلا إفراط أو تفريط، وبلا غلو أو جفاء، بل حسب ما أمر به الكتاب والسنة وما بينه العلماء العارفون من النصوص الشرعية
- جاء في شريعة الإسلام النهي عن مشابهة الكفار عموماً والأمر بمخالفتهم، لأن في التشبه بهم خنوعاً وخضوعاً لهم، وتعلقاً وتمسكاً بما هم عليه من ضلال، كما أنه قائد للتعلق بهم والانسحاق وراءهم في كل شيء
- مقابل الواجبات اللازمة على المسلمين تجاه المستأمنين، فإن الواجب على المستأمنين تجاه المسلمين كثير، ومن ذلك مراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم ومراعاة هيبة الدولة الإسلامية واحترام أنظمتها، كما لا يجوز لهم أيضاً إشهار شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ونحو ذلك
- يجب على المسلمين عموماً والعلماء خصوصاً بيان شريعة الإسلام وأحكامها السامية العادلة مع الناس عموماً ومن ذلك المستأمنين، والرد على المخالفين وبيان وجه الحق والصواب عن طريق الكتاب والمحاضرة والبحث العلمي وغير ذلك
- كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى
- وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)^(١)
- و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم

(١) آل عمران: ٦٤.

الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الإريسين»

● و في دعوته لليهود والنصارى قال: «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ

● إن أسلوبه ﷺ إما ترغيب أو ترهيب، في هذه الآية يتحدى ﷺ نصارى نجران بأن يتركوا كلامهم عن ألوهية عيسى وذلك بالتضرع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذبين، وهذا من حرصه ﷺ أن يدخلوا الإسلام، ولكن النصارى لم يأمنوا عاقبة الملاعة فتركوها ورضوا بالجزية

● رغم أنهم اعتقدوا بصدق النبي ﷺ، لذلك لم يباهلوا بل فروا منه ولم يؤمنوا ويدخلوا في الإسلام

● إن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ولين الجانب معهم أسلوب حكيم من أساليبه ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١)

● و في الآية خطاب للمؤمنين عند مقدمهم قبل واقعة بدر تسليية لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمرأ لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يأتي فرج الله قال ابن أبي حاتم إن أسامة بن زيد قال: (كان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم)

● و في آية قرآنية أخرى يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين

(١) آل عمران: ١٨٦.

بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر أو الفتح قال تعالى في المعنى السابق: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(١)

● و من حلمه ﷺ على أهل الكتاب أنه استلف تمرّاً من يهودي إلى أجل معلوم، فخرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما وضع الميت في قبره قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضيّني تمرّي؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم فهمّ عمر رضي الله عنه بضرب اليهودي، فقال له ﷺ: «يا عمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسن قضاءه» ثم أمره أن يذهب إلى حائط أحد الأشخاص وأن يكيل له بعد رضائه ثم يزيد كذا صاعاً لتعنيف سيدنا عمر إياه فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ، إلا الحلم فقد رأيناه الآن، فشهد شهادة الحق وآمن، ثم مات اليهودي فخرج النبي ﷺ فحمل سريره على عاتقه الأيسر رغم تجاوز هذا اليهودي في سبه ﷺ ثم سب بني عبد المطلب جميعاً، وطلب دينه في وقت غير مناسب، إلا أنه ﷺ كان حليماً بهذا اليهودي، لذلك كان رد الفعل إسلامه الفوري وهذا أسلوب حكيم للرسول ﷺ مع أهل الكتاب لدعوتهم لدخول الإسلام

● النبي محمد ﷺ كانت معجزته الكبرى القرآن، إلا أنه كان يظهر لأهل الكتاب بعض المعجزات التي كانت تتحقق على يديه عليهم يؤمنون به كما آمنوا بأنبيائهم السابقين موسى وعيسى عليهم السلام

● كان النبي ﷺ يبين لأهل الكتاب أن كتابه الذي أنزل عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، فإذا تحقق التوافق حينئذ فإنه رسول من عند الله صدقوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام

● كان رسول الله ﷺ يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تألفاً واستعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ذلك لأنهم إذا رأوه يتعبد بالأحكام

التي يعلمون أنها تشريع سماوي أنزله الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلة والإنجيل، علموا أن مصدر التشريع الذي عندهم والذي عنده واحد هو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ

- لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير، والوعد والوعيد، لذلك أخبر ﷺ أن اليهود تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن العذاب دلالة على عذاب الآخرة وهذا يدل على حرصه لدخولهم الإسلام
- عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «يهود تعذب في قبورها» (١)
- الإسلام دين رحمة وعدل
- المسلمون مأمورون بدعوة غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾
- لا يقبل الله غير الإسلام ديناً قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
- يجب على المسلمين أن يُمكنوا أي كافر من سماع كلام الله قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾
- يفرق المسلمون بين أنواع الكفار في المعاملة، فيسالمون من سالمهم ويحاربون من حاربهم ويجاهدون من وقف عائقاً دون نشر رسالة الإسلام وتحكيمه في الأرض
- موقف المسلمين من غير المسلمين في مسألة الحب والعداوة والخصومة مبني على موقف هؤلاء من الله عز وجل فإن عبدوا الله لا يشركون به شيئاً أحبهم وإن أشركوا بالله وكفروا به وعبدوا معه غيره أو عادوا دينه وكرهوا الحق كرههم بالقلب وجوبا

(١) د/ بشرى محمد أحمد/ مقال من شبكة الإنترنت/منتديات العز الثقافية.

- إن البغض القلبي لا يعني الظلم بأي حال من الأحوال لأن الله قال لنبيه ﷺ فيما يجب عليه من الموقف تجاه أهل الكتاب: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رُبُّنَا وَرُبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾^(١) مع كونه مسلماً وهم على ملة اليهودية والنصرانية
- يعتقد المسلمون بأنه لا يجوز لمسلم بحال من الأحوال أن يظلم غير المسلم المسالم فلا يعتدي عليه ولا يخيفه ولا يرهبه ولا يسرق ماله ولا يختلسه ولا يبخسه حقه ولا يجحد أمانته ولا يمنع أجرته ويؤدي إليه ثمن البضاعة إذا اشتراها منه وربح المشاركة إذا شاركه
- يعتقد المسلمون أنه يجب على المسلم احترام العهد إذا عقده مع طرف غير مسلم فإذا وافق على شروطهم في إذن الدخول إلى بلدهم (الفيزا) وتعهدهم بالالتزام بذلك فلا يجوز له أن يفسد فيها ولا أن يخون ولا أن يسرق ولا أن يقتل ولا أن يرتكب عملاً تخريبياً وهكذا
- يعتقد المسلمون أن غير المسلمين الذين يحاربونهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينون على إخراجهم بأن دماء هؤلاء وأموالهم حلال للمسلمين
- يعتقد المسلمون بأنه يجوز للمسلم أن يحسن إلى غير المسلم المسالم سواء بالمساعدة المالية أو الإطعام عند الجوع أو القرض عند الحاجة أو الشفاعة في الأمور المباحة أو اللين في الكلام ورد التحية وهكذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢)
- لا يمانع المسلمون من التعاون مع غير المسلمين في إحقاق الحق وإبطال الباطل ونصرة المظلوم ورد الأخطار عن البشرية كالتعاون في محاربة التلوث وسلامة البيئة ومحاصرة الأمراض الوبائية ونحو ذلك
- يعتقد المسلمون بأن هناك فرقاً بين المسلم وغير المسلم في أحكام معينة مثل الدية والميراث والزواج والولاية في النكاح ودخول مكة وغيرها كما هو مبين

(١) الشورى: ١٥.

(٢) الممتحنة: ٨.

في كتب الفقه الإسلامي وهذا مبني على أوامر الله ورسوله محمد ﷺ ولا يمكن المساواة بين من آمن بالله وحده لا شريك له وبين من كفر بالله وحده وبين من كفر بالله وأشرك به وأعرض عن دينه الحق

- المسلمون مأمورن بالدعوة إلى الله في جميع البلاد الإسلامية وغيرها وعليهم أن يقوموا بتبليغ دين الله الحق إلى العالمين وبناء المساجد في أنحاء العالم وإرسال الدعاة إلى الأمم غير المسلمة ومخاطبة عظمائها للدخول في دين الله
- ويعتقد المسلمون أن غيرهم من أهل الملل والأديان الأخرى ليسوا على دين صحيح، ولذلك فإن المسلمين لا يسمحون لغيرهم ببيت دعاة أو مبشرين أو بناء كنائس في بلدان المسلمين قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾^(١) فمن ظن أن الإسلام يتساوى مع غيره من الأديان فهو مخطئ خطأ عظيماً وعلماء المسلمين يفتحون الباب للمحاوراة مع غير المسلمين ويتيحون الفرصة للنقاش والسماع من غير المسلمين وعرض الحق عليهم
- وأخيراً فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾^(٣)

* * * * *

(١) السجدة: ١٨.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) آل عمران: ١١٠.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبوات والرسالات وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد أعانني الله على كتابة هذا البحث، ويسّر لي بفضلته ومُنّته وكرمه السبل للوصول إلى خاتمته، فله سبحانه وتعالى الحمد والمنة، وله الشكر من قبل ومن بعد، فهذا الجهد المتواضع حاولت من خلاله إلقاء الضوء على منهج القرآن الكريم في مناظرة أهل الكتاب ومحاورتهم في العهدين المكي والمدني وأثر ذلك في دعوتهم إلى الله

وقد خرجت بالنتائج الآتية:

أولاً: وردت المناظرة في السياق القرآني بلفظ المجادلة والتي هي أحسن، والمحاورة الهادفة القائمة على الدليل الساطع والبرهان القاطع والحجة الدامغة

ثانياً: وردت المناظرة في اللغة بمعنى المجادلة والمحاورة والمحادثة والمراوضة

ثالثاً: هناك انسجام واضح بين مفهوم المناظرة في السياق القرآني والمفهوم اللغوي لها، حيث يعد المعنى القرآني لها جزءاً من المعاني اللغوية

رابعاً: وردت المناظرة في الآيات المكية بلفظ المجادلة وذلك في آية واحدة فقط دعت المؤمنين إلى مجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن

خامساً: يتميز المنهج القرآني في مناظرة أهل الكتاب في العهد المدني بالاعتماد على الدليل الساطع، والحجة الدامغة، والردّ عليهم بأقوالهم وأفعالهم

سادساً: يختلف المنهج القرآني في مناظرة أهل الكتاب في العهد المكي عنه في العهد المدني وذلك يرجع إلى الحالة الأمنية للمسلمين في العهدين، فلم يسمح وضع المؤمنين في العهد المكي لحوارات ساخنة مع أهل الكتاب تبطل حججهم، وتدحض أباطيلهم، أما في العهد المدني فقد سمح تمكين المسلمين واستقرارهم وقوتهم من فتح مثل هذه الحوارات

سابعاً: تعدّ حجج أهل الكتاب حجج واهية ضعيفة، أبطلها القرآن الكريم بالحجة والدليل وردّ عليها وبرهن لهم على ضعفها وبطلانها بأقوالهم وأفعالهم

ثامناً: يعد المنهج الدعوي القائم على أدب المناظرة والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن هو خير سبيل لدعوة أهل الكتاب وغيرهم إلى الله، وظهر ذلك من خلال الآيات المكية والمدنية التي دعت إلى ذلك المنهج في العهدين المكي والمدني

تاسعاً: إن الدين الإسلامي هو الدين المقبول عند الله وإلى قيام الساعة، وذلك بعد نسخ الشرائع كلها، وإن كل ما خالفه من الأديان باطل، وهذه حقيقة يجب أن يصدع بها العلماء في حواراتهم ومناظراتهم ولقاءاتهم مع أهل الكتاب بعيداً عن المدهانات والمجاملات

عاشراً: إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى مدعوون ومأمورون باتباع الرسالة الخاتمة والتزامها عقيدة وديناً ومنهاج حياة، والتنازل عن عقائدهم الباطلة وأوهامهم الزائفة

الحادية عشر: نتعلم من السياق القرآني أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، وعلى هذا درج سلف الأمة، قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل

ولقد ظهر لنا قس من نور الكتاب والسنة فيما يحتاج إليه أهل الإسلام في مواجهة أهل الكتاب فالمعركة قائمة معهم إلى قيام الساعة والبشرية اليوم تتخبط في عمايات لن ينجيها منها إلا الهداية إلى الإسلام وقد جربت نظريات وتصورات للكون والحياة ومناهج مختلفة فلم يزلها ذلك إلا حيرة وضلالاً وبدأ كثير من الناس في الأرض يرمون بأبصارهم نحو الإسلام بعضها ينظر إليه باعتبار أنه العقيدة المؤهلة لتسود العالم أجمع في المرحلة المتبقية من عمر الدنيا والبعض الآخر يراه المنافس الأقوى لدينه ومبادئه فتحمله عقيدته ومصالحه الخاصة على الدس والتشويه والطعن في الإسلام وأهله وافتعال المعارك وتأجيج رحي الحرب على كافة المستويات كما هي عادة أئمة الكفر وتبقى شرائح كبيرة من الناس في العالم تائهة ضالة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أفيترون كلاً مباحاً لدعاة التقريب بين الأديان؟ أم يتركون هنيئاً مريئاً للعصرانيين؟

لقد استجابت أمة الإسلام لنداء القرآن في القرون المفضلة فاهتزَّ العالم والوجود بحركتها حمل أسلافنا في تلك القرون لواء الإسلام بصدق وإخلاص فعمروا الكون

وأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فأضاء نور أمة الإسلام في تاريخ الوجود ثم ترك أقوامٌ منا اللواء في مواطن دون مواطن ومشاهد دون مشاهد وأزمان دون أزمان ورجال دون رجال كان منا الظالم لنفسه وكان منا المقتصد وكان منا السابق بالخيرات ولا زلنا نعتقد ونؤمن أننا "خير أمة أخرجت للناس" وعندنا من الخيرية والاصطفاء على أهل الأرض ما يجعلنا نخرج العالم من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن رق الهوى إلى رحاب عبودية الله ونرفع راية أنوار النبوة وأعلامها لا مشعل النار وحرياته المزعومة!

إنَّ من معالم منهج أهل السنة أنهم يعرفون الحق ويرحمون الخلق ويأمرون بالألفة وينهون عن الفرقة قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى فكيف بالصبر على أذى المؤمنين فيما بينهم؟! قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فَأَمَرَ سبحانه وتعالى بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(١) فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك

على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا فإنَّ الشيطان مُوَكَّلٌ ببني آدم وهو يعرض للجميع ولا يَسْلُمُ أَحَدٌ من مثل هذه الأمور - دع ما سواها - من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور باجتهاد أو غير اجتهاد وإن كان هو الحق"^(٢)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: " وكثيرٌ من هذه الطوائف يغضب على غيره ويرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع معترضا في عينه ويذكرُ تناقضَ أقوال غيره ومخالفتها للمنصوص والمعقول ما يكونُ له من الأقوال في ذلك الباب ما هو من جنس

(١) المائدة: ٨.

(٢) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١ / ٣٨).

تلك الأقوال أو أضعف منها أو أقوى منها والله تعالى يأمر بالعلم والعدل ويذم الجهل والظلم كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(١) (٢)

ولن يصل المسلمون إلى النصر والتمكين إلا بفينتهم للكتاب والسنة بفهم السلف الصالح علما وعملا وكفى بهم تربصا وتلفاً تارة في الشرق وأخرى في الغرب فهم نقاوة العالم فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم وسيظل باب التوبة مفتوحا لا يؤصد إلى أن تطلع الشمس من مغربها

وحسبنا كتاب ربنا وسنة نبينا في هدايتنا لكل خير فإنه ﷺ "لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاء به فرسلاته عموما من محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه؛ فرسلاته كافية شافية لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وفي هذا فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به وقد عرفهم ﷺ من مكاييد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكوامنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة"^(٣)

وبعد فقد ظهر لنا قيس من نور الكتاب والسنة فيما يحتاج إليه أهل الإسلام في مواجهة أهل الكتاب فالمعركة قائمة معهم إلى قيام الساعة والبشرية اليوم تتخبط في عمايات لن ينجيها منها إلا الهداية إلى الإسلام وقد جربت نظريات وتصورات للكون والحياة ومناهج مختلفة فلم يزلها ذلك إلا حيرة وضلالاً وبدأ كثير من الناس في الأرض يرمون بأبصارهم نحو الإسلام بعضها ينظر إليه باعتبار أنه العقيدة المؤهلة لتسود العالم أجمع في المرحلة المتبقية من عمر الدنيا والبعض الآخر يراه المنافس الأقوى لدينه ومبادئه فتحمله عقيدته ومصالحه الخاصة على الدس والتشويه والطعن في الإسلام

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) درء التعارض (٧ / ٤٦٣، ٤٦٤).

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٣٧٥، ٣٧٦) باختصار من كلامه رحمه الله تعالى.

وأهله وافتعال المعارك وتأجيج رحى الحرب على كافة المستويات كما هي عادة أئمة الكفر وتبقى شرائح كبيرة من الناس في العالم تائهة ضالة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أفيتركون كلاً مباحاً لدعاة التقريب بين الأديان؟ أم يتركون هنيئاً مريئاً للعصرانيين؟

إنَّ الواجب في مثل هذه الأزمان على من أعطاه الله هدى وتوفيقاً وعلماً وبصيرة أن يوصل ما خوله الله من نعمته إلى من به إليه حاجة من البشر وحقاً على علماء أمة الإسلام ودعاتها ومتفقيها المخلصين أن يتهيؤوا لقيادة العالم كلِّ وما يستطيع ولا تهولنهم الأراجيف فـ"المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبهم واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين معادية لأعداء الله ورسوله وأعداء عباده المؤمنين وقلوبهم الصادقة وأدعيته الصالحة هي العسكر الذي لا يغلب والجند الذي لا يخذل فإنهم هم الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة"^(١)، السعيد من كان له في ذلك حظ ونصيب و"لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

تم بحمد الله،

* * * * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٦٤٤).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أثر العقيدة الإسلامية في اختفاء الجريمة: د عثمان جمعه طميريه، دار الأندلس الخضراء - جدة ط الأولى ١٤٢١هـ
- أحكام أهل الذمة - محمد بن أبي بكر بن القيم - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠١هـ
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م
- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون الشرح الكبير - عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م
- أصول الحوار: د / صالح بن حميد، بحث منشور في مجلة (لها)
- أصول الحوار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط: ١٤٠٨هـ
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، دار الجيل، بيروت
- إغاثة اللهفان، ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة
- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، ت ح د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، دار العبيكان للطباعة والنشر، ط ١، الرياض، ١٤٠٤هـ
- إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه إعداد/د بدر بن ناصر البدر الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه كلية أصول الدين جامعة الإمام/ المكتبة الشاملة من الإنترنت
- الاستقامة، أبي العباس تقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، ت ح د/ محمد رشاد جامعة الامام
- الإرهاب الدولي: د أحمد محمد رفعت، د صالح الطيار، مركز الدراسات

الأوروبي، ط الأولى ١٩٩٨م

- الإرهاب الدولي دراسة قانونية نافذة: د محمد عزيز شكري، دار العلم للملايين، ط الأولى ١٩٩٢م
- الإرهاب والدين في أمريكا، لجيمس موفاك/ المكتبة الشاملة من الإنترنت
- الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن د محمد عزيز شكري، د أمل يازجي، دار الفكر المعاصر - بيروت - ط الأولى ١٤٢٣هـ
- البداية والنهاية، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط ١ مكتبة المعارف، بيروت
- تفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، الإمام ناصر الدين البيضاوي، (ت ٧٩١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة
- تفسير الشنقيطي / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير سيد طنطاوي / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير الكشاف / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير أبو السعود / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير ابن عاشور / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير الألوسي / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير البغوي / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير الزمخشري / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- تفسير الظلال، سيد قطب رحمه الله
- تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب - دار صادر - بيروت - بدون
- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥م
- - تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، الإمام أبو عبدالله محمد الأنصاري القرطبي، دار التوفيقية للنشر، القاهرة

- تاج اللغة وصحاح العربية - إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م
- تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - دار سويدان - بيروت - الطبعة الثانية
- التفسير الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٣٩٨هـ
- التفسير الكبير للفخر الرازي "مفاتيح الغيب"، الإمام للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان
- التفسير الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٣٩٨هـ
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م
- جريدة الزمان ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١
- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق أحمد البردوني - دار الفكر - بيروت - بدون
- الجامع الصحيح للإمام البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا
- الجامع الصحيح للإمام مسلم ابن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)، ت ح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ
- الجامع الصحيح للترمذي، الإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٨٧هـ)، ت ح أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي
- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: د / محمد أديب البغا، ط: ١٤٠٧هـ دار ابن كثير، دمشق

- حضارة العرب / غوستاف لوبون / السلوك أثره في الدعوة إلى الله، فضل إلهي إدارة ترجمان الإسلام / باكستان ط١، ١٤١٩ هجري
- الحوار من أجل التعايش لعبد العزيز بن عثمان التويجري/ المكتبة الشاملة من الإنترنت
- الحوار مع أهل الكتاب للقاسم / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- الحوار وأدابه وضوابطه للزمزمي / المكتبة الشاملة من الإنترنت
- خدعة هرمجدون: د محمد إسماعيل المقدم، دار بلنسية - الرياض، ط الأولى، ١٤٢٤هـ
- خصائص التصور الإسلامي / سيد قطب/ - دار الفكر - بيروت - بدون
- درء تعارض النقل والعقل، للإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١هـ
- دور التربية الإسلامية في مواجهة الإرهاب، د خالد الظاهري، دار عالم الكتب - الرياض - ١٤٢٣هـ
- الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان: د محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت
- الدعوة إلى الإسلام، تومس أنولد مكتبة النهضة مصر ط٣ / ١٩٧٠ م
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م
- رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار - محمد أمين بن عمر عابدين - دار إحياء التراث العربي - بدون
- "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، المؤلف العلامة الألوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، سنة ١٣٩٩ هـ
- سنن الدارمي، الإمام أبو محمد عبدالله الدارمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ)، دار

الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ

- سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الدار السلفية، الكويت، المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى
- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي
- ٣٢ سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ
- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون
- السيرة النبوية لابن هشام / دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١ / ١٤١٥ هـ
- شمس العرب تسطع على الغرب / تيغريد هومكا، دار صادر بيروت ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ط١٠ / ١٤٢٣ هـ
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، محمد ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢هـ)، ت ح: أحمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض
- شرح الكرمانى لصحيح البخارى / مؤسسة المطبوعات الإسلامية / مكتبة عبد الرحمن محمد القاهرة
- الشرح الكبير - عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م
- صحيح البخاري مع فتح الباري - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الفكر - بيروت - بدون
- صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامى القاهرة ط١٥، ١٤١٨ هـ
- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

- صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة - تحقيق محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بدون
- صحيح مسلم مع شرح النووي - مسلم بن الحجاج النيسابوري - دار الفكر - بيروت - بدون
- صفة الصفوة - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق محمود فاخوري - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
- صفوة التفاسير / ج ١ / دار القرآن الكريم / بيروت / ط ٤ / محمد علي الصابوني
- صحيفة الأهرام عدد ٢٧ / ٨ / ٢٠٠٣ م
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي
- صحيح البخاري مع فتح الباري - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الفكر - بيروت - بدون
- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
- الصحو الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للقرضاوى / المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت
- عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين: محمد آل عمر، مجلة البيان - ط الأولى ١٤٢٤ هـ
- عن الإرهاب: د / عبد الله بن عبد المحسن السلطان، ط: ١٤٢٤ هـ مؤسسة الجريسي، الرياض
- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية: د سعد الدين صالح، مكتبة الصحابة، جده - ط الثانية ١٤١٦ هـ
- فتوح الشام، الواقدي، دار الجيل بيروت، ج ١
- فتح القدير للشوكاني / المكتبة الشاملة من الإنترنت

- فتح الباري لشرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار الإفتاء بالرياض
- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: د أحمد سعد حمدان، دار طيبة، ط الأولى ١٤١ قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر، دار العربية - بيروت
- الفتاوى - علي بن عبد الكافي السبكي - دار الجيل - بيروت - بدون
- كتاب الايمان، محمد بن إسحاق بن محمد بن منده الأصبهاني (ت ٣٩٥هـ)، ت ح د/على الفقيهي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط ١، ١٤٠١هـ
- كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم ابن سلام، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ١٩٨٧ م
- لغة الحوار في القرآن الكريم الدكتور أبو زيد الإدريسي / بتصرف/ مقال/ المكتبة الشاملة من الإنترنت
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار صادر - بيروت - بدون
- الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دراسة مقارنة، د محمد البار، دار القلم دمشق ط الأولى، ١٤١٠هـ
- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط الأولى ١٣٨١هـ
- مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، مكتبة الصفا، القاهرة
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت
- مجلة: (لها) عدد ٣ / ٧ / ١٤٢٤هـ الموافق ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٣م
- مجلة نور الإسلام العدد الأول ربيع الأول ١٤١٨هـ أغسطس ١٩٩٧م
- محاضرة معالي الشيخ صالح بن حميد: "موقف الإسلام من الإرهاب" ضمن ندوة الإسلام وحوار الحضارات - الرياض

- مختصر تفسير ابن كثير، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط ١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٨هـ
- مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله / المكتبة الشاملة - الإنترنت
- معركة الوجود بين القرآن والتلمود للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد
- المكتب الإسلامي، دار صابر للنشر، بيروت
- موجز الأديان في القرآن دكتور عبد الكريم زيدان / المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق ط ١
- مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ
- معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي / إدوارد غالي الذهبي / مكتبة غريب مصر ط ١ / ١٩٩٣ م
- مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري - إعداد عبد الله الرفاعي - دار المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م
- إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه إعداد/ عبد الرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط (دون تاخير) دار المعرفة، بيروت
- هكذا يربي اليهود أطفالهم: د سناء عبد اللطيف، عرض وتلخيص: عبد الله الطنطاوي، دار القلم - دمشق ط الأولى ١٤١٨هـ
- وسطية الإسلام ودعوته للحوار الأستاذ الدكتور عبد الرب نواب الدين أل نواب / المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت
- اليهودية: د أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط العاشرة ١٩٩٢م

الفهرس

٥	المقدمة:
٦	١ - أهمية الموضوع:
٨	٢ - قيمته العلمية
١٥	٣ - سبب اختياره
١٩	٤ - منهج إعداد البحث
٢٧	٥ - أهم الصعوبات:
٢٧	٦ - شكر وتقدير
٢٨	تمهيد
٣٣	الباب الأول
٣٣	أسس مشروعية الحوار وأحكامه في القرآن الكريم
٣٤	الفصل الأول: الحوار والجدل في اللغة والاصطلاح
٣٤	المبحث الأول: مشروعية الحوار
٣٤	المطلب الأول: أولاً: الحوار والجدل في اللغة
٣٥	المطلب الثاني: هدف الحوار
٣٦	المطلب الثالث: صدام الحضارات
٤١	المطلب الرابع: قضايا لا يجوز الحوار فيها
٤٢	المطلب الخامس: مؤهلات المحاور المسلم
٤٧	المبحث الثاني: آداب الحوار
٤٧	المطلب الأول: آداب الحوار وقواعد الاختلاف
٤٨	المطلب الثاني: الأصول والقواعد الرئيسية التي تضبط مسار الحوار
٤٩	المطلب الثالث: آداب الحوار النفسية
٥٣	المطلب الرابع: آداب الحوار العلمية
٥٦	المطلب الخامس: أدب الحوار
٥٩	المبحث الثالث: مجالات الحوار وأصوله وبعض آدابه وعوائقه
٥٩	المطلب الأول: ومن آداب الحوار
٦٣	المطلب الثاني: بعض عوائق الحوار
٦٤	المطلب الثالث: وساطية الإسلام ودعوته إلى الحوار
٦٨	المطلب الرابع: مجالات الحوار
٦٩	المطلب الخامس: دعوة القرآن والسنة إلى الحوار

- المطلب السادس: نماذج من الحوار من القرآن والسنة وسيّر الصحابة رضي الله عنهم ٧١
- الفصل الثاني: أنواع الاختلاف والجدل ٧٦
- المبحث الأول: أنواع الجدل ٧٦
- المطلب الأول: الجدل الممدوح ٧٦
- المطلب الثاني: الجدل المذموم ٧٧
- المطلب الثالث: أولاً - أنواع الاختلاف وأسبابه ٧٩
- المطلب الرابع: الحكمة في الدعوة ٨٥
- المطلب الخامس: الجدل بالتّي هي أحسن ٨٨
- المبحث الثاني: معالم الحكمة في أساليب الدعوة وأخلاق الدعاة ٨٩
- المطلب الأول: من معالم الحكمة في الدعوة ٨٩
- المطلب الثاني: معالم الحكمة في أساليب الدعوة ٩٢
- المطلب الثالث: أخلاق الدعاة ١٠٢
- المطلب الرابع: فضائل لا بد للداعية التحلّي بها ١٠٤
- المطلب الخامس: أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب ١١٨
- المبحث الثالث: العولمة العصرية للدعوة ١٢٠
- المطلب الأول: دعاة التقريب بين الأديان ١٢٠
- المطلب الثاني: دعاة العصرية (العولمة العصرية للدعوة) ١٢١
- المطلب الثالث: التيار الثالث: المتصدون للواقع من الدعاة والمفكرين ١٢٢
- المطلب الرابع: أنواع المجادلين والمحاوّلين من أهل الكتاب: ١٢٣
- المبحث الرابع: مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة ١٢٤
- المطلب الأول: مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة ١٢٤
- المطلب الثاني: غشيانهم في محافلهم ومجتمعاتهم لدعوتهم إلى الإسلام ١٢٦
- المطلب الثالث: الكتابة لملوكهم ورؤسائهم ١٢٦
- المطلب الرابع: التعريف بالإسلام لدى مؤسساتهم واستقبال وفودهم ١٢٧
- الباب الثاني ١٢٩
- تفصيل المنهج القرآني في حوار ومجادلة أهل الكتاب الدروس والعبر شرح تحليلي للآيات ذات العلاقة بالموضوع ١٢٩
- الفصل الأول: في مجال العقيدة ١٣٠
- المبحث الأول: مواقف اليهود وعداوة الملائكة والرسل ١٣٠
- المطلب الأول: مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن ١٣٠
- المطلب الثاني: مواقف اليهود من الرسل والكتب والأنبياء ١٣١

- المطلب الثالث: عبادة العجل عند اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل ١٣٥
- المطلب الرابع: كفر اليهود بالقرآن، ونقضهم العهد واشتغالهم بالسحر ١٤١
- المطلب الخامس: تذكير اليهود بنعم الله عليهم لعلهم يخافوا الآخرة ١٤٦
- المطلب السادس: اتباع ملة إبراهيم عليه السلام: ١٥١
- المطلب السابع: صبغة الله: شريعته وسنته وفطرته ١٥٩
- المطلب الثامن: حكمة تحويل القبلة ١٦٤
- المبحث الثاني: الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه ١٧٠
- المطلب الأول: صفات الله وإنزال الكتب الإلهية ١٧٠
- المطلب الثاني: الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه ١٧٩
- المطلب الثالث: جزاء قتل الأنبياء ١٨٦
- المطلب الرابع: قصة عيسى عليه السلام وولادته وبعثته ومعجزاته ١٩٠
- المطلب الخامس: عيسى عليه السلام مع قومه ٢٠١
- المطلب السادس: دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم ٢٠٥
- المطلب الثامن: إحقاق الحق وإبطال الشرك ٢١٩
- المطلب التاسع: الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف ٢٢٥
- المطلب العاشر: أصناف الكفار ٢٣٢
- المبحث الثالث: مقاصد القرآن ونعم الله على عيسى عليه السلام والتبشير بمحمد ﷺ: ٢٣٥
- المطلب الأول: تحريف الكتب الإلهية، وإهمال الهداية ٢٣٥
- المطلب الثاني: أوصاف المسيح في القرآن ٢٤٥
- المطلب الثالث: مقاصد القرآن والرسالة النبوية ٢٥٤
- المطلب الرابع: التذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السلام ٢٥٨
- المطلب الخامس: مائدة عيسى عليه السلام ٢٦٠
- المطلب السادس: الألوهية والربوبية لله تعالى ٢٧٠
- المطلب السابع: خصائص القرآن والتوراة ٢٧٣
- المطلب الثامن: اتباع ملة إبراهيم عليه السلام ٢٧٧
- المطلب التاسع: تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام ٢٨٥
- المطلب العاشر: ألوان التهديد والعقاب ليني إسرائيل!!! ٢٨٧
- المبحث الخامس: الإسلام دين الحق والتوحيد: ٢٩٧
- المطلب الأول: عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام ٢٩٧
- المطلب الثاني: مقاصد القرآن وشرائعه ٣٠٨
- المطلب الثالث: الإسلام دين الحق ٣١٢

- المطلب الرابع: موقف أهل الكتاب والمشرّكين من نبوة محمد ﷺ ٣١٤
- المطلب الخامس: النهى عن تعدد الألّهة ٣٢٠
- المطلب السادس: وعيد المكذّبين للرسل ٣٢٧
- المطلب السابع: اتباع ملة إبراهيم ٣٢٩
- المطلب الثامن: حقيقة عيسى عليه السلام ٣٣٣
- المطلب التاسع: نسبة الولد إلى الله تعالى ٣٣٨
- المطلب العاشر: عبادة اليهود العجل ٣٤١
- المبحث السادس: عقيدة التوحيد متفق عليها بين النّبوات: ٣٤٧
- المطلب الأول: جزاء المعرضين عن القرآن ٣٤٧
- المطلب الثاني: مساوئ القول بتعدد الألّهة ٣٥١
- المطلب الثالث: عقيدة التوحيد متفق عليها بين النّبوات ٣٥٤
- المطلب الرابع: أدلة توحيد الله تعالى ٣٥٦
- المطلب الخامس: وحدة الأديان السماوية ٣٦٢
- المطلب السادس: نفى اتخاذ الله ولدا ٣٦٩
- المطلب السابع: القرآن والنبوة ٣٧٥
- المطلب الثامن: المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب ٣٨٣
- المطلب التاسع: الإسلام دين الفطرة والتوحيد ٣٨٨
- المطلب العاشر: أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها ٣٩١
- المطلب الحادى عشر: وحدة أصول الشرائع ٤٠١
- المطلب الثانى عشر: بشاره عيسى بالرسول محمد ﷺ ٤١١
- المطلب الثالث عشر: التوحيد والتنزيه لله تعالى ٤١٩
- الفصل الثانى: فى مجال العبادات ٤٢٥
- المبحث الأول: قصة البقرة وتلاعب اليهود بالدين: ٤٢٥
- المطلب الأول: الأمر بذبح البقرة ٤٢٥
- المطلب الثانى: التلاعب بالدين ٤٤٠
- المطلب الثالث: ادعاء النجاة فى الآخرة ٤٤٧
- المطلب الرابع: موالاة غير المؤمنين ٤٥٠
- المبحث الثانى: المحرمات فى شريعتنا وشريعة اليهود ٤٥٩
- المطلب الأول: المقارنه بين المحرمات فى شريعتنا وبين شريعة اليهود ٤٥٩
- الفصل الثالث: فى أحكام المعاملات ٤٦٥
- المبحث الأول: نقض أهل الكتاب الموائيق والعهود وتخريب المساجد: ٤٦٥

المطلب الأول: تناقضات اليهود وأكاذيبهم.....	٤٦٥
المطلب الثاني: مخالفات اليهود ومتناقضاتهم.....	٤٧٠
المطلب الثالث: موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضا.....	٤٧٣
المطلب الرابع: تخريب المساجد وهدمها وآداب الخطاب.....	٤٨١
المطلب الخامس: جزاء كتمان آيات الله.....	٤٩٠
المطلب السادس: موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من إطاعتهم.....	٤٩٣
المطلب السابع: المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتابيات.....	٤٩٦
المطلب الثامن: نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود الدينية.....	٥٠١
المطلب التاسع: العلاقة مع غير المؤمنين.....	٥٠٩
الفصل الرابع: في مجال الأخلاق والآداب.....	٥٢٥
المبحث الأول: علاقة أهل الكتاب برسلمهم وتعنت اليهود:.....	٥٢٥
المطلب الأول: بعض قبائح اليهود وجزاؤهم.....	٥٢٥
المطلب الثاني: مؤمنوا أهل الكتاب.....	٥٢٨
المطلب الثالث: تعنت اليهود.....	٥٣٥
المطلب الرابع: بعض أوصاف اليهود.....	٥٤٧
المطلب الخامس: علاقة أهل الكتاب برسلمهم.....	٥٥٧
المطلب السادس: علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين.....	٥٧٠
المطلب السابع: إفساد الإسرائيليين وتشريدهم في الأرض مرتين.....	٥٧٧
المبحث الثاني:.....	٥٩٠
النبي محمد ﷺ المثل الأعلى في الأخلاق:.....	٥٩٠
المطلب الأول: الأسلوب الأفضل في الجدل.....	٥٩٠
المطلب الثاني: صفات المجادلين بالباطل.....	٥٩٣
المطلب الثالث: مجادلة أهل الكتاب.....	٥٩٧
المطلب الرابع: النبي محمد ﷺ المثل الأعلى في الأخلاق.....	٦٠٦
المطلب الخامس: الفصل في شأن المشركين وأهل الكتاب.....	٦١٠
الفصل الخامس:.....	٦٢١
المنهج والأسلوب القرآني في مجادلة أهل الكتاب.....	٦٢١
المبحث الأول منهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب.....	٦٢١
المبحث الثاني:.....	٦٢٧
أسلوب القرآن في مجادلة أهل الكتاب.....	٦٢٧
الباب الثالث.....	٦٣٣

٦٣٣	الحوار مع أهل الكتاب في العصر الحديث.....
٦٣٤	الفصل الأول: الحوار وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين.....
٦٣٤	المبحث الأول.....
٦٣٤	المطلب الأول: شروط الحوار أو الجدل مع أهل الكتاب.....
٦٣٩	المطلب الثاني: استقامة المسلم وتخلقه بأخلاق الإسلام.....
٦٤١	المطلب الثالث: شروط المحاور الكتابي.....
٦٤٢	المبحث الثاني:.....
٦٤٢	الجدال مع أهل الكتاب بالحسنى وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين:.....
٦٤٢	المطلب الأول: موضوعات الحوار أو الجدل مع أهل الكتاب.....
٦٤٦	المطلب الثاني: محاور أهل الكتاب بين مجافٍ ومغال.....
٦٥٠	المطلب الثالث: سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين.....
٦٥٧	المبحث الثالث.....
٦٥٧	المطلب الأول: سماحة النبي محمد ﷺ في معاملة غير المسلمين.....
٦٦٧	المطلب الثاني: صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين.....
٦٧٢	المطلب الثالث: سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين.....
٦٧٥	المطلب الرابع: مشاركة أهل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية.....
٦٨١	المطلب الخامس: صوراً من الواقع في هذا العصر بين المسلمين وأهل الكتاب.....
٦٨٥	الفصل الثاني:.....
٦٨٥	الإرهاب وأثر الإيمان بشريعة الإسلام في علاج هذه الظاهرة:.....
٦٨٥	المبحث الأول: معنى الإرهاب.....
٦٨٩	المبحث الثاني:.....
٦٨٩	أثر الإيمان بالله وشريعته في علاج الإرهاب.....
٦٩٥	أهم نتائج البحث:.....
٧٠٢	خاتمة الكتاب.....
٧٠٧	المصادر والمراجع.....
٧١٧	الفهرس.....